
حنا مينه
رواية
القطاف

حنا مينه

القطاف

رواية

الجزء الثالث

من «بقايا صور» و «المستنقع»

- ١ -

وصلنا اللاذقية في نحو الساعة الثامنة ليلاً. قالت أمّي وهي تضع يدها على رأسي:

– هنا ولدتَ يا بنيّ!

وقال والدي لسائق الميكروباص، الذي توقّف في ساحة الشيخ ضاهر:

– إلى كنيسة «المارسابا». . . هناك يسكن أخي، وهناك جميعاً.

قال السائق:

– دُلّني على الطريق. . أنا لا أعرف أين تقع هذه الكنيسة. .

قالت أمي مستغربة:

– كيف يا شحود؟ أنت من اللاذقية ولا تعرف الكنيسة؟

قال السائق الذي أصبح نَزِقاً في نهاية الرحلة الطويلة، الصعبة:

– أنا لا أعرف الكنائس ولا الجوامع. .

قالت أمي:

– أنت تمزح!

– وإذا أقسمت لك أني لا أمزح؟. . هذه ساحة الشيخ ضاهر. . تفضّلوا اعتقوني. .

قال الوالد مدارياً الموقف:

– صَلِّ على النبي يا شحود. .

قال شحود:

- اللهم صلِّ وسلم عليه.. قلت لكم لا أعرف كنيسة مارسابا هذه.. دلّوني عليها أو تفضّلوا بالنزول.

قال الوالد:

- على مهلك إذن.. دعني أنزل وأتبيّنَ الطريق..
- لماذا؟ نسيته ما شاء الله؟
- لم أنسه.. ولكن خمسة عشر عاماً يا شحود.. فكّر أنت.. خمسة عشر عاماً لم أدس اللاذقية.. ولا أعرف، في هذا الليل، أولها من آخرها.. دعني أعرف أين نحن.. رأسي دائخ من ضجيج السيارة.

قال شحود:

- قلنا لك إنّنا في ساحة الشيخ ضاهر.. وهذا جامع العجان عن يميننا..
- إذنْ تقدّم قليلاً.. امشِ إلى آخر الساحة، وهناك اسأل.. اختمها بالمسك يا شحود..

- بالمسك أو بالزفت.. أبو الذي علّمني هذه الصنعة.. من الصبح وأنا أتعذب..

قالت أمي:

- الحقّ معك يا شحود.. كانت رحلة صعبة.. الله يجازي الذي كان السبب.. الله يجازي تركيا التي هجّرتنا.. انزل يا سالم.. انزل واسأل المارّة..

نزل والدي وهو ينفض إليه شرواله.. كان طربوشهُ قد ارتكز على قمة رأسه كيفما اتفق، وكانت شرابته من أمام، ورجلاه، كما قال، قد تيبّستا، والستّ غندف، الجالسة قرب باب السيارة، سدّته بجسمها الملحم، وفاض وركها عن المقعد، وهي منصرفة إلى إتمام زينتها، تبصق على قطعة طربوش بيدها، وتدعكها على وجنتها بدل الحمرة.. ووالدي الذي يبحث عن سبب للانفجار، يصيح بها قائلاً:

ـ مؤخّرتك من الطريق.. العمى! نحن أين وأنت أين؟.. أنت بحاجة إلى سيارة وحدك..

قالت الستّ غندف وهي ماضية في التدليك:

ـ لا تزفّر كلامك يا مصري.. وصلنا والحمد لله.. الآن سنفترق.. لن ترى وجهي بعد اليوم..

صاح والدي:

ـ بالناقص.. ولك انقلعي.. دعيني أمرق فقط.. قومي من الباب..

تزحزحت الستّ غندف، شدّت جسمها إلى أمام، باتجاه الداخل، وهي تقول:

ـ على مهلك.. لا تَدْفر بي من وراء..

قال والدي وهو يمرق:

ـ أعوذ بالله.. أنت مرة أنت..؟ لياخذك الشيطان.. الحق عليّ أنني جئت بك معي..

قالت الستّ غندف ورأسها محشور بخلفية مقعد السائق:

ـ بفلوسي يا مصري.. سمعت؟

فصاحت بها أمي:

ـ انكتمي.. اخرسي.. دعينا نصل بسلام..

خرست الستّ غندف، ولملم والدي شرواله وراءه ونزل، بينا الذين في السيارة يضحكون، وقد وضعوا أكفّهم على أفواههم حتى لا يتعالى الضحك، وشحود أسند رأسه على مقود سيارته في حالة احتجاج وحرد، ورائحة الأجسام المحشورة في السيارة تفوح، وتحت السقف الواطىء، للسيارة العتيقة، الخربة تتدافع الرؤوس باتجاه النوافذ، طلباً للنسمة من حرّ تموز ولزوجته.

كنت أجلس بجوار أمي. عائلتنا تتألف من الوالدين، وثلاث أخوات وصهر، ومني، ومعنا في السيارة الست غندف ووالدها، ورجل آخر

وزوجته، ومعهما طفل رضيع، وشابّان فتيان وبنتان، وصاحب السيّارة الذي هو معاون السائق في الوقت نفسه، وفي السيارة تسعة مقاعد، وهي تحمل على الظهر أغراض كل هؤلاء الركاب، وتمتلىء، في الداخل، بأصناف من السلل والصرر والسطول والطناجر والدجاج والأشياء البيتية، وفوقها هموم هجرة بدأت ولا يعرف أحد كيف تنتهي.

كنت قد قلت لأمي، في الصباح، ونحن نغلق الباب خلفنا:

- لا أريد الهجرة.. اذهبوا واتركوني..
- كيف؟ نحن نهاجر لأجلك يا عيون أمك.. الخوف من الأتراك، عليك وعلى أخواتك..
- وعليك وعلى والدي..؟
- لا.. أنا ووالدك عجوزان.. الأتراك لا يحتاجون إلى العجائز..
- ولماذا تخافين عليّ؟
- آه ماذا أقول يا بنيّ..؟ الأتراك لا يرحمون... كنّا في مرسين ونعرف..
- هذه اسكندرونة.. بلدنا.. وطننا..
- لم يعد لنا وطن.. أخذه الأتراك.. الناس يهاجرون.. يتركون كل شيء وينجون بأنفسهم.
- أنا لا أريد أن أترك بيتنا..
- وماذا تفعل به؟ ليذهب البيت إلى الشيطان.. يتهدم.. ينعب فيه البوم.. فقط ننجو بأنفسنا نحن أيضاً.
- وما هو الخطر الذي يتهدّدنا؟ هذا الذعر كلّه أثاره الأرمن.
- الأرمن معذورون.. «من لم يذق الطفرايه لا يعرف شو الحكاية» هم ذاقوها يا كبداه.. ذبحوا منهم في كيليكيا وحدها مئة ألف.
- ليذبحوني.. لا أريد الهجرة.. كيف نذهب ونتشرّد؟
- لكنك عاقل بما يكفي كي لا تعذّبني.. قلت لك الخوف عليك أنت لا

علينا.. تريد أن يسبي الأتراك أخواتك؟.

لم أجب، خيّل إليها أنها أفحمتني.. كانت تعرف أن هذا هو الوتر الحسّاس بالنسبة إلي.. لقد تحمّلت العائلة ما يكفي من الألم في سبيل أخواتي، وكنت الحامل الأكبر لهمومها.. ولأمر ما، كانوا يقولون «الأرض والعرض» هذه التميمة التي هي حجّة المهاجرين، والتي، في مستوى عقليّة الناس، ستظلّ الحجّة الكبرى، ما دام العرض مبعث غيرة مجنونة.. ثم إنه، بالنسبة إليّ، أنا الذي يغار من النسيم، كان مبعث غيرة مَرضية، ولأجله وافقت على الهجرة، وركبت السيارة مع العائلة، تاركاً للدموع أن تسيل في قلبي لا على وجنتيّ.

كنت صغيراً، نلت الشهادة الابتدائية عام ١٩٣٦، وعملت في المرفأ، وأجيراً في دكان لتأجير الدراجات، ثم أجيراً في دكان حلاق، وكتبت رسالة إلى ابن عمي في اللاذقية، قبل الهجرة بشهرين، أسأله ما إذا كنت أجد عملاً لو هاجرت، فاحتار في الجواب، وحسم الأمر بأن اهمله، لذلك كنت الوحيد في السيارة، تقريباً، الذي يرى الشمس صفراء على جوانب الطريق، والسماء، على زرقتها، خرساء، وكل ما يحيط بي، وما تطالعه عيناي من النافذة، حزيناً حزناً صدئاً يسمّم أحشائي. كانوا يستعجلون الوصول، وكنت، في ذاتي، أنطوي على أمنية خائبة في ألا نصل. صحيح أننا غادرنا البيت، والمدينة، وحدود اللواء، لكن السيارة كانت كالسفارة، أرضاً محايدة. إنها عالم قائم بذاته، لا هو من اسكندرونة ولا من اللاذقية، بل نقطة معلقة في فراغ، ما دمت فيها فأنا في وطن، أرض، بيت، وحين سأغادرها، أكون قد قطعت مع تلك الأشياء الحبيبة، الأليفة. أكون واجهت الغربة، وذقت مرارة الحقيقة التي تنطوي عليها حتى قبل أن أجرّبها.

لماذا، يا رب، كتبت عليّ أن أبقى في هجرة موصولة؟ من اللاذقية إلى السويدية، ومنها إلى الأكبر، وقره أغاج، واسكندرونة، وفي كل مدينة أو قرية، نقضي سنوات، ثم يحملنا الوالد، كالزوّادة الفارغة، في عنقه،

ويمشي، وعلى جوانب الطرق، في التيه الكبير، تتشرد العائلة. يضيع أفرادها. كذلك ضاعت أختي البكر، ومات صبيان وبنت، وصارت الأم إلى الخدمة في بيوت الناس، وتبعتها أختاي، وارتحل الوالد خائباً، وأقام خائباً أيضاً، فكان الخيبة نجمه الذي لا يريد أن يغور، حتى عرفنا، من جرّاء ذلك، الفقر، والمرض، والجوع، والذلّ. وحمدت الله، بعد كل شيء، أن صار لنا بيت في اسكندرونة، بسقف من القرميد الأحمر، عرضناه للبيع، في أيام الهجرة تلك، فلم يتقدم أحد لشرائه، ورفض البقال يونس نفسه أن يشتريه، ولو بأربع ليرات ورقية، فعمدنا، انتقاماً، إلى تكسير قرميده، ليلاً، وإلى تخريب حيطانه، كالفرقة العسكرية المنسحبة، والتي يعز عليها، وهي تتراجع على أرض وطنها، أن تنسف جسراً أو محطة أو مصنعاً، بذل مواطنوها جهوداً مضنية في بنائها.

أنا الطفل، ابن المدرسة، حامل الشهادة الابتدائية، أجير الحلاق، كسرت بيديّ الاثنتين قرميد بيتنا. وبالفأس خربت الجدران، وقطعت التينة، كي لا أترك الأشياء للأعداء من بعدنا. كنت كمن يقطع قلبه، وكمن يخرب دورته الدموية، وعانيت، في ذلك الامتحان الرهيب، معاناة راهب يهدم ديره، ويعرف أن عليه، بعد ذلك، أن يهيم على وجهه، لا دير، لا سكن، لا استقرار، بل روح هائمة، نائحة، كالريح المولولة في الخريف، يهدّه التعب، ويرغب، كل خطوة، أن يتهاوى على الأرض، ويغوص فيها، رحماً جاء منها وعاد إليها، صدراً حنوناً دفع به إلى الوجود، وها هو يستردّه.

أتساءل الآن، هل يفكر الطفل قبل أوان التفكير؟ هل يحزن وهو في سنّ الفرح؟ وما ذلك الابهاظ الذي يصيب القلب، فيكون منه على الوجه أسى، وجوم، وكآبة تنقط من الأصابع دون أن يراها الآخرون؟ لقد كنت، طوال الرحلة، من اسكندرونة إلى أنطاكية، ومنها إلى «الأوردو» فكسب فاللاذقية، حزيناً، مهموماً، مفكراً بالمستقبل الذي يتبدّى جداراً أسود، لا ثغرة فيه للضوء، تماماً كما كان هذا المستقبل، الملىء بكل ضروب

الزواحف، يشدّ بالأرجل إلى تحت، والصلصال يرتفع إلى أعلى، ونحن نتخبط عبثاً في محاولة للثبات أو الخلاص.

توقّفنا في مدخل السوق التي تتفرع من الشيخ ضاهر، باتجاه ساحة النصارى. لم يكن والدي يعرف اسم هذا الشارع، ولم يكن للشارع اسم، بل امتداد سوقي أشار لنا إليه رجل استوقفه الوالد، وقال بلهجة لاذقانية وجدتها، لأول وهلة، عوجاء ممطوطة:

– من هنا دوغري.. في خطّ مستقيم، وبعد اجتياز نقطة البوليس، أمضوا إلى أمام تجدوا كنيسة مار سابا على اليسار.

لكن رجلاً آخر كان معه، أضاف باللهجة الممطوطة نفسها:

– لا يا ابن السما.. بعد نقطة البوليس اسألوا.. لا تمضوا بعيداً..

فانتهره الأول:

– شف هذه الآلة المزفتة.. رح يا عمي كما قلت لك..

رحنا كما قال لنا. شققنا طريقنا في السوق، فوجدت، لأول مرة، هذه الخاصية لأسواق اللاذقية، أن الناس يتركون الأرصفة ويمشون في عرض الطريق. وكان السائق شحود لا يرفع يده عن الزمور، لكن المارّة لا ترفّ جفونهم لهدير السيارة، ولا يفسحون المجال، والميكروباص القديم، المترنّح، يشق طريقه بصعوبة، ويكاد، من أمام وعلى الجانبين، يمسّ أكتاف الناس، وهم يصيحون به:

– على مهلك!

وشحود الذي تصاعد نزقه، يشتم ويزمّر، وينتهرهم صائحاً:

– أبوكم وأبو مهلكم.. روحوا من الطريق يا بجم!

بينما الستّ غندف، وقد عرفت بقرب الوصول، تزيد من تبليل قطعة الطربوش، وتدليك وجهها الممعّج، والوالدة تقول:

– انتبه يا سالم.. قالوا الكنيسة على اليسار..

والوالد يوجه السائق بكلمة تتكرّر ذاتها:

ـ لقدّام، لقدّام يا شحود. .

وأنا أسأل الله في سرّي، أن تكون المسافة الباقية طويلة، أو أن تطول إلى ما لا نهاية، كيلا نفارق الأتوبيس، ولا تبدأ الغربة التي أحسّها ألماً في أحشائي، وذعراً في نفسي.

فجأة، سمعت الوالد يصيح:

ـ ستوب!

توقفت السيارة برجّة قويّة، وإذا الكنيسة على اليسار: لقد وصلنا. زمّر شحود عدة مرات، لا لسبب معلوم، بل ربما فرحاً بالخلاص أو رغبة في تنبيه الذين يسكنون قرب الكنيسة كي يبادروا إلى استقبال هذه «الشحنة» الآدمية، ويساعدوا في تنزيل الحمل عن ظهر الأتوبيس، وفي تفريغ محتوياته العجيبة من الداخل.

دخل والدي باباً يطلّ على الشارع، كانت الإنارة ضعيفة، وبالكاد ميّزت كنيسة أخرى تقوم عن يمين الشارع، هي كنيسة الموارنة. لم تكن السماء، رغم ليلة الصيف، ضاحكة. خيل إليّ أنها ترصد ما على الأرض بحيدة باردة، وأن نورها أصفر كأنها مسلولة. وصفّرت باخرة في مكان ما قريب، فأدركت أننا لا نبعد عن البحر. كان ثمة شارع يمضي في التواء نصف دائري إلى أمام، وآخر يتّجه نزولاً، من أمام كنيسة الموارنة، هابطاً إلى هيث ترسو الباخرة وتصفر. وانفتح الباب المطلّ على الشارع وبدت عليه امرأة عمّي مرحّبة:

قال والدي:

ـ نحن ثلاث عائلات. . معنا فرشاتنا. . نستطيع أن نفردها وننام، فإذا كان الصباح تدبّرت كل عائلة مكان إقامتها.

ـ أهلاً وسهلاً، الدنيا صيف، والحديقة واسعة. . ادخلوا كلكم.

دخلنا. .

كنا سندخل بغير دعوة. ليس لنا، في هذا الليل، من مكان آخر.

وكانت السيارة قد أنزلت، وأفرغت، حمولتها على الرصيف. الركاب بقوا واقفين، بانتظار إشارة الوالد للدخول، والأغراض تراكمت عند قدم الجدار، وفوق الرصيف. السيارة التي جمعت حبالها في ربطة، هدرت ومضت، وعندئذ أحسست أن غربتنا قد بدأت، وأن عليّ أن أتقبّل الواقع، وأحمل، كغيري، بعضاً من العفش، أنقله، إلى الداخل، وأركمه حيث يراكم الآخرون ما يحملون.

لم تكن معنا أسرّة، أو مقاعد، أو أية قطعة أثاث خشبية أو معدنية. الفرش فقط، وبعض الصناديق الصغيرة، وصرر كثيرة، وطربوش الوالد، ومنديل الوالدة، وأنا في بنطال قصير، أسود، خاطته لي أمي، مع قميص قصير الأكمام، يشكّلان معاً لباس العيد اليتيم. وكانت أخواتي يلبسن فساتين شيت، فاتحة، معرّقة، والست غندف فستاناً بقبّة كرسي وأذيال واسعة، وابنها الذي يتألّف كلّه من مؤخّرة، يرتدي بنطالاً أصفر، وليس ثمة ألوان فاقعة، لأن الوالد، قبل بدء الرحلة، أوصى بالحشمة، فتقيّد الجميع بما طلب، ولم يكن قوس اختيارهم واسعاً، إضافة إلى أنهم لبسوا أجود ما عندهم.

عبرت الباب الخارجيّ حاملاً فراشاً على كتفي. كان الممرّ طويلاً، ينفتح بعد عدة أمتار عن فسحة فيها أشجار زنزلخت متفرقة، وقبور رخامية بيضاء، وفيها بيتان، في زاويتين متقابلتين، متباعدتين، بينهما بضع أشجار من التين وحديقة. كانت وحشة المقبرة ترتسم على القبور، الرخام، الأشجار، والجدار الدائري، الذي يفصل بين الكنيسة والمقبرة، ويفصل بينها وبين حدائق مجاورة فيها بيوت واطئة، من طابق أو طابقين. كنت أمشي في الدرب غير المعبّد بين القبور، تأخذني حيرة في أمر حملي، وأين ألقي به، وأين يمكن أن «يعسكر» هذا «الفصيل» المهاجر الذي كُتب عليه، في أول ليلة ينامها خارج بيته، أن يلقي عصا الترحال في مقبرة تُنبت، مهما كانت قديمة، أشباحاً غير مرئيّة، أشباحاً تقول لك إننا جيران، نحن الراقدين في المسيح، كما تقول أمي، وأنتم الذين سترقدون على اسم

المسيح، بفعل هجرة فرضها عليكم تآمرٌ بين غرباء.

انتهى نقل الأمتعة إلى داخل المقبرة. بذلنا جميعاً جهوداً طيبة، وجلست النساء يتسامرن، يتساءلن عن الأحوال، والظروف، والهجرة. وتمدّد الشابّ الذي كلّه مؤخرة على رخام قبر، كأنه يستلقي على فراش وثير، وأخرج الجميع ما تبقّى من زوّاداتهم لطعام العشاء، فوق ما أخرجت امرأة عمي من حواضر البيت، ونادتني أمي للعشاء فرفضت. كنت بغير شهيّة. امتزجت، الآن، كآبتي الشخصية بكآبة المقبرة، وخيل إلي أن القبور قيمنة، في كل لحظة، أن تنشقّ ويخرج الموتى، بأكفانهم، أشباحاً بيضاً، في أيديهم جماجم، وفي أفواههم زمامير، ومن عيونهم الوقبية يطلّ ظلام كهوف حجرية مات سكّانها من مئات القرون.

كان والدي ينتظر أخاه الذي لم يَرَه منذ أربعة عشر عاماً، وكانت امرأة عمي، القويّة بما يكفي لمجابهة كتيبة، تغتصب الترحاب بنا اغتصاباً. لقد توقّعت، منذ بدأت الهجرة من اللواء، أن نأتيها مهاجرين، لكنها لم تتوقع أبداً أن نأتيها ومعنا هذا الجمع المتنافر أزياء وسمات. كانت تمزح مع والدي على طريقتها:

– وبعد، يا مصري، لقد عدت..

– والعود أحمد كما يقولون.. لكننا عدنا مرغمين.. الهجرة يا امرأة أخي.

– وماذا فيها يا مصري؟.. أنت مهاجر أبداً.. كم بلداً عرفت منذ غادرتنا؟

قالت أمي:

– لا تسأليني يا سلفتي.. سالم لا تلصق مؤخرته بأرض.. خلق لكي يرحل..

– ولكن ما ذنبكم أنتم؟

– اسأليه..

– هذا ما أراده الله..

قالت أمي:

ــ سبحانه وتعالى. . أنت لا تعرف سوى أن تلقي المسؤولية عليه. .

نرفز والدي:

ــ ولكن على من نلقيها إذن؟ قولي أنت. . أليس كل شيء بإرادته؟

ــ الله لا يريد الشقاء لعباده. .

ــ المسيح قال: لا تسقط شعرة من أجسادكم إلّا بإذني. .

ــ دع المسيح جانباً. .

ــ لماذا؟ لأنني أقول الحقيقة؟

قالت الست غندف:

ــ أنت دائماً تقول الحقيقة، ودائماً تنساها.

عندئذ واتت الفرصة ليتحرّش الوالد بها. كان يناكدها، يكرهها، أو يخيّل لوالدتي ذلك. وكانت تنهاه عن كرهها. ماذا فعلت المسكينة؟ فيجيبها الوالد: «سكّين برقبتها هذه البقرة التي ينام طفل في صدرها». تجيب والدتي: «عيب يا سالم. . كلنا مخلوقات الله. . من عيّر غيره بشكله فكأنه يعيّر الله في خلقه. . أليس هو، تمجّد اسمه، مَنْ خلقها على هذا الشكل؟».

لكن الست غندف، بين دهشة أمي ولعنتها، كانت ما تفتأ تتحرش بوالدي كيفما تحرّك. . يشتمها، يضربها، يطردها، وهي مقبلة عليه، لاصقة به، كأنما تستعذب كرهه، أو تراه على وجه يغيب عن الوالدة، ولأمر ما، لعلّها مؤخرتها المترجرجة، كنت أمقتها، إضافة إلى أنها ضاحكة أبداً، دون سبب، تمازح الآخرين بغير مبالاة، وتتصابى أمام الوالد.

مرة واحدة أبصرتها من النافذة تجلس على الخوان في بيتنا، وتكشف عن فخذها قائلة لأمي: «أليس حراماً ألا يمسّه رجل منذ وفاة المرحوم؟» وقالت أمي مازحة بدورها: «انقبري. . صرت عجوزاً وعينك رفيعة، ألا تشبعين من الرجال؟» فقالت وضحكتها تملأ وجهها الطفح: «الموز، يا أختي، فاكهة لا يشبع منها»، وغمزت بعينها غمزة معبرة أثارت اشمئزازي.

لذلك قال والدي الآن، في رمز لم يفهمه أحد سواه:

ـ انتبهي، قد يزورك الليلة عفريت..

قالت الست غندف:

ـ العفريت لا شغل له في المقابر..

ـ بالعكس، العفريت هو الذي يسكن المقابر..

قالت إمرأة عمي:

ـ عدم المؤاخذة.. أنزلناكم بين القبور لأن بيتنا..

قاطعتها والدتي:

ـ وأين تذهبين بهذا العدد؟ لا عليك.. المقبرة بيتنا الأخير.

قال الوالد:

ـ الأول أو الأخير، لا فرق.. المهمّ أن نعيش..

قالت غندف:

ـ وأن نسكر..

ـ السكر له وقته.. بعد التعب، بعد السفر.. إذا وُجد السمك..

ـ وإذا لم يوجد أيضاً..

صاح بها الوالد:

ـ كيف إذا لم يوجد؟ تهزئين بي؟

ـ معاذ الله.. أنت تشرب على فجلة..

قالت الوالدة:

ـ على حبّة ملح..

استعاذ الوالد بالله. كانت قولة الوالدة هي التي أثارته أكثر. غندف لها حساب. هي فاجرة لكنها تخافه. أما الوالدة فإنها تهتبل أية فرصة للغمز منه. ماذا تريد؟ بعد هذا العمر كلّه؟ تريد أن تخلقه من جديد؟ إنه يسكر، يسكر على سنّ الرمح، وماذا في السكر؟ لولا «الدمعة» يقول، لمات همّاً، لا يزيل الهمّ سوى الشراب. متى تفهم زوجته هذه الحكمة؟ المسيح نفسه قال: «قليل من الخمر يفرّح قلب الإنسان» ألا تؤمنين إذن بالمسيح؟ وتقول

الوالدة: تمجّد اسمه. . هو قال إن قليلاً من الخمر لا يخالف الدّين. . أما السكر؟ أنت تسكر حتى تفقد الوعي، حتى تنطرح أرضاً. .» وسمعتها مرة تقول له: «أنت تسكر حتى تبول في شروالك» وعندئذ صفعها. . رنّت الصفعة على خدّها رنيناً موجعاً. أحسست بها صفعةً على خدّي، على كبدي، ووقفت في وجهه صارخاً: «لماذا تضربها؟» قال ميّالاً إلى التهدئة: «أما سمعت ما قالت؟» وزعقت الوالدة وهي تبكي: «قلت الصحيح. . أنت تشرب حتى تبول في شروالك. . مئة مرة فعلت هذا» فنهض الوالد ومضى وهو يتمتم: «أعوذ بالله من شرّ حوّاء» ثم ملتفتاً إليها: «سأسكر. . سأبول في شروالي. . هذا أنا. . عجبك وإلا لا؟».

لم يعجب الوالدة، لكنها كانت مضطرة إلى السكوت. . سكتت. . دعت عليه في سرّها. . والتوى حنكي من الحنق، لكنني لم أستطع شيئاً. . أضرب والدي؟ أكثر الأحلام إيلاماً هي الأحلام التي أرى فيها نفسي وأنا أتضارب معه. . إنه يَعِدُ بالإقلاع عن السكر، لكنه لا يفي بالوعد. إدمانه يغلبه، والعمر يمضي، كما تقول الوالدة، ولا فائدة من إثارة الفضائح. .

هذه المرّة، أمام امرأة عمي، رغب الوالدان عن الشجار. استعاذ الوالد بالله وسكت، ولاذت الوالدة بالصمت، وأدركت إمرأة عمي ما عليها أن تفعل، دخلت المطبخ، خرجت بزجاجة عرق، وجاءت بالكؤوس قائلة:

ـ يا الله يا مصري. . خذ لك كأساً ولا تؤاخذني. . كان عليّ، منذ أحضرت الطعام، أن أفكّر. . اللعنة على النسيان. .

قال الوالد في دلال كذوب:

ـ اللعنة على العرق. . لن أشرب. .

ـ أكسر الشرّ. . بعد هذه الرحلة وهذا التعب. . أنا أيضاً سأشرب كأساً صغيرة معك. .

قالت غندف وهي تمدّ يدها إلى الزجاجة:

ـ معك حق يا أختي. . الكأس تحلو ولو كنا في مقبرة. . ساصب كأساً

مثلك.. العرق يفتح الشهيّة.

قال الوالد وقد تراخى:

ـ تشربين سماً.. تأكلين مثل بقرة، وتريدين فتح شهيّتك أيضاً؟

ضحكت الستّ غندف وقالت:

ـ شهيّتي للطعام مثل شهيّتك للعرق.. نحن من طينة واحدة..

في هذه اللحظة أطلّ عمّي من المدخل.. كان يصيح وهو يتقدّم نحونا:

ـ أهلاً، أهلاً.. زمان يا أحبّائي.. زمان والله..

نهضنا جميعاً، والدي الذي لم ير شقيقه منذ أربعة عشر عاماً، أمي التي تكنّ مودّة خاصة للعمّ، الذين حضروا معنا ونزلوا ضيوفاً في المقبرة إلى أن يطلع الضوء، زوجه وأولاده، وأقبل العمّ يعانق الوالد وهو يبكي:

ـ يا كافر.. ألا تقول إن لك أخاً؟.. أربعة عشر عاماً ولا تزورني.. لولا الهجرة..

عانقه، غمره بين ذراعيه، قبّله كثيراً، قبّل الوالدة ولما جاء دوري صاح:

ـ أهذا هو ابنكم؟

وقالت الوالدة:

ـ إنه وحيدنا.. شمعة من الله.. كل شبر بنذر يا سلفي.

ـ ما شاء الله، ما شاء الله.. صار شابّاً.. ولكن لماذا هو نحيل إلى هذه الدرجة؟

أخذني عمي في حضنه، كان مشتاقاً حقاً وأخذني في حضنه. كان يبعدني عنه قليلاً، ويتفرّس فيّ، ثم يدنيني منه، يشدّني إلى صدره، وهو يهتف من العجب:

ـ ماذا صنعتم للولد..؟ وجهه مثل بروة الصابون.. الخاتم يدخل في خصره.. كيف ذلك وهو في سن الشباب.. غير معقول.. أكاد لا أصدّق عينيّ..

قالت أمي :

ــ هذا حظّنا . . بعد ثلاث بنات جاء . . بعده ولدت خمسة أولاد ولم يسلم منهم أحد . . وحيد يا سلفي . . هذه قسمة الوحيد . .

قال عمي :

ــ ولكنه بالغ النحف . . كأنه يأكل مال الدير . . يجب أن يتغذّى . . لا بدّ أن نعرضه على طبيب . .

ــ أنا داخلة عليك . . كلما رأيته غاص قلبي في صدري . . أخاف عليه . . خوفي عليه يكاد يقتلني . . أخوك لا يبالي . . لا يفكر إلاّ في نفسه . .

قال والدي :

ــ فكّرت كثيراً فماذا نفعني التفكير؟ . . خلقته هكذا . . منذ ولد وهو ينوس . . لولا ستر الله لكان لحق بأخوته الذين توفّوا . .

قالت امرأة عمّي :

ــ الشرّ بعيد عنه . . لا تقل هكذا . . خذه إلى طبيب . . أعطه مقوّيات . .

كانت أمي قد طفقت تبكي ، كلام العم نكأ جرحها . . فعلت لأجلي كل ما تستطيع ، كنت مريضاً بفرط الحساسية . أذبل مثل ورقة زهر . . كان مرضي لا ينفع فيه دواء ، جرّبت الوالدة كل صنوف التغذية . . كنا فقراء . . كان فقرنا أسود . . كانت مدينتنا فقيرة ، وحيّنا فقيراً ، وكنا أفقر من في الحيّ ، وكانت الوالدة تعمل خادماً ، وكنت أرى كلّ ذلك وأتحسّر . . تحرق الحسرة قلبي فتزداد حساسيتي وأذوب كشمعة أمام نار ، ولم تكن الوالدة تستطيع شيئاً حيال الفقر ، ولا حيال مرضي الناشئ عن عواطف بهظها فقرنا ، وقد ارتاحت الوالدة للهجرة ، عسى أن نجد في اللاذقية خيراً . . وأن تتبدّل حالنا ، وتتحسّن صحتي ، لكنني أنا لم أكن أشاركها ارتياحها . . كان هذا اليوم ، وهو الأول على هجرتنا ، قد أرمضني إلى درجة البكاء الأخرس .

قام والدي بمهمّة التعريف بين الذين معنا وبين شقيقه ، كانت الستّ

غندف ما تزال واقفة. صافحها عمّي وهو يبتسم. صافح الآخرين. ظلّ ابنها الذي كله مؤخرة مستلقياً على القبر، ولأن عمّي على درجة من الإيمان والتطيّر، فقد نهاه عن فعلته:

ـ لا يجوز يا ابني.. القبر مقدس.. حرام أن ندوسه أو ننام عليه..

قالت الست غندف:

ـ لكننا سننام فيه أخيراً..

ـ مع ذلك لا يجوز.. حين يموت الإنسان يرقد جسمه في القبر. أما روحه..

فصاح والدي بالفتى:

ـ أقعد يا تنبل.. أما شبعت نوماً طوال الطريق؟

نهض الفتى الذي كله مؤخرة وهو يفرك عينيه. سأل عن طعام العشاء، كان أكولاً إلى درجة أن والدته لا تجد في البيت من الخبز ما يكفيه، وقد عمل عند خياط، ثم نجار، ثم عمل معاوناً في أوتوبيس يسافر بين اسكندرونة وقرى أرسوز. كان يأكل بكل ما يكسبه، ويشكل، بالنسبة للست غندف، عبئاً ثقيلاً، كان قميناً أن يضنيها بهمّه، لولا أنها خُلقت غير مبالية، وهي تأكل ما لا يقلّ عن ابنها، ولديها جارحتان جائعتان أبداً: فمها ولسانها.

مدّت السفرة بين البيت والمقبرة، في فسحة أمام المطبخ، وكانت، الآن، برسم الكبار فقط. لقد أكل الصغار وناموا، وعمي الذي يعمل طباخاً في الكازينو، يعود متأخراً من الشغل، وغالباً لا يأكل في بيته، وهو يقول إن رائحة الطبخ تقطع شهيته، ومع ذلك، في ليلة كهذه، ليلة صيفيّة صافية، رائعة، هواؤها رهوٌ، منعش، وبمناسبة عودة الأخ الغائب، فقد رغب العمّ في الأكل والشرب، تعبيراً عن فرحته الطاغية.

تحلّقوا حول طبق القشّ، الست غندف رمت بعجيزتها على الحصير، وتربعت أمام المائدة، دون أن تنتظر أيما دعوة. هي جائعة، وعطشى،

وفرحة بوصولها بالسلامة، وتجد من حقها، بعد هذا كله، أن تأكل وتشرب، ولديها القدرة على المنافسة، وتجد من نفسها استجابة لمنافسة الوالد في السكر، أما ابنها فقد قرفص إلى جانبها، غير مكترث بنظرات الوالد الذي رأى في سلوكه وقاحة ليس هذا أوان زجره عليها.

كانت ثمة، على المائدة، زجاجة عرق كبيرة. والدتي تستعيذ بالله من رؤية أمثالها، ولقد لفتت نظر عمي إلى أن قدحاً واحداً للترويح عن النفس يكفي، لكن الوالد انتهرها:

ـ دعي الزجاجة.. نحن لن نكرعها كلّها..

وقال العم:

ـ لنشرب الليلة بأكثر ما نستطيع.. آه من الفراق.. أربعة عشر عاماً.. أربعة عشر عاماً يا كافر ولا خبر منك.. بماذا كنت مشغولاً عني طول هذه المدة؟

قال والدي بعد جرعة طيبة:

ـ لا تسأل يا خي.. لو حكيت لك كل ما مرّ معي لشاب رأسك.

قالت أمي:

ـ ومن المسؤول عن كل ما لقينا من عذاب؟.

ـ الزمن يا حرمة.. الزمن دولاب، لا عمك ولا خالك..

ـ الزمن دولاب صحيح.. لكن ما أصابنا كان من يدنا..

قال عمي:

ـ ما صار قد صار.. لا تأسفوا على شيء فات.. الحمد لله على السلامة.. بصحتكم.

شربوا بصحّة العم، وامرأة العم، والحاضرين، وكان الوالد، وهو يكثر من الشرب، يخترع أنخاباً، ولم يفته، وهو يفعل ذلك، أن يشرب بصحة والدتي. قال عنها كلمات طيبة أيضاً. وكان عمي يعرفها، يعزّها، يقدر كرمها وطيبتها وتضحيتها، فناولها الكأس وهو يقول:

ـ بنت أصل . . يرحم البطن الذي حملها . .

قال الوالد :

ـ هي طيّبة لولا . .

ضحك العم :

ـ لولا أنها تنهاك عن السكر . .

ـ السكر؟ معاذ الله . . عن الشرب كله . . إذا ذهبت إلى الكنيسة اتّهمتني أنني كنت في الخمّارة .

تكركرت الست غندف بالضحك ، فاندلقت كأس الوالد إثر ارتطامها بصحن حرّكته على طبق القشّ ، وكان هو ينتظر هذه المصيبة لتكمل ليلته ، لذلك نهض وهو يقسم أنّه لا يجلس إلى مائدة عليها امرأة ، وغاب عمّي في ضحك معاق ، قائلاً لوالدي :

ـ هذا أنت . . كأنني لم أفارقك يوماً واحداً . .

وفي ناحية أخرى ، بين القبور الرخامية ، البيضاء ، المستلقية كأكفان مستطيلة ، يتمدّد داخلها أموات فارقوا الحياة لتوّهم ، كان يتكوّم «العفش» الذي جئنا به من مدينتنا البعيدة .

وفي ختام السهرة التي انتهت حوالي منتصف الليل ، فردت النساء الحصر ، وفتحن الفرشات عليها ، واستلقى الجميع حيث وجدوا مكاناً ، يسندون فيه رؤوسهم ، سوى غندف ، التي حملت وسادة وبساطاً وأعلنت أنها ستنام بعيداً ، لأنها لا تستطيع الرقاد إذا سمعت شخيراً ، وسوى الوالد الذي خرج مغاضباً ليقوم بجولة على البحر ، قبل أن يأوي إلى فراشه .

أذكر تلك الليلة جيداً ، كان القمر ، في تلك الساعة المتأخرة ، قد توسّط ، تقريباً ، السماء الصيفية ، البلورية ، وصبّ من قرصه الفضّي نوراً باهراً على الكائنات . لم يكن فرحاً ولا حزيناً ، كان يتكلّم مع الجميع بلغة ، ويكلّمني بلغة . أحسسته منيراً ، جميلاً ، بدراً ، على نحو أخّاذ . كان ، ليلة أمس ، على مثل سطوعه هذا ، ونحن في اسكندرونة ، مدينتنا التي فارقناها . خيل إليّ أن القمر هاجر معنا بدوره ، وأنه يحبّني إلى حدّ أنه لحقني في تلك

الدرب الجبلية، المشجرة، المتعرّجة، الطويلة، في الرحلة التي أمضيناها، والتي استغرقت نهاراً بطوله. كنت أحسب أن القمر لن يأتي. كنت حزيناً لأنني فارقته، ولأنه لن يأتي، لكن القمر أتى، صار هنا كما كان هناك، شعّ نوراً فضيّاً كغلالة بيضاء لعروس من الجنّ. غمر كلّ شيء، أضاء كل شيء، وبدا سطح كنيسة مار سابا القرميدي الأحمر قديماً، هرماً، يذكّر بكنيسة القديس جاورجيوس في مقبرة بلدتنا، ويقبع صامتاً، ساكناً، فوق بناء من الطراز العثماني، ضخماً بجدرانه، بارداً بأحجاره، معزولاً عن الأبنية بتوحّده، متميّزاً بقبّته التي تتدلّى منها ولا شك ثريا ضخمة كما هي الحال في جميع الكنائس.

في حال كهذه كنت نهباً لأحاسيس مذيبة. كان، في مدينتنا اسكندرونة، شاب يدعى فريد نِيّ. كان ابناً لصاحب مطبعة، هي الوحيدة في المدينة، وكان فريد متعلماً، وحسبما يقولون في حينا، كان متبحّراً. لا يُرى إلا وشعره منفوش، وتحت إبطه كتاب، وهو سادر النظرات، يمشي وحيداً، على غير هدى، وقد تضاربت الأقوال حوله، فمنهم من قال إنه مجنون، ومنهم من قال إنه مسلول، لكنه، فجأة، خطب في سينما روكسي، وهاجم الفرنسيين، فاعتقل وسجن في حلب حيث مات.

أنا أيضاً، لأنني حزين، مولع بالقراءة، نحيل، حسّاس، كانت والدتي تخشى عليّ مصيراً كمصيره، خاصّة بعد أن اشتركت، ذات يوم، في مظاهرة ضد الفرنسيين. ومن عجب أن خشية أمّي انتقلت إليّ، فتصوّرت أنني سأجنّ أو أصاب بالسلّ، ولأدفع العدوى، نسخت كلمات من الإنجيل، جعلتها في ما يشبه الحجاب، وعلقتها في رقبتي. كان إحساسي المرهف يتصاعد ليغدو مرضاً، ولكم عانيت، ولكم كتب عليّ أن أعاني، من رهافة إحساسي هذا، حتى بتّ على ما يشبه اليقين، أنني سائر إلى إحدى حالتين: الموت أو الجنون.

في تلك الليلة الأولى للهجرة، وبفعل قهر داخليّ ذي سطوة لا تُدفع، رقّت أحاسيسي، شفّت، انقلبت إلى داء عصابي، تمنيت معه، وأنا في

المقبرة، أن أرقد فيها كجميع الراقدين، فلا أنهض أبداً، ولا أواجه عالماً غريباً علي، ومدينة مجهولة مني. لقد كنت إناءً بلورياً تنعكس عليه الألوان التي تحيط به. ولسوء الحظ، كان لون الموت هو اللون الطاغي في ما حولي، وقد جفاني النوم، وتباطأ تنفّسي، وأصابني، تلك الليلة، أرق شديد.

لقد هدمت كنيسة مار سابا الآن، وشيّدت مكانها الكلية الأرثوذكسية، ورُفعت القبور، وسُوّيت الأرض، وغدت باحةً للكلية. وقد رأيت، بعد سنوات، هذا التحوّل بأمّ عينيّ، ووجدت المصلّين، بعد قدّاس يوم الأحد، وبأمر من المطران، يشرعون معاولهم، إشارة البدء في المشروع الجديد، مشروع الكليّة. ذلك أنّ المقبرة كانت مهجورة قديمة، لم يعد يدفن فيها أحد. وكانت القبور قد درست، ولم يبْقَ منها سوى الكبيرة، الرخاميّة، لأصحابها الأغنياء، الذين رحلوا بدورهم، ولم يعد أحد يذكر من كانوا أو كيف كانوا.

تقلّبت على فراشي طويلاً، كنت بحاجة إلى النوم، وكان النوم، كعادته بعد كل إرهاق عصبيّ، يجفوني، لذلك كان رقادي خفيفاً، طافياً، تكفي النسمة، إذا اشتدّت وحركت الأغصان حولي، كي توقظني، لكن النسمة حين توقظ إنساناً، تبعث فيه شعوراً بالراحة، أين أنا منه وقد استيقظت على حركات مريبة، وهمس خائف، صادر عن والدي والستّ غندف.

للوهلة الأولى لم أتبيّن ما كان يجري على مقربة منّي وراء قبر رخاميّ مرتفع. خيّل إليّ أن ما سمعته عن الحياة في المقابر صحيح، وأن سكان القبور قد خرجوا، في ضوء القمر، يستطلعون أحوال الناس، ويتسامرون كما تقول الحكايات. لكنني ما أن رفعت رأسي، وأطللت من فوق القبر، حتى رأيت والدي يتهامس والست غندف، وهما في وضع مريب. ولقد أثارني المشهد، الذي كان الأول من نوعه في حياتي، أثارني إلى درجة الارتجاف، فكرهت غندف هذه، وكرهت والدي، وتمنيت أن يغيب القمر، وتسود الظلمة، حتى لا أرى أيّاً منهما.

والدتي أنقذتني من هذا الموقف. أفاقت وصرخت. كان صراخها

مكتوماً، فيه غضب وسخط، ودمع، وكان على كتامته، كافياً للتنبيه، وعلا بكاؤها في تلك الليلة المنذورة للهجرة والحزن، علا، واستمر، وتطاول، ولم يعرف به أحد، لأن الوالدة، ومنذ زمن بعيد، اعتادت أن تأخذ الألم لحسابها الخاص، وتسكت.

- ٢ -

أفقت باكراً. كان الآخرون يغطّون في النوم، مبعثرين بين القبور والأشجار، مستسلمين لأحلام ورديّة أو كابوسية. كان الفضاء، من حولي، مضاء بنور أبيض، يميل، مع حمرة الشفق، إلى أرجوانية تتبقّع على الأبنية، وشيء ما، كالبهجة، يشعّ في كل شيء، وبرودة منعشة، تشعرك بها النسائم، وقبّة عالية، بعيدة، ماسيّة، موشّحة، بسحب متفرقة، ذات أشكال غريبة، تنشأ، وتتشكّل، ثم تتداخل، وتمّحي، لتنشأ، من جديد، وتتشكّل وتمضي مع الريح.

هذا يومي الأول في اللاذقية، كانت المرئيات، في ضوء النهار، تبدو جديدة لعينيّ، وكانت الكنيسة، والمقبرة، والحديقة، والبيوت، تأخذ شكلها الحقيقي، وتبعث في نفسي راحة، فيها من النوم أثر، ومن الشعور بالواقع أثر. لقد أيقنت، الآن، أن اسكندرونة صارت بعيدة، وأنني في اللاذقية، ولا فائدة من الحسرة، ولا من الأسف، وأنّ عليّ، منذ اللحظة، أن أعيش واقعاً جديداً ومدينة جديدة، وأتخذ أصدقاء جدداً، كما عليّ، فوق ذلك، أن أتعرّف إلى هذه التي ستكون مدينتي وأرتضيها، وأعتادها، وأحبّها أيضاً.

لم أكن، ذلك الصباح، أدري أنّ اللاذقية ستكون أحبّ المدن إلى قلبي، وآثرها في نفسي، وأني سأعيشها، وأقرأها، وأتنفّسها، وأعشقها، وأكتب

عنها، وأنها ستكون المدينة التي أفارقها، كلما فارقتها، على كره، وأن اسمي سيقترن باسمها، وكلماتي ستستمدّ نسغها من ضوئها، وفيئها، وشمسها وغيمها، وأن مقبرة الفاروس فيها، ستضم رفات أعزّ الناس عندي، وأنّي أنا أيضاً، ذات يوم، سأدفن فيها، كما أرغب، وكما أوصي، لو احترمت رغبتي ونُفِّذت وصيتي.

لقد زال عني كابوس الليل بزوال الظلمة، وبانتهاء رعدة الكره، حينما رأيت أبي يتهامس مع غندف. انتهى ذلك الشعور الأليم الذي انتابني. ومع كل الإشفاق الذي أخذني على أمي، والتوجّع لدموعها، بدت الكائنات، هذا الصباح، مقبولة مني، محايدة بالنسبة إليّ.

كان والدي ينام بعيداً عنا، نوماً عميقاً، فيه شخير، من فعل السكر، وغندف التي انفردت عنا، أول الليل، عادت ونامت إلى جانب ابنها الذي كلُّه مؤخرة، وأمّي المسكينة المفجوعة أبداً بزوجها، والتي تجدّدت فجيعتها ليلة أمس، تغفو مع الصباح، وأنا الوحيد الذي أفاق مبكراً، كأنما رنّ في أذني منبّه، وقد عادت إلى ذاكرتي، بلجاجة، الصورة البشعة للهمس المثير، الذي سمعته وحاكمته، محاكمة ظالمة لا إنسانية، متأثراً بجوّ التعاليم الدينية، والكنيسة، وطهارة الأم، وكل تلك البيئة الفاضلة التي وفرتها، داخل البيت، لي ولأخواتي.

كنت راغباً عن الآخرين، حريصاً على ألّا يراني أحد منهم. كان ذلك استمراراً للشعور بالأمان إذا ما اختليت بنفسي. فقد كانت الوحدة ملاذاً لي، ولكم طوّفت، في البيت، والشارع، والمدرسة منفرداً، منذ كنت طفلاً، وفي حالة كهذه فقط كنت أحسّ بالطمأنينة، والراحة، والعذوبة، وينفسح المجال لعالمي الداخلي، أن يستعرض، يتأمّل، ويبني نفسه على مهل.

غسلت وجهي من صنبور الماء أمام المطبخ، بللت شعري جيّداً. زاد انتعاشي، تنامت قدرتي على مواجهة العالم الخارجيّ. ارتديت بنطالي

وقميصي، وانسللت من المقبرة، متّجهاً إلى المدينة، مجتازاً ذلك الشارع الذي يمتدّ إلى «نقطة البوليس» في حي النصارى، ويستطيل حتى ساحة الشيخ ضاهر، والذي سأعرف، بعد ذلك، أن اسمه شارع فيصل. كان هذا الشارع يتقاطع، في حي النصارى، وعند «نقطة البوليس» تماماً، مع شارع آخر، يمتدّ من القلعة إلى البحر، عرفت، كذلك، أن اسمه شارع فرنسا، عندما سكنّا حيّ القلعة.

سرت متمهّلاً، متملّياً، دون غاية، دون هدف، ودون رغبة بالكلام مع أيّما إنسان. وقفت عند نقطة البوليس، بعد مروري بدار البلدية القديمة، فانفسحت الرؤية أمامي عبر الشارع الهابط إلى البحر. هكذا شاءت المصادفة، ذلك الصباح، أن تصنع لي مفاجأة. صحيح أن البحر لم يكن يبين، من حيث أقف، وأن أشجار المنشيّة تحجبه، لكن رجلاً كان يقف هناك، أفادني أن الشارع يقود إلى البحر، وأنّ عليّ، إذا أردت بلوغه، أن أمضي باستقامة حتى أصل المنشية، التي يقع الكازينو في طرفها.

في انحداري، عبر شارع فرنسا، صارت «نقطة البوليس» - وهي عبارة عن مصطبة خشبية يقف عليها شرطيّ السير - ورائي، ولفتتني، إلى اليسار، سينما أمبير، وعلى واجهتها إعلان لفيلم «دموع الحب»، وبعد قليل، رأيت مبنى مصرف سورية ولبنان، وعلى يميني، كان مكتب المحامي اليكي مرقص، وبعد ذلك بيت سعاده، الأبيض، بطابقين، وحديقة، وباب حديديّ أوحى إليّ برهبة غير مبرّرة، ثم بساتين، إلى أن بلغت دار المندوبية، وواجهتني، في الصدر تماماً، المنشية، وعلى طرفها جامع البطرنة، وفيها المقهى الذي يحمل ذات الاسم.

عندما أطللت على البحر أحسست بنداوة في قلبي. كان ذلك الأزرق الصامت، المرتعش تحت أشعة الشمس المنكسرة، يمتدّ بعيداً، راحلاً بالنظر إلى مدى لا محدود، كأنما هدم، لأجلي وحدي، كلّ السدود والحواجز التي حالت، في المدينة، بيني وبين إرسال النظر إلى بعيد، إلى تخوم الأفق الذي تكاثفت عنده سحب بيض، لها شكل خريطة مبعجة الجوانب. كان، ثمة،

جدار حجريّ، يصطفق عليه ماء البحر، عند نهاية المنشيّة، وكانت المياه الزرقاء، قد خلقت لنفسها جوناً هناك، وفي الجون رقيب في الدرك يستحمّ عارياً، مستغلاً خلوّ الحديقة والشاطىء من الناس. وعند اتصال الجون بالبحر، رست فلائك صيد صغيرة، وإلى اليسار صخرة كبيرة، مرتفعة، محدبة، يمكن الوصول إليها عبر جسر صخريّ ضيق، ووراءه فسحة صخريّة عليها آثار أوراق وخضرة وأشياء مما يخلّفه المتنزهون عادة.

وقفت فوق الجدار الحجريّ المتساوي مع سطح الحديقة، والذي يسبح رقيب الدرك عند قدمه. كنت، في السحر الصباحي، وعند طلوع الشمس على البحر، وأمام الزرقة المنبسطة كأنما على سهل، مفتوناً كأنني لا أعرف البحر، أو كأنني فارقته منذ دهور. أنا أعرف أن اللاذقية ميناء، وأنها على المتوسّط، وأنني سأعيش البحر فيها كما كنت أعيشه في اسكندرونة، لكن سرعة وصولي إليه، وإطلالتي الصباحيّة على رحابته، ورحيل عيني على سطحه، ومعاينتي تكسّر موجاته الكسلى على شاطئه، كلّ ذلك أخذني بعيداً، لفّني بثوب أبيض من البراءة والطهر واللّذة، فطاب لي الوقوف حيث أنا، مما أحرج رقيب الدرك وجعله يخرج من الماء ويرتدي ثيابه الملقاة على صخر قريب بسرعة.

بعد ذلك ارتفعت الشمس. سقط غمر من أشعتها الذهبيّة على الماء، وراح يتراقص، معطياً للزرقة لون الزمرد، وانطلقت، شيئاً فشيئاً، حركة الحياة، وعلى شرفة الكازينو وقف رجل في ثياب النوم، مرتدياً معطفاً صيفياً، وتقاطر الزبائن على مقهى البطرنة، وأطلّت الحديقة، من ورائي، خالية، وفي السماء الشاهقة، الماسّية اللون، حمي الضوء وذاب واتخذ لوناً طحينياً.

فكرت في البحر. إنه بحرنا أيضاً. تساءلت: «هذه المياه، تذهب، تجيء، تنتقل، تسافر أم تبقى مكانها؟» فكرت في الموجة: «هل هي ذاتها التي ترتطم على الصخر، وتعود إلى البحر، وتشكل الماء نفسه، أم أنه ماء آخر، لموجة أخرى، ترتطم فترتدّ، وتعود إلى اللجّة التي جاءت منها؟»

فكرت في نفسي: «هل أنا ذاتي الذي كنت، قبل أن أكون، وكتب عليّ، كما كتب على الآخرين، أن أموت ثم أحيا ثم أموت وأحيا في سلسلة من الحيوات والميتات التي لا تنتهي؟».

كنت قادراً، في وقفتي تلك، أن أرى وأفكر معاً. الرؤية تبعث على التفكير، والتفكير ينشط الرؤية، والخيالات، وأحلام اليقظة، والهموم التي تنبت من تحت الأظافر، وهذا الفضاء الشبيه بإناء كبير، ونحن في جوفه، أسماك صغيرة تضطرب، فمتى ينكسر جامه ونتحرّر جميعاً؟ تساءلت: «لو خرجنا جميعاً من هذا الإناء الفضائي، ألا نصبح في إناء فضائيّ آخر؟ ومتى تستطيع السمكة الصغيرة التي هي أنا، أن تحطم جميع الآنية الفضائية وتتحرّر منها؟ أيكون الموت، إذن، هو هذا التحرّر، وهو المغدى لماتى يتكرر إلى ما لا نهاية؟».

الصباح الأسيان، والفضاء الماسيّ، والبحر الأزرق، وخضرة الحديقة، مضافاً إليها حزني النابع من سريرة طفليّة، وتوقي الملحاح لمعرفة ما سيكون عليه الغد، وماذا ينتظرني في المدينة، وأين نسكن وماذا نشتغل، كلّ ذلك حفر في ذهني أخاديد من التفكير المضني. ومن عجب أنه كان تفكيراً آسراً، وهبته نفسي بكلّ إرادتي، ومضيت مع ريحه المندفعة بسرعة قصوى حتى غبت عما حولي، ولم أفطن لنفسي إلا والشمس تحرقني، والحديقة قد امتلأت بالناس، وبالفتيان الذين وقفوا مثلي، يرنون إلى بعيد، وتتعلّق أبصارهم باللجّة التي لا يعرفون عنها إلا القليل.

كان عليّ أن أعود ولو كارهاً. ذلك أن أمّي التي لا بدّ أنها استيقظت وافتقدتني، ستكون نهباً لقلق مفترس بسببي. إنها لا تعلم من أمر سريرتي إلّا ما تراه على وجهي الناحل من سهوم لا تبلغ ملاطفاتها أن تدفعه عني. وهي التي استيقظت وسمعت الهمس المريب، لا تعلم أنني استيقظت مثلها وسمعت ما سمعت، وكان الفارق بيننا أنها بكت، وأني حبست دموعي في محجرين اتقد فيهما أتون صيّر الدمع بخاراً. لقد نفّست بالدمع عن كربتها، أما أنا فقد كبتّ ما بي، وتحاملت على نفسي وقمت بهذه الجولة، واغتسلت،

ولو في الأمنية، في بحر إعتدت أن أغتسل فيه وأغسل متاعبي وآلامي.

على باب المنشيّة كان يقف سودانيّ يبيع الفستق. ليس من ميناء، في هذه الدنيا، إلاّ ولها سودانيّون يبيعون الفستق. إنهم أصفياء البحر ومن أحبّته، وهذا الفستق الذي يبيعونه ليس إلاّ تعلّة للمكوث على الشاطىء. ومن الحقّ أنهم مَهَرة في تحضير فستقهم إلى درجة أنني لا أمرّ بهم إلا ابتعت شيئاً من بضاعتهم، ومن حسن الحظّ أن بضعة قروش كانت في جيبي ،فاشتريت فستقاً بقرش، ورحت أتذوقّه في طريق العودة، سالكاً الطريق التي جئت منها، دون أن أحيد عن الاستقامة التي أفضت بي إلى «نقطة البوليس» ومنها انعطفت إلى يمين، حتى بلغت كنيسة مار سابا.

كانت أميّ على باب الدار تنتظرني، كانت ملهوفة قلقة، وقد ضمّتني إلى صدرها وقالت:

- أين ذهبت يا حبيبي؟
- قمت بجولة حتى البحر...
- هل نمت جيّداً؟
- نمت جيداً جداً..
- ولماذا نهض باكراً؟
- نهضت بعت نوماً.

تفرّست في وجهي وقالت:

- ما أظنّ.. أنت لم تنم جيّداً.

أكدت لها:

- نمت جيّداً، وفي الصباح الباكر استيقظت وقمت بجولة في المدينة، وتنزّهت على البحر.
- أعجبتك المدينة؟
- ليست سيّئة.
- كنت تفضل إسكندرونة، أليس كذلك؟

- وأنتِ؟
- أنا مثلك.. اعتدت حياتنا هناك.. ولكن ماذا نفعل؟.. الهجرة كتبت علينا.
- وهل سنستقرّ الآن؟
- إن شاء الله.. أعمامك هنا، والأقرباء هنا، ولن نغادر اللاذقية..
- وإذا رحل الوالد؟

تأمّلتني بإشفاق:

- أنت خائف؟
- قليلاً..
- لا ليس قليلاً.. أنت خائف، وأنت متضايق.. لم تنم جيّداً، ربّما لم تنم أبداً.. أعرفك، ولكن، يا ولدي ماذا نستفيد من الزعل؟ الهجرة تمّت، نحن الآن في اللاذقية، غداً نبحث عن بيت، لن نبقى في المقبرة.
- وهذه البقرة؟

ابتسمت أمّي رغماً عنها. ابتسمت بعفوية، لكنها لم تفلح تماماً في أن تخفي عنّي ما كان من والدي وغندف ليلة أمس. تراها أدركت أنني استيقظت وسمعتهما؟ تقدّر الألم الذي تسبّبا به؟ وهي، عندما أفاق والدي في الصباح، كيف نظرت في وجهه؟ وغندف هذه، البقرة المبقعة، أما خجلت من البقاء؟ تراها هربت قبل أن يفيقوا؟

قالت أمّي بطيبتها:

- لا تقس عليها.. إنها أرملة.. وهي مسكينة، بعد كل شيء.
- لا تذكري اسمها أمامي.
- لن أذكره.. انسها ما شئت.. بعد قليل ستغادرنا.. ستبحث عن بيت، ولن نراها..
- لا أريد أن تزورنا..
- لن تزورنا.. سأطلب منها ألّا تزورنا.. (وبعد صمت) ولكن مَنْ لها،

في هذه الغربة ، غيرنا؟ لا تكن حقوداً . . المسيح منحنا المغفرة، وطلب منا أن نغفر لمن أساء إلينا . . كن مسيحياً، مسيحياً حقيقياً يا بنيّ . . والآن تعال . . أدخل . . يجب أن تفطر . . عمّك ذهب إلى عمله في الكازينو، وامرأة عمك سألت عنك . . قلقنا جميعاً لغيابك.

دخلنا البيت، كانوا قد جمعوا الفرشات والحصر . . كوّموها فوق أحد القبور. أغراض كلّ من جاء معنا على انفراد. غندف تلوك شيئاً ما. تأكل . . لا يهمّها سوى أن تأكل، قالت أمي إنها ستذهب للبحث عن بيت، طلبت مني أن أغفر لها، أن أكون مسيحياً وأغفر لها. أخفقت. أخفق الروح الذي في داخلي. نظرت إلى غندف بحقد وكره. والدي أدرك من هيئتي أنني لست على ما يرام. أطرق ولم يرفع رأسه إليّ، أعرف هذا الأب، يرتكب الإثم ويندم، كأنه يجد لذة أخرى في الندم. أنا لا أستطيع أن أحقد عليه، أو أنّ حقدي لا يطول، تعذّبت من أجله، وبفعله، مثلما تعذّبت أمي. سأتعذّب أيضاً، إنه لا يستطيع إلاّ تعذيبنا، لكنه يبدو وكأنه لا يريد ذلك. مغلوب على أمره. الندم يصرخ في وجهه طلباً للصفح، أمّي تصفح. ماذا تفعل؟ إنها مسيحية حقيقية، لكنني أنا، وما سمعته أمس، وماضيه الطويل في السكر، والترحال، والماخورية، كل ذلك إثمٌ رهيب، وأنا لا أقوى على مغفرة كل هذه الآثام؟ الله يغفرها، من أجل ذلك كان هو، وكانت رحمته التي تسع الكون. أما الإنسان، وأحاسيسي المرهفة، فإنها لن تكون، ولا تطمع أن تكون، غفورة إلى درجة لا تطيقها. ومع أن والدي دافع عن نفسه، وقال إن الموقف لم يتعدَّ الكلام الهامس، فإن أمّي لم تصدقه، ولم تصدق أنهما كانا يتسامران فقط.

أفطرت قليلاً. شربت فنجاناً من الشاي مع قطعة من الخبز. أمّي ألحت، رجت، توسلت أن آكل أكثر، لم تكن لي شهية. حاولت، كرمى لها، أن أتابع الأكل، لكن اللقمة كانت جافة في حلقي. جفّ رضابي. لارضاب يبلل المضغة. كانت امرأة عمّي تراقبني، اندفعت في بعض النصائح، ووجهت لوالدي بعض الشتائم مداعبة، لكن والدي لم يردَّ،

أعرف أنه، اليوم، وربما غداً وبعده، لن يردّ، يعيش إثمه، وهو حين يفعل ذلك، يدفع من سكوته ثمن إثمه. لكنه مضطّر إلى مرافقة الوالدة، بحثاً عن بيت.

كنت قد طلبت من أمي أن تبحث عن بيت بأسرع ما تستطيع، لا لأن وفادة بيت عمي قليلة الحرارة، ضئيلة الحفاوة، بل لأني أريد أن يكون لنا بيت، وأن أمارس فيه، كما هي عادتي، الوحدة التي صارت جزءاً من حياتي.

بعد الغداء خرجت إلى المدينة مرة ثانية، سرت، كما في الصباح، إلى «نقطة البوليس»، وانعطفت يميناً، مصعّداً إلى حيّ القلعة، على طول «شارع فرنسا». لم أكن أدري، في تجوالي هذا، أننا سنسكن حيّ القلعة، وأن أيامنا فيه ستستغرق الحرب العالمية الثانية بطولها. بلغت أقصى الشارع، استدرت عائداً فيه، مزمعاً أن أمضي حتى البحر، ما دام الشارع يوصل إلى هناك، لكنني رأيت فجأة، في حيّ النصارى، ابن خالي، وكان قد سبقني في الهجرة مع أهله. احتضنته، عانقته، كدت انطنط من الفرح لمرآه، فهو عدا كونه قريبي، ورفيق مدرستي، فإنه ابن بلدتي، إسكندرونة، ومهاجر مثلي من اللواء.

كانت والدته تدعى ظريفة، وهي، كما تزعم، من أصل أرمني، لأنّ جدّتها لأمها، كانت أرمنية، ولما كانت السلطات الفرنسية قد نقلت أرمن اسكندرونة في بواخرها، إلى حيث يشاؤون من مرافىء سورية ولبنان، فإن امرأة خالي ذهبت إلى مختار الأرمن وطلبت الهجرة معهم: قالت إنها أرمنية، وأن أمها تدعى «زارتوي»، وأنها مقطوعة، وتطلب السفر مع زوجها وأولادها في إحدى البواخر. ألحّت، أصرّت، ويبدو أن المختار، الذي كان يمنح أوراق السفر لكل أرمني في اللواء، قد أشفق عليها، أو أنها استثارت حميّته الأرمنية، فمنحها شهادة، وأوراق سفر، وعادت، مساء أحد الأيام إلى حي «الصاز» تقول لسكانه:

- أنا مسافرة على باخرة..
- أنت تمزحين ولا شك.. البواخر للأرمن فقط..
- وأنا أرمنية.. أرمنية أباً عن جد..
- يا داهية! قالت أمي، في وقت الشدّة عرفت إلى من تلتجئين.. أمّنت سفراً مريحاً، مجانياً، بينما نحن ننتظر رحمة الله.. عافاك.. هكذا تكون النساء.

تعانقت المرأتان، كان العناق، في أيام الهجرة تلك، سرعان ما يستثير الدموع، وكان الوداع يجري كل يوم. بل يجري عدة مرات في اليوم. وقالت امرأة خالي للأم:

- سنسافر إلى اللاذقية.. لأجلكم اخترنا اللاذقية.. ألستم ذاهبين إليها؟ إذن نسبقكم، وعندما تصلون يجتمع الشمل.. هناك لنا أقرباء، نحن أيضاً.

في مساء يوم السفر، جرى حزم الأغراض، وتطوّعت أمي بإعداد العشاء. وعلى المائدة شرب الرجال كأس الوداع، وغنّت امرأة الخال، بصوتها الحلو الحزين، أغنية تركية تستدر الدموع:

«أمان دكتور، جانم شقتي دكتور، دردما بير شاره»[1].

لقد انطبعت تلك الليلة، والأغنية الحزينة، وحرقة الوداع، والدموع، في مخيلتي. كنا، تلك الأيام، نحسب ألّا لقاء بعد، وأن الفراق سيكون أبدياً. ذلك أن اسكندرونة كانت كل دنيانا، وكنا نظن أننا سنضيع في «بلاد الشام»، وأن هذه البلاد واسعة بشكل لا يحدّ، وأن اللاذقية بعيدة، وسيكون علينا أن ننتظر أعواماً حتى يلقى بعضنا بعضاً، لهذا فقد كان سروري كبيراً بلقاء ابن خالي، وقد مرّ بخاطري كل ما جرى لنا، وذكرته به، وضحكنا.

(١) «آه أيها الطبيب: ألا دواء لعلتي».

كنت متلهّفاً لمعرفة متى وصلوا، وهل كانت الرحلة مريحة؟ وأين يسكنون؟ وكيف الحال الآن؟ وقد أجابني أنهم لم يجدوا صعوبة في السفر، وأنهم يسكنون حيّ القلعة، وأنه يعمل في مكتب المحامي الكسي مرقص، وفعلاً رأيت حمالة مفاتيح تتدلّى من حزام بنطاله القصير، وفيها عدة مفاتيح، أحدها مفتاح المكتب ولا شكّ. هنّأته على هذا التوفيق، تمنّيت له ولأسرته النجاح، طلبت منه أن يسير بي إلى أمه، بينما طلب هو مني، في المقابل، أن آخذه إلى أمي التي هي عمته.

كانت الصدمة، حين قادني إلى البيت، شديدة. لقد كانت لنا، هناك، في اسكندرونة، بيوت خشبية، وأحياناً قصبية محشوّة بالطين، متفرقة، متباعدة، أمامها حدائق صغيرة، وأشجار مثمرة، والشمس تشرق من نافذة وتغرب من أخرى. كانت بيوتاً في فلاة، وكانت معها الحرية، والشمس، والريح، وكل ما يهب الصدر القدرة على التنفس، ويهب صاحبه الطاقة على مواجهة بؤس الحياة بنوع من شعور بالتشرّد. كنا غجراً هناك. لكنّنا كنّا غجراً سعداء. أما هنا فقد كان بيت خالي عبارة عن غرفة واحدة، في قبو للأخوين شومان، وكانت هذه الغرفة القبوية مستطيلة، معتمة، رطبة، لا نوافذ لها، ولا تدخلها الشمس حتى بمرآة عاكسة.

قالت امرأة خالي التي قبلتني وبكت بغير تحفّظ على أيامنا الماضيات:

- ما كان أجملها من أيام يا بنيّ!
- أنا أقول كذلك أيضاً.
- وأمك؟
- أمي تشاركني شعوري لكنها لا تتكلم.. لا تريد أن تزيد في أساي.
- وأبوك؟
- كما تعرفين..
- فرح برؤية أخويه؟

ماذا أقول؟ فرح أم سكر أم ارتكب معصية؟ إنه غير مبال. تغيير

الأماكن، والمدن، أو الوجوه لا تأثير له عليه. يعيش حاضره فقط. أبي لا يذكر الماضي، لا يتحسر عليه، لا يترك لأحاسيسه، إذا وجدت أن تعبّر عن نفسها. لكنني أشكّ، بل أوقن، أن لا أحاسيس له، والدي ابن ساعته.. إذا وجدت العرق، والمرأة، والرغيف، فعلى الدنيا السلام.

قلت:

- فرح والدي برؤية أخويه..
- وأنت؟
- كنت حزيناً حتى رأيتكم، وكنت غريباً حتى اجتمعت بكم.

عادت تقبّلني:

- لكم أنت حسّاس يا ولدي!

كان ذاك وقت الأصيل، كانت بقعة من الشمس في باحة البيت. ضقت ذرعاً بفضاء الغرفة العاري، المعتم، النائح نواحاً أخرس. خرجت إلى الباحة. كان فيها بعض النساء. كانت الدار القبوية تتألف من عدة غرف، وفي كل غرفة تسكن عائلة. كانت غرفتهم تستعمل لكل شيء، بما في ذلك الطبخ والغسيل والطعام والسهر والنوم. وفي باحتها رأيت عجوزاً طاعنة، باهتة، عتيقة، تميل بشرتها، بفعل السنّ، إلى سواد، وتبدو بشعرها كأنها امرأة كهف، وكان هناك أطفال، ودجاجات، وموقد فوقه طنجرة، وبخار يتصاعد.

قلت لامرأة خالي:

- بكم هذا البيت في الشهر؟
- بليرة ونصف..
- أما كان بالإمكان استئجار بيت بغرفتين؟
- ثلاث ليرات؟ إنها كثيرة.. نحن مهاجرون.. اسمنا «المهاجرون» ولا ينادوننا بغير ذلك هنا.
- هل العثور على بيت صعب؟

ـ قل على غرفة. . إذا وجدتم غرفة فأنتم محظوظون. .
ـ لا بأس أن تكون غرفة. لكن ليس مثل هذه. .
ـ لن تجدوا أفضل منها. .

قالتها واثقة، عن تجربة. كانت قد بحثت طويلاً. . كان حي الصاز، على ما فيه من فقر وبؤس، مفتقداً، الآن. كانت تحنّ إليه، تحنّ لا كالمشتهي، أو المشتاق، بل كالمتأسّف. ذلك «النعيم» الذي كنا فيه قد زال إلى غير رجعة. لقد أعطتني، أنا الذي لا أحتاج في نظرتي إلى مزيد من السواد، شحّاراً. كان كل ما في البيت، والدار، والوجوه، يكتسي شحّاراً أراه وحدي، وأتألّم له ألماً صامتاً كئيباً.

وكي نتأكد مما قالته، كان، علينا، أبي وأمي وأنا، أن نبحث، في اليوم التالي عن بيت. قررّنا ذلك في المساء، غندف أدركت أنّ عليها أن ترحل فرحلت. كلّ من جاء معنا تدبّر أمره بطريقة ما. نحن لم نكن على عجلة من أمرنا، إلى حدّ يبرّر أن نقلق منذ اليوم الأول لوصولنا. جاء عمي الآخر في المساء ليرانا. كانت دموعه، منذ دخل البيت، تسيل على وجنتيه وتتسرب فتضيع في شاربه الأشيب، وتجاعيد وجهه المكوّ بشعر أهمل حلاقته. كان عمّي هذا هو الأكبر، وكان الأحنّ، لكنه، كوالدي، لم يكن ناجحاً في أيما عمل زاوله. كان معمارياً، وعنه أخذ أبي، في ما بعد، شيئاً من هذه المهنة، لكنّ هذا العم ما بنى بيتاً في مدينة. كلّ عمله كان في القرى، وكان يبني بيوتاً للفلاحين، لكن تلك البيوت التي بناها شكت من اعوجاج ما دائماً. كان يحمل خيطاً، وشاقولاً، ولديه «مسطرين»، غير أن عدّته التي قد تخدع الذين لا يعرفونه، سرعان ما تتكشف عن نقص في مهارة صاحبها. وهكذا كانت مهنته تدرّ عليه قليلاً، بل قليلاً جداً، وكان يعيش من هذا القليل هو وزوجته وولده الذي تبنّاه، أما ابنه الكبير، الوحيد، فقد تطوّع في الجيش، وكان يجيد الفرنسية، ويرطن بها كالفرنسيين.

بكى عمي منذ رآنا ، ربما كانت المناسبة تقتضيه ذلك، أو كان الدمع

يجيش في صدره أصلاً. تساقطت دموعه فبلّلتنا حين قبلنا. وبعد ذلك لا شيء. كان فقيراً مثلنا، وكان يسكن غرفة أشبه بالقبو هي أيضاً، في زاروب يقال له العنابة، وقد أصرّ، ذلك اليوم نفسه، أن يأخذني إلى بيته، وأن يقدم لي بعض رؤوس الصبار، وكلما تذكّر بعدنا عنه، أربعة عشر عاماً، رجع إلى ذرف الدموع، وهو يقول:

- تشرّدتم كثيراً يا أحبائي.. أبوكم رحل بكم لا أدري إلى أين..

قلت له:

- والدنا لم يستقرّ بنا في مكان.. كان كثير الإفلاس كثير التنقل يا عمي.
- هذا ما أراده الله..
- الله لا يريد التشرّد لعباده..

عندئذ قال وهو يمسح دموعه:

- لا تعترض على حكمة الله..
- أية حكمة هذه؟.. الله لا علاقة له بها.
- حكمة لا ندريها نحن البشر..
- ولماذا كتبت هذه الحكمة علينا وحدنا؟
- لتجربتنا..
- تجربتنا طوال أربعة عشر عاماً؟

صاح بي:

- قلت لك لا تعترض.. هذه مشيئة الله.

قلت:

- استغفر الله.

كان عمي قد عمل، هو وزوجته، في مدرسة إنجيلية. وبضغط من القسيس، ومدير المدرسة، صارا انجيليين، لكن المذهب البروتستاني الذي اعتنقه، لم ينفع في حالتين: منعه من الشرب، ومن نقل أخبار غير صحيحة، لا رغبة في الكذب، أو استساغة له، بل لأنه كان يصدّق أيّ خبر، ومهما كان غريباً، لمجرّد سماعه.

وفي الليل جاء والدي ووالدتي إلى بيت عمي، واتفقنا معه، أن يسأل لنا عن بيت، لكنه، في الصباح نسي ما اتفقنا عليه في المساء، فكان علينا، نحن أصحاب الحاجة، أن نقلع شوكنا بأيدينا، وأن ننطلق في ضحى اليوم التالي، باحثين عن بيت مهما يكن موقعه أو شكله.

كنا نطرق الأبواب فيسألوننا:

- ماذا تريدون؟
- بيتاً للإيجار.
- من أين أنتم؟
- من إسكندرونة.
- يعني من المهاجرين..
- أي نعم..
- مع الأسف..
- ولكننا سمعنا أن لديكم بيتاً للإيجار..
- عدلنا عن تأجيره..

نذهب إلى بيت آخر، وآخر، وثالث، ورابع، ونجد الجواب نفسه تقريباً. كانوا لا يريدون تأجير بيوت للمهاجرين من اللواء. الكلمة وحدها كانت تفزعهم، وما كنا قادرين على الكذب، ولا مصلحة لنا فيه، ولو أجزنا لأنفسنا أن نكذب فستنكشف كذبتنا، ومع ذلك كانوا يضطروننا إلى مقارفة هذه المعصية.

ثلاثة أيام من الدوران المستمّر دون نتيجة. لقد رافقت الوالدين طوال هذه الأيام. ومشيت معهم في حرّ تموز، ومثلهم وقفت على الأبواب، كشحاذين فقراء، نقرع باباً باباً، ونعيد السؤال، فيعيدون الجواب، دون أن نحصل على غرفة تؤوينا، غرفة مهما تكن مواصفاتها، شريطة أن تكون رخيصة، بقدر ما نملك من نقود، وهي شحيحة، لا تزيد عن ليرتين في الشهر، وبعد ذلك نكون قد اشتغلنا، ويكون الله قد فتحها في وجوهنا.

لأمر ما، شاء الله ألاّ يفتحها في وجوهنا، أمي قالت هذا، وفي البيت،

حين عدنا إلى المقبرة، قالت لي على انفراد:

- غداً نذهب وحدنا. .
- دون الوالد؟
- دونه. .
- لماذا؟
- لأن الله، بوجوده، لن يوفّقنا إلى بيت. .

احتججت. . صحيح أنني لم أكن على وفاق مع الوالد، وكنت أعرف معايبه وآثامه، لكن مسألة العثور على بيت رخيص، في مدينة صغيرة، وبشروط ما نحمل من نقود قليلة، كانت مسألة فقر، ولا علاقة لله بها. كنت، أنا نفسي قد أدركت هذه الأشياء قبل الهجرة، منذ أن اختلطت بالعمال، وقرأت الكراريس مع سبيرو الاعور[1] وترددت على بيوت «المشبوهين» الذين يبشرّون بالثورة على الفرنسيين ويدعون إلى تأليف النقابات. الحقيقة أنني لم أكن، في تلك السن، وأنا ألبس البنطلون القصير، ثورياً، لكن الثوريين، في الحيّ، كانوا قد التقوا بي، باعتباري الكاتب القارئ الوحيد فيه، ولأن «فراستهم» قد اكتشفت فيّ مادة خاماً صالحة للتبشير بما يحملون من آراء.

لقد هاجر آخرون من اللواء، وجاءوا مدينة اللاذقية نفسها، واستأجروا بيوتاً سكنوها. نحن فقط، وقبلنا بيت خالي، والآخرون الذين من أمثالنا، كنا نطرق الأبواب فتغلق في وجوهنا. إننا نريد غرفة، نريد مأوى، نستر فيه أنفسنا، لكننا كنا فقراء، وإذن فالمسألة واضحة، هي الفقر. كنا فقراء في اسكندرونة، فسكنا حي المستنقع، بين الأفاعي والزواحف، وكنا فقراء هنا، بل أشدّ فقراً، لذلك كان علينا أن نجد حيّاً مماثلاً. وحتى لو وجدناه. فإننا لا نملك ما نبني به بيتاً أو كوخاً، فكيف ونحن لم نعثر، في اللاذقية، على هذا الحى، ولا نعرف إلا الاحياء الشعبية، نلوب بين دورها، لعلنا

(١) اسبيرو الأعور، أحد أبطال رواية «المستنقع».

نقع على بيت رخيص، على غرفة في بيت، على قبو، على كوخ ريثما نتدبر أمورنا.

شرحت كل هذا لأمي. افهمتها أن الفقر سبب شقائنا، فكان جوابها: «نصيب!» اختبات، كعادتها، وراء الحظ، هذا الذي يلعنه الفقراء، ويتعزّون بذلك. كنت أعتبر إصغاء الوالدة إلى أقوالي، تقدماً تحققه على طريق فهم أفضل لمصدر شقائنا، ولم أتشبث بأن الله لا علاقة له بالموضوع، ما دامت أمي لا تستطيع، ولا تجرؤ، أن تعفي ربها من هذه المسؤولية، فهي في آخر المطاف، امرأة متدينة، كلمة الخوري عندها بألف من كلماتي، أنا ابنها الغالي كما تقول.

هذه الأيام الثلاثة من البحث عن بيت، ملأتني حقداً على الحياة الشوهاء التي نحياها. تذكرت معها، اسكندرونة. هناك كان المتظاهرون ضد فرنسا، المناضلون ضد الوضع الاجتماعي القائم، المطالبون بالحقوق. وكنت أعرفهم، وأحبّهم، وأثق بكلماتهم، وأنطوي، معهم، على أمل في أن كل شيء سيتغير، أما هنا، في اللاذقية، فإنني لا أعرف أحداً منهم، ومن حديثي البسيط مع ابن عمي، استنتجت أن كل تلك الأفكار التي عرفتها سابقاً، وعشتها بجاذبية سحرية، لا يوجد منها شيء هنا، ولم يسمع بها أحد، فكأن اللاذقية في قطب آخر، وكأن لا عمّال فيها ولا فلاحين، وكأن «الطيبين» لم يمروا بها، ولم ينثروا بذارهم السحري في أرضها.

تغدّينا، في اليوم الأول لبحثنا، عند بيت خالي. لطمت أمي خدّيها وهي ترى بؤس الغرفة التي يسكنونها، وفي اليوم التالي ظلّت تلطم، لكنها، في اليوم الثالث، تمنت غرفة مثلها فلم تتحقق أمنيتها. كنا نخرج من بيت عمي في الصباح، وننطلق في الأحياء، ونبقى، أحياناً بغير غداء، كي لا نرجع والخيبة محصولنا المر. وكنت، حتى عندما نعود في المساء، أرفض الطعام، وأتذرع بحجج مختلفة كي لا أقترب من المائدة، خجلاً من بيت عمي، أو انتفاءً لشهيّتي، حتى ازددت نحولاً، وغارت عيناي في وقبيهما من الجوع والقهر، ولمت نفسي لأنني لم أتشبث بالبقاء في اللواء، ولم أفلح باقناع

أمي وصرفها عن الهجرة. وفكرت، نعم فكرت، أن أعود أدراجي، فأتسلل عبر الحدود، راجعاً إلى بيتنا، ذاك الذي بقي وحده ليخبر عن حكايتنا مَنْ يأتون بعدنا.

كنت أخرج في المساء، وأطوف في المدينة على غير هدى. فإذا عدت نظرت إلى القبور، وحسدت من فيها، لأنهم ماتوا واستراحوا. «الموت، كنت أقول في نفسي، صعب، ولكنه، كما تعلّمت من قراءاتي، النهاية المحتومة، وما دامت النهاية محتومة، طال زمانها أم قصر، فلماذا لا تحلّ الآن؟ لماذا لا تأتي اليوم، قبل الغد فأستريح؟ من المؤكد أنه كان باكراً، باكراً جداً، على فتى مثلي أن يفكّر على هذا النحو، لكن فرط حساسيتي كان يدفعني نحو اليأس، طالما أنني، في ظروف الغربة، وانقطاع الصلة بالمناضلين، ما كنت قادراً على الاندفاع نحو الأمل، وتحويل اندفاعي إلى عمل مجدٍ. إنّ ذلك سيصير يوماً، لكن هذا اليوم، في بدء رحلة الغربة والشقاء، كان في مطاوي الغيب، ولعلّ المحنة هي التي قربّته. لكنّ محنة عائلتنا، التي وعيتها منذ وعيت الوجود، كادت تقضي عليّ، جسدياً وعقلياً، لكن رومانتيكية الفتوّة هي التي حمتني، فأنا كما أعرف أن أيأس، أعرف، صباح كل يوم، أن أستنبت الأمل من اليأس نفسه، وبهذا أتعلّل، وأعيش.

طفنا خلال أيام ثلاثة الأحياء الفقيرة كلّها، أما الأحياء الغنيّة فلم نقربها. ماذا لدينا فيها؟ عمَّ سنسأل هناك؟، أيّة وجوه معرّاة من الرأفة، ستطالعنا ونحن نعرض، لا فقرنا وحده، بل هجرتنا أيضاً؟ «الفقير، كما تقول أمي، يحِنّ على الفقير، أما الغنيّ فيشمت» كنّا في بلوانا، بغنى عن الشماتة، تضاف إلى قائمة المكدّرات، لذلك تجنّبنا أن نطرق باباً لبيتٍ يبدو عليه اليُسر، وتحاملنا على أنفسنا كي لا نسقط إعياء أمام العتبات، أو نجلس على أيّما درج، لبناية كبيرة، واليد على الخدّ، كالعامل العاطل في صبيحة عيد. طوّفنا، طوّفنا، طوّفنا، وأحياناً سألنا شربة ماء، وإذا صادف ومررنا بأناس نعرفهم، سبقونا في الهجرة، أو كانت لنا بهم معرفة في

الماضي، نقبل دعوتهم لتناول القهوة، وللحديث عن المصيبة التي نحن فيها. كان هؤلاء الناس يتألّمون لحالنا، أو يفتحون لنا قلوبهم ويتحدّثون بدورهم عن آلامهم، وكنت الاحظ أن المدينة الصغيرة، الجميلة، فقيرة من الداخل، بائسة، تترنّح من شكاة لا تقل عن شكاتنا.

هذه الأحاديث ، التي دارت، والتي تكرّرت في كل حيّ، سمحت لنا أن نعرف عن حياة المدينة ما كنّا نحتاج في معرفته إلى شهور أو أعوام. ومن تلك المعارف أنّ بضع أسر اقطاعية هي التي تحكم المدينة مع غيرها من أسر تماثلها إقطاعاً وثروة عقارية. الصناعة لم تكن موجودة، وباستثناء معمل التبغ، وكان معروفاً بالريجي، لم تكن في اللاذقية أيّما صناعة. وتحدّث الذين تكلّمنا معهم، عن امرأة جميلة، بالغة الجمال، هي زوجة (. . .)، تأمر وتنهي في المدينة، على الناس، لا على زوجها وحده، أو أسرتها وحدها. قالوا إنّها قويّة الشخصيّة، فائقة الجاذبيّة، بالغة التأثير، وأنّها وحدها، لو قصدناها، يمكن أن تسعى لي بعمل ما، ما دمت أقرأ وأكتب. لكننا لم نقصدها، بموقف حازم مني، وبرفض باتّ لكلّ رجاء من الوالدة. كنت على يقين أن الطلب سيذهب هباء، إذا لم تكن لهذه السيدة مصلحة في السعي لي عن عمل. وما هي هذه المصلحة؟ أن تخدم أمّي عندها؟ لا، إن ذلك لن يصير، وأمّي التي خدمت في إسكندرونة، لن تكون خادماً في اللاذقية أيضاً.

الطريف في الأمر أنّ هذه السيّدة التي تحكم عائلتها، ولها نفوذ في المندوبية، ولها سطوتها في كل مكان، لم تكن المرأة الوحيدة المشهورة في المدينة. كانت، ثمة، ثلاث نساء لهنّ شهرة أيضاً، كل في دائرتها، أو في حيّها، الأولى وتدعى «أمّ يانكو» ومركزها حيّ القلعة، ولقد رأيتها فأنكرت ما هي عليه من تبرُّج أخرق. كانت تطلي وجهها الأبلق، المدوّر، بمساحيق فاقعة، وتكثر من البودرة حتى لتخال أنّ الوجه، بما فيه من نتوءات ، ومن جبين يتصل بالشعر، ومن ذقن مفلطحة، قد مرحت بكلس أبيض. حتى العنق نفسه، وكان عنقاً غليظاً، لامرأة كانت على ملاحة ذات يوم، دُهن

ببياض كلسيّ، على نحو ما يكون المهرّج في السيرك. وعلى الوجنتين، في دائرة واسعة، تبقّع الأحمر الرخيص الصارخ في احمراره، وفوق الشفتين طلاء قرمزي، كثيف، يعطي لشفتها السفلى حجماً يزيد في ضخامتها. وكان شعرها أصفر، أو يميل إلى الصفرة، طبيعة أو صباغاً، وتحته عينان جاحظتان، واسعتان، يتحرّك فيهما بؤبؤان حركات قلقة، وتحتها أنف كبير الفتحتين، يفترس، بقناته الغضروفيّة، المعالم الأخرى، ويجور عليها.

وكان ابنها يانكو أبرش، ورث عن أمّه بياض البشرة، وله فم مفتوح أبداً، وشفتان تنفرجان عن لثة انحسرت عن جذور أسنان تبدو كبيرة، منفرة، وله عينان مدوّرتان، فوقهما جبين عريض، يعلوه شعر رماديّ، خالطه الشيب ولم يشتعل فيه، وقامة لا بأس بها، سوى أن الكتفين مهيضتان، فكأنما ثقلٌ غير منظور يبهظهما، ومن المؤكد أن في هذا الابهاظ أثراً من أمّه، التي يقال إنها قضت حياة حافلة، وهي الآن قوّادة متقاعدة، أو هكذا يشاع، تجلس من الصباح إلى المساء أمام بيتها، متحرّشة بالمارّة، ولا سيما النساء اللواتي كنّ يتجنّبنها.

أمّ يانكو هذه ابتسمت لنا منذ رأتنا ندخل حيّ القلعة، من زقاق بيت البيطار، وأدركت من سؤالنا أننا غرباء. الواقع أن المرأة احتفت بنا، سألتنا عن حالنا، دعتنا إلى بيتها الشبيه بالوكر، لكننا لم ندخل. من المؤكد أن شكلها، تبرّجها، نظرتها الفضولية، كلّ ذلك دعانا إلى الحذر، وإلى اجتناب الدخول. ولما عدنا، مساء، إلى بيت عمي، وقصصنا ما جرى معنا في يومنا، ضحكت امرأة عمي وهي تسمع أننا صادفنا «أمّ يانكو»، أمام بيتها، كالمعتاد، لا سيما في الصيف، وقالت:

- هذه امرأة مشهورة.

سألتها أمي:

- بماذا؟

ضحكت وأجابت:

- بالتقوى!
- وتستخدم بيتها في ما لا يرضي الله؟
- نعم.. الذي لا يرضي الله ولا العبد.
- وكيف يسكتون عليها في الحيّ؟
- وماذا يفعلون بها؟ جربوا أن يضايقوها فصمدت، وتعاركت معها جاراتها فغلبتهنّ بفجورها وسفاهتها، إنّها، عند اللزوم، تهاجم حيّاً بمفردها، ويكفي لسانها البذيء ليوسّخ سمعة أيّة امرأة شريفة. أم يانكو مشهورة في القلعة، ولا يمكن أن يُذكر الحيّ إلاّ مقروناً بها.

- أليس لها عائلة؟
- لها يانكو وحده.. وقد كبر المسكين، ولا أحد يجرؤ أن يزوجه ابنته. وبسبب أمه، وزنختها، وتعييره بها، أصبح شبه معتوه، مع أنه، في الشباب، كان سوياً مستقيماً، وطيباً أيضاً.

لطمت أمي على خدّها وقالت، إذ تذكرت شيئاً كانت قد نسيته. ففي حي القلعة، حين كنا نطوف بحثاً عن بيت، قالت لنا أكثر من امرأة: «اقصدوا أمّ يانكو» ولم نفهم ما وراء هذا الكلام من غمز بالمرأة، وهزء بنا. وقد أسفت الوالدة لأن الزمن جار علينا إلى درجة أنّهم يدلّونا على بيت مشبوه كهذا، غير أنها، سرعان ما أشفقت على أم يانكو، فاستطردت: «ألا يجوز أن تكون المسكينة ضحيّة؟ ألا يفتري الناس عليها لأنها فقيرة؟ من جهتنا لم نَرَ منها إلاّ كلّ مودة، لقد كانت، بالنسبة للواتي قابلناهن، امرأة لطيفة، كريمة، دعتنا إلى بيتها، كما دعت المجدلية يسوع ذات مرة».

رفضت امرأة عمي منطق الوالدة. قالت:
- أم يانكو قوّادة...
وأصرّت الأمّ:
- «من كان منكم بلا خطيئة فليَرْمِها بحجر».
ثم استدركت:
- حاشاك يا سلفتي.. أنت ست الحراير..

المرأة الثانية منطقتها غربية، وتدعي «ن» والمرء لا يحتاج، مع هذا الاسم، إلى دليل. مجرّد أن تلفظه، إذا كنت راغباً في الاهتداء إليها، يقودونك إلى الحيّ، وربما إلى بيتها بالذات. كانت «ن» غير معنيّة بمرضاة الخالق. كان المخلوق كلّ همّها، فهي توجه عنايتها إليه، وتتقدّم بخدماتها إليه، من توفير امرأة، إذا كان الطالب راغباً في الزواج، إلى ترشيح خطيبة، وجمع رأسين على وسادة واحدة، إذا كان شاباً يريد عروساً، إلى الغناء على الموق وندبهم لقاء ما تيسّر، أقله كلمة طيبة، أو غيرة مبعثها الشهامة، أو التطوّع إذا كان الميت من الحي، أو جاءت دعوة من أهل الفقيد.

كانت شجاعة. إذا وقفت في فم الزاروب، تعذّر على احد اختراقه. وكان نصف شجاعتها في لسانها، ونصفها الأخر في قوّتها البدنيّة، فإذا أمسكت رجلاً من صدره، شالت به عن الأرض، أوضربت به الجدار. وقد تلجأ إلى طرحه أرضاً، والويل له إذا ناجزها عن بُعد، فقاموس شتائمها ضخم إلى حدّ لا يصدق، وإذا لم تجد من تجرّب به مفرداتها، حوّلتها نحو أولاد الزاروب، والأمّ التي تناصر ولدها، وتتصدّى لها، نصيبها الضرب، والسباب، ونتف الشعر، ثم الركل بالقدمين إلى أن تستجير. فإذا لم يكف هذا كله، طالتها بلسانها حتى تعود إليها نادمة مستغفرة.

إنني أذكر هذه المرأة، بوجهها المستدير، الواسع، الطفح شيئاً ما، وعينيها اللّوزيتين، السوداوين، وجثّتها التي هي أقرب ما تكون إلى جثة لبوة، وزنديها العامرين، الملحمين، وصدرها الذي يلعب عليه خيّال، ومؤخرتها المقنطرة وراءها، فهي تموج، في مشيتها، على الجانبين، وتفحّ، في حال التعب، كأفعى، وتقرأ الفنجان، وتزعم أن قراءتها لا تخيب.

لم تكن منبوذة كأمّ يانكو، ولا مُهانةً من أحد، وجميع الأبواب تفتح لها، وهي عذبة الحديث، ذَرِبة اللسان، حاضرة النكتة، ونكتتها، غالباً، بذيئة، تحكي عن مسائل الجنس الحكايا، وتعرف أسرار المدينة كلّها، لكنها لا تبتذل نفسها، ولا تنمّ، أوتشي، وفي وسع قاصدها أن يطمئن إلى

مساعدتها، إذا اقتنعت به أو وجدت سبيلاً لهذه المساعدة.

مأثرتها الكبرى كانت في الغناء على الأموات. إنها ندّابة قلّ نظيرها، والميت الذي تزيّنه هي، كالعريس الذي تجلوه غيرها. إنها، بعد كل شيء، تعرف أن تشارك، وجدانياً، في الحزن، وربما تأثّرت لفقيد شاب، فنسيت أنها ندّابة مأجورة، وتلبّست دور الأم، هي التي لم تعرف الأمومة، فأخذت تنوح، وتندب، وتغنّي غناء حزيناً، رقيقاً، موجعاً، يستدرّ الدمع. كان في صوتها شجو حمامة، وفي إنشادها تطريب مفجع، فأنت لا تستطيع، حين تسمعها، أن تحبس دمعك، وحين تصرخ أوف، تكاد تنتزع الأفئدة، وكثيراً ما تسبّبت في إغماء أمّ الميت أو أخته أو زوجه. أما الرجال، وحتى أكثرهم رصانة وتماسكاً، فإنهم يبتعدون عن مرمى صوتها، كي لا يذرفوا الدموع كالنساء. ومهما حاول سامعها أن يقاوم، فهو يستسلم إذا ما غنّت موالاً، أو غنّت «يا غزالي» أو رجت أهل الفقيد أن يسمحوا لفقيدهم بالمبيت عندهم «هذه الليلة» هذه الليلة فقط..

المرأة الثالثة هي «هـ» ومنطقة نفوذها وسط المدينة. كان أخوها، الخادم في الكنيسة، يتفادى الاحتكاك بها، ويمارس إحساساً بأنها ظهيرة له في الملمّات، لذلك فهو ينطلق في خدمة الكنيسة من موقع قوة، وينطلق في لذائذه بشعور الإنسان الذي له من يحمي ظهره، ومن يشهر لسانه دفاعاً عنه فيخرس جميع الألسنة.

وقد اشتهرت، عدا جبروتها، أو بسببه، بأنها «تنزل الخيّال عن ظهر حصانه» وأن لها في ذلك أساليب ليس أقلّها قوة الساعد، وهي، من هذه الناحية، شبيهة بـ «ن» سوى أن هذه أكثر ملاحة منها، فالست «هـ» عاطل عن الجمال، وتشبه الرجل بشاربيها، ومثله، إذا كان «فتوة» تسير في الحي، فتمشي سطوتها بين يديها، ليراها الجميع ويؤدوا لها التحية والاحترام.

كانت بدينة، لها شكل برميل، ينتهي برأس صغير، نسبيّاً، ورجلين ثخينتين، ربلتاهما مدوّرتان، معضلتان، كأنما مارست رياضة رفع الأثقال بها، فإذا خطت فإنها تطأ الأرض بكل ثقلها، وبخطوات وئيدة كخطى

الفيل، وتمضي وهي تهملج في مشيتها، مستأنية، متأمّلة، كأنها تقوم بجولة تفقّديّة لرعيتها.

ولقد عجبت وأنا اسمع كل هذه القصص، عن شجاعة هؤلاء النساء. كبرن في نظري. تمنّيت، بيني وبين نفسي، أن تكون أمي على مثل هذه الشجاعة، وأن تتخلّى عن ضعفها، لا تجاه والدي وحده، بل تجاه الناس، والمدينة، والدنيا، وأن تكف عن ذرف الدموع التي لم تحصل من ورائها على شيء، ولم يفتح لأجلها باب، ولم نَفُزْ ببيت نستقرّ فيه.

من جهة أخرى، زادت غربتي وزاد نفوري. أسفت، بغير تحفّظ، على تركي الاسكندرونة، تلك المدينة التي للشجاعة فيها معنى آخر، ووجهة أخرى. هناك كان الناس يتظاهرون ضد فرنسا، ويحملون السلاح في مقاومتها وهم عمّال نقابيون، لهم أفكارهم، وقناعاتهم، وقد جذبهم النضال السياسي، بينما يجذب الناس، في هذه المدينة، الخلاف على النفوذ وعلى قوة هذه المرأة أو تلك، ولهم، في العمل الوطني، نضال ضد فرنسا، لم يبلغ ما بلغه في إسكندرونة من عنف واستمرار.

اغتممت لأنّ أحداً لن يفهمني هنا، وأن أحداً لم يسمع بالأفكار التي كنت أؤمن بها، ولأن المفهوم النقابيّ لا وجود له، والنضال في سبيله عدم، وليس من أثر للوعي العمّالي، وليس ثمة، بين عمّال الريجي، وهي الشركة الوحيدة الموجودة، من احتفل بأوّل أيار.

فكرت بكلّ ذلك تفكيراً ملحّاً، موصولاً، وشعرت باستحالة أن يصير ذلك يوماً، وأن تعرف هذه المدينة كيف تهتمّ بما هو خارج المنافسة على الزعامة، أو بما له قرابة بفكرة العدالة الاجتماعية، وأن أعثر فيها على «الطيّبين» الذين عرفتهم في مدينتي.

وقعت في اليأس. كان يأسي بحجم عمري، وحجم تجربتي، كان يأساً طفولياً، لم يلبث أن تبدّد، ولم تلبث الحياة أن حفلت، هنا أيضاً، بالطيّبين، وانتشر الوعي النقابيّ، وبرز النضال ضد فرنسا، وضد الاقطاع، ولأجل

العدالة الاجتماعية، وفي غمرة مقاومة عنيفة ضد فرنسا وزلمها، تألّفت بعض النقابات، وكانت مفارقة كبيرة، أن السيدة «هـ» حصلت على بطاقة عضويتها النقابية ، بعد ذلك بأعوام، باعتبارها من العاملات في شركة الريجي!

- ٣ -

حصلنا أخيراً على بيت في حيّ القلعة. استأجرنا غرفة في دار قديمة خربة، يستأجرها عجوز اسمه شعبان، له زوجة أصغر منه سناً، تدعى زهرة، مهترئة العينين، تتلمّس الطريق بيديها، لأنها ترى نصف رؤية. لقد تزوج شعبان سترة لآخرته، فهو، كزوج، توقّف عن فاعليته منذ زمن بعيد، وهي، رغم قابليتها النسبيّة بعد، فإنها على حال من القذارة، ورثاثة الثياب، وتذراف العيون، وانحناء الظهر، واصفرار الأسنان، بحيث أن أحداً لا يجازف بالنظر إلى وجهها، ناهيك بأن يرى هذا الوجه قربه على الوسادة.

كانت الدار في زقاق يتفرّع من شارع فرنسا، عند دكّان المختار، ويتّجه نحو حي العوينة، مقابل مقهى يزبك. ولم تكن دارنا بعيدة عن الدار التي استقرّ في إحدى غرفها بيت خالي سوى خمسين متراً، وهي مثلها قبويّة، رطبة، معتمة، تشبه الغرف الأخرى التي لا نوافذ لها، ولا تفيد، من الباحة التي تطلّ عليها، سوى في إنارة عتباتها. أما من الداخل، فإن الساكن يحتاج إلى ضوء في النهار، وإلى مدّ رأسه من الباب لاستنشاق الهواء. ولم يكن في الدار ماء، وفي تأمين حاجتنا منه، للاستخدام أو الشرب، علينا أن نمضي إلى شارع فرنسا، وأن ننعطف إلى يسار، فنسير قليلاً حتى نبلغ زقاق كنيسة مار تقلا، الذي يقع صنبور الماء العمومي على مدخله.

غرفتنا كانت إحدى ثلاث غرف في الطابق الأول، ومن سوء الحظّ أنها كانت أشدّ الغرف سوءاً، فهي محجوبة بطرف متقدّم من جدار الدكّان التي يحتلّها شعبان وزهرة، ولا يراها الداخل لأنها اختبأت في ركن شماليّ شرقيّ، ولها باب بحذائه نافذة عليها مشبك حديدي، وكلاهما لا يفلحان في إنارة ربع الغرفة، وتبقى الأرباع الثلاثة معتمة.

وضعنا تختين خشبيين، في زاويتين متقابلتين، ووضعنا الصندوق الوحيد الذي نملكه تحت النافذة، وفي الصدر خواناً، مع بضعة كراسٍ خشبية مقشّشة، وهذه هي كل «الموبيليا» التي أثّثنا بها بيتنا الأول بعد الهجرة.

بكت أمي يوم سكنّا هذه الغرفة، لم تفلح زهرة في إقناعها أن البيت ملائم، وأنه للمبيت فقط، ويمكننا، في النهار، أن نقضي أوقاتنا في الباحة. لم يكن ثمة مطبخ، كان هناك جدار متهدّم، في قاعه مرحاض لا يمكن أن تكتشفه دون ضوء، وإلى جانبه، في غرفة جدّ صغيرة، تسكن فلاحة عجوز، تدعى أمّ صقر، تعمل خادماً في البيوت، ويقوم صقر، وهو ابنها الوحيد، بنقل الماء إلى الجيران وأهل الحيّ، وتسكن الغرفتين المجاورتين عائلتان قرويتان، الأولى مؤلفة من أب وأمّ وطفل، وكنّا ندعوهما أبا جميل وأم جميل، والأخرى تضمّ زوجين من الضواحي، هبطا المدينة حديثاً.

الطابق الثاني يُرقى إليه بدرج مسوّر بحاجز خشبيّ، والدار كلّها بناء قديم الطراز، والباحة نصفيّة مكشوفة، تطلّ عليها غرف الطابق الأعلى، ومنها تتلقّى النفايات المتساقطة، والتراب الذي ينخله السقف. مع ذلك كنّا نشعر بشيء من حسد، لجيراننا الذين فوق، فهم قادرون على تنسّم الهواء، والاستمتاع بالشمس، بينما نحن محرومون من النعمتين، إضافة إلى لعنة باب الدار، الذي يفتح على الزقاق، ويجعلنا في باحة الدار، حيث نضطر إلى الطبخ والإقامة في النهار، عرضة لأنظار المارّة.

قالت أمي، وهي تشعل شمعة وتحرق بخوراً في الغرفة:

ـ اللهم اجعله مسكناً مباركاً.

وقال والدي:
— نحن لن نتزوّج فيه، حين نشتغل، سننتقل منه.

ولم تعلق أخواتي بشيء. كان واضحاً أن هذا البيت سيكون بيتنا إلى أمد بعيد، وأن علينا أن نعتاده ونعتاد رطوبته وعتمته، وإلاّ نزيد في حسرة الأمّ، وكآبتها، فالليرة السورية التي ندفعها أجرة، نقتطعها من لقمتنا، ومن المتعذّر، في اللاذقية، أن تعود الأخوات إلى الخدمة في بيوت الناس. كان هذا، في مدينتنا هذه، مستقبحاً، فالخادم تدعى «صانعة»، وسمعتها مدعاة للريبة، ولم تكن العائلات، حتى أشدّها فقراً، تقبل بأن تخدم فتياتها في بيوت الآخرين، ولم يكن لنا من حيلة للعيش، سوى أن تشتغل الأمّ، والأخوات أيضاً، في الريجي.

بعد استقرارنا بيومين، جاءنا كيس طحين من عمّتنا التي تسكن المدينة نفسها. كانت حالها ميسورة، وكان ابنها البكر يعمل في مكتب «دولاكي» وهو فرنسي متقاعد، يشتغل مدنيّاً في اللاذقية، وقد سيّر، لأول مرة في تاريخ المدينة، «أوتوكاراً» بينها وبين حلب، إضافة إلى أن المكتب وكيل لشركة الطيران الفرنسية.

وضعنا مسألة عملي موضع البحث منذ دخلنا البيت الجديد. تناقشنا، أمي وأنا، عما يمكن أن أشتغل. كنت لا أجيد أيّما مهنة، والشهادة الابتدائية التي أحملها لا تؤهّلني لشيء، وبنيتي ناحلة لا تصلح لأيّ عمل جسديّ. كنت أرغب أن أعمل مثل ابن عمي. كان هذا يعمل في التبغ المدخون مع شقيقته، وكان عمله في فرع «شركة الامبريال» ودوره أن ينقل التبغ المدخن، وأن ينقّيه من الأعشاب والعيدان، والنفايات. لهذا كان العاملون معه يرتدون ثياباً عتيقة، ممزّقة، تستبدل آخر النهار، ولا يمكن العودة بها إلى البيت، لأنها تغدو سوداء، مزّيتة، بسبب ما يفرز الدخان من قار. كذلك كانت أجسام العاملين سوداء، ملوّثة بالقار، باستثناء الفم والعينين، وكان العاملون يصطحبون صابوناً يغسلون به وجوههم وسواعدهم قبل الانصراف. وفي البيت يغتسلون بالماء الساخن، وهذا وحده فقط كان

كفيلاً بإعادة أجسامهم إلى لونها الطبيعيّ. أما الأجرة فهي أربعة قروش للمرأة، وستة للرجل، وللأحداث تعرفة خاصة.

لم يتحقق حلمي بالعمل مع ابن عمي في المدخون. كان السبب المباشر أنّ العمل محدود، وطالبيه كثيرون، وهو عمل موسميّ، يدوم أشهر الصيف فقط، ونحن وصلنا اللاذقية في أواخر تموز، حين كان موسم المدخون في نهايته. لقد كانت هذه هي الصدمة الأولى التي أتلقاها، وقد تألمت من جرّائها، وعدت إلى البيت حزيناً، فحاولت أمّي ملاطفتي، وقالت إن الله سيفتحها في وجهي، ولا بد أن يوفر لي الرزق كما وفّره لغيري.

لكن امرأة عمي، دون مراعاة لمشاعري، تقدّمت بهذا الاقتراح:

ـ لماذا لا يبيع الجرائد، كسواه من الأولاد؟

ضربت الأم على صدرها:

ـ جرائد يا سلفتي؟

ـ وماذا يعني؟ كل الأولاد يبيعون الجرائد والسكاكر أو الأشياء المماثلة.

ـ لكن ولدنا ابن مدارس.. يحمل السرتفيكا.

ـ مرحبا سرتفيكا.. ابني يحمل مثلها..

ـ ابنك يعمل في المدخون..

ـ كلّه عمل.. المهم الحصول على الرزق..

رفضت والدتي الفكرة. حسمت أمرها ورفضتها. أنا لويت رقبتي من ذلّ. أولاً لم أكن ولداً. كنت في الخامسة عشرة من عمري، وثانياً بيع الصحف يحتاج إلى صوت جهير، ومن سوء الحظ أنّ هناك عاهة في صوتي، ثالثاً كنت وحيداً، وكان جديراً بأهلي أن يبحثوا لي عن عمل لائق، وأن يعلّموني مهنة، ورابعاً بيع الصحف وقف على الأيتام والمتشرّدين في الأزقة، وهذا ما سبّب لي،عند عرضه، صدمة قوية، كان من جرّائها أنني سقطت مريضاً، وتسبّبت في دموع غزيرة، صادقة، لأمّي.

لم أبع الصحف، اشتغلت في متجر «ديلاكي»، كنت بمثابة آذن، أقضي حوائج المكتب، وبيت المعلم، وأردّ على الهواتف، وكادت الأمور تستقيم، لولا أنه، في الثاني من أيلول ١٩٣٩، أعلنت الحرب العالمية الثانية، ودخلتها فرنسا، فدُعي السيد ديلاكي، وهو كابتن متقاعد، إلى الخدمة العسكرية، وبذلك أغلق المحل وعدت بطّالاً من جديد.

في هذه الأثناء كان والدي قد دبّر عملاً، كان عملاً غير مألوف منه، ولم يفكر يوماً أنه سيمارسه، لكن الحاجة اضطرته إليه فقبله، ملتحقاً بعمّي الذي كان يعمل في الفندق الكبير بصلنفه. كان عمل الوالد «مارمتونا»، يغسل الصحون، طوال فترات النهار، وفي الليل، والصباح الباكر، يساعد عمّي في الطبخ، فيقشر البصل والبطاطا، ويشارك في تكنيس الأرض وجمع الموائد والكراسي، وإعادتها بعد المسح والتنظيف، لكن هذا العمل سرعان ما انتهى بانتهاء الصيف، فعاد الوالد بطّالاً أيضاً، وعدنا نعيش على الكفاف، مقبلين على شتاء لا نعرف ماذا سيكون حالنا فيه.

كنت، بعد تركي العمل في متجر ديلاكي، وبعد اندلاع الحرب العالمية الثانية، أتمزّق شعورياً، وأتخبط في عيشي كأنني كبرت أعواماً. لقد أدركت ما هي صعوبة أن يكون ربّ البيت عاطلاً عن العمل ومورد الرزق مقطوعاً، وأن يفرغ كيس الطحين الذي بعثت به عمّتنا، وأن نعود، في صعوبة وضعنا، إلى حال من اليأس المدمّر.

أحسب أنني، في هذه الأيام الشقيّة، عرفت اللاذقية معرفة ستكون مفيدة لي في المستقبل. كنت أنطلق صباحاً من البيت، دون إفطار، دون كلمة، وأمضي إلى الشوارع ضارباً فيها على غير هدى. أخترق في تجوالي ما قبل الظهر، أحياء الشحّادين والصليبة والموارنة، حتى أبلغ المستشفى الوطني، ومن هناك أواصل السير إلى عمود القديسة الكسندرة، وأشرف على الرأس الصخريّ الذي يطل على البحر، فأقف، أو أجلس، وأتابع حركات النوارس فوق الموج، وأبعث بخواطري بعيداً إلى اللّجة، كأنما أطمّرها هناك، أو أغسلها في المياه، وكثيراً ما وددت لو أنّ مركباً عابراً

يأخذني. كنت أفكر بالسفر، وإلقاء نفسي بين ذراعي المجهول، ولشدّة ما أنا مشوقٌ إلى الرحيل، كنت، لدى مرور أية باخرة، أتخيّل نفسي راحلاً فيها، أقوم بالعمل داخلها، مهما يكن نوع هذا العمل، مسافراً هكذا بغير هدف، دون أن أفكر بالعودة ثانية هذه الأمنية في الرحيل ستعيش معي، بعد ذلك، العمر كله، ولعلّها استقرّت في ذاتي منذ تلك الأيام البعيدة، فأنا ما زلت أحيا على أمل الرحيل، دون أن أحـدّد إلى أين. يكفي، أقول في نفسي، آن أوان الضيـاع، زمن التشـرّد، وقت الهجـرة إلى المحيط أو إلى القمر. وما هذه الأفكار إلّا رجع أفكاري حين كنت أجلس على الصخر، عاطلاً عن العمل، خاوي البطن، فارغ الجيب، أتشبّث بالبقاء حيث أنا، كيلا أرجع إلى البيت، وأنظر في عينيْ أمّي الحزينتـين، وفي عيون أخـواتي الفارغة. غير أنني كنت أعود مضطراً، لأنه وقت الظهر، وينبغي أن أكون في البيت، نفياً لقلق أمي، وتطميناً للعائلة بـأنني ما زلت حيّـاً، ولم أنتحر بإلقاء نفسي في أيّة هاوية.

ولم أكن أسأل عن طعام، كنت أعرف أنه لا طعـام، وأن كسرة خبـز، وحبّات من زيتون، هي زاد اليوم، كما كانت زاد الأمس، وما قبله، وكانت أمي تجهد للتسرية عني، فتخترع قصصاً عن الفرَج، وكلاماً عن الـرزق، وتذكرني بكلمات الإنجيل: «لا تكونوا كمن لا رجاء له. . .».

لكن هذه المواعظ لم تكن تزيد سوى في إثارة نقمتي على الدنيا. إنني في النقطة التي أعي فيها ما يجب أن أكون، إلا أن هذا الذي سأكونه ما كـان ممكناً بسبب هزالي، وعندئذ كانت تتفجّر نقمتي غضباً على الزمن الذي أراد لي أن أكون نحيلاً إلى هذا الحد، وعلى الأب الذي أنجبني بهذا الضعف، وعلى أمي، على أمي وآسفاه، التي عالجتني في صغري وحالت بيني وبـين الموت. كنت ساخطاً على نفسي، قليل الحيلة في أمري، فـاقـد الثقة بإمكاناتي، فإذا كان بعد الظهر، خرجت من البيت لأذرع نصف المدينة الثاني، مجتازاً حي العوينـة، إلى الشيخ ضـاهـر، ومن هنـاك إلى حي الأميركان، فالبحر، حيث أمشي على الشاطئ حتى السجن، وأصعد من

هناك إلى عين أم إبراهيم، فأبلغ البراري وأتوغّل فيها، تندفع قدماي في الطريق، وغالباً في الفلاة، بينما مئات الأفكار، ومن أشدها قتاماً، تطوف في رأسي، وتطنّ أصداؤها في أذنيّ.

لماذا البراري لا سواها؟ لماذا البحر؟ لماذا الشوارع الخلفيّة للأحياء الشعبيّة؟ ماذا كنت أجد هناك؟ ما هي الأفكار التي كانت تملي عليّ تطوافي هذا، وهي محمولة في الرأس، بينما في الصدر همّ ثقيل؟ ربما كنت، في ابتعادي عن الناس، أفكّر في الناس، أفكّر بنفسي من خلالهم، أفكّر فيهم من خلال نفسي. القاسم المشترك بيننا هو الحياة الشقيّة، الخالية من البهجة، المحتاجة إلى أدنى مقومات العيش الإنساني. كنت أمرّ، وربّما كلّ يوم، في خروجي إلى الفلاة، بمقبرة الفاروس، هذا الدير القديم الدارس الذي جاءه المعرّي يوماً، وفيه اطّلع، من الرهبان، على أطراف من الفلسفة اليونانية، وأنعم لديهم بحسن الوفادة. إنه أشبه بالرابية، وكان رابية مرتفعة، سميت بالفاروس، وهي كلمة يونانية تعني المنارة، وكان مرأى مقبرة الفاروس، يلقي في روعي المهابة لا الخوف. ما كنت أخاف القبور، أو الشواهد، وكان يحلو لي، أحياناً، أن أمرّ بينها وأقراها، وكنت أحسد الراقدين فيها، وأتساءل في كثير من الأسى: «ما الفرق بين الصمت هنا، والكآبة الصامتة هناك، في المدينة؟ وكيف يحيا الناس هذه الحياة الرتيبة، المتصلة، الملأى بالشظف، دون أن يفكّروا بالانتحار، وبالانتحار الجماعي؟» لقد كنت، آنذاك، قريباً جداً من فكرة الموت، وكان البكاء، وأنا أجلس على حافة قبر، يريح أعصابي، لكن الدمع كثيراً ما عصاني. كان يقف في لهاتي ويحرقها. يتحيّر في المآقي دون أن ينذرف منها، وكنت أخفي عن أمي، وعن أهلي، وكذلك عن ابن خالي، حين ألقاه، ما أنا فيه من حزن، وما يخالجني من شجن، وكيف أهرب من البيت وأطوف في الشوارع والأحياء. كنت أستشعر، بيني وبين نفسي، ضعفاً مشيناً في موقفي هذا من المدينة والحياة، وكان أجدر بي أن أطرح كلّ ذاك الاكتئاب، وأمدّ لساني للفقر، لولا أنّ نشأتي كانت بائسة، وكانت جملتي العصبيّة من الرهافة

بحيث لم يبق بيني وبين التلف إلا القليل.

ولقد أعارني ابن خالي كتاباً يتحدّث عن اللاذقية. كان كتاباً تاريخياً وجده في مكتب معلّمه اليكسي مرقص، وقد فرحت به فرحاً غير قليل، وحملته معي حيثما طوّفت. كنت أقرأه على البحر، وفي البريّة، وتحت أشجار الزيتون مقابل مدرسة بوقا الزراعية، وفي مقبرة الفاروس، ومنه، عرفت عن تاريخ اللاذقية أشياء كثيرة كنت أبحث لها، في فراغ أيامي، عن مواقع جغرافية في المدينة، حتى صار ذلك هوايتي، فإذا قرأت عن الطابيات مضيت إليها، وإذا أطلعت على تاريخ القلعة، صعدت إليها عن طريق جامع المغربي، وكنت أقارن بين ما كانت عليه اللاذقية، حين كانت تحمل اسم راميتا، وبينها الآن، فقد تطوّرت من قرية صغيرة مبنيّة على تل صخري، تابعة للمملكة الأوغاريتية، إلى مدينة، فتحها نيكاتور، قائد الإسكندر الكبير، وزارها المتنبّي، وفيها حيّ الأسكلة، الذي هو حيّ الميناء، وقد اشتهرت بتجارة التبغ، وكانت له شركة رئيسها إبراهيم آغا أبو بلطه، ومقرّها في خان بيت مرقص، مكان المندوبية الآن.

لم أكن، حينذاك، أدري أنني سأكتب يوماً. كانت هذه المعلومات، وما عرفته عن جغرافية اللاذقية وتاريخها، أشياء للتسلية، وقد نهتني أمي عن كثرة القراءة، في ضوء فانوس الكاز، وخافت على عينيّ، وكانت ما تفتأ تقول:

ـ حرام عليك، يا بني، أنت تضيع وقتك ونظرك.

وكنت أجيبها:

ـ وقتي ضائع على كلّ حال.. أم تظنّين أنني أشغله بالصياغة؟

ـ وعيناك؟

ـ أسلم ما فيّ عيناي.. إنني أقرأ على ضوء القمر..

ـ وماذا تقرأ؟

ـ تاريخ اللاذقية..

ـ للاذقية تاريخ؟

– لكل شيء تاريخ . .
– غريب . . . ومن يكتبه؟
– الكتّاب . .
– مثلك أنت؟
– أنا؟ لو كنت كاتباً . . اسمعي يا أمّي، لماذا لا أعود إلى مهنة الحلاقة؟

فكرت أمّي وقالت:
– تريد ذلك يا حبيبي؟
– بل أتمنّاه . . لقد بدأت بتعلّم هذه المهنة فلماذا لا أكملها؟ من الغد أبحث عمّن يقبلني أجيراً عنده.

لكنني، في الغد، كنت في طريقي إلى قرية «ح» لأعمل مع عائلتي في جمع الزيتون. كان هذا أول لقاء لي مع ريف اللاذقية، ولم تكن هذه القرية التي يملكها بيت «ف» تبعد كثيراً عن المدينة، ودورنا فيها دور الناطور، فأصحاب كروم الزيتون، خشية أن يسرقه الفلاحون، يستأجرون نواطير من العائلات الفقيرة، تقيم كل عائلة في طرف من الكرم، تحرسه ليلاً نهاراً، مقابل واحد بالعشرة مما تجنيه من الزيتون عندما ينضج في الخريف.

الذي رشحنا لهذه النظارة يدعى «أبو نعمة» ولقبه المطعون، وكان يعمل محاسباً، يقوم بتقبين الزيتون المرسل إلى المعصرة ويسجّل عنده الأرقام، يقدّمها، مساء كل يوم، إلى الشوباصي، وهذه كلمة تركية محرفة أصلها «سوباشي» أعني رئيس المياه.

جرى ذلك بيسر شديد، فبعض العائلات، من معارفنا، يقوم بهذا العمل كلّ عام، ينطر كروم الزيتون الكثيرة المنتشرة في ريف اللاذقية، وقد سمع المطعون بهجرتنا وفقرنا، فعرض علينا أن ننطر الزيتون كسوانا. كانت النطارة قد بدأت منذ مدة، لهذا تخصّصنا بنطارة «البورة» التي يجمع فيها الزيتون المقطوف خلال النهار، ويوزن بعد تعبئته بالشوالات، وتأتي الجمال فتحمله إلى المعصرة.

كان منطقياً، إذن، أن نقبل العرض دون تردّد، وهذا ما فعلناه. استدان الوالد، لا أدري ممن، بعض النقود، اشترينا بها كيساً من الطحين، وهذا كلّ مؤونتنا، وأتى، بعد الظهر، بعربة «طنبر» وضعنا فيها بعض الحاجيات: فرشات صغيرة، وبساطين، وطنجرة، وملاعق، وشيئاً من البرغل الذي أحضرناه معنا من إسكندرونة، ومضى الطنبر أمامنا، يجرّه بغل عجوز، يسير الهوينى، وسرنا وراءه، في أول رحلة إلى الأرياف بعد الهجرة.

الواقع أنّ الوالدة وافقت على مضض. وافقت لأنه لم يكن لنا خيار، فنحن عاطلون عن العمل، وليس لنا مورد، وانتظار الفرج طال، ولنا أسوة بالعائلات الفقيرة المماثلة. غير أننا، بما سبق وعانيناه من التشرّد في الريف، لا سيما في قرية الأكبر، قبل استقرارنا في المدينة، كنا كمن لدغ من جحر، ولا نريد، أو لا تريد الوالدة، أن تتكرّر اللدغة. لكن الحال، هنا، تختلف، ما دام العمل قريباً، في قرية تعدّ في الضواحي، وما دام ذلك لن يدوم سوى شهرين إلى ثلاثة وينتهي بانتهاء موسم الزيتون، ثم إن الحاجة تدفعنا إلى الجحيم لا إلى الريف وحده، فالنزوح هنا مؤقت، وسيكون لنا العشر، وهذا متوقّف على همّتنا، واجتهادنا، وأفضل ما تقوم به عائلة، تعدّ خمس أنفس، أن تجمع الزيتون، إضافة إلى حراسة الوالد التي لها أجرها المستقل، وهو أجر بسيط، لا يذكر، لكنه أفضل من لا شيء.

مع ذلك قالت الوالدة وهي تبكي:
- أرجو، يا سالم، ألاّ يكون هذا الخروج للعمل في الزيتون بداية تشرّد جديد.

قال الوالد:
- وكيف يكون تشرداً؟
- لا أدري، لكنني أخاف التجربة. المحكوم بالإعدام يخاف من جرّ الحبل.

انتر والدي، سريع النزق، وقال:

ـ إذن نبقى هنا، ونفتح أفواهنا للريح . .
ـ أما كان بالإمكان أن تجد عملاً مع أخيك في الكازينو؟
ـ وماذا أعمل؟ مارماتونا؟
ـ وماذا فيه؟ كلّه عمل . .
ـ أنا لي مهنتي . .
ـ ستعود إلى بيع المشبّك؟
ـ بعد عودتنا من الزيتون . .
ـ يعني تعود إلى نغمة إسكندرونة؟
صاح :
ـ وما فيها هذه النغمة؟ . . ألم نعش من بيع المشبّك؟
ـ ومن الخدمة في بيوت الناس.
ـ على العائلة أن تتعاون . .
ـ لكننا هنا لن نخدم . . لن أرسل بناتي للخدمة في اللاذقية .

قال الوالد مدارياً :
ـ لدينا الوقت لبحث هذا الأمر . . أنا مثلك لا أريد . . دعينا نذهب لجمع الزيتون، وحين نعود يفرجها الله .

ذهبنا كما طلب الوالد، كان خروجنا من المدينة أشبه بالنزوح، وكنّا، بمعنى ما، نازحين، فالأرض السليبة غدت بعيدة الآن، والحجر الذي كان في موضعه قنطاراً قذفته يد قاسية فاندفع ليسقط بين الشوك والعليق . الشمس تميل عن سمتها في القبّة الزرقاء العالية، والضوء المتوهّج لشمس الخريف بدا عليلاً ورسياً، ومن حولنا، ونحن نتبع الطنبر المحمل بأمتعتنا، كانت المدينة تحدّق بنا بعيون باردة، فتأتي نظراتها وتتبقّع على جسومنا . كانت الأبنية، والشرفات، والأقبية، والأرصفة، والدكاكين، ومحتوياتها، وأصحابها، وزبائنها ينظرون إلينا، وكانت في عيونهم نظرات تساؤل داكنة، محايدة، لا مبالية، كأنما هي نظراتهم وجنازة تمرّ، وخلفها جمع قليل من أهل الفقيد .

كان النعش محملاً على الطنبر، وكنا نحن المشيّعين، وأقرباء الميت، وما كانت دموع، ولا شعور محلولة، ولا ثياب سود، لكن الموكب، في صمته، وإطراقة السائرين فيه، وانكسار نظراتهم، والوجوم الذي يلفّهم، يعطي الرحلة طابع التشييع، ويجعل خروجهم من المدينة باتجاه الريف، مثل خروج الجنازة باتجاه المقبرة، مع فارق واحد، هو أن الميت له قبر، والمقبرة لها مكان، والمشيّعون يعرفون أنهم سيعطون عزيزهم للأرض، في حفرة معيّنة، ويعودون، بينما نحن لا نعرف الريف، ولا القرية، ولا طريقة النطارة، أو كيفية جمع الزيتون، أو طول الرحلة، ومدّة الغياب. كنا خمسة أشخاص مستسلمين للقدر: الوالد، الوالدة، أختي الكبيرة، أختي الصغيرة، وأنا، وكان في استسلامنا نوع من الخطو القلق، في عتمة تقود إلى مجهول، وكلّ منا ينطوي على شعور بالإهانة، بالمرارة، بالكره للعيون الحجرية المحدّقة بنا، ويتجلّد كي يتحمّل وخزها، منتظراً بشوق، ونفاد صبر، تلك اللحظات التي نخلف فيها المدينة وراءنا، ونلقي بأنفسنا بين ذراعي الريف، ويُخلى بيننا وبين الشمس والهواء والخضرة، ونرى أمامنا، على مدّ النظر، الفضاء الرحب، والدنيا التي تستحّم بشمس الأصيل.

خرج الطنبر عن الطريق العام. تبعناه، مضى في درب وعرة، تبعناه أيضاً. وبعد أن دخل بين أشجار الزيتون، تلفّتنا إلى وراء. دارت عيوننا فيما حولنا. كانت المدينة قد ابتعدت، كفّت عيونها الحجرية عن دقّ نظراتها في أجسامنا. مرة أخرى، بعد سكنى المدينة أعواماً طوالاً، نجد أنفسنا في الريف، ونلقى الريف يحتوينا برفق، وتقوم، من اللقاء الأول، ألفة بيننا، ويتبدّل شيء ما في الجوّ المحيط بنا: الشمس تصبح أبهى، والهواء أبرد، والضوء أقلّ كثافة، ولزوجة البحر تنأى، وحوار ما، صامت، مريح، مفرح، يقوم بيننا وبين الكائنات، ثم يقوم بيننا وبين أنفسنا، ويتخطى ذلك إلى الكلام، ولا صوت بين أحدنا والآخر، فنشعر بالحرية، بالخفة، بالغبطة، وتفارقنا صورة الجنازة والمشيّعين، ونتّخذ، شيئاً فشيئاً، صفة الراحلين في طلب عمل، ملجأ، مأوى، وندخل في ثوب الطبيعة، ونحسه

طازجاً، نظيفاً، مبهجاً، كأنما استحممنا، لتونا، في ماء بارد لينبوع على الطريق، وتواصلنا مع الله والملائكة وصار قدرنا أقل جهمة وقتاماً.

كان «الطنبر» يسير في المقدمة، ووراءه الوالد، فالوالدة، والأختان، وأنا ألحق بهم على مبعدة، حريصاً على ألاّ أكلّم أو أتكّلم، قانعاً بهذا الانخلاع من المدينة، والهرب من عيونها الثعبانية، والارتماء الروحي في فضاء واسع، والاسترخاء بعد طول توّتر، بفعل الهجرة من اللواء.

هنا، في البريّة، لا أحد يملك قصراً أو كوخاً. نحن والآخرون سواء. وهنا لا أحد يملك عملاً كبيراً أو حقيراً. الدونيّة التي فرضتها المدينة على مشاعري انتفت. أنا أعرف أن هذا الانتفاء لن يطول، فنحن، في الحقيقة، لسنا إلاّ أجراء، لكن مسافة الطريق، بين اللاذقية وقرية «ح» أعطتني إحساساً بالشخصيّة، كما أعطتني المسافة بين إسكندرونة واللاذقية إحساساً بعالم مستقلّ داخل الأوتوبيس الذي نقلنا. إن هذا الإحساس بضآلة الشخصيّة، وأحياناً ضياعها، سيظلّ يلازمني في المدن الكبيرة، وليست إلا الألفة في هذه المدينة أو تلك، هي التي خففت من هذا الانعدام للكيان، وحققت بعض التوازن الذي بفضله عشت، وتلاءمت بعد سنوات طوال من الإقامة الدائمة.

كانت الأم، وهي تسير خلف الوالد، ما تفتأ تتلفّت إلى وراء. كان بها خوف دائم زرعته الغربة، والتشرّد وفقدان الطمأنينة، وأحسب أن هذا الخوف انغرس عميقاً في ذاتي، وهو الذي كان وراء مشاعر الانتفاء، والتوجّس، والقلق، والاكتئاب التي أحس بها، وهو الذي صار مع الأيام إعياء نفسياً، كافحت ضده عمري كلّه. لقد كانت حربي مضاعفة، مع مجتمعي، ومع نفسي، وكثيراً ما اندفعت في المعركة الخارجية، ضد فرنسا والاقطاع، ونجحت في أن أكفّ الخوف، وأمتلك الإقدام والحماسة اللازمتين للنضال والكتابة، ملقياً بجسدي دون تفكير بالعواقب، لكن حربي ضد نفسي، ضد إعيائها، وخوفها، واكتئابها، فقد كنت أنتصر فيها مرة وأهزم أخرى، لكن الحرب استمرّت، وبان الخوف، داخلياً، موازياً

للظلم خارجياً، ولعلهما اندغما في واحد تعذّبت في مقاومته عذاباً لا يطاق.

خوف الأم كان على العائلة، انبثق مرة وإلى الأبد في ليالي السويدية، حين كان الأب يرحل، ونظلّ في البستان، وسط اللصوص والحيوانات المفترسة، وهي، الأم، من أول الليل، تغلق الباب، في الكوخ الطينيّ وتضع وراءه بعض الأعمدة، وتظل متوجّسة، موسوسة، متوقّعة في كل لحظة أن يطرق الباب، أن يفتح، أن ينقب الجدار، أن تنفتح كوّة في السقف، وأن يأتي منها اللصوص ويخطفوا أحد أولادها، أو ينجح ضبع ما في كسر الباب والدخول علينا فينشب أنيابه فيها وفينا.

لذلك كانت مروّعة دائماً، تدور بنا، وحولنا، مستطلعة، متفقّدة، سائلة ربّها أن يدفع عنها الغائلة، ويحمينا من الأذى الذي لم تكن تعرف، أو تملك، طاقة الوثوب عليه، فهي تدرأه بالأدعيات، والنذور، والحذر والسهر، وكل الدفاعات السلبية التي في متناول يدها، معبّرة عن خوفها بلسانها الواجف الذي ما ينفك يتضرّع، يستغيث يتشفّع، وبالصلاة، عند المغيب، أمام المسيح المصلوب، أو أمام العذراء، ونحن وراءها وهي تضع منديلاً على رأسها، وترفع يديها إلى ربّها، في خشوع كامل، صائحة: «يا رب، يا يسوع، يا مريم، استروني، لا تفجعوني، احموا صغاري هؤلاء الذين ليس لهم في هذا القفر سواي».

وكان خوفها من المجهول يتضاعف وهي في الريف، ويلحّ عليها إلحاحاً مرضياً، وقد خيل إليّ أنها اليوم، ونحن نسير وراء الطنبر، قد عاودها خوفها المرضي، فهي تحسب حساب الليل، وما فيه من ظلام ورهبة وأعداء، وتفكر بالكوخ الذي سنقيم فيه، والكرم الذي سننطره، وأشجار الزيتون التي تتحوّل في العتمة إلى أشباه، لا تلبث أن تنقلب إلى وحوش ولصوص تنقضّ علينا ونحن في الفلاة.

كانت تتلفّت إلينا، وهي تمشي مجارية الطنبر في سيره، وتتوقّف إذا قصّرنا، فحثّنا على السير، أو تقول شيئاً مفرحاً، بغية إزالة الوحشة التي

نحسّ بها، أو تسأل، هذه الأخت أو تلك، عن الأشياء التي جلبناها معنا، وتشير إلى أشجار الزيتون قائلة:

ـ ما أثقل حملها المبارك.

ويرد الوالد:

ـ الموسم جيّد ما شاء الله.

ـ سيكون علينا أن نجمع كميّة جيدة.

ـ الكرم أمامنا، ونحن وشطارتنا..

قالت أختي:

ـ سأكون الأشطر بينكم.. غداً ترون..

قالت الأم:

ـ أنت دائماً الأشطر يا حبيبتي..

ـ أما أخوك، أضافت الأم، فسينبر[1] لنا الزيتون.

قلت لأفرح أمي:

ـ سأنبر وأجمع أيضاً..

قال الوالد

ـ سأنتقي لك مرواطاً[2] متيناً وخفيفاً.. وسأساعدكم في النهار، حين لا تكون هناك نطارة على البورة.

قالت الأم:

ـ سنتساعد.. الله بارك بالكثرة.. ما دام القلب على القلب فإنّ العذراء معنا..

بعثت هذه الكلمات الانتعاش في القافلة الصغيرة. أحسسنا، الآن، أننا على ما يرام، وأن الرحيل إلى الريف ليس فاجعاً كما خيّل إلينا. وشدّدت كلمات الأخت من عزائمنا، فغدا خطونا أوسع، أوقع، أجرأ،

(١) نبر الزيتون ضربه بالمرواط ليهرّ على الأرض.

(٢) المرواط قضيب طويل من التوت أو غيره.

وتبسّم أحدنا للآخر، وتبسّم الكون من حولنا، فكأن أصابع غير مرئية قد مست أفئدتنا، فهي الآن منشرحة، منطلقة، مندغمة مع ما حولها، والنور الذي يشعّ من الشمس المائلة باتجاه البحر، قد أضاءنا من الداخل، رسم علينا تعويذة المسرّة، والفضاء الرحب قد رحل بنا عبر الأمداء الخضر من حولنا، والريح الخفيفة، الرهوة، ريح المساء، في الخريف هذا، قد أحيت ما ذبل من أوراقنا، فاخضرّ شيء ما فينا، والتمع، كما أوراق الحور، في لونه الفضي، وتشكّل، مع ذهب الأصيل، فصار ميناً للوحة عنوانها: «قبل الغروب.. في الريف»..

حتى البغل العجوز، الذي يجرّ الطنبر، استشعر بهاء الأصيل، وتمتّع، على نحو ما، بالبرودة، وبالجوّ الذي ينبىء بالراحة ويسبقها، فانطلق على رسله، وكفّ صاحبه عن الصياح، والتلويح بالسوط، ومرّت عصافير صغيرة، سوداء المناقير، فوقنا، منطلقة من الساحل إلى الجبل، تحوم في الفضاء، راسمة أشكالاً جميلة من الدوائر والمستطيلات، مزقزقة وهي تتنقل بين شجرة وأخرى، ودغل وآخر، وبدا في البعيد، على خاصرة الربوة المغطاة بخضرة الزيتون، دخان منبعث من تنّور، وجاء عواء كلب يعود مع القطيع إلى القرية، وهفّت علينا رائحة خبز تنوري شهية، تخالطها رائحة القطيع الذي مرّ بنا، وتقاطعت في السماء الصافية تواشيح ضياء، وهبطت، شيئاً فشيئاً، سكينة على قلوبنا.

وصلنا أجمة حور، اجتزنا ساقية على كتفها حديقة فيها برتقال، وفيها بيت ريفيّ جميل قال الحوذيّ إنه ملك بيت «ف». أشار بسوطه إشارة شملت الجهات الثلاث التي أمامنا قائلاً: «كل هذا ملك بيت «ف». كانت ثمة، حيث أشار بيمينه، أراض لا حدّ لها، تتخلّلها بعض الروابي، وكلّها مغطاة بأشجار الزيتون الخضراء اللطيفة، التي تتدلّى أغصانها من شدّة الحمل وكثافته، وكانت التربة، من تحتها، محروثة، وأثلامها ظاهرة، والشوك فيها كثير، وبينها شجرات تين، أعطت ثمرها، ولم يتبقّ عليها منه سوى حبّات قليلة، ضائعة بين الأوراق التي مع احتفاظها بالخضرة أخذ

اللون الأصفر يبرقشها.

طالَعَنا مفرقٌ تمتدُّ منه درب صاعدة نحو الرابية ذات البيوت الفلاحية القليلة، وبينها «قناق»[1] للسادة أصحاب القرية، بقرميد أحمر، وطابقين، وواجهة حجرية، وباب عريض، صالح لمرور الدواب، في الفتحة الموجودة على أحد مصراعيه، كما هو صالح، إذا فتح على سعته، لدخول سيارة أو عربة حنطور. وقد ذكّرني، فوراً، بباب البستان الكبير، الذي عملنا فيه أجراء عند السيد خريستو، عقب هجرتنا من قرية الأكبر إلى قرية «قره أغاش» في ضواحي إسكندرونة. فقد كانت ذكرى ذلك الباب، وما ينفتح عليه من حوش كبير، وما فيه من بيوت، وأحصنة، وبقر، ماثلة في ذهني، تحكي عن طفولتنا الشقيّة في ذلك البستان الذي يجاور المقبرة الفرنسية.

رؤية القناق بعثت فيّ شعوراً بالانقباض. ليس لأنها ذكّرتني ببيوت السادة الذين خدمنا عندهم فقط، بل لأنّ تصوُّري كان قائماً على أننا لن نلقى سادة في هذا الريف، وسيخلى بيننا وبين الأرض والزيتون، وأن بهاء الطبيعة لن يسيء إليها منظر يذكر بالفارق الاجتماعي بيننا وبين الآخرين. حسبت أننا سنسكن البيوت على الرابية، أو حوش السيد، وأننا سنكون تحت أنظارهم ليل نهار، وأن الوالدة والأختين سيشتغلن، كرّة أخرى، خادمات، وأن العزلة التي أرغب فيها، بعيداً جداً عن الناس، لن تتوفر لنا، وهذا ما ألقى ظلّاً من الخيبة على صورة الريف كلّه، وما جعلني، لدقائق، أعود إلى تلك الحالة الأسيفة التي كنت عليها في المدينة.

غير أن الحوذيّ سرعان ما قال لنا وهو يؤشر إلى القرية:

ـ من هنا مفرق «ح».

سألت الوالدة:

ـ سنمرّ بها؟

(1) القناق: القصر الريفي.

أجاب الوالد:

ـ لا شغل لنا فيها. . إنما نحن نواطير زيتون، وسنبقى في الكرم . . نحرس البورة. .

توقّف الطنبر ريثما سألنا عن المكان الذي نقصده، وبعد لحظات عاد الوالد قائلاً:

ـ من هنا. . من هذا الدرب الضيّق بين الزيتون. . وصلنا. . البورة في قلب هذا الكرم. .

عرج الطنبر على الدرب الضيق، مخترقاً صفوفاً كثيفة من أشجار الزيتون الهرمة. كنا نتبعه على مبعدة مؤطّرين برائحة زيتية، وبنكهة خاصة للغروب، وبزقزقة العصافير، وكلّها من الدوري، تنطلق في حركة صخّابة بين الأشجار، باحثة عن مبيت، متردّدة في الانتقاء، هائجة فرحاً كخليّة نحل في الربيع، وحراقص تطير أمامنا، وشيء ما، كالهسيس، كالهمهمة الخفيّة، كحركة تنفّس، تتصاعد من الأرض، فيما الظلال الطويلة، المتشابكة لأشجار الزيتون تفرش نفسها بساطاً تدوسه الدواليب الحديدية للطنبر، وتطأه أقدامنا، في سيرنا البطيء، المستطلع، باتجاه البورة حيث سيكون علينا أن نبيت، وأن نحرس الزيتون المكوّم بيادر عليها.

كان الوالد يتقدّمنا، الأمّ بقيت بيننا، ساد صمت فيه توفّز، كان التوقّع يعكّر أبصارنا الراحلة عبر الكرم. هذه هي أرض الهجرة الجديدة، هنا سنقيم، وننطر، وننبر الزيتون، ونجمع حبّاته، بأصابع فتيّة، رشيقة غير معتادة على الانغراس بين المدرات والشوك، لكنها مجبرة أن تفعل، وعلينا أن نتقبّل واقعاً لا حيلة لنا في دفعه، ومن الأفضل أن نتلاءم معه، ونحبه، ونعيشه بغير تذمّر، أو نكد يزيد من الشقاء الذي تكابده العائلة الصغيرة في حياتها الريفية الجديدة.

في فسحة من الأرض، خالية من أشجار الزيتون، سُوِّيت على شكل باحة، كانت البورة التي نقصد. لم تكن كبيرة جداً، وليس فيها أية تسوية

ترابية، والعشب النامي على حوافها كان يابساً، وثمة، على جوانبها خيمتان أو ثلاث، وفي وسطها يرتفع الزيتون الأخضر، المرقّط بحبّات سوداء، كجبل، أو كثيب رملي، تفوح منه رائحة زيتية حادّة، ويتنفّس حرارة منبعثة من جوفه، يُحسّها من يقترب منه، حتى إذا دسّ يده داخل الزيتون، أتاه ما يشبه اللّهب الهيّن، وهذا هو السبب، كما علمنا فيما بعد، في حرص العاملين على البورة ألّا يتأخر نقل الزيتون إلى المعاصر، لئلا يتأكسد الزيت الذي في حبّاته، وتسودّ الحبّات أكثر فأكثر بفعل هذا التأكسد.

توقف كلّ من على البورة عند وصولنا إليها، ردّوا تحية الوالد، برفع أيديهم إلى رؤوسهم، حيّتهم الوالدة بلطف شديد، بينما التزمنا، شقيقتاي وأنا، الصمت، وهرعنا، منذ توقّف الطنبر، إلى إنزال أمتعتنا من فوقه، ونقلها إلى فيْء زيتونة معمّرة، بانتظار أن يبتّ في مصيرنا، وتحدّد لنا الإقامة، ونعرف تحت أية خيمة سنسكن. كنا ما نزال نمارس شعوراً بالغربة، وكان الجوّ كله، في القرية، والبورة، والنطارة وجمع الزيتون غريباً علينا، وكان الوالد قد ذهب إلى الوكيل يستفسر منه عن الترتيبات التي علينا اتخاذها، قبل أن تغرب الشمس، وكان الوكيل، الذي يشرف على القبّان، منهمكاً بالعمل، وقد اضطر الوالد إلى الانتظار، وخلال ذلك أشعل سيكارة، بينما عادت الأمّ إلينا، ووقفنا جميعاً حول أغراضنا، نختلس النظر إلى ما حولنا، يلازمنا شعور بأننا في العراء، ومحطّ الأبصار، وأن من الأفضل الإسراع بدخول أيّة خيمة، حتى نشعر بالاطمئنان قليلاً.

أعطونا شادراً لننصبه في الجهة الفارغة، التي علينا أن نحرسها. كان المكان على حافة البورة، في سفح رابية. وقد هرع رجلان لمساعدة الوالد، وانطلقا يسوّيان التربة، تحت زيتونة ضخمة، سوداء الحب، واندفعنا لإزالة الأحجار، من الأرض التي يمهّدانها، واقتلاع الشوك، وإزالة الأعشاب، ولم يستغرق ذلك كلّه إلا قليلاً، ثم رأينا الرجال يفردون الشادر، ويربطونه في الزيتونة من أعلى، ويدقّون أوتاداً من الجوانب، وبعد ذلك شدّوه بالحبال وفرشنا حصيراً فيه، وشرعنا بنقل أمتعتنا إلى داخله.

تمّ كلُّ ذلك بسرعة، وحين صرنا داخل خيمتنا أسدلْنا بابها، فأحسسنا بالراحة، وطلب الوالد فنجاناً من القهوة، وأوضح للوالدة أنّ علينا أن نُشعل ناراً صغيرة لهذا الغرض، فخرجت أجمع عيدان الزيتون اليابسة، ولحاء الشجر، ووجدت متعة في ذلك، فقد كنت جائعاً إلى العمل، وإلى العمل العضويّ، وكان منظر النار، في البرّية، يفتنني، وهذا هو السبب في أنني أحسست بنشاط، خفّة، حبور، وقرّرت، بعد معاينة الجهة التي تهبّ منها الريح، أن أحفر الأرض لأصنع موقداً، وجئت بثلاثة أحجار فصنعت الموقد، وأشعلت لحاء الشجر، وألقيت عليها العيدان، فنظر إليّ الوالد مبتسماً، ومشجّعاً، وخرجت الأمّ بركوة القهوة، فرأيت انفراجاً على قسماتها، كأنما لم تكن تتوقّع أن يكون كل شيء على ما يرام بهذه السرعة، وأن نجد الترحيب من الوكيل، والمعاونة من الرجال، وتصبح لنا خيمة، ويكون عملنا في البورة وما حولها.

الآن استعدنا العافية. كانت عافية نفسية، وكنّا بحاجة إليها، لنتخلّص من شعور البطالة الممضّ، والبيت المعتم، والانكسار. كان علينا أن نصبح نحن من جديد، ونمتلك إرادة الحياة التي فقدنا كثيراً من مقوّماتها في هجرتنا وفقرنا وتجرجرنا في أحياء المدينة بحثاً عن بيت نسكنه. صار الآن في وسعنا أن نكسب على قدر العمل، وكان في هذا الكسب افتئات كبير، لكن الآخرين كانوا مثلنا، وكان المهمّ، بالنسبة إلينا، أن نجد موضعاً لرؤوسنا، وعملاً لأيدينا، وأن نكون على يقين، منذ أن نبدأ، أن لقمتنا صارت مؤمّنة، وأن ما يتوقّف عليه نجاحنا هو الجهد المبذول. ودون أن نتفاتح في الأمر، كان العزم يفعمنا ويفيض، ولقد وددنا أن نباشر العمل منذ وصولنا، لولا أن الوكيل، الذي شرب قهوته معنا، نصحنا بالتريُّث حتى الصباح، وقال للوالد:

– أنت تبقى معي على البورة. حراستك، عدم المؤاخذة، في هذه البقعة، والعائلة حرّة في أن تقصد الناحية التي تريدها من الكرم، ولسوف أوجّهها، غداً، إلى منطقة كثيفة الحمل ممهّدة التربة، وستبر

الأمور على أحسن ما يكون.

قالت أمي:

ـ نحن لا نعرف كيف نشكرك يا أبا نعمة.

وقال الوالد:

ـ نحن هنا بفضل مساعدتك، وسنكون عائلة واحدة.

ـ كونوا مطمئنين.. الحراسة هنا شكلية.. هذا ملك بيت «ف» والشوباصي، أبو اسكندر، يقطع ظهر من يجرؤ على الاقتراب منها..

سألت أمي لكي تطمئن علينا:

ـ إذن لا خوف من الحراميّة..

قال أبو نعمة:

ـ الحرامي، يا أختي، يمكن أن يدخل طرف الكرم خلسة، ويمشق حفنة من الزيتون الأخضر، يأكلها، عدم المؤاخذة، مع عياله، أما السرقة من البورة فتعني السطو. وتحتاج إلى سلاح، وإلى رجال، فمن يجرؤ على الإقدام عليها؟

وقال الوالد:

ـ تحسين الرزق داشراً[1] إذا قلت بيت «ف» قلت الحكومة، فمن يجرؤ على سرقة الحكومة؟

قال الوكيل وهو يصطنع الخطورة:

ـ الخواجة «د» دولة.. إذا دخل السراي ارتجّت تحت أقدامه..

وقال رجل يقف إلى جانبه:

ـ هذا هو العزّ..

قال الوالد:

ـ ولا عزّ بيت سرسق إذن؟

ـ أي سرسق هذا؟ قال الوكيل، أقول لكم بيت «ف»، هذا يعني، عدم

(١) داشراً: فالتاً.

المؤاخذة، مجد، وعزّ، ومال، وأملاك.. كلّ هذه القرى لهم!

سألت الوالدة مستغربة:

- وكلّها زيتون؟

- الزيتون يغطّي هذه الأنحاء... يحتاج الإنسان إلى أسبوع كي يقطعها مشياً. والباقي أراضي فلاحة، مخصّصة للحبوب، وللقمح خاصة..

قالت الوالدة:

- المعطي هو الله..

- تبارك اسمه.. سألوه وأعطى.. قال لهم خذوا...

كنت أقف في طرف الحلقة، أسمع ولا أتكلّم. كنت غير قادر على الكلام بوجود الأوادم كما تسمّيهم الوالدة، وكان ذلك، لو جرى، ومنذ وصولنا، يعني العداء، قطع الرزق، إحراج العائلة. لهذا كانت الوالدة تنظر إليّ متوسّلة من طرف خفيّ، فكرهت عجزي، وكرهت ظروف العائلة، وقام في نفسي ما يشبه الصراع بين ما أسمع وما أعتقد. تخيّلت بيت «ف» ملوكاً، أمراء، ذوي مكانة، هيبة، سلطة، وتصوّرت الخواجه «د» جبّاراً، تهتزّ لخطوه الأرض، لكنّني أنكرت أن تكون المسألة، في كلّ هذه الملكية، قد تمّت بهذه السهولة.

مضيت إلى الخيمة. نشدت الوحدة لأفكر بما سمعت. تركت الحلقة التي يتصدرّها الوكيل.. أي من حزب بيت «ن». الوكيل من حزب بيت «ف». الرجال الذين يعملون على البورة ينتسبون، مثلهما، إلى عائلات، كل عائلة حزب، والكتلة الوطنية تجمع عائلات، ومقابل بيت «ن» وبيت «ف» هناك بيوتات، أحزاب، وقلت في ذات نفسي: «أنت من أيّ حزب يا ولد؟» وأجبت على تساؤلي: «أنت لست من هذه الأحزاب، لأنك لن تكون زلمة أيّ من هذه العائلات، أنت لم تصبح عضواً في أيما حزب، تعرف شيئاً واحداً: «فرنسا تحتلّ سورية، إذن هي عدوّة، والإقطاع حليف فرنسا، إذن هو عدوّ، وهؤلاء الملاكون الكبار ضد الفقراء، فإذن هم أعداء أيضاً، وهذه الأفكار عرفتها في إسكندرونة وقالوا لك إن لها حزباً هناك، لكنك، في اللاذقية، لم تقع له على أيما أثر.

كانت الشمس قد غربت. ابترد الجوّ، صارت له طراوة خاصة، محيية، وتنفّست الأرض رائحة زكيّة، ونثّت السماء رائحة طيّبة، وبعثت الخضرة، المشرورة على مدّ النظر، شميماً حلواً في الجوّ، وفي طرف الأفق، في المكان الذي رحلت إليه الشمس، كانت غمائم قرمزية، وفي القبّة السماويّة، بساطٌ كبير كبير، سماويّ، مقعر، والنور الذي ينسلّ، يخلي مكانه للعتمة. أنت لا تستطيع، في أيّ لحظة، أن ترى كيف أن الليل يولج في النهار، لكنه يفعل، وتبدو أشجار الزيتون، وأنت تنظر إليها من الرابية، سقفاً لا حدّ لسعته، سقفاً من الأدغال الرصاصية، الداكنة، الممتدّة في صفوف لا تنتهي، والظلمة تتغشّاها رويداً رويداً، وشيء ما، في السماء العالية، يرقب الأرض، ونجوم تظهر، تضيء في الأبعاد، في الأعالي، وسكينة رائعة تغمر الكون، فيما أجراس الجمال، كالنواقيس في الأديرة، ترنّ وتقترب، قاصدة البورة لنقل الأحمال الأخيرة من الزيتون في هذا اليوم.

لكم يودّ الإنسان لو ينسى نفسه في وقفة ما مع الطبيعة، في مساء صيفيّ، والدنيا من حوله ابتهال، والصمت يتكلّم من داخله، كأنما يناجي الله، ويبعث على أجنحة الأثير ابتهالات لم تخترع لها كلمات بعد. هذا التوحّد يكون حين لا تكون في الحياة طمأنينة، أنت خائف من شيء ما، لعله فقدان العمل، أو المسكن، أو اللقمة، أو الثوب، أو هدية العيد، أو الغربة، ولعلّه، ببساطة، الشعور بالفراغ، أو تقدم العمر أو الموت. لكنك أيضاً تشعر بالقلق لسبب مجهول، وعندئذ يكون لقلقك سبب مرضي، منشؤه الحساسية المفرطة.

في تلك الليلة الصيفيّة، الأولى في قرية «ح»، وعلى بورة الزيتون، صارت الرابية بالنسبة إليّ جبل التجلّي أو عوسجة الشوك. كنت متوحّداً، منعزلاً، موصولاً مع الملأ الأعلى، في شفافية بهيّة، لا أريد معها شيئاً، ولا أفكّر في شيء. كل ما في الأمر أنّ المدينة بهظتني، وهنا، على هذا المرتفع، أريد للريح أن تدخل جوفي وتطهّرني، أن تسقط كل الأوراق الذابلة قبل الأوان، كي تنبت حول الضلوع أوراق جديدة، خضراء، نضرة، طازجة،

فإذا كان الغد أقبلت على العمل بنهم شديد، وعزيمة جديدة، كأنما، لشدّة جوعي إليه، أريد أن آكله، أمضغه، أملأ به جوفي ورئتي وعيني، أريد أن أهبه حياتي ليظلّ قلبي مفعماً بالحيويّة والنشاط. العمل! العمل! العمل! ما أمجد هذه الكلمة وأقدسها، وما أحبّها حين تكون عاطلاً، وما أشدّ عافيتها حين تكون في قلب المعركة لتحقيق ذاتك على نحو ما.

كانت الرابية التي أقف عليها تطلّ على كروم الزيتون من كل جهة. كانت مرقباً بالنسبة لما تحتها، لكنّ الأرض، من الجهات الأربع، محجوبة بالأشجار، ببحر من الزرقة الداكنة، تبرز فيه رؤوس تيجانية رصاصية كأنها أكوام وسط محيط ساكن الماء.

أعرف أنني سالقي بنفسي، منذ الغد، في هذا المحيط. تلك فرحة مضمرة، وبانتظار أن أعيشها فعلاً، استعدت توازني. قلت في نفسي: «ها قد صار لي عمل أخيراً». فكرت بالدنيا، بالعالم، بالهجرة، بالبطالة، وخطرت لي بعض الأساطير التي قرأتها. كانت هذه الأساطير تنطوي على عقوبات ضد الإنسان. وكانت هذه العقوبات تتدرّج من الحكم بعدم الموت، أو عدم الدفن، أو الحبس الانفرادي، أو النفي إلى بلد بعيد، يموت فيه المنفيّ بعيداً عن وطنه. لقد عشتها، من خلال القراءات، وأحسست بما فيها من قسوة بالغة، لكن الحرمان من العمل على النحو الذي كابدته في اللاذقية، وما ولّد في نفسي من شعور قاتل بالفراغ، كان أقسى تلك العقوبات في نظري، لذلك كرهت الراحة، ولو في الجنة، وباركت حواء، التي جعلت آدم يخطىء، ويهبط معها إلى الأرض، حيث العمل والكفاح.

فجأة أبصرت دخاناً يتصاعد من سفح الرابية. كان ذلك دخان نار أشعلتها الوالدة على طرف البورة. كان وهجها، في غبش المساء، يضيء كبقعة نفط تشتعل على سطح البحر، ومن حولها الظلمة كهوف، على حوافها تتكسّر الأنوار التي تخلق في فجوات الموج بؤراً مضيئة. تلك النار، في عباءة الليل، والدخان المتصاعد منها، والقدر المرفوعة على الموقد، واشتعال أغصان الزيتون، كلّ ذلك وضعني، مباشرة، في قلب الريف. لا

قرية هنا، لا بيوت، لا ماشية. غابة زيتون مترامية الأطراف، ونحن وسطها، بضعة رجال، وبضع نساء، وكلب، وقافلة مقيمة، جمالها راكعة، تجترّ طعامها، والرجال يملأون غرارات كبيرة بالزيتون، ينقلونها إلى القبّان، ثم تحمل على الجمال التي ما تفتأ تهزّ أعناقها فتهتزّ الأجراس النحاسيّة الصفراء الصغيرة في هدوء المساء، كأنما ثمة دير يدعو رهبانه إلى صلاة المغيب التي تشترك فيها الأرض وما عليها.

كل هذا ملأني بهجة حلوة. أذاب عن قلبي شيئاً ما كالدهن، كان يتبقّع على الجلد فيسدّ المسام ويمنع تنفّسها. قلبي مضخّة لحميّة تحرّرت من أسار الدّهن. اغتسلت بالصابون وتطهّرت بالزوفا. روحي غدت طليقة. شراييني تضخّ الدم فيدفق في العروق مجدّداً الدورة كلها. ربما تورّد وجهي، وربما تهللت أساريري. ليس لديّ مرآة. لا مرآة في هذه الغابة. قد تكون لدى أختي واحدة صغيرة، لكنها غرض نسائي خاصّ. أنا رجل برغم أنني أرتدي بنطالاً قصيراً. ليس لديّ البنطال الطويل. لا أملك ثمنه. الوالدة تعرف. لاحظت ذلك، لكنها لا تملك هي الأخرى. هذا زمن الصيف. الصيف المودّع. الحمام لا يقف على الزيتون. رأيت الدرغل، والزرزور، والعصافير الصغيرة، لكنني لم أرَ حماماً. لو وُجد لكان هديله يأتي من بعيد، كان شجوه يملأ الجوّ. ولشارك في صلاة المغيب، كان سجد كالنفس، واستراح من تعب النهار، واستسلم مثلي لهذه الهنيهات الرائعة، وطار حاملاً تحيّتي إلى بعيد، إلى امرأة أحسّها ولا أعرفها، أريدها ولا سبيل إليها.

لماذا فكرت بالمرأة، في وقفتي تلك على الرابية؟ لقد استيقظ المراهق الذي في جسدي فجأة. أنا فرح، أنا من الطبيعة. المرأة رمز الطبيعة، عنوانها، المرأة هي الفرحة، وهي فرحتي اشتقتها، تمنّيتها وتحسّرت عليها.

كنت، في تلك السنّ، أعرف المرأة في الحلم فقط. في النهار أعود إلى الواقع. أدرك على نحو جليّ أن ليس من امرأة في هذا الوجود تريدني. أنا فقير إلى حدّ الإملاق، يائس إلى درجة التعاسة، وليس لي أن أحلم، حقيقة، بحبيبة. لكن الليل ما يكاد يقبل، حتى تعتادني أحلام داعرة،

وحتى تسيطر الأنثى على مشاعري، فيستيقظ بها ما كان مكبوتاً. وكان كلّ هذا طبيعيّاً جداً، ما دمت في سنّ العاطفة المشبوبة، وما دامت عواطفي، جوارحي، تشتهي المرأة، وقد تكتفي منها بنظرة، بابتسامة، بكلمة، إذا لم يكن ثمة إمكان للمزيد.

غير أنّ الأيام، ولا سيما خلال شهور الهجرة، أقنعتني أن ما أتمناه سراب بالغ الخلبية. وشيئاً فشيئاً انطويت على اعتقاد أن المرأة، بالنسبة إليّ، بعيدة، وربما غير موجودة، ولم تخلق بعد، وأنّ عليّ اطّراح كلّ تفكير فيها.

هذه المشاعر عذّبتني. كانت تعيش في ذاتي، تلوب ساغبة في جسدي، تناديني بأصوات ذات ضجيج صامت. كانت تفترسني منذ أن أضع رأسي على الوسادة حتى يغلبني النوم. وها هي، الآن، وأنا أقف على الرابية، تهاجمني في اليقظة أيضاً، فماذا أفعل؟

التجأت إلى العقل، بذلت قوة إرادية خارقة حتى يسيطر العقل. قلت في نفسي إن الحبّ سيصير يوماً. ستكون هناك امرأة، وسيكون هناك حبّ، لكن ذلك كلّه بعيد، وأنّ عليّ أن أنسى، وليس مثل العمل وسيلة للنسيان.

طوّفت بالرابية. هدّأتني قليلاً ريح المساء. رحت أناجيها: أيّتها الريح! بلّغي الحبيبة المقبلة سلامي. أنت تريدين، ولكنك لا تستطيعين. أنت، حتى الآن، لم تحملي أيّما امرأة إليّ، فمتى، يا عزيزتي، تحملينها إليّ؟ ولم تجب الريح. هل تعرف ولا تجيب؟ القدر يمنعها أن تجيب؟ كل شيء له أوانه، مكانه وزمانه، له مشيئته، قراره، حكمته. القدر قمر أزرق، مثل أوراق الزيتون هذه اليانعة. القدر أبيض، كالقمر تماماً، صامت كالصخر، ملتهب كالنار، يسقط نيزكاً، شهاباً، شظية كونية، ويصيب. إنه يدمر أحياناً، يخرب كل ما قبله، ويصنع ما بعده. قبل القدر باطل، بعده حق. وكالآلهة، يحتاج إلى نذور. يدي خالية. لا نذر عندي أقدّمه. أجمع له باقة من الزعتر؟ رزمة من الأزهار اليابسة؟ غمراً من سنابل الزيتون؟ أنا أعرف

أن كلّ هذا غير مجد. أفهم أنّ قدري طفل أخرس. أدرك أنه لن يوافيني، ولن يكون لي حبيب في اليفاعة أو المراهقة. إنني فتى، ببنطال قصير، عتيق، وقميص أزرق، مرقّع، ووجه شاحب، ضامر، وشفتين واجفتين، وفي حال كهذه، فإن الحب يظل إحساساً دفينا، يراود العاطفة الملتاعة، ويتدفّأ على حنين مراوغ.

أشعلوا مصباح اللوكس. شعّ نوره في محيط البورة، تركّز حول القبان، حيث الوكيل يقوم بجرد حساب النهار. كانت الجمال قد حُمّلت بالزيتون، وركب الجمّال حماراً وسار في المقدمة تتبعه حيواناته الصحراوية الأليفة. كانت أجراسها ترنّ وهي تخبّ بين صفوف الزيتون. ثم ابتعدت، وتلاشى رنينها، وعادت السكينة تلفّنا، لا يقطعها سوى فحيح المصباح، وطقطقة أعواد الزيتون في النار، وكلمة من هنا وأخرى من هناك، بينما العاملون على البورة يفجّون بيدر الزيتون برفوشهم، كي يتنفّس، وتتسرّب الرطوبة إلى أعماقه فلا يفسد، ولا يسودّ من الحرارة.

إن هذه العملية التي تتكرّر كلّما حُمّلت الجمال، كانت تحمل معها رائحة زيتية حادّة، لم نكن قد ألفناها، لكنّها، مع نسمات المساء، كانت تفعم الجوّ بعطر خاصّ، مبارك كما قالت الوالدة، وترتفع أعلى فأعلى، كأنها مادّة أثيرية تتنشّقها السماء، وتعبّها مع أنفاس الأرض المتصاعدة بحركة دبيبية، يحسّها المرء ولا يراها، لكنه لا يملك نفسه من الافتتان بها، والخشوع للترنيمة الجماعية المنطلقة من الجهات الأربع، ابتهالاً بالمغيب الذي ما يزال وشاحه الأرجواني على الأفق الغربي.

كانت الوالدة، فيما الطنجرة على النار، والأختان تُوقدان تحتها، قد عمدت، بإذن من الوكيل، إلى انتقاء وعاء صغير من الزيتون الأخضر الذي ورد متأخراً إلى البورة، وجاءت بحجرين كبيرين، أملسين، وشرعت برصّ الزيتون وتحليته، ليكون لنا أداما. إنها ابنة الريف، تعرف قانونه: «من خير الأرض يأكل الذين يعملون فيها» وكانت تعتبر نفسها، منذ وصولها، عاملة في الأرض، وقد أحضرت معها من المدينة جرّة فارغة لذلك، وكانت

مسرورة بعملها، تقول وهي ترصّ الزيتون وتلقيه في طست مليء بالماء:

ـ ما شاء الله . . زيته كثير المبارك.

ولما لم يكن من أحد قربها سواي، فقد التفتت إليّ وتابعت:

ـ هذا الزيتون يقطع واحداً من عشرة . .

قلت في نبرة غير متوقّعة:

ـ لكن جمع العشرة ليس بالأمر السهل . .

ـ إذا نحن اجتهدنا كان ذلك سهلاً . .

ـ نعطي التسعة لنأخذ الواحد . .

ـ وماذا في ذلك يا حبيبي؟

ـ ظلم . .

توقّفت عن رصّ الزيتون، وبجدّية وطيبة رجتني قائلة:

ـ لا تتفوّه بما لا يليق أمام الوكيل.

ـ لكنني أقول الحق . .

ـ أنا أصدقك . . تحسبني لا أعرف؟ ولكن من يسمع للحق . .؟ أنت، يا حبيبي، ابن مدرسة . . لكن الذي في الكتب غير الذي في الحياة . . كم مرةً عليّ أن أقول لك ذلك؟ أنت تشقي نفسك دون فائدة، هذا الذي تقوله عن العدل لن يصير . .

ـ سيصير يا أمّي . .

ـ من فمك لأبواب السماء . . لكن الكلام عليه، ونحن نعمل في ملك الأسياد، ليس في مصلحتنا . . وأنت عاقل . . أنت عاقل بما يكفي كي لا تقطع رزقنا . . أليس كذلك؟

ـ ربما . .

قلتها وابتعدت. أمّي غير مخطئة، لكنني أنا الآخر، غير مخطىء، أنا أحب أمّي، أفديها بروحي، ولن آتي بما يكدرها، لكن إلامَ السكوت؟ وكيف يعرف الناس ما لهم وما عليهم؟ الخوري يقول: مكتوب في الإنجيل «أعط ما لقيصر لقيصر»، وأمّي شديدة الايمان بالخوري وإنجيله. هذا كلام

المسيح تقول. لكن الآخرين. الذين سمعتهم في إسكندرونة، والكراريس التي قرأتها، تقول أعط المال لصاحبه. وقلت لهم: «من هو صاحب المال؟» قالوا: «الذين يعملون في جمعه». إذن نحن نجمع الزيتون، ونحن أصحابه، لا أولئك الأسياد أصحاب القناق الكبير في قرية «ج».

سأسكت على مضض. سأمضغ المرارة. لقد كانت رحلة حياتي، ورحلة فهمي، غير متكافئتين.

من اسكندرونة، وشقاء حارة المستنقع، والظلم النازل بعمّال البحر والسكك الحديدية، إلى الاحتلال التركي واستلاب حقّ العرب في اللواء، إلى الهجرة والنوم في المقبرة، ثم الطواف كالمتسوّلين في أحياء اللاذقية، إلى هذا الريف وجمع الزيتون، سلسلة من حلقات الاستثمار والظلم والاغتصاب، وأنا، على صغر سني، أعي كل هذه النوازل، وكرمى لأهلي عليّ أن أسكت. تقول أمي «اللاذقية غير إسكندرونة» هذا، كما يبدو، صحيح، ولكن لماذا الأمر كذلك؟ أتكون اللاذقية مدينة بغير حياة؟ دون تململ؟ لا ترى شقاء عمال الميناء، والريجي، وعبوديّة الفلاح في الريف؟

إسكندرونة! يا إسكندرونة! يا مدينة الرفض. يا رافضة الاحتلال، ومقاومة الأتراك، والمتمرّدة على الوضع الاجتماعي البائس، يا مدينتي الحبيبة، أيتّها الغافية الحلوة المستلقية على شطّ الخليج، يا من تعلّمت فيك، لا القراءة والكتابة وحدهما، بل الاحتجاج على الاحتلال والظلم والاستغلال أيضاً.

جلست مهموماً أمام موقد النار. طلبت من الأختين أن تدعاني وشأني. رجوتهما أن تَكِلا إليّ مهمة إضرام النار تحت الطنجرة. أحسست بالمرارة، بالكآبة، انتفت نفحة الرومانتيكية التي عطرّتني في المغيب. الغروب، الآن، صار إلى ظلمة. ليّل الليل، سجا، وفتون الرابية، والكرم، والبورة، والنار في الفلاة، ورنين أجراس الجمال، وكلّ بهاء الطبيعة تراجع إلى وراء. أفسدته بتفكيري المسبق بالعمل، هذا الذي أنا جائع اليه، لكنّني مدرك كم فيه من استغلال. لقد آلمني تصوّري أنه

سيكون علينا، من الصباح، أن ننبر الزيتون، ونجمعه من بين المدر والأشواك، ونملأ به السلال والأكياس، ونحمله إلى البورة شأن هؤلاء الفلاحين التعساء، ليكون لنا واحد من عشرة، قيمته لا تكفي لإطعامنا في هذه البرية التي علينا أن نعيش فيها شهوراً، ثم نجمع حوائجنا وننحدر إلى المدينة وليس بين أيدينا ما نسدّ به رمقنا.

انتهت أمّي من رصّ الزيتون، نضج الطعام. مدّت حصيراً، فتحت شرشفاً، دعتنا إلى العشاء، كان الطعام مجدّرة. كان لذيذاً في هذه البقعة المنارة باللوكس، وكان البصل سائغاً، شهيّاً، والماء الذي في الجرّة طيّباً، وكانت جلسة الوكيل معنا للعشاء، وامتلاء الأمّ بالسعادة لهذه «اللفتة الكريمة»، والظلمة المعلقة بأهداب الفضاء من حولنا، كلّ ذلك طمأن قلقي.. لكن ذلك الشعور بالطمأنينة لم يدم، إذ سرعان ما سمعنا، في الدرب الآتية من جهة القرية، وقع أقدام، وتلفّتنا جميعاً، ثم لم يلبث الوكيل أن صاح:

- أبو اسكندر..

وهبّ جميع من على البورة وقوفاً...

كان ذلك القادم هو الشوباصي الذي ترتجف خوفاً منه مفاصل الفلاحين والعاملين في أملاك بيت «ف» كلّها.

- ٤ -

كان أبو اسكندر رجلاً طويلاً، مليئاً ،دون كرش، فهو، في الستّين، يحافظ على قامة لم تنل منها السنون. وكان عريض المنكبين، رحب الصدر، له ساعدان ينتهيان بكفّين ضخمتين، مما يعطي لبنيته ضخامة في العظم، ومتانة في التركيب، مع وجه ضخريّ، فيه عينا باشق، وشارب كثيف أبيض، تحت طربوش عليه لفّة، وغنباز تحته سروال أبيض، وحذاء كبير، أسود، مغبرّ، وكلّ الهيئة اللازمة لجيل انتهى دون أن يعرف البنطال.

أعترف أن حضوره أفسد جوّ الألفة العائلية الذي أحسسته في المساء، ونحن نتناول عشاءنا. كان والدي قد حدّثني عنه نقلاً عن الذين عرفوه. ومع كل لا مبالاة الوالد، ومشاكسته، وانتفاء حاسّة الخوف، أو الرهبة، عنده، فقد ترك الملعقة، والطعام، كما فعل الوكيل، ونهض لاستقباله. وحين ألقى تحية المساء، بصوته الأجشّ الخارج من بين شاربيه، وتقدّم نحو البورة، كان الفلاحان اللذان يعـسلان عليها، قد تركا الخبز والزيتون، ووقفا جامدين على مبعدة منه، وكفّ كلّ منهما على صدره مُحيّياً.

لم يحفل بنا، نحن العائلة الصغيرة، الوحيدة، على البورة، مع أن الوالدة نهضت لتحيّته، وانتظرت إشارة منه، فلما لم تصدر، عادت فجلست، وطلبت منا أن نتابع عشاءنا. أما هي فقد كفّت عن تناول الطعام بينما انصرفت أنا إلى مراقبته، وقد داخلني خوف لا أدري سببه،

كرهت معه أبا اسكندر هذا، ورغبت، لولا الفضول في رؤية ما يجري، وما سوف يقوله، دخول الخيمة والنوم باكراً.

كانت في يده عصا جبليّة غليظة، وفي كتفه بندقية، وقد طلب، دون أيّة مراعاة للمائدة التي نحن حولها، أن يؤتى باللوكس، فحُمل اليه فوراً. طاف في البورة، حول بيدر الزيتون، وأرسل عصاه في قلب البورة، سابراً حرارة الزيتون، ثم لاحظا أن ثمة بقايا زيتون على حواف البيدر، من أثر تعبئة الغرارات، لم تجمع وتُعَدْ إلى مكانها، كما أن الفلاحينْ العاملين، أهملا فجّ الزيتون للتهوئة والاستبراد بالليل، فصاح بأحدهما:

ـ تعال «ولاه»[1]

تقدّم الفلاح الذي اسمه يونس، غير متوقّع، هو البريء، المجتهد، أن يُتهم بأيّ تقصير، لكن أبا اسكندر، وجد في العمل تقصيراً، فرفع عصاه، ودفع بطرفها، في ضربة قويّة، صدر الفلاّح الذي تأوّه وتراجع إلى الوراء مذعوراً.

ـ يخرب بيتك.. تأكل وتترك الزيتون يتلف؟ أنتم لا تستأهلون ثمن أكلكم.

قال الفلاح:

ـ يا معلّمي..

صاح به بصوت جهوري، غاضب:

ـ علم في جنابك.. حيوان.
ـ لا تظلمني يا معلمي...
ـ تستحقّ الطرد..
ـ وماذا فعلت؟
ـ تجلس والزيتون بين الأقدام؟

(١) «ولاه» لفظة دارجة للاستهانة بالمخاطب.

- وهل آكل على الواقف؟

كان الفلاح الآخر، واسمه عزيز، قد ركض يفجّ الزيتون برفشه، ويجمع ما تناثر من حبّات قليلة حول البيدر، والوالد يقف قريباً، يداه وراء ظهره، وفي عينيه نظرة تساؤل عما إذا كانت هذه المعاملة ستسري عليه أيضاً. لم يتدخّل بين الشوباصي وفلّاحيه. كان قادراً أن يبرّر فعلة الشوباصي بسبب من إعجابه به، إضافة إلى أنه يعتبر نفسه ابن مدينة، وليس ثمة مبرّر للتدخل في شأن لا يعنيه. غير أنه، أمام قسوة الشوباصي، تجمّد في مكانه، وترك الوكيل يدور حول هذا الأخير، حاملاً اللوكس، وهو يشرح عمل اليوم، والكمّيات المجموعة، والتي أرسلت إلى المعصرة، ويطالب بزيادة الغرارات والجمال، حتى يمكن نقل المحصول في يوم جمعه بالذات

قال الشوباصي بلهجته الصارمة:

- ولماذا أنشأنا البورة إذن؟
- لكن نقل الزيتون في اليوم نفسه إلى المعصرة أكثر فائدة؟
- وماذا نفعل به هناك؟ نتركه في الغرارات حتى يتلف؟
- ولماذا يتلف ما دامت المعصرة موجودة؟
- للمعصرة طاقة معيّنة..
- في هذه الحال آسف..
- الأسف لا يجدي.. أنت غشيم..

قالها والتفت إلى والدي:

- وأنت؟

وبعد أن قاسه بنظرة جارحة من رأسه إلى قدميه أضاف:

- ماذا تفعل؟ لماذا تقف ويداك وراء ظهرك؟

نهضت الوالدة من فورها. توقّفنا نحن عن الطعام. وضعنا أيدينا على قلوبنا. لم نكن نقدر أن الشوباصي سيأتي من الليلة الأولى لوصولنا. لم يدر في خلدنا أنّه على هذه الخشونة، وأنّه سيحاول إهانة الوالد أمام الوكيل

والفلاّحين وأمامنا. كانت الوالدة مستنفرة للتدخّل، لا لنصرة الوالد، بل للتوسّل طلباً للرحمة، لأننا لم نباشر العمل بعد. كانت غريزة الخوف هي التي تتحكّم في تصرُّفاتها، وتأتي ردود أفعالها على شاكلة هذه التصرُّفات، صادرة عن خوف مزمن لا حيلة لها في درئه أو التغلّب عليه.

أحسست أنّ اللقمة يبست في فمي. صارت رملاً. صارت شوكاً من الذي كانت تأكله الجمال بانتظار تحميلها. لم يعد ثمة لعاب. غدا كل شيء تراجيدياً الآن: القسوة، ضرب الفلاح، السخرية من الوكيل، التحرُّش بالوالد، الجزع من أن يهين الأمّ. هكذا امتلأت بالقهر. نزل القهر إلى معدتي وصعد إلى دماغي. زاد في سوئه أنّه مقرون بالعجز. أنا لا أستطيع أن أتكلّم، الوالدة نهتني عن الكلام. وحتى لو أباحته لي فإنّ سطوة الشوباصي أحدثت ما يشبه القشعريرة في جسمي. وبين سؤاله وجواب الوالد، مرّت لحظات مكهربة، مرعبة، بطيئة، ثقيلة عليّ. لو ضرب والدي لوقفت إلى جانبه ودافعت عنه. لذلك تقدّمت خطوات متوقّعاً شرّاً، كلاماً ساخراً أو مهيناً، لكن الوالد أجاب بلا مبالاة:

- أنا هنا حارس يا أبو اسكندر. . .

قال الوكيل:

- الحارس الجديد. سالم المصري. . وهذه عائلته. . .

عندئذ فقط التفت الشوباصي نحونا. قال بنبرته الصارمة نفسها:

- مساء الخير يا أختي!

أجابت الوالدة وهي تتقدّم منه:

- يسعد مساءك يا أبو اسكندر. .

- تعرفين اسمي. .

- حدّثنا عنك زوجي.

قال الشوباصي ملتفتاً إلى والدي:

- ومن أين سمعت عني؟

- من الناس. من الذين يعرفونك. .

- وماذا قالوا لك؟
- ما رأيته الآن. .
- احذر إذن. .
قال والدي بلا مبالاته نفسها:
- الحذر لا ينجي من القدر. . عشت ورأيت، من مرسين إلى إسكندرونة إلى اللاذقية. .
- هم. . فهمت. . تريد أن تقول إنّك غير سائل. .
- أنا رجل فقير. . مهاجر من اللواء. . جئت مع عائلتي لنعمل. . أنا أسأل خاطرك. . لكن دون ذلك لا حقَّ لأحد عليّ. . حاسبني إذا قصّرت. .
قالت الوالدة وقد تقدّمت خطوة باتجاه الشوباصي:
- حاسبنا إذا قصّرنا. .
انتهرها الوالد:
- دعي الكلام للرجال. .
قال الوكيل:
- سنتكلم ونحن نشرب القهوة. .
قال الشوباصي:
- المصري لم يعزمنا على القهوة. .
وقال الوالد بغير ملاطفة:
- أنت لم تترك لنا مجالاً لدعوتك. .
قال الشوباصي وهو يخلع البندقية من كتفه:
- بسيطة. . سنتقابل كثيراً. .
قرفص والبندقية في حضنه، لم يفرد وجهه، لم يبتسم. وبنبرة تهديد أضاف:
- المصري معذور. . لم نتعارف جيّداً. .
قال الوالد وقد أحسَّ بنبرة التهديد:
- أنت ضيفنا على كلّ حال. . ونحن في حمايتكم. .

ـ حماية الله أقوى..

ـ بعد الله يأتي العبد.. كلنّا عبيد الله.. وأنت يا أبو اسكندر القويّ فينا هنا.. أنت تأمر ونحن نطيع.

أخرج أبو اسكندر علبة التبغ ولفّ سيكارة غليظة، ثم دفعها باتّجاه الوالد:

ـ تعال لُفّ سيكارة...

لم يرفض الوالد. حسبته سيفعل. كان أكثر خبرة. لقد قال ما أراد، توريته شفت نفسه. احتملها الشوباصي. كان داهية فوق أنه ذئب عجوز. ولم يكن الوالد، في خبرته، لامبالاته، مشاكسته، شجاعته اللاإرادية، أقلّ منه قدرة على أن يكون ذئباً عند اللزوم، وهذا ما فهمه أبو اسكندر، فترك للأيام أن تخفّف من عنجهية رجل لا يملك شيئاً، ولا يستطيع أن يؤذيه في شيء، سوى أن يقول له: «عُدْ من حيث أتيت» وقد أدرك أن الوالد قمين بأن يعود بالبرودة نفسها التي أتى بها.

يا ربي كم أحببت والدي، وكم كرهته، وكم أحببته كرة أخرى! أحببته لهذه الجسارة التي تتبدّى عفوية فيه. كرهته لهذه السديميّة في الوجدان. كنت أعرف ألاّ أمل فيه، وأنه لن يتوقّف عن الرحيل والسكر والعشق، وأنه خاسر دون أن يكترث لخسارته، دون أن يحسّ بها، أو يقدّر نتيجتها قبل وقوعها، كان نوعاً من المعصية غير المسؤولة. لم تكن به لوثة، ولم يكن فاقداً لأيّ من ملكاته العقلية، لكنه كان يتصرّف بجنون، وكان يتبدّى لدى الملاحظة الدقيقة، أن جنونه غير مسؤول، لأنه طبيعيّ فيه، فهو عقله، أصله، فطرته، ولم تنجح كلّ التجارب، كلّ الخيبات، كلّ نوبات الندم، في أن تطوّره، أو تبدّل من بهيمية سلوكه. ولأنني نقيضه في هذا، وأحمل كلّ موروث أميّ من الطيبة، وحسّ المسؤولية فقد كرهته. ثم لأنني أرغب أن أكونه في شجاعته، فقد أحببته في مواقف الشجاعة، وتمنّيت لو زرع الله في صدري قلباً كقلبه.

هذه الليلة أعجبت بوالدي. لم يقل شيئاً خارقاً، لم يدفع الظلم عن الفلاح، لم يجّبه تهديد الشوباصي، لكنه، في كلماته القليلة، أظهر أنه يعرف أمثال الشوباصي، وأنه لا يكترث بهم. لم يسكت، لم يخضع، لم يجنح إلى التملّق، كان كما يجب أن يكون الرجل أمام الآخرين، لا سيما أسرته، وكان، دون وعي، يتصرف تصرّف عامل من المدينة، عامل حقيقيّ، يعرف أنه لا يخسر شيئاً في مقاومة استبدادية السيّد أو وكيله، ما دام لا يملك شيئاً.

اكتفي بأن نادى والدتي:

ـ أعدّي لنا القهوة..

جعلت أراقب كفّيه الضخمتين، والعروق الزرق النافرة في ظاهرهما، وهو يلفّ سيكارة هادئاً، متمهّلاً، تاركاً للوكيل أن يتكلّم، وللشوباصي أن يصغي بأذنه، وينصرف ببقية حواسّه إلى رَوْز هذا الحارس المقرفص أمامه، والذي فكّر بترويضه، تأديبه، كسر شوكته في أقرب فرصة تتاح.

دارت القهوة. ترشّفها الرجال الثلاثة. عادت الأمّ إلينا، أمام الخيمة، وجدتني جالساً على الحصير، كان الجوّ، الآن، قد غدا لطيفاً جداً، والنجوم البعيدة أرسلت ضياءها إلى الأرض، فاخترقت كثافة العتمة وصيّرتها نسيجاً داكناً شفافاً، سامحة للتيجان الضخمة على رؤوس أشجار الزيتون أن تتحدّد في هالات سود، سابحة في فضاء الريف الهادىء، الساكن إلّا من عواء أبناء آوى، أو نباح الكلاب، أو خشخشة زواحف في الأعشاب والأشواك القريبة، الأمر الذي أفزع الشقيقتين، فدخلتا الخيمة خشية الأفاعي والعقارب.

أنا والأم وحدنا بقينا جالسين في ما يشبه الظلّ، المتشكّل عن نور اللوكس المعلّق في زيتونة فوق الرجال. كان والدي قد بدأ يتحدّث. كان يعرف أن يتحدّث. كان قاصّاً بالفطرة، وتجاربه التي لا تعدّ، جعلت له مدّخراً لا ينفد من القصص. تحدّث عن خدمته العسكرية في برّ الأناضول،

وعن هربه الدائم وما لاقى من أهوال. كان صوتاً من الماضي، نقلة ارتدادية في الزمن، صادفت هوى في نفس الشوباصي، الذي لم يلبث أن طلب الغرارات الفارغة، وجلس على واحدة منها، بينما جلس الوكيل والوالد على غرارة أخرى مقابلة، وظلّ الفلّاحان مقرفصين على مبعدة من الحلقة. كان الشوباصي يصغي باهتمام، وقد امتصّت حلاوة الحديث كلّ الصلف الظاهري فيه، فاندفع يضحك باقتصاد، متدخّلاً في القصّ، متتبّعاً، معقّباً، راضياً، ناسياً نفسه إلى منتصف الليل، حيث نهض وهو يقول:

- تأخّرنا.. خطفنا الحديث..

نهض الجميع لنهوضه.. كذلك فعلت الوالدة. وقد اغتبطت بغير حدّ، حين استدار نحوها قائلاً:

- قهوتك طيبة يا أختي.. دائمة..

وقالت الوالدة بصوت فيه طيبة وزلفى:

- شرفتنا يا أبو اسكندر.. حياتك الدائمة..

وواتت الأريحية أبا اسكندر فقال:

- غداً هو يومكم الأول.. لا تتقيّدي بالصفّ.. الحقي الشجرة الحامل.. انبروها جيّداً، وبعد ذلك تعتادون على اللقاط.. ستتمرّن أصابعكم.. وأنتم وجهدكم.. هذا إذا لم يتشاطر عليكم المطعون (الوكيل) بالقبّان.

قال الوكيل الذي فهم الإيماءة:

- ولو.. نحن تربيتكم.

وقال أبو اسكندر وهو يغيب بين أشجار الزيتون:

- تصبحون على خير..

فرددنا جميعاً:

- وأنت من أهله..

في الفجر استيقظت على رنين أجراس الجمال. أفاق الوالد قبلي وخرج.

كان من عادته أن يفيق باكراً، ويشرب سيكارة في فراشه، ثم أخرى بعد أن يغسل وجهه. هذه العادة لازمته طويلاً، وكان يحلو له أن يمدح عادة الافاقة باكراً، واستقبال الصباح قبل طلوع الشمس، ناسباً إليها محامد كثيرة، منها أن الصحّة تصبح جيدة. ولقد كنت أعتزم أن استيقظ باكـراً، وأخرج إلى الطبيعة وهي تتمطّى في سريرها قبل النهوض، وأن أعاين الشروق، وأستمتع ببهائه، وأسمع تسابيح القبرات في الفلاة التي يقول والدي إنها تصلّي لله على طريقتها. كذلك سمعت أمي في المساء تقول لأختي إنّ علينا أن ننهض باكراً، وأن نهجم على العمل قبل أن تحمى الشمس ويشتدّ الحر. ولقد نهضت بالفعل في اللحظة التي كانت فيها أمّي تهمّ بالنهوض، فطلبت مني، برجاء لا يردّ، أن أشعل لها النار، كي تعدّ القهوة للرجال.

خرجت من الخيمة في غبش الصباح. بدا الرجال على البورة كأشباح. كانت الجمال تتميّز بهياكلها الضخمة العالية، وكانت أجراسها ما تفتأ ترنّ، وهي ترعى العشب والشوك على الحواف، وكانت حركات شفاهها، وهي تقضم وتشفط، تشبه خشخشة مناجل الحصاد وزحف القنافذ. شممت مع هبوب نسمات الصباح، رائحة قطرانية، ممتزجة برائحة تخمّر الزيتون. كان الفلاحان يونس عزيز يغرفان برفشيهما من البيدر ويملآن الغرارات، وكان صوت الوكيل، على القبّان، يبرطم بما لا أدري، والوالد يحاول مساعدة الرجال في الوزن والتحميل، والفجر الحلو يطلع أبيض، كأنّ فتحات خفيّة في الأمداء البعيدة ترزّه على شكل ذرّات أثيرية، تمازج الغبش وتجلوه في استضاءات لا يدري المرءكيف تصير، ويبهجه، في الوقت نفسه، أنها صارت. وكانت رفرفة أجنحة تعلو بين أشجار الزيتون، وخوار أبقار وثغاء أغنام من جهة القرية، وزقزقة عصافير تتقاطع في الفضاء، من جهة المشرق، وديوك تصيح مؤذنة بالصباح.

كان الماء بارداً، منعشاً، وقد اغتسلت بهمّة، وفرح، وصببت على رأسي كميّة منه، ثم أشعلت النار، وأضرمتها دونما حاجة لذلك سوى التلذّذ بمرآها. راقبت الوالدة وهي تطهو القهوة، واللّهب يضيء وجهها الكهل

ويعطي لملاحة قسماتها طيبة مضاعفة، ولم ألبث أن صعدت الرابية، ومن قمّتها أشرفت على امتدادات كروم الزيتون، ورأيت تيجانها أشبه بالقبب الصغيرة الرصاصية، في صفوف متطاولة، والغصون مثقلة بأحمالها والأوراق الخضر، الفضّية، تسمح، في هذه الفتحة أو تلك، لحبّات الزيتون الخضر والسود، أن تبين وأن تتلقى في لمسات مزهرة، أشعة الشمس الأولى، فتتألق كعناقيد عنب رفيعة وطويلة، وتبتسم على استحياء للسماء التي تتنوّر في كل لحظة، وهي تشرق برغم الطبقة السديمية التي تتراءى كتوشيحات تزين القبّة العالية. يا إلهي! ما كان أكبر السماء وأعلاها، وأحفلها بالعظمة والشموخ الذي بدا لي أنه وحده الجدير بالتأمّل، كأنْ ليس في الحياة من كبيرين، سوى الأرض والسماء، وسوى البحر الذي نسيته، وسرعان ما استدركته واستغفرته على خطيئتي المميتة.

بعد قليل لحقت بي أمي. كان وطؤها خفيفاً، كأنّها تخشى أن تزعج الأديم، وقد لبست تنورة واسعة، عتيقة، وانتعلت خفّاً، وربطت على رأسها منديلاً، فبدت على أتم استعداد لمباشرة العمل الذي كانت مثلي تتحرّق اليه. كانت تتأمل أشجار الزيتون بأكثر مما تتأمّل الفضاء. كان همّها هذه الأشجار التي على عطائها يتوقّف رزقنا، وحين رأتني مأخوذاً بما حولي، غافلاً عن وقع أقدامها، سادراً بما لا تدري من أشياء تتراءى لي في الأفق البعيد، المتكوّر في قوس طويل منحنٍ على البحر، داخلها قلق أن أكون، كما لاحظت دائماً، مجذوباً إلى عوالمَ سحرية تخاف عليّ منها. لم أتمالك نفسي. فعانقتها حين بلغتني. كنت أجد رائحة الأمومة في عنقها، وكانت رائحة زكية تشبه البيلون[1] المطيّب، وكان إحساسي، رغم فتوتي، أنني ما أزال صغيرها الذي كنته، وكانت هي تأبى أن تنظر إليّ إلاّ على هذا الأساس، مما يعطيني الطمأنينة، كأنني عاجز، وكأنها حاميتي، وهذا ما دفع بي كثيراً إلى الخوف عليها، والخوف من فقدها، وتخيّل جسامة المأساة في

(١) ترابة حلبية توضع على الشعر عند الاغتسال.

حياتي لو حدث ذلك لاسمح الله.

قلت لها وأنا أغمرها:

- يا حبيبتي..

قبلتني وقالت:

- لماذا أنت هنا؟ هل أفطرت يا حبيبي؟

هززت رأسي بالنفي. عاتبتها بنظرات حنون.. قلت:

- ما أجمل كلّ هذا. لقد كانت فكرة رائعة أن جئنا إلى هنا..

- هل تشعر بالتحسُّن؟

- بتحسّن كبير.. نسيت ما مرّ معنا في المدينة خلال الشهور الماضية.

- كنت هناك قلقاً، شاحباً.. ما الذي ضايقك في اللاذقية؟

- الغربة والبطالة..

- وكذلك البيت..

- كنت أحس فيه أنني أختنق..

- لاحظت ذلك.. أنت تحنّ إلى بيتنا في إسكندرونة.. ذلك الكوخ..

- كان بيتنا حقاً..

- ومع ذلك كان صغيراً..

- كان جميلاً على كل حال.. كنت أشعر فيه أنني على ما يرام.. كان كوخاً كسائر الأكواخ، لكنني كنت أحس فيه أنني في بيت أبي..

- وفي اللاذقية؟

- أحس أنني في بيت شعبان وزهرة..

- ذلك العجوز المسكين؟

- أنا أيضاً أراه عجوزاً مسكيناً.. ما ذنبه إذا كان قد استأجر هذه الخرابة وأجّرها للآخرين؟ إنه، على كل حال، يريد أن يربح قليلاً كي يعيش، وهذه المسكينة زهرة.

- تشفق عليها، أليس كذلك؟

- الفقر هو الذي دفع بها إلى بيت شعبان ولا شك.. هذا العجوز الفاني لم

يعد فيه ما يفيد امرأة.. الزمن اضطرها إلى الاستقواء به، ومعاشرته كرهاً، في سبيل اللقمة.. يا لقذارة الدكان التي يسكنانها..

- لا تذكرني بها، أرجوك.. أنا لا أستطيع شرب كأس ماء من يد زهرة..

- وأنا لا أقوى على النظر في وجهها.

- هذه خلقة الله.. ماذا تفعل؟

- لو تتوقّف عيناها عن السيلان.. وتلك الأسنان الصفر، والثياب الرثّة.. يا إلهي! كم من شقاء على هذه الأرض!

- أنت مهموم لذلك؟

- وماذا تتصوّرين؟

- لننسَ ذلك كله.. تعالَ.. أشرقت الشمس.. علينا أن نأكل شيئاً ونمضي إلى الكرم..

انحدرنا عن الرابية. اقتلعت رجلي من ترابها بصعوبة. كنت، ثمة، على ما يرام.. لماذا تذكرت شعبان وزهرة؟ وما الفرق بين هذين البائسين وكل أولئك البؤساء في المدينة؟ وما الفرق من هذه الناحية، بين إسكندرونة واللاذقية؟ لا فرق سوى الوعي.. في إسكندرونة يعون بؤسهم ويقاومونه.

أفطرنا خبزاً وزيتوناً أخضر، الفلاح يونس أعطانا ملء وعاء صغير منه. كان الوالد قد قطع مرواطين من شجرة التوت عند مفرق القرية، وأذن له الوكيل أن يمضي معنا، يدلّنا على العمل، ويعود لحراسة البورة. سرنا رتلاً صغيراً. تقدّمنا الوالد. حملنا معنا زجاجة ماء، سلّتين، طبقين من قش، وشوالاً.. كنا قافلة صغيرة، في غابة الزيتون الكبيرة. وكانت القبّرات تطير مذعورة لوقع أقدامنا. وعصافير الدوري تتنقل من شجرة إلى أخرى، فكرّت ببندقية صيد، بفخّ حديديّ أنصبه كما وأنا صغير، ثم اطّرحت الفكرة سريعاً. لمت نفسي، كنت غير قادر على صيد هذه العصافير الصغيرة، الملوّنة، الحلوة، وقد سألت والدي حين أسرعت وحاذيته:

- ألا توجد حساسين هنا؟
- هذه تتوجد في الجنائن . . هنا الدرغل . . وقد يوجد الحجل في المرتفعات الجبليّة .

وقالت أختي :
- لو عندنا حسّون في قفص . .
- أنا لا أحب الأقفاص والعصافير سجينة فيها . .

وقالت الأم :
- وأنا كذلك . . ما ذنبها، المسكينة، أن نحبسها ونرغمها على الغناء؟

قال الوالد :
- لكن صوت الحسّون حلو . .

قالت أختي الصغيرة :
- ولكنك لم تأت لنا ولا بحسّون صغير . .
- سآتيك بواحد . . وربما باثنين . . العصفور يتسلّى برفيقته .

قالت أختي :
- سأكون سعيدة عندئذ . . أنا لن أؤذي الحسون . . سأحمل إليه الماء والطعام . . ولن أرغمه على الغناء .

قال الوالد :
- الحسّون يغنّي لنفسه . . لا يستطيع إلاّ أن يغنّي . .

قالت الوالدة :
- ربما يغنّي شوقاً إلى أمه . . للعصافير أمهات أيضاً . . لكن ليس لها أب .

فكرت في نفسي : «هل ذلك لأنّ الأب غير ضروري؟» .

كنّا نمضي دون قصد، نتبع الوالد . نبحث عن مكان ملائم . ولم يكن

الوالد على خبرة كافية، بينما الوالدة، التي تحدّثت إلى أحد الفلاحين ليلة أمس، فهمت منه أن علينا أن نبحث عن الزيتونات الفتيّات. هذه تكون حاملة، غير عالية، ومن السهل نبرها. أخبرها أيضاً أن الجهة الغربية جيّدة، وعلينا أن نبدأ منها. لكن الوالد رفض إرشاد الفلاح، قال لنا إن الزيتونة الصغيرة تعطي زيتوناً صغيراً، قليلاً، بخلاف الزيتونة الكبيرة، التي تعطي وحدها ما يملأ شوالاً.

كنت أحسّ، كلما ابتعدنا عن البورة، براحة نفسية. معنى هذا أننا وحدنا تماماً. عالم خاصّ بنا. غابة زيتون، ظلال لا نهاية لها، سكينة عميقة، وعائلة بمفردها، ليس لأحد من سلطان عليها. كان الإحساس بالوحدة في البريّة يملأني بقدسيّة سماوية. نحن والله، الله من فوق، ومن سماواته، ينظر إلينا. ليس لأحد أمر علينا. نعمل ما نريد، ندوس حيث نريد، ننام أو نستيقظ. نرتاح أو نعمل. كل شيء لنا، لا أحد يحدجنا بنظراته، لا سوط، لا بندقية، لا صوت، ولا خوف. أمُّنا رئيستنا. ما أحلى أن يكون ثمة مجتمعٌ الأمُّ رئيسته، في حال كهذه ينتفي الظلم، ينتفي الخوف..

انتقينا بقعة صالحة. كانت أرضها غير مفلوحة. تشبه أرض البورة. لا أثلام، لا مدرات، ولا أشواك. عشب يابس قليل، وتراب ناعم، ممهّد، وكومات صغيرة من التربة التي أخرجها خلد ما هنا وهناك، وفيء، وزيتونات مثقلات.

اقترح الوالد أن نبدأ من هنا، ولم تمانع الوالدة. كانت تريد أن نبدأ، كانت مثل أيّ منا، مشتاقة إلى العمل، إلى الشعور بانتفاء البطالة، وإلى العافية النفسية التي لن تأتي ما دام الفكر مشغولاً. كانت أجسامنا متصلّبة، وليس سوى التعب الذي يبعث فيها النشاط من جديد، التعب المبذول في عمل نافع ذي مردود.

تناول الوالد مرواطاً وتناولت الآخر. لاحظته كيف يضرب أطراف

الأجمة الفضيَّة للزيتونة. يضربها بشكل مائل، بحيث يشق المرواط الحب وينبره. كانت الضربة تبعث، في سكينة الغابة، صوت النديف، ويُسمع، بعدها، هرير مطريّ للحبّ الذي يشبه الخرز الأزرق. لم ألبث، أنا الآخر، أن رفعت مرواطي وضربت. كانت ضربتي أخفَّ، أقلّ جدوى، لكنها، مع ذلك، أسقطت حبّاً كثيراً، وحين همت الوالدة باللقط صاح بها الوالد: «دعي ذلك إلى حين الانتهاء من نبر الزيتونة كلّها» فأطاعت. أما أنا فقد أثارني نبر الزيتون وزخّات الحبوب المتساقطة، والأوراق الخضراء والفضية المختلطة بها. ابتعث ذلك في داخلي فرحاً غامراً، فصممت أن أتولى، بعد عودة الوالد إلى البورة، وباعتباري ذكراً، هذا العمل العضويّ الذي لا تحسنه النساء. فكرت، من جهة أخرى، بطريقة أفضل لجمع الزيتون، خطر لي إحضار شرشف، وفتحه تحت الزيتونة، فيتساقط الحب داخله. في هذه الحال لا يكون علينا سوى ضمه وإفراغه في الكيس. هذا الاكتشاف ازدهاني، عرضته على الوالدة من فوري فقالت:

- الفكرة جيدة، لو كانت التربة، تحت أشجار الزيتون، ممهّدة.. أما عند وجود المدر والشوك فإن الشرشف يتمزق لا محالة.

- ولماذا لا نمسك به من أطرافه، تحت الشجرة، ثم ننبرها فوقه؟

- لأنّ ذلك غير عملي.. فنحن لا نستطيع الوقوف تحت الزيتون المتساقط، كالبرد، وإلّا فجَّ رؤوسنا، ثم أن الشرشف يتملّص تحت ثقل الزيتون المتجمع فيه أو يتبعّج.

- وماذا لو أتينا بحصيرة؟

- الذي يتساقط فوقها سيكون أقلّ مما يتساقط خارجها..

- لنجرّب..

- أتظنّ أن الفلاحين، والذين يلقطون الزيتون لم يجرّبوا، ولم تخطر لهم أفكارك يا بنيّ؟

كان الوالد قد غادرنا. نبر لنا ثلاث زيتونات وعاد لحراسة البورة. شرعنا

بلقط الزيتون، كان ينتشر في دائرة واسعة من حوالي كل شجرة. وكان علينا أن نبدأ من الطرف، حتى ننظّف الأرض جيّداً، ولا نترك وراءنا حبة زيتون واحدة. ذلك أن الشوباصي سيأتي للرقابة والكشف، وقد يأتي أحد من طرف أصحاب الكرم، وربما جاء السيّد الكبير نفسه، وفي حال اكتشاف الهدر أو الضياع أو عدم النظافة، سيعتبر ذلك قلة أمانة، وسيطردوننا من البورة والعمل كلّه.

قلت:

- لكنّ أحداً لن يأتي.

فقالت الوالدة الطيّبة، الأمينة، المخلصة في عملها وسلوكها:

- إذا كان السيد لا يرانا فإن الله، من سمائه، يتطلّع إلينا.

سألت أختي الصغيرة:

- هل يمكن أن أرى الله لو نظرت إلى السماء؟

- سامحك الله.. هذا كفر لا تعودي إليه. الله حاضر ناظر، يرانا ولا نراه..

- من أين ينظر إلينا؟

- من فتحة في السماء..

نظرت الأخت فلم تر فتحة في السماء، وعندئذ سألتني:

- وأنت.. هل ترى فتحة كما تقول الأم؟

قلت:

- الله لا ينظر من فتحة في السماء.. يرانا دون فتحة..

- أمّي لا تكذب..

- أمك تردّد ما تسمعه من الخوري.

- والخوري لا يكذب..

هززت كتفي. لم أناقش الوالدة. كنت أشكّ بكثير من الأقوال والأفعال. لكنني لم أكن أملك الحجج الكافية لدحض ما أسمع. إضافة إلى أنني لا أريد أن أسيء إلى أميّ. كنا قد قرفصنا وجعلنا نلقط الزيتون بأصابعنا كما تفعل الدجاجة بالقمح. وكانت الكفّ اليسرى سرعان ما تمتلئ، وعندئذ نفرغها في الوعاء الذي أمامنا، حتى إذا أمتلأ الوعاء أفرغناه في السلّه. كانت لعبة مسلّية تلك، وكنا نقرفص وظهورنا محنيّة، وننتقل، خطوة إثر أخرى، على الوضع نفسه الذي نحن عليه. ودون إعلان، قامت بيننا منافسة، دخلنا شبه مباراة، فازت فيها، في الزيتونة الأولى، أختي، وفزت في الزيتونة الثانية، وقالت أمي:

- عافاكم الله.. لو عملنا بهذه الوتيرة فسنجمع عشرة شوالات في اليوم.

- ونحصل، في هذه الحال، على شوال كامل من الزيتون.؟

- هذه حصّتنا..

ابتسمنا للنتيجة. الأجر غير سيّئ، رغم كل شيء. الزيتونة التي نتبرها، يتساقط الزيتون تحتها مشكّلاً ما يشبه الطبق الكبير من الحبّ. أحياناً يكون لونه أزرق يانعاً، وأحياناً فيه بعض السواد، لكن أوراق الزيتون، في الحالين، تكون خضراء يانعة، ولشدة الحمل، كان الزيتون المهرور يشكل، على الأرض، كويمات صغيرة، نحتفنها بفرح، لأنها جاهزة، وتساعد على ملء الوعاء بسرعة، لكن الأم قالت إنه قد يكون بين الحبّات بعض الورق، أو بعض العشب، أو يكون بينه قليل من التراب، وهذا لا يجوز، لأنه غش، ويؤذي الزيت في المعصرة، فيغدو عكراً.

حاولنا شكلاً آخر للعمل، يقوم على احتفان حبّ الزيتون، بالراحتين، ثم تنقيته من العشب والورق والتراب، فوجدنا صعوبة في ذلك. كان أيسر، وأفضل لنا، أن نلتقط الزيتون حبّة حبّة، وهذا ما نصحتنا به الوالدة التي عملت قبلاً بجمع الزيتون، لكن العودة عن الابتكار الذي لجأت اليه الأخت أفقدها الأمل في الفوز من جديد، وكان بمثابة إحباط لها، وهذا ما

أفقد المباراة زخمها، خاصة وأنني خرجت منها، بناء على طلب الوالدة، كي أنبر زيتونة جديدة، بعد أن أوشكنا على الانتهاء من الزيتونات الثلاث التي نبرها الوالد.

إن طلب الوالدة هذا جاء فرجاً. ليس لأنه يسمح لي بالحركة، وبالرياضة، وبفرصة نبر الزيتون، وسماع هريره الخرزي، بل لأن ظهري، من القرفصة والانحناء، راح يؤلمني عند الحقوين. خيّل إليّ أن الكليتين قد تضررتا، فهما تؤلمانني، وقد سكتّ عن ذلك، كي لا أفضح نفسي أمام أمي وأختي، وحتى لا يبان التعب عليّ، أو أعدي الآخرين بتعبي وملّي السريعين.

حملت مرواطي وبدأت العمل، كنت أشبق الزيتونة من جوانبها، لكن قمتها تحتاج إلى تسلّق الجذع، وهذا ما ضاعف من فرحي، إذ أعادني إلى أيام الطفولة السابقة، يوم كنت أتسلّق الأشجار مع أترابي، بحثاً عن أفراخ العصافير، في الأعشاش الصغيرة، في أشجار الدلب والحور والكينا في حديقة المنشية، في مدينتنا إسكندرونة.

أنجزت نبر الزيتونة الأولى وأنا أشعر بتوتّر وتقلّص في عضلتي الساعدين. لم يكن النبر رياضة. كان عملاً شاقاً. بدا لي، في البدء، رياضة. أخذته على أنه كذلك وفرحت به، لكن الاستمرار أتعبني، فكرت في الاستعفاء، غير أن سؤالاً نبق في ذهني: مَنْ يتولّى هذا العمل؟ بعد الوالد، أنا الرجل في العائلة. صحيح أنني نحيل، ضعيف البنية، لم أخلق لعمل شاق، غير أن هذا لا يعفيني من العمل، فإذا لم أنبر الزيتون، كان على الوالدة، أو الأختين، أن يتولّينه عوضاً عنّي، أو كان عليّ أن أنادي الوالد، فأواجه فضيحة مدوية، لا أمام الوالد وحده، بل أمام كل من يعمل على البورة من الرجال.

كابرت وبدأت بالشجرة الثانية. كانت فتية، ناضرة، مثقلة بالزيتون، وكانت دائرتها واسعة، وغلغالها كبيراً، يحتاج إلى زند قويّ، فاضمرت أن

أنبرها واستريح. أعود بعد ذلك إلى لقط الزيتون، أجمعه ريثما التقط أنفاسي، ريثما تخفّ الحروق الملتهبة في كفّي من جراء الفقاعات التي ظهرت في الراحة اليمنى. كذلك انتويت، إذا ما كان عليّ أن أباشر النبر في اليوم التالي، أن أحضر خرقة أربط بها راحتي، وبذلك أتقي ما أصابني اليوم. كنت أعمل وأفكر. أضرب بمرواطي جوانب الزيتونة، بحركة آلية تصدر عن جسد يعرف واجبه ويقوم به. أما عقلي فكان يرحل إلى بعيد، وتعمل مخيلتي في استرجاع ومضات الذكرى، وفي التساؤل عن معنى هذا الكون، وسبب مجيء الإنسان إليه، وموعد مغادرته دون أن يفهم لماذا جاء ولأيّ سبب راح.

كان تساؤلي يتجدّد، يتشعّب، يخلق لنفسه دوائر يمرّ من إحداها إلى الأخرى. دون أن يتوصل إلى معرفة ما كنت أريد، وهو سرّ الوجود، السر الذي يشرح لي قصر الأعمار وطولها، امتلاك النعمة والحرمان فيها، شقاء أهلي الموصول، وشقاء العمال والفلاحين الدائم، نعيم الأسياد، وأصحاب المال، يسر المالكين الذين يتحكمون بالبائسين من أمثالنا، وعيشنا الزريّ تحت وطأة فقر عديم الرحمة.

كذلك كنت أعطي، أحياناً كثيرة، نفسي للذكريات، وعندئذ أعيش الماضي، أستعرضه يوماً وشهراً وعاماً، وأبحث عن وجه أليف، وصديق وفيّ، وفتاة التقيتها ذات يوم. ثم أعرج على إسكندرونة وحيّ الصاز، وأحاديث البحارة، وتمرّدهم على ما هم فيه من حرمان يقودهم إلى الموت، وانتفاضات المدينة، ومطالب العمال، والنضال ضد فرنسا، والمظاهرات التي تقوم، ونرقب قيامها بفرح ونفاد صبر.

لقد كنت مسكوناً بالأفكار وما أزال، وكانت أفكاري في تلك الأيام، بحجم عمري وسذاجتي، وإذ أستعيدها الآن أضحك منها، لكنني لا أنكر أبداً أنها كانت صادرة عن توق إلى العدالة الاجتماعية، وما برحت كذلك.

هكذا، وأنا أنبر الزيتون وأجمعه، كنت مستغرقاً في أفكاري، وعندما

كنت أنبر إحدى الزيتونات جابهني ضجيج غريب، كريه، ورأيت جسماً غريباً، أسود، طويلاً يتركز في الغلغال، ومنذ رآني انحلّ كالحبل الثخين، وتدلى وهو يقلع برأسه نحوي، منضنضا بلسانه ذي السبلتين، ثم التفّ على جذع الشجرة، وانساب على الأرض، أسود طويلاً، بارداً، قبيحاً، مخيفاً، فألقيت بالمرواط ورحت أصرخ، فارّاً باتجاه الوالدة والأختين، اللواتي التفتن ورأين الحنش، فخفن بدورهن وولّين الأدبار مذعورات.

هذا الصلّ المخيف أذكره جيّداً. كان الأول من نوعه الذي تقع عليه عيناي، لم أكن قد رأيت صّلاً أسود بهذا الطول، الثخن، الحجم، وبهذه العدوانية في العينين السوداوين، المحاط بؤبؤهما بدائرة بيضاء أو صفراء، مما أعطاهما سعة أكبر، وأدخل الرعب إلى صدري على نحو أشدّ. كانت عينا الصل رهيبتين، وكان بدنه الأسود، اللامع، الفقري، يبدو كأنه مدهون بالزيت، وقد أشرأب بعنقه، وترك لسانه يخرج طويلاً، ثم دار قربنا وانساب باتجاه التخم. ومرة أخرى. قبل أن يغيب حدّق فيّ، كأنه يستعدّ للوثوب عليّ، فصرخت وفررت وأنا أرتجف، ولم ألتفت إلى وراء حتى صرت على مبعدة منه، ومن سوء الحظ أنني تركت المرواط من يدي لشدّة خوفي، ولم يبق لي ما أدفع به عن نفسي لو انسلّ الحنش ورائي، راغباً في لدغي أو إيذائي.

انشأت الأم، حين استعادت روعها، تصرخ بي:

ـ لا تخف!

لكنها، هي، كانت قد خافت. وكانت الأختان قد هربتا، وفي طريقهما انقلبت سلّة الزيتون وتبعثر ما فيها، والأم التي وحدها، سبق لها ورأت حنشاً، تناولت حجراً بكلتا يديها، ورفعته فوق رأسها، عازمة أن تجبه الصل، وأن تقتله دفاعاً عنا. وخلال الدقائق التي مرّت على هذا الوضع، لم أعرف كيف وقف هذان الخصمان، هذان العدوّان، وجهاً لوجه. كانت الأفعى السوداء، المخيفة، الزاحفة، تدافع عن نفسها بعد أن أصبتها،

ربما، بالمرواط، وكانت الأمّ التي تسمّرت في مكانها، رافعة الحجر إلى أعلى، مفادية عنا بجسارة لا أدري كيف واتتها.

كل ما وعيته، من تلك اللحظات الرهيبة، أن الأفعى، التي كانت في وضع الاستعداد، متلعة العنق، مشرعة اللسان، جاهزة النابين، كفّت عن الوثوب باتجاه الأمّ. ربضت ثمة، في أسفل الزيتونة، تنتظر، لقد خافت. أنا لم أر الخوف في عينيها، لكنني قدرته تقديراً، لقد خافت، وهذا طبيعيّ. كل إنسان، كلّ حيوان، يخاف إذا أنت واجهته، لكن الأم، بدافع الغريزية، دافعت عنا وعن نفسها بجسارة نادرة. رفعت الحجر واستدارت إلى الأفعى، دون أن تلوي رأسها. كانت مستقتلة، تشهد السماء، بغير كلام، على أنها، في الذود عن أبنائها، قادرة على منازلة لبوة لا أفعى فقط. السماء، على كل، كفّت عن الاختبار، أوعزت إلى الأفعى أن تمضي لشأنها. لقد تمّت، في لحظات، فدية عمر. الأم فدتنا، والأفعى فهمت. أدركت ضد من تقاتل، قد تكون، هي الأخرى، أُمّاً، ولهذا رأفت بنا. انسابت في خطّ حلزوني، طويل، وهي تتماوج. وتلمع تحت الشمس، لم تتسلق أيّما شجرة، ولم تهرب، بل انسربت رويداً رويداً، كالآمن، كالخارج من معركة متكافئة، وغابت في دغل من الشوك، ولم تعد ترى، ومن المشكوك فيه، كما قالت الأمّ، أن تعاود الكرة باتجاهنا، فالنوع الأسود من الأفاعي، نوع الأحناش هذا، ليس مؤذياً، أو عدوانياً، إلا إذا هاجمته، والأمّ رفعت الحجر ولم تضرب ، لم تهاجم، أعطت الأمان لخصمها، أفسحت له مجال الانسحاب، وبذلك انتهت المعركة.

خجلت حقاً من الأمّ، كان خجلي واضحاً، أما هي فلم يظهر عليها أيّما زهو بموقفها، ولم تلمني على موقفي. كل ما فعلته أنّها نادتنا، وأفهمتنا أن هذا النوع من الأفاعي غير سامّ، وأنه يأكل القوارض، وأن علينا، إذا رأيناه في شجرة، أو دغل، أو حتى في الطريق، ألاّ نخاف، أو نهرب، بل نتوقّف، ونقول لها:

- اذهبي يا مباركة!

رفضت هذا المنطق، قلت لأمّي:

ـ الأفعى ليست مباركة..

قالت الأمّ:

ـ الأفعى حكيمة.. سليمان قال في أمثاله: كونوا ودعاء كالحمام، حكماء كالأفاعي.

ـ سليمان لم يكن مشرّداً مثلنا، يجمع الزيتون في البراري.

ـ سليمان كان حكيماً، كان آمراً على الإنس والجن، وكانت تهابه جميع الحيوانات.

ـ ولكن الأفعى خبيثة، تتسلّل وتلدغ، وقد ذمّها الشعراء.. ولعنها الله، بسبب إغوائها لحواء.

ـ أنا لا أدري.. يجوز.. أنت ابن مدرسة وتعرف أكثر، ولكن الأفعى مخلوقة أيضاً..

ـ لكنها مخلوقة تقتل الإنسان..

ـ والإنسان يقتلها.

قالت أختي:

ـ سواء كانت مباركة أو غير مباركة، فأنا لا أستطيع رؤيتها.. ما كنت أحسب أن في أشجار الزيتون أفاعي.. لن أقترب من غلغال أيّما شجرة قبل نبرها..

قالت الأمّ:

ـ الأفعى لا تؤذي إذا لم تُؤذَ.. أخوك، يا بنتي، ضَرَبها بالمرواط، ومع ذلك ذهبت في حال سبيلها.. هيا، نحن لم نملأ شوالاً بعد، أين وعودكم؟ أمس كنتم تقولون سنملأ عشرة شوالات.

قاطعتها أختي:

ـ لقاط الزيتون صعب كما يبدو، لم أكن أتصوره بهذه الصعوبة.. انظري يا أمّي: الشوك أدمى رؤوس أصابعي.

أدركت الأمّ، الآن، أن حماسة الأمس اصطدمت بواقع اليوم. كانت، هي أيضاً، تتألّم، كان ظهرها يؤلمها، وكانت تتجلّد، كيلا تشكو، أو تقول ما يوهن همّتنا، اقترحت أن نستريح قليلاً، أن نشرب بعض الماء، كي تزول «الرعبة» التي بعثتها الأفعى. وكما لو أنها أخذت التعب لحسابها، أو أنها تريد أن تضحّي نيابة عنا، فقد تركتنا تحت شجرة الزيتون، حيث نحن، وحملت السلة وذهبت إلى الشجرة المنبورة تلقط ما تحتها من زيتون. كانت عادتها أن تتقدّمنا دائماً، أن تعمل أكثر، وأصعب، وأن تدع لنا أن نراها، وأن نخجل من تكاسلنا أو استرخائنا. وقد أفلحت، هذه المرة أيضاً، في جعلنا ننهض، حياء منها، ونذهب نلقط الزيتون معها، شاعرين بمكابرتها، كي ننجز ما هو مقرّر علينا اليوم، أو نصفه على الأقل. لقد صمّمنا في الصباح أن نجني ما يملأ عشرة شوالات، وها هو الضحى، ولم نملأ شوالاً بعد، وكلما اشتدّ الحر، استشعرنا بطء حركتنا، ثقلها، وأحسسنا أن جمع الزيتون، على هذا النحو المضني، ليس لعباً، وأنّ علينا أن نتقبّل واقعنا، ونتجلّد مثل الأمّ، ونستأنف العمل..

نبرت زيتونتين أخريين. تحمّلت بصبر ما واجهني من صعوبة. كنت أستريح، دقائق، وأهدأ قليلاً، ثم أعود إلى شبق الشجرة بالمرواط، وأتطلّع نحو الأمّ الدؤوب، المنكّسة رأسها دون كلمة، كأنها فهمت ضرورة احتمال الشقاء وأذعنت لها، وباحتمالها هذا!، كانت تدفعنا إلى المزيد من المثابرة، في صمت يلفّنا، كأنّما نسينا أنفسنا، وصارت بيننا وبين الأرض لغة خرساء، وصار التقاط حبّات الزيتون دأباً نمارسه كالطقس، ما دام علينا، ونحن في هذه الفلاة، أن نأكل خبزنا بعرق جبيننا، وأن نمضغ لقمتنا الغمّسة بالدم. وهذه الأشياء لم تقلها الوالدة، لكننا فهمناها من صمتها، من تفانيها، هي التي عملت طويلاً، وكثيراً، في سبيل إطعامنا وكسائنا، وكي توفّر لي بعض القروش للذهاب إلى المدرسة، لقد كان عليها، وهي حامل، وبطنها إلى حلقها، أن تقعد على طست الغسيل، من الصباح إلى المساء، وأن تخدم أسياداً كثيرين، وعمرها الذي تقضّى في شقاء موصول، قد أهّلها للراحة

الآن، ولكن لا مناص، ما دمنا، في هجرتنا هذه، ما نزال نحتاج إلى عملها ودعمها، وما دام الوالد لا يكسب ما يكفل لنا حياة بسيطة، تقوم على الكفاف.

جمعنا ما تساقط تحت شجرة أخرى. صار لدينا ملء شوال من الزيتون. انتصف النهار، كان قائظاً جداً، ولم تكن الزيتونة تفيء فيئاً ظليلاً، لأن الشمس، في سمتها العالي، أخذت تسكب على الأرض دستاً من الماء المغلي، يتبخّر ويتحوّل، عبر الفضاء، إلى ضوء ذرّاته جمراتٌ من جهنم. أخذنا نلهث.. انتهى الماء الذي معنا. اقترحت عليّ الوالدة أن أذهب وأملأ الابريق من الجرّة الموجودة على البورة. قالت إننا سنتغدّى حيث نحن، ونواصل العمل بعد ذلك. امتثلت لها. ذهبت، ملأت الإبريق، لكنني، في طريق العودة، رأيت، فجأة، أفعى تخرج من دغل الشوك وتنساب في حركة جريئة أمامي. لقد أخرجها الحرّ من جحرها، لم تكن سوداء، كانت رقطاء نحيفة، وحين أحسّت بي، تحركت باندفاع، وانسلت على التراب تاركة وراءها خطّاً متعرّجاً. كانت تنسل وتتلع بعنقها، ورأسها المفلطح، بعينيها المرعبتين، يترصّدني، أنا الذي أسير حاملاً الإبريق، وليس في يدي حتى عصا يمكن أن أضربها بها فيما لو هاجمتني. رعبي، هذه المرة، كان أقل، ليس لأن الأفعى مرقشة، رفيعة، بل لأنها انسابت وأنا على مبعدة منها. كنت حافياً، وكان مقدراً أن أدوس، في كل خطوة، على جحر أفعى، أو أن تثب أيّ أفعى، من أيّ دغل شوكي، وتلدغني بغتة، لذلك توقّفت مشدوهاً، حائراً فيما أفعل. ومع كل رباطة جاشي، كان بدني قد اقشعر خوفاً. لقد خفت على نحو ما، لكنني تماسكت فلم أركض. تسمّرت حيث أنا، ورحت أراقب الأفعى، التي هي من نوع «عقدة الجوز» وهي سامّة جداً.

حين اختفت الأفعى تماماً، على مسافة بعيدة عني، تابعت سيري، سالكاً طريقاً آخر، متجنّباً أن أمرّ قرب الدغل الذي لطيت فيه. لقد غيّض مرآها كل رومانتيكية الحياة التي تخيّلتها وأنا على الرابية عند غروب شمس

أمس، حيث لم أفكر بالأفاعي. صحيح أن هذه الزواحف المرعبة كانت في الظن، ولكن ليس من اليوم الأول، وبهذه الكثرة، وفي الأشجار وعلى أديم التربة الحارقة. فكرت وأنا أسير بالطريقة التي يمكن بها معالجة لدغة الأفعى فيها لو حدثت. شغلني ذلك جداً. كنت أعرف أن على الملدوغ أن يربط العضو الذي لدغ، ولكن من أين لنا الرباط؟ وكان على الرجل السليم، والأفضل أن يكون شيخاً مجرباً، أن يمتصّ السم ويبصقه. وقد تنفع، كما سمعت من الوالدة، دجاجة توضع مؤخرتها على الجرح، فتمتصّ السم بحركة تنفّسها. إن هذه الوسائل البدائية، كانت هي الإسعاف الأوّلي، وهي غير متوفّرة، ونحن، في هذه البرّية، في هذا الفقر، في كرم الزيتون الذي يعجّ بالأفاعي، والعقارب، نسير حفاة، وأيدينا التي تعمل في الأرض، معرضة في كل لحظة إلى لدغ الزواحف السامّة. لقد كان الموت، على هذا النحو، ينتظر كلّ فرد منا. وإذا كنت لا أبالي بنفسي، فماذا لو كان الملدوغ أمي أو أختي؟ ماذا أستطيع، عندئذ، أن أفعل؟ كيف أدع هؤلاء العزيزات للموت على هذه الصورة البشعة؟ وماذا ينفع، لو قتلت الأفعى بعد لدغ أيّ منا؟ إن الموت، على هذا النحو الكريه، يتربّص بنا في كل خطوة، تحت أية صورة، أيّ دغل أو شجرة زيتون. ونحن نعرف ذلك ونخاطر. يا لشقاء الفلاح الذي يخاطر، في كل يوم، بحياته، في سبيل أن ينتج الخير لهؤلاء الأسياد الذين يستغلّونه على هذا النحو الرهيب!

لقد حسبت، في اسكندرونة، أن العامل وحده هو المستغَلّ، وها أنا أكتشف، في هذا الريف أن الفلاح أشدّ منه بؤساً. إن عليه، في سبيل أن ينتج خيرات الأرض، أن يدفع الكثير من صحّته وعرقه وتعبه ودموعه أيضاً.

هذا الإحساس المضني بصعوبة الحياة، ملأني نقمة عليها. رفضتها، كنت في السنّ والوضع اللذين يجعلانني أرفض الحياة وما فيها من شقاء. لكنّ ما هو أدهى، أنّ عليّ، ما دمت أعيشها، أن أتقبّلها، وأن أكافح، بطريقة ما، كي أخفف عن عائلتي ما تعاني.

لقد راودتني، تلك الأيام، فكرة الانتحار. ومن عجب أن هذه الفكرة ظلّت تراودني طول حياتي، لكنني، مع ذلك، لم أنتحر. لم أملك الشجاعة الكافية لذلك من جهة، ولأن الأفكار التي أحمل حمتني من المغامرة من جهة أخرى.

رغبت، لشدة قهري، ألاّ أعود إلى أمّي في الكرم. جلست على جذع زيتونة وأنا أفكّر بما نحن فيه. كنت أمضغ قهري الذي أشاع المرارة في فمي، وبغير كلام، رحت أهتف: «يا للحياة الملعونة، لو وقع للأمّ، للأختين، للوالد نفسه، أيّ أذى، سيكون ضربة قاصمة لنا، وستنوء العائلة الصغيرة المهاجرة المشرّدة تحت وطأة مصيبة داهمة!».

تناولنا غداءنا تحت زيتونة هرمة. أكلنا خبزاً وزيتوناً وبصلاً. كان الطعام طيّباً. كان غيره في المدينة، وكان الخبز من بقايا ما حملنا معنا من المدينة، وعلينا، هذا المساء، أن نخبز من الطحين الذي جلبناه معنا. وقد وعدتنا الأمّ، إذا نحن واظبنا على العمل، بالاجتهاد نفسه، أن تطعمنا خبزاً طازجاً على الصاج، مع شيء من الزيت، وأن تطبخ لنا برغلاً ببندورة.

قالت الأخت قدسية:

– لكننا أكلنا، ليلة أمس، برغلاً بالعدس.

– البرغل، يا حبيبتي عمود البيت.

قالت الأخت وهي تمضغ رغيفها:

– ليس لنا بيت ولا عمود..

– ليكن.. البرغل عمود الخيمة.. ماذا عندنا، إذا لم نطبخ برغلاً، مما يسند القلب؟

– ولكن البرغل كاد يفرّع في بطوننا..

– نعمة على كل حال.. أنظروا غيرنا، الفلاّحين مثلاً...

– مالهم، الفلاّحون؟.

– لا يجدون البرغل نفسه..

– وماذا يأكلون؟

– لا أدري. . أمس، وأنت على الرابية يا بنيّ، جاء الفلاح يونس وقال لي: ماذا تطبخين؟ ولما أخبرته: مجدرة، أجاب: هذا أكل الأوادم. .
سألته:
– وأنتم؟ ماذا تأكلون؟

«تنهّد. . قرفص إلى جانبي هزيلاً معروقاً، وظلّ يتابعني وأنا أعمل. عرفت منه أنه أب لثلاثة أولاد، بنتين وصبي، وأن بنتيه في المدينة، تعملان خادمين عند بعض الأغنياء، مقابل ليرة في الشهر للبنت الواحدة، وأن الصبي يرعى القطيع للسيد. إنه مرابع، يأخذ ما يجني، لكن الربع الذي يأخذه لا يصل إلى يده أو بيته، فهناك الدربيّة، وشغل السخرة، وإتاوة الشوباصي، وهناك الفائدة على كل ليرة يأخذها على الحساب، منذ الشتاء إلى أن يكال الحبّ على البيادر، ثم هناك صاحب الدكّان، في القرية المجاورة، يعطي الفلاّحين على الحساب، من الكبريتة إلى زجاجة الكاز، ويسجل كلّ ذلك في الدفتر، ومهما كان الموسم جيّداً، يبقى للحانوتي شيء في ذمّة الفلاّح، يبقى له دين يُدوّر إلى العام المقبل وتتكاثر هذه الديون، ومعها الفوائد الجديدة، وحين يعجز الفلاّح عن الدفع، يستعين الدائن بالدركي للتحصيل، فتباع المواشي، ويُجر الفلاّح إلى المخفر، وقد يُرسل إلى السجن إذا لم تنفع سياط الدرك على رجليه، وهو مرفوع فلقة بواسطة بارودة. . السيّد لا يتدخّل في هذه الحال لإنقاذ فلاّحه. الدركي، خادم السيّد، والسيّد زلمة المستشار، وهذا لا أدري لمن يتبع، وحين يمرض الفلاح، أو يتبطّل، أو يُسجن، تُطرد عائلته، لأن معيلها لم يعد موجوداً، ولم يعد يعمل مرابعاً، بينما الزرع يحتاج لمن يشتغل فيه، فيؤتى بغيره، وتُلقى حوائجه هو في الطريق».

سكتت الأم ونحن جلوس حولها. أرادت أن تفرحنا فأحزنتنا، رغبت أن ترسم الفارق بيننا وبين الفلاّح، فإذا هو فارق بسيط، يقوم على طبخة البرغل التي هي أكل الأوادم، ماذا يأكل الفلاح إذن؟ قالت الأمّ: «الفلاح عزيز أكدّ لي أن بعض فلاّحي الجبل يأكلون الحشيش. لم أصدّقه، أقسم،

قال إنه رأى فلّاحاً يرعى الحشيش مع أولاده كالبهائم. طبعاً هذا غير صحيح. أنا رأيت الفلّاحين، كنت في قرية «الأكبر» في برّ أرسوز، ورأيتهم هناك، حال الفلّاح، في كلّ أريافنا واحدة. قد تتميّز، هنا أو هنا، بوجود الخبز، أو الماء، أو المسكن، وهو غالباً كوخ من طين، لكن من حيث الأساس، كلّ الفلاحين مرابعون. الفلّاح يا عيني، لا يسمّى فلّاحاً إلا للازدراء. في غير ذلك يقال له «مرابع»، نحن أيضاً عملنا مرابعين، في برّ أرسوز. كان والدكم، إضافة إلى الزراعة، يعمل إسكافياً، ومع ذلك كنّا لا نجد كسرة الخبز إلا بصعوبة.. كنا نستدين، فتتراكم فائدة الدين، ونستدين لتسديد الدين، فتزداد الفوائد، ولم يجد أبوكم من حلّ سوى الوسيلة التي يلجأ إليها الفلاحون: وضع أختيكم خادمتين عند اثنين من موظّفي الحكومة في إسكندرونة.

سألت الأخت الصغيرة:

– وأين هما الآن؟

– الكبيرة ماتت.

– ماتت؟

– نعم ماتت. قالت الأم وهي تجفّف دموعها بمريولها..

قالت لها أختي:

– ولماذا البكاء الآن؟ أما كفاك، منذ رحلت، وأنت تبكين؟

– يا حرق قلبي عليها.. كانت صبية وجميلة..

سألت أختي الصغيرة:

– وأين ماتت؟

– في إسكندرونة..

– وكيف ماتت؟

قالت أختي:

– لم تمت لكنها رحلت..

– إلى أين؟

انتهرتها:

— أف.. لماذا تكثرين من الأسئلة؟.. ماتت أو رحلت.. كلّه سواء.. المهم أنها لم تعد موجودة..

وقالت الأمّ من بين دموعها:

— اي والله، يا حرقة قلبي، لم تعد موجودة..

كنت أعرف حكاية هذه الأخت. لقد اتفقنا، دون اتفاق، ألاّ نذكرها، ألفنا أن نرى الأمّ تبكي عليها، كانت تذكرها دائماً، لكنّنا، نحن الأولاد، كان محرّماً علينا أن نقول شيئاً.

أخلدنا، نحن الأربعة، إلى الصمت. تمطّى الصمت ثقيلاً فوقنا، زادته الكآبة ثقلاً. قصّة الفلاّح قادت الأم إلى الاستطراد، كانت تعرف هذه الحياة جيّداً. عاشتها. غرزت، مثل الفلاحين، في وحل الشتاء، وحين يكون المطر، والريح، والغيوم السود تحجب السماء بطبقة كثيفة، كان الخوف يهبط علينا، مع الليل، وعند نضوجه يغدو همّاً يتغلغل الصدور الواجفة من جوع وبرد. الطبيعة، هذه المنحة الإلهية، تصبح عدوّاً للفلاّح، عدوّاً يلاحقه بالمطر والوحل والزمهرير شتاء، ويلاحقه صيفاً بالحرّ والذباب والمرض. حتى في الربيع، حين تتفتّح البراعم، وتتزيّن الورود، يكون الفلاّح في خشية على الموسم، وفي قلق من كبسات السيّد ونكده، ومن أعمال السخرة، في شقّ الطرقات، أوقضاء الحاجيات. وفي الخريف، حين الغلال على البيادر، تلاحقه عيون المرابين، وتصادر حصّته، تسديداً للديون المتراكمة. الفلاح ابن الطبيعة، يعيش الطبيعة، لكنه لا يحس بجانبها البهيّ، يغتاله العمل الشاقّ، اللاإنساني، ويخنقه الزعل، وتتجمّع عليه صنوف الشقاء، خارجة إليه من بطانة سوداء حتى في الأشياء الملوّنة.

وأمّي، الفلاّحة في الأصل، التي هاجرت وعملت في الأرض، ومحطّات السكك الحديدية، وبيوت الأغنياء، والتي، في الأرياف، قاسمت الفلاّحين جوعهم وخوفهم ودموعهم، كانت قد نسيت عادة الفرح، فإذا كان لها وقت للراحة، مثل هذه الهنيهات التي جلسنا فيها نأكل خبزنا اليابس، مع

حبّات الزيتون التي نتأذّم بها، كانت تعتادها الذكريات، وترجعها إلى دائرة الحياة الشقيّة التي عاشتها.

جاء الأب ومعه حمار دون سمر[1]، حمار على الزلط كما يقولون، وقد استعاره من فلّاح حمل زيتونة إلى البورة، على أمل أن يأتي ويحمل عليه ما جمعنا من زيتون. كان جائعاً هو الآخر، وجلس معنا قليلاً في الفيء، فمضغ نصف رغيف مع الزيتون، واستمع إلى الوالدة تقصّ عليه حكاية الحنش، في غلغال الزيتونة، وقصة الأفعى التي صادفتها وأنا أعود من البورة حاملاً الماء. كان من طبع الوالد ألاّ يخاف، لقد أمضى حياته في أعمال المرافىء والمزارع والبناء، وطوّف في القرى كثيراً، ورأى من الأفاعي، سوداً وبيضاً، ما لا يحصى، وهو لا يفهم كيف أننا، أمام حشرات صغيرة كهذه، نخاف. لعلّه، إضافة إلى فقدان حاسّة الخوف عنده، أراد أن يبعث فينا الشجاعة فقال:

– الحيّة لا تعضّ إلا الذي يؤذيها، أنتم تجمعون الزيتون ولا تطاردون الأفاعي، وهي تعرف ذلك ولن تؤذيكم. انتبهوا، احرصوا عند رؤية حيّة ما، أن تدعوها تذهب بسلام.

قالت الأمّ:

– لكننا حفاة، والأفعى موكلة بالأكعاب..

– من قال هذا الكلام؟

– ألم يقل الله لحوّاء، حين أغوتها الأفعى، وطُردت من الجنة، أنت تسحقين رأسها وهي تلدغ كعبك.

– ومن الذي قال هذا؟

– هذا كلام الإنجيل..

– في الإنجيل لا يوجد مثل هذا الكلام.

كنت أنا الذي قلت لأمّي، فالتفتت إليّ مستنجدة، وسألتني:

(١) السمر، غطاء الدابة، وهو من جلد وعيدان.

- أليس هذا كلام الإنجيل؟
- ليس كلام الإنجيل، قرأت ذلك في كتاب «التعليم المسيحيّ».

قال الوالد:

- الأفعى لا تؤذي إذا لم تُؤذَ.. سأحمل ما جمعتم إلى البورة، وأنتم تعودون إلى العمل.. هاتوا المرواط كي أنبر لكم زيتونة أو اثنتين.

نهضت الأمّ إلى العمل فتبعناها. بدأنا، بعد الظهر، بملء الشوال الثاني، فكرة ملء عشرة شوالات كانت خيالية، من نسج حماسة خيوطها عنكبوتية. حتى الظهر لم نملأ سوى شوال واحد، ومعنى هذا أننا سنكون نشيطين، مُجدّين، إذا ملأنا ثلاثة شوالات. لقد اكتشفنا أن حساب السوق لا ينطبق على الصندوق، وأنّ ما كنّا نظنّه لعباً، هو عمل مجهد، يتقوّس فيه الظّهر لشدّة الانحناء، وتتصلّب الركب وتغدو غير مطاوعة للقرفصة، لا سيما بالنسبة للأمّ التي بلغت سنّ الكهولة. طلبنا منها أن تستريح، أختي هي التي اقترحت هذا، لكن الأمّ رفضت، أصرّت على أن نعمل يداً بيد، وقصّت علينا بعض ذكرياتها تسلية وتشجيعاً، فاستعدنا، بسرعة، لياقتنا، وشرعنا نعمل بهمّة جيدة، مماثلة للهمّة التي بدأنا بها صباحاً. وفيما كنّا نعمل، دندنت الأمّ بأغنية فتبعناها، ووجدنا ذلك مسلّياً، مبهجاً، فأخذنا به، مكتشفين أن الغناء، وخاصّة بصوت الأم، حلو، حنون، وأنه يصرفنا عن التفكير فيما نحن فيه، وينسينا التعب الذي هدّنا. لكن أختي الصغيرة زعقت زعقة رعب قاتل، ولم تقْوَ على الوقوف، بل ألقت بنفسها جانباً، وأخذت تزحف، على أربع، وهي ترتجف من الخوف.

- ماذا؟ - صاحت الأمّ - ماذا جرى يا حبيبتي؟
- حيّة!
- أين؟
- تحت التراب!

ابتعدنا عن الموضع الذي أشارت إليه. كانت ثمة مدرة كبيرة، وتحتها تلطي الأفعى، طلباً للرطوبة، وهي تلتفّ مثل كعكة، وتشرئبّ برأسها

فقط. قالت الأمّ إن علينا أن نبتعد، وأن نترك الزيتونة إلى غيرها، لكن أختي رفضت، لأن الأفاعي كثيرة، ويمكن أن نجد أفعى تحت كل مدرة، وعلينا ألاّ نبالي، فإذا انسابت الأفعى تركناها. لا نؤذيها حتى لا تؤذينا كما قال الوالد.

أمام هذه الشجاعة، والإرادة في البقاء وجمع الزيتون، أحسست، بدفع من مشاعر الفتوة، أنّ علي أن أمثّل دور الرجل، وأن أقتل الأفعى. كان المرواط في يدي، وقلت للأهل ابتعدوا، ثم دفعت رأس المرواط في المدرة، فانسلّت الأفعى وهي تشرئبّ، وركضت الأختان خوفاً، بينما هجمت أنا على الأفعى التي حاولت الهرب وهي تتلع بعنقها. ضربتها على ظهرها، ضربتها بقوة، انكسر لعنفها المرواط، فتلوّت الأفعى التي انكسرت إحدى فقراتها ولم تعد قادرة على الانسلال، وهذا ما شجّعني على ضربها ببقية المرواط الذي في يدي حتى أجهزت عليها، ثم سحقت رأسها سحقاً جيّداً، فيه نوع من الانتقام، التشفّي، الخوف من انبعاثها ثانية. ولما أتممت قتلها قلبتها، وقلبت المدرة التي بقربها، خوفاً أن تكون ثمة أفاع أخرى، أو أن يكون للأفعى المقتولة فراخ صغار، لكن الأم، وهي تسمع أنّي أنوي، لو وجدت صغار الأفعى، أن أقتلها أيضاً، قالت متوسّلة بلطف:

ـ لا تقتل الصغار يا بنيّ. . دعها تذهب في سبيلها.

ـ ولكنها أفاع . .

ـ مع ذلك يجب ألاّ نقتلها. . حرام القتل، ولا سيما للصغار، الله لا يرضى بهذا.

ـ الصغار أيضاً قادرة على اللدغ. .

ـ ليس الآن. . حين تكبر، الصغار لا يؤذون أبداً.

لم نجد صغار الأفعى، لهذا لم تكن ثمة مشكلة، لو وجدتها لقتلتها. كنت أقتلها بدافع الخوف ليس إلاّ. . أنا أيضاً أحبّ الصغار، ولا أريد لها الأذى، لكن الأفاعي ستكبر، ستغدو سامّة، وربّما، بعد شهر، هي نفسها التي تلدغ أحداً منّا. الأفعى لا يؤمن جانبها، كبيرة كانت أم صغيرة، وفي

قتلها درء لخطرها، لكن الأمّ رفضت جميع حججي، ولم أشأ أن أخالفها، لكنني، بيني وبين نفسي، كنت قاسياً على مثل هذه الزواحف، حتى لا تأخذني شفقة عليها. لو كان جرو كلب، صغير قطة، أو كانت صغار دببة أو أسود، كان مفهوماً أن نرأف بها، وأن نأخذها، ونطعمها، ونربّيها، أما الأفعى فهي مخلوق بغيض، تتسرّب في عمودي الفقري برودة عند مرآها، وليس قتلها لوجه القتل، بل لدفع الأذى، لعقل الخوف الذي في داخلي.

جمعنا الزيتون من تحت الشجرة وانتقلنا إلى أخرى، كنت قد سبقت الأهل ونبرتها، لكن الأشياء مرّت بسلام، ولم نجد أيّما أفعى في الأشجار أو على الأرض.

طاب لنا العمل في الأصيل، مالت الشمس عن سمتها، خفّت الحرارة، صار في الوسع تنسّم الهواء المسائي المنعش، وغدا انعكاس الظلّ يوحي بتلك الهالة الغروبية المقبلة، هالة الوداع، بين السماء والأرض، والفراق بين النور والطبيعة. الآن ستغمر الظلمة الكائنات، وهذه الكائنات التي ستتلفّع بالليل، وتبترد، ستتفتح على نحو آخر. لقد كان الأصيل، بالنسبة إليّ، فرحة كاملة، وكان بالنسبة إلينا، في ذلك العمل الذي نباشره، بشيراً باقتراب الراحة، وبذهبيّة الضياء التي توشّح الموجودات، منسحبة على مهل، ملوّنة كشبكة نورانية، يجرّها القرص الكبير وراءه، ويمضي بها إلى البحر، حيث يدعنا نشاوى، من خمرة تُحسّ ولا تذاق، تُسلمنا، شيئاً فشيئاً، إلى ذلك الخشوع الابتهالي للمغيب، تتلوه سكينة، وسجود للنفس، وصلاة ترفعها السريرة، وراحة للجسد، والفكر، وعودة إلى البورة، ثم إيقاد النار والخبز على الصاج، وطهو طعام المساء، وتقديم جني اليوم من الزيتون إلى الوكيل، والشعور المعافى، المتولّد عن عمل كان في وقته صعباً، مرهقاً، لكنه، الآن، وفي المحصلة، أصبح غلّة، هي المكافأة العذبة كأعطية السماء.

بلغ الزيتون الذي جمعناه ثلاثة شوالات ونصف شوال. قالت الوالدة وهي تلتقط آخر حبّة منه، وتنصب ظهرها واقفة:

ـ كفى! الحمد لله . .

أضافت وهي تجمع أشياءنا استعداداً للعودة :

ـ ليس بسيطاً ما جمعنا يا أولاد . . إذا داومنا على العمل ، بالوتيرة نفسها ، عدنا إلى اللاذقية وقد حصلنا على مردود جيد . استريحوا الآن ، خذوا نَفَساً ، ويمكن ، عند الرجوع إلى الخيمة ، أن تتعصرنوا . .

قالت أختي :

ـ لا داعي للعصرونيّة ، ما دمنا ستتعشّى باكراً . .

وسألت الصغيرة :

ـ ماذا لدينا للعشاء؟

ـ ساطبخ منزّلة الباذنجان . . ونستطيع أن نأكل معها القليقلاء الخضراء والبصل ، وسيكون لدينا الزيتون . . خبز الصاج طيّب ، لا سيما وهو سخن ، حتى ليؤكل دون إدام . .

فركنا أيدينا من غبطة . ما كان صعباً أصبح سهلاً . أعطينا برهاننا . . اجتزنا الامتحان بنجاح . كان علينا أن ننتظر الوالد لتحميل ما جمعنا من زيتون . وقد داخلني زهوٌ غير قليل لأنّي فزت بثناء الوالدة على نبر الزيتون وقتل الأفعى . مارست ، في ذاتي ، شعوراً بالسعادة . لم أعد ذلك الطفل الصغير في ريف السويدية ، أو ذاك الصبي في ريف أرسوز . أستطيع الآن أن أقيم منطرة على طرف الكرم وحدي ، هذا لن يحدث طبعاً ، لكنني أستطيعه . لم أعد ذلك الخوّاف ، الذي كنته . طلبت من والدتي وأختيّ أن يذهبن إلى البورة ، وأبقى مع الزيتون ريثما يُحضر الوالد راحلة لنقله . دندنت بأغنية حين صرت وحيداً ، أخذت أقطع المنطقة جيئة وذهاباً . احتفظت بالمرواط المكسور الذي قتلت به الأفعى . ضربت به الأرض عدة مرات . مرّغته بالتراب لإزالة أثر الدم عنه ، قرّرت ، عند العودة إلى البورة ، أن أقطع غصون اليغنص وأصنع منها عصيّاً ليوم الغد ، تهلّلت وأنا أسمع أجراس الجمال قادمة من بعيد ، كانت أشبه بالنواقيس ، في دقّاتها الموزونة ، الرنّانة ، التي تبعث على الذكريات في سجو المساء ، أو عند المغيب الحلو ،

الذي صار الآن مكتملاً، ولم يبق إلا أن تسحب الشمس آخر ذيولها وتسبح في البحر الذي طالما رصدت غطسها فيه.

طلب مني الوالد، ونحن على البورة، أن أسجّل في دفتر صغير مقدار ما جنينا من زيتون في يومنا. وضعنا الزيتون على القبّان، شوالاً بعد آخر، وسجّلت الرقم في دفتري. ذهبت إلى الخيمة لأغسل وجهي ويدي. كانت البورة، في ساعة المغيب تلك، تحفل بضجيج غير مألوف، كلّ الذين يحرسون كروم الزيتون، حملوا إليها ما جنوا في يومهم، كانت هناك نساء أيضاً، حملن أكياساً من الزيتون على ظهورهنّ ورؤوسهنّ، جئن من مسافات بعيدة وقد هدّهُنّ التعب. لكن المطعون، بدلاً من وزن زيتونهن، راح يثرثر معهم. كان يتكلم، يضحك، يزن، ويسجل في دفتره، لكنه، كما قال الوالد، استبقى بعض الصبايا فترة أطول، هذا التصرّف لم يعجب الأب، كان مستعجلاً، يريد الانتهاء من التقبين وجمع الزيتون من حوالي البورة. ولم أعرف سبباً لاستعجاله، أنا الذي وجدت مسرّة في رؤية الناس، واقتربت منهم، أسمع ما يقولون، وأصغي إلى ملاحظاتهم عن العمل والوزن، اندغمت في الجوّ الحلو، جوّ الكثرة الذي يساعد على تصعيد الفرح من الصدر. لكن الوالد ما لبث أن اقترب من الوكيل وهمس في أذنه شيئاً. لم أفهم ما كان يريد، غير أنني، ذلك المساء، أدركت أن الوالد ذهب إلى خمارة القرية، وأنه شرب كأساً على الواقف، وأحضر بطحة ليشربها مع الوكيل.

أتساءل الآن: هل كانت حواسّ والدي راداراً يهديه، أين ما ذهب، إلى موقع الخمارة من الجهات التي يكون فيها؟ هل يشمّ أنفه رائحة العرق على هذه المسافات البعيدة، فيسير، هو التعِبُ من عمل النهار، مشتاقاً كأنه ذاهب إلى لقاء حبيب؟ ترى لو واعدته امرأة، على هذا البعد، هل كان يسير إليها، وسط هذا الليل، وبين غابة الزيتون، دون أن يخشى زاحفة أو قاطع طريق أو وحشا؟ أحسب أنه، في سبيل العرق والمرأة وحدهما، كان يفعل ما فعل. أنا لم أر لسانه يخرج، أو لعابه يشطّ، عند ذكر العرق والمرأة،

لكنني أجزم أن ذلك يصير. هو قادر، كالريّس، أن يغامر ضد العاصفة. قادر أن يجابه وحشاً، أو يأكل أفعى حيّة، أو يخرج في الليل، ويواجه بندقية مسدّدة إلى صدره. وهو لا يبالي بشيء في سبيل كأس أو امرأة، في هذه الحال يفعل ما لا يفعل، لكنه في اليوم التالي، يندم بنفس الإحساس العميق والصرامة الحادّة، اللذين سكر أو زنى بهما.

إنه مدمن حقاً. لا بدّ أن يشرب، لا بدّ أن يعشق. لا بدّ أن يرحل. ثم لابدّ أن يندم، ولكنّ الندم يأتي متأخراً، يأتي ليعيش فيه حالته في السكر والعشق ثانية. بعد ذلك ينسى، يعاود ما كان فيه، دون أن يأبه لإضاعة عمل أو مال أو سمعة، ودون أن يفكر، هو الأب، بمسؤولية أبوته، وبغير أن يتساءل هل أكلت زوجي وأولادي أم ناموا على الطوى. إنه حارس الزيتون على البورة، لكنه، دون شعور بأنه يخون واجب حراسته، قادر أن يبيع البورة والزيتون الذي عليها، أو يهبها لأيّة عاهرة، في سبيل قضاء ليلة معها. إن جسارة قلبه، ولامبالاته الكاملة بالعواقب قيمتان بدفعه إلى ضرب الوكيل، والتصدّي للشوباصي، ومهاجمة السيّد، ثم لا يكترث بما يقع، ولا يتألم والقيد في يديه، فالسجن لا يكسر شوكته، والظلمة لا ترهبه، والنوم هنا، في بيته، أو هناك، على رأس جبل، سواء بسواء، لأنه في الحالين، يغطّ في النوم معافى، ويضحك ضحكاً معافى أيضاً. ومن عجب أنه ليس أبله، ولا فيه بلادة، ولا يغضي على ضيم، ولدى أوّل كلمة لا تروقه، يندفع إلى مشاكسة قاتلة، يزهق فيها روحه، أو يضرب بما في يده، من العصا إلى السكين إلى المسدس.

كنت، وأنا أراه يسلك طريقاً مظلماً، في غابة الزيتون، أعرف إلى أين يذهب. لو فلاّحة رأته ،وواعدته مقابل أنْ يعطيها جنى نهار كامل، من حقّ السيّد أو من حقّنا، لفعل بغير تردّد. أسمر، جميل، شهوانيّ إلى حدّ العار، تتدلّى شفته السفلى المكتنزة، وتقطر غلمة، وفي عينيه وميض تخاله وميضاً في عيني أفعى، وحين يقرر أمراً لا يتراجع عنه.

أدركت الوالدة أنه ذهب إلى الخمّارة، قالت لي ذلك فلم أصدق. محال.

نحن في البريّة، وفي كرم الزيتون، وعلى مثل هذه الحال من الفقر والتشرّد، وهو يذهب إلى هناك، إلى كوخ ضائع في الريف، ليدفع آخر ما معه، وليستدين، ويشرب، ويعود متسلطناً، يجرّ الذيل تيهاً، كأنه السيّد على السيّد، بل سيّد الكون بأسره. وكنت أتساءل: ما الذي فيه ليتحمّل هذا الشرب؟ وما الذي فيه ليغري النساء؟ وأيّة صبوة يحملها في شفتيه ويديه وجوارحه؟

لم أَلُمْه على عشق النساء في هذا الريف. أنا أيضاً كنت، تلك الليلة، وفي اليوم الأول لتواجدنا على البورة، واليوم الأول الذي قتلت فيه الأفعى، على غاية من الانسجام الروحيّ، وإذا لم أشْتَهِ الخمرة، فقد اشتهيت المرأة. تفتّحت حواسيّ الموروثة عنه في فتوتي المبكرة. كان في وجهي عينا أفعى، وميضهما، وكم من مرّة ستقول لي النساء، في حياتي المقبلة «لا تنظر أنت في عيوننا» وأسأل: «لماذا؟» ويجبن: «هكذا! في عيونك دعوة إلى الخطيئة». ولقد ارتكبت الخطيئة، أحببتها، عرفت النساء، وكنت، كوالدي، قادراً أن أهب حتى قميصي الوحيد، في سبيل امرأة، ولهذا ربما غفرت لوالدي رخاوته أمام المرأة، ولكنني أبداً لم أغفر رخاوته أمام العرق.

طوفت في البورة وما حولها. صعدت الرابية، عشت سجو الليل، أكلته، شربته، أشعلت فوانيس النجوم، طافت بي رؤى الصبايا اللواتي حملن زيتونهن إلى البورة، تنشّقت شهوة الليل، بحثت عن شعرة الصبوة في جسدي لأقتلعها، لكنّ شيئاً من كلّ ذلك لم يجدِ.

كنت صغيراً، وفقيراً، وكان وقت امتلاكي للمرأة باكراً بعد.

- ٥ -

لم أدرك ماذا كان يعنيه أبو اسكندر بقولته: «لا تتشاطر عليهم في الوزن» إلّا حينما راقبت عملية التقبين. كان المطعون، وكيل القبّان، يزن على هواه، ولمصلحة السادة، بضربات من القبّان تطفّف الميزان وتسرق الفلّاحين. تأتي الفلّاحة بكيس الزيتون فتضعه على القبّان، ويمدّ يده، بخفّة إلى البيضة، فيحرّكها سريعاً، ويفتل مغلاق القبّان وهو يصيح:

- ثلاثون كيلو.. غيره..

تحملق الفلّاحة في القبّان، وبيضته التي وقفت على رقم لا تعرف أن تقرأه، ثم تراقب يد الوكيل الذي يدير المغلاق، وتفغر فاها من دهشة.. يكون كيس الزيتون قد هدّها هدّاً، وهي تحمله على ظهرها من مسافات بعيدة، فإذا الوزن، عند التقبين، يعطي رقماً لا تفقه منه سوى أنه رقم صغير، وحين يسجّل في ورقتها تعلم أنّه لا يساوي نصف تعبها.

تقول الفلّاحة:

- والله قليل يا مطعون.. ثلاثون كيلو فقط؟

يتوقف أبو نعمة عن الوزن، يرفع رأسه ليراها بعينيه الزئبقيتين من تحت قبعة القشّ، صائحاً بها:

- وكم تريدين؟ القبّان، يا أختي، لا يستحي منك ولا مني.. أما وزنت الزيتون أمامك؟

- لكنّ زوجي، أمس، قال لي إن الكيس كان يزن خمسين كيلو على الأقل.

- وكيف عرف زوجك المحترم. ؟ يده قبّان؟

- يعرف من رفع الكيس على ظهري. . نطقت الدم حتى أوصلته، وبعد ذلك لا يزن سوى ثلاثين كيلو!

- أنا، يا أختي، لا وقت عندي للأخذ والعطاء. . هذا هو الزيتون، وهذا هو القبّان. .

- لكنّ زوجي. .

يقاطعها صائحاً:

- فَلَقْتِني بزوجك. . لماذا لا يتفضّل جنابه ويأتي بنفسه ليرى القبّان؟ أم أنه جعلك دابّة تنبرين الزيتون، وتجمعينه، وتحملينه إلى هنا، وهو قاعد يفرك بـ. . .

- ويلي. . لماذا تثقل في الكلام؟

- خجلت؟ كان الأولى أن تشكريني على أنني مشّيتك بسرعة. قبّنت لك دون أن أدعك في الصفّ، أنا أعرف أن أولادك في البيت ينتظرونك، وأن أمامك عملاً كثيراً، من حمو التنور إلى الخبز إلى الطبخ إلى. . أظنّك فهمت. .

- عيب يا أبو نعمة.

- لا عيبة في الحلال يا أختي. . وإلّا من أين هؤلاء الأولاد؟ ما هو شغلكم في الليل؟ من العشي تنامون. . ثم بظ يا أولاد؟

- وماذا نفعل إذا لم يكن لدينا زيت كاز، وأننا نتعب في النهار، وننام باكراً كي نستيقظ باكراً، ومن جديد، من مطلع الشمس حتى مغيبها نعمل في أراضي الخواجة؟

- هكذا إذن أنت تتذمرين، غير راضية من وضعك، تريدين أن تجلسي في البيت ويأتيك كل شيء إلى عندك؟

- لم أقصد هذا. . لا أريد القعود في البيت. لكن العمل من الصباح الباكر إلى ما بعد مغيب الشمس يهدّنا، إننا نعمل جائعين، وليس على ظهورنا ثياب.

- هـذا من كسلكم وقلّة تدبيركم، أنتم، كما أعرف، كما هـو الواقـع، خنازير. .

وتحتج امرأة أخرى قائلة:

- ويلي كيف تقول هذا؟ كيف تشبهنا بـالخنازيـر. . نحن بشر. . من بني آدم.

- أنتم من البهائم. .

- حتى البهائم عندها ما تأكله. . أما نحن. .

ويقاطعها ساخراً:

- مـاذا أنتم؟. . ألا تأكلون وتشـربون؟ ومِنْ فضـل مَنْ هـذا؟ أليس من فضل السيّد. . هيا. . اخرسي. . غيبي عن وجهي. .

وتعود المرأة الأولى إلى الكلام قائلة:

- ما نقوم به تعجز عنه البهيمة. . وبعـد كل تعبنـا تشتمنا. . ثم تعتـدي علينا، وقبّانك هذا غير مضبوط. .

- يا بنت الكلب. . هكذا يتكلّمـون مع الـوكيل. . تتّهمينني في ذمتيّ. . لولا انشغالي لأشبعتك ضرباً. .

- ولماذا تضربني. . أنا أدافع عن حقي، أتظلّم من الحالة التي نحن فيها، من كثرة الشغل المفروض علينا. من شقائنا وتعاستنا.

- لو كان زوجك هو الذي يقول هذا الكلام. . لكان حسابي معه عسيراً.

- زوجي يشقى كما أشقى، وأولادنا في شقاء أكبر، لا مدرسة، لا حذاء، لا كساء، وهم يعملون في الأرض منذ ولا دتهم. . فماذا نفعل؟

- أنت تعرفين ما يجب أن تفعليه.. هذا شغلك.. أنا أعرف ما يجري فقط.. تظنّيني لا أعرف حياة الفلاّحين؟ أنتم كالدجاج، تنامون من المغرب..

- وماذا لدينا في الضيعة حتى نسهر يا أبو نعمة؟ تاترو؟ سينما؟ نحن نتعب النهار كلّه، ونأكل كسرة خبز في المساء وننام كالقتلى.

- وماذا تفعلين قبل النوم؟ قولي.. أم تخجلين؟

- الحياء واجب. الله أمر بالسترة.. أنت تقبّن لنا أم تستجوبنا.. انتبه.. حولك صبايا..

ويضحك المطعون وهو يرفع قبعته القشية لتهوية صلعته قائلاً:

- الصبايا تعرف أكثر مني ومنك.. لم يعد أحد غشيماً.. و إلا كيف تتزوج بنت الأربعة عشر؟

وتدخّل الفلاح يونس في الكلام قائلاً:

- تتزوج لأنها تتزوج.. هذه عادتنا.. إذا تزوجت البنت باكراً تصون نفسها عن الفحشاء.

- لم نقل شيئاً.. تتزوّج يعني تتزوج.. لم يعد أحد غشيماً هذه الأيام.. لا تضطرني إلى الكلام على المكشوف.

ضحك بعض الواقفين، وعبس بعضهم الآخر، وتابع المطعون كلامه:

- أنا لست غريباً عنكم.. ولست ضدكم.. أراكم كل يوم، وأرى الخواجة في السنة مرة، من أقرب إليّ إذن؟ ثم هذا هو القبّان، اقترب.. تعال.. اقرأ الرقم الذي تقف عنده البيضة.

- لو كنت أعرف القراءة ما كنت فلاّحاً على البورة.

- ماذا تعرف إذن؟ اللتّ والعجن؟ تذميم الآخرين..؟ هذه آخر مرة أسمع فيها كلاماً حول القبان.. أنا صاحب وجدان.. صاحب حقّ..

وماذا ينوبني من اللّعب بالميزان.. قل أنت.. ماذا ينوبني؟ ماذا يدخل إلى جيبي.. أنا لا آخذ الزيتون لبيتي، من القبّان إلى المعصرة. قلبي معكم، قلبي عليكم، وقلبكم على الشيطان.. تفو.. جنس عاطل.. هاتي زيتوناتك يا بدّور. ضعيهم على القبّان..

كانت بدّور هذه فتاة في مقتبل العمر، ناهدة الصدر، جميلة العينين، مكوّرة الأرداف، وقد سمعت ما دار من حديث، فغطّت وجهها بمنديلها، لتحجب ابتسامتها، وراح المطعون يروزها، يتفحصّها إلى درجة التعرية، ويصيح بها:

- قدّمي.. انحني على الكيس وجلّسيه على القبّان.. لماذا أنت جفلانة؟
- هه.. الكيس جالس، ماذا أفعل يا ويلي؟
- نحن نشتغل أو نأكل هوا؟
- نشتغل يا أبو نعمة. الكيس على القبّان..
- اربطيه..

انحنت لتربطه، أو تصلح من وضعه، فاهتبل المطعون الفرصة ليغرز عينيه في صدرها. كان يحملق وقد التمعت في ناظرية شهوة جنس فاجرة، وفيما هي تربط الكيس وقف وتطلّع إلى ردفيها، ولزّ عليها، ودار من حولها، ثم وزن الكيس وقال لها همساً:

- هذه خمسة كيلو زيادة لأجلك.. سمعت؟ أنا أسرق الخواجة.. أخونه.. ألعن والده بالسرّ، ولماذا؟ كلّه لأجل عينيك يا مقصوفة.. وأنت.. هل بلّغت سلامي لوالديك.. قلت لأهلك إنني سأزورهم.. أين تنبرين اليوم؟ وحدك أم أهلك معك؟

فصاح فلاح من الواقفين:

- طولتها يا أبو نعمة.. هل تحكي حكاية مع بدّور.. صار الليل ونحن ننتظر..

- وماذا إذا انتظرت؟.. أنا أدقق في القبان يا حبيبي، لا أريد أن تدخل زيتونة واحدة في ذمتي..
- ولكنك تشلف القبّان بضربة واحدة مع هذه، وتظلّ تماحك مع تلك.. ونحن على نار..
- النار في بلعومك.. صَلِّ على النبي..
- اللهم صلّ وسلم عليه..

قالها الفلاح بتقوى صادقة، بينما عاد المطعون إلى بدور يسألها في أيّ كرم تعملين؟ سأمرّ عليك غداً.. أريدك أن تجمعي لي سلّة من العطون للخواجة.. أوصاني عليها اليوم.. أريدهم عطونات على الكيف.. من أيديك الحلوين.. لا تسألي عن الوقت.. في المساء أعوّض لك أتعابك..

كان والدي، في حال كهذه، ينزّ الشيطان من أنفه. أصغى إلى ما تقوله بدور، أضمر أن يكون هو لا المطعون في الموعد.. هناك، في الكرم، تحت أيّة زيتونة، يمكن أن تستسلم إليه، إن لم يكن غداً فبعده.. إنّه أحقّ بها.. إذا عارض المطعون ضربه بأيّة أداة. جعله مطعوناً حقيقة. إلى القرد بكل نصائح الأمّ عن التزام حسن السلوك، مع الخواجة والشوباصي والوكيل، إنه حسن السلوك على كل حال. وهل الحديث مع امرأة، تحت زيتونة، فيه إخلال بحسن السلوك؟ إذا كان المطعون يطبخ لنفسه فلن يَدَعَهُ يأكل طبخته بمفرده. أما إذا قاسمه فيها، ودعاه إلى«القمة طيبة» مع هذه أو تلك، فإنّه سيرضى، سيتظاهر بأنه لا يرى ولا يسمع، سيغضي، ويدع الأمور تسير على أحسن ما يرام، أما إذا عاكسه المطعون، فسيثيرها فضيحة.

وكان المطعون، من جهته، يلاحظ تسكُّعات الوالد حوله، يتضايق، يقول له:

- أنت، يا مصري، خلّيك بعيداً.. على أطراف البورة.
- أنا أساعدك.. لا أريد أن يتكاثر عليك الفلاّحون ويغشّوك..
- من هذه الجهة لا تخف.. أغشّ والدهم.

- وماذا كنت تقول للحرمة .؟

- أعوذ بالله . . اسمع . . نحن هنا نشتغل.

- كويس . . إذا كان هناك شغل نشتغل . . ولكن هذا لا يمنعك من التحرّش بالنساء . . ماذا كنت تقول للحرمة؟

- قلت لها جلّسي الكيس على القبان . . ماذا في هذا؟

- فيه أنك تريد أن ترى صدرها.

- أنا؟ . . اسمع . . إذا عدت إلى هذا الحديث . . لن تبقى على البورة . .

- وأنت لن تبقى سالماً . . لن تنجو من يدي ولو استنجدت بالحكومة نفسها.

- ولكنك لا تفعلها . .

- ما هذه التي لا أفعلها؟ . . ضَرْبك . . تصرُّفْ ضدّي تَرَ . .

- أنا أقول إنك لا تفعل تلك الشغلة مع فلاحة . .

- وما بها الفلاحة . . أليست امرأة؟

- أعوذ بالله . . تريد أن تخرب بيتك . .

- بيتي؟ أين بيتي؟ هذه الخيمة، وهذا السهر، وهذه السرقة . . تحسب أني لا أراك؟ أنت لا تقبّن على المضبوط، تطفّف الوزن، تأكل على هذه خمسة كيلوات وعلى تلك سبعة وعلى الثالث عشرة، تفعل السبعة وذمّتها، لكن هذا لا يدخل في حساب الخواجة . . إنه يدخل في حسابك الخاصّ . . مع كل جمّال ترسل إلى المعصرة كيساً باسمك . . أراك . . أراقبك . . إذا وقفت ضدّي فسأعرف كيف . .

- هس . . هس . . لا ترفع صوتك . . ماذا تريد . .؟ أمس، وقبله، وقبله، زدت في الوزن لكم . . نفَعتكم . .

- لا تنفَعْنا . . زِنْ بحق الله . . لنا ولغيرنا . .

- أنا أزيد لكم . . أراعي مصلحتكم . . وأنت أيضاً راعِ مصلحتي . .
- وبدّور . .
- ما بها؟
- وزكيّة؟
- من هي زكيّة هذه؟
- لا أعرف . ولكنني أحذّرك . . .

لقد سمعت كلّ ما دار عن بعد، كنت أرغب في تأديب المطعون الذي يسرق تعب الفلاّحين، فإذا لم يكن التأديب فالزجر على الأقلّ، وها هو والدي ينهض لهذه المهمّة. لكنني شككت في براءة نواياه، والدي لا يكترث للحق بل للمرأة، وسيكون تنافس بينه وبين المطعون. لكنّه تنافس معروف النتيجة، فالوالد هو الذي سيربح، ولو دفع ثمن ذلك بقاءنا على البورة.

كان المطعون قصيراً، بديناً، أصلع تقريباً، عيناه سماويتان، وفي أسفل ذقنه طعجة كأنّها حفرت بسكين ذي نصل حادّ. ولم تكن به علامة فارقة سوى صغر كفيّه، واستدارة رأسه كبطيخة، وثعلبية حركاته، التي لا تؤتمن على شيء. وقد راقبته وهو يعمل، ويتحدّث ، ويطوف في البورة. وكرهته لا أدري لماذا. ربما كان ذلك عائداً إلى أفعوانيته، فهو يلطي دائماً تحت قشّ الأشياء، وميله إلى أذى الناس، وخاصّة الفلاحين، أشدّ من ميل الشوباصي إلى إرهابهم.

كان هذا، الشوباصي، قاسياً، واضحاً في قسوته، كان نائباً للسادة في هذه الكروم والأراضي التي عمل فيها الفلاّحون، وهمّه أن يعتصر أكبر قدر من طاقتهم، ويسلك إلى ذلك طريقاً مختصراً، الضرب بالعصا أو الكرباج، وحبس الفلاح في القبو، تحت القناق أو طرده من القرية نهائياً، لكنّه لا يلجأ إلى الثعلبة، ولا ينتهك نساء فلاّحية، ولا يقبل رشوة أو ملاطفة من أحد. إنه يقتل عند اللزوم، وقيل إنّه قتل بعض الفلاحين فعلاً، وفي كل مرّة كانت تحفظ وقائع الجريمة على اسم مجهول، لذلك فإن حظوته، عند الأسياد، كبيرة، وهيبته عند الفلاحين مرعبة، غير أنه لا يلدغ كأفعى. كان

من هذه الناحية نمراً، يمزّق ضحيّته بأنيابه ولا تأخذه شفقة بأحد، ويطوف كل تلك الأنحاء وحده، ليلاً نهاراً، معتدّاً بقوّته، وهذا هو الفارق، بين صراحته ومباشرته، وبين غموض المطعون ودسّه الدائم..

على كل حال، فقد كان الوالد من صفّ الشوباصي، وكان معجباً به، ويكره المطعون ويناكده منذ الأسبوع الأول لوصولنا. أما أنا فكنت أنفر من الاثنين، اعتبرهما أداتين في يد الأسياد، أرى إليهما كجلّادين، وكانت سرقة المطعون لحقوق الفلّاحين تثيرني أكثر من مغازلته لبدّور أو زكية، وأعجب لحال الوالد، الذي لا يسكت على ضيم، كيف لا يهمّه ما ينزل بالفلّاح، بمثل ما يهمّه إغواء المطعون لبدور أو غيرها.

ربما كنت الوحيد في العائلة، وعلى البورة، الذي انتبه إلى الصراع الخفيّ بين والدي والمطعون على امرأة، وأوجس من ذلك شراً. وكنت أترقب أن يتطوّر التنافس إلى عداء، ندفع نحن ثمنه، بانقطاع رزقنا الذي يشكّل موردنا الوحيد.

وما كنت، في ذاتي، على أدنى شكّ بأنّ الوالد سيفوز. ولهذا رحت أراقبه، وراح هو يلاطف بدّور، ويحوم حولها، ويدافع عنها، بينما كان المطعون ثرثاراً لا أكثر، خوّافاً. والوالد يُدرك ذلك، ويَضَعُه تحت إبطه، لا لأجل الزيادة في الوزن، بل لأجل العرق والمرأة.

كان العرق هو الدواء الوحيد الذي يسكن انفعال الوالد. كان مدمناً إدماناً مرضياً، ولكم نصحته الوالدة أن يقلع عنه ونحن في هذا الريف، ولكم تمنّيت على الله أن يصرفه عن هذا الداء، غير أنّ رجاءاتنا، الوالدة وأنا، ذهبت أدراج الرياح.

كانت زجاجات العرق تظهر في الليل، يُحضرها الوالد لا ندري من أين، ولا يدخلها الخيمة بل يخبئها في أدغال الزيتون، هنا أو هناك، لكنّنا نعرف أنه قد شرب من رائحته، من ارتخاء شفته السفلى، من عينيه اللتين يتراءى فيهما ماء زجاجيّ خاص. وفوق ما كان يشرب وحده، كان يجلس،

في الليل، مع المطعون ويشربان، وبعد أن يسكر الوالد، يغيب بين أشجار الزيتون، قاصداً قرية ما، مكاناً ما، ويتركنا فريسة للقلق والهمّ، أما المطعون فكان ينتشي فقط، وفي حال كهذه يرغب في الحديث إلينا، وملاطفة الشقيقة التي تحدجه بنظرات زاجرة، فيدرك أن وقعته سوداء معها، فيقلع عن ذلك حاصراً محاولاته بالفلاّحات، اللواتي كان يسرقهنّ، يستغلهنّ، ويسطو على من يجد لديها رغبة في ذلك.

وكان من عادة الوالد، حين يشرب أن يظلّ صامتاً مصغياً، يستمع إلى قصص المطعون راغباً في تصديقها. لم يكن، من جهته، يتحدّث عن مغامراته وسكره. كان يعيش الحالتين دون أن يذكرهما في قصصه الكثيرة. يرى ذلك عيباً، يراه خروجاً عن المألوف.. كان من عادته التستر على مثل هذه الأمور. فوق أنه كان يرفض أن يعترف بأنه يسكر، وأنه، في سكره، يهوي إلى درك يأباه الرجل. كان يريد أن ينسى، كالبّحار تماماً، لحظة ضعفه هذه، كيلا يعاوده الندم، هذا الذي يثقل وجدانه، دون أن يستطيع التخلّي عن الفعل الذي كان مصدره.

وكانت الوالدة تصيح، من حيث نجلس أمام خيمتنا، ناصحة إيّاه بالكفّ عن الشرب، ويجيبها بأنّه انتهى، دون أن ينتهي، ودون أن يترك في الزجاجة قطرة واحدة. ففي جلسة انسجام كهذه، والمطعون يروي قصصه المشكوك في صحّتها، كان يحلو للوالد أن يسهر طويلاً، سيّما وأن السهر شرط في وجوده على البورة، لكنّه، من حين لآخر، ينتهر المطعون، يعربد في وجهه، فيحاول هذا أن يسايره، خشية أن يناله بأذى.

في قلب إحدى هذه السهرات الحلوة، سمع إطلاق رصاص في أحد جوانب الكرم. أعقبه لغط وضجّة، فقال الوالد وهو ينهض، متسلّحاً بعصاه:

- لا بد أن حادثاً قد وقع.
- لا حادث ولا ما يحزنون.. اجلس..
- لن أجلس.. هيّا بنا..

رفض الوالد الجلوس . . كان رصاصاً حقيقياً هذا الذي سمعه. وكان يخشى على البورة، وعلينا، فصاح بالمطعون:

- هيّا . . لماذا أنت جالس غير مبال؟

قال المطعون:

- لأنني لم أسمع شيئاً.

قال الوالد:

- أنا سمعت . . هذه أول مرة يطلق فيها عيارٌ ناريّ في الكرم . . لا بدَّ أن حادثاً قد وقع، وعلينا أن ننتبه، أن نذهب إلى حيث وقع الحادث.

تصاغر المطعون وازداد قصراً، كان بديناً، تخال أنّ رقبته غير موجودة، وأن الرأس قد ركب على الجذع مباشرة، بينما ساقاه النحيلتان لا تتناسبان مع ضخامة جذعه بأيّ شكل. وبعد أن تثاءب قال:

- مالنا ولهم . . دَعْهم يطلقوا النار . . نحن مسؤولون عن البورة فقط.
- ولكنّه كرمنا . . والحرّاس، في طرف منه، أطلقوا النار . .
- لعلّهم رأوا ضبعاً . .
- لنذهبْ ونَرَ الضّبع إذن . .
- وهل تسرّك رؤية هذا الحيوان النتن؟
- يسرني أن أرى ما يجري هناك . .

كانت كلُّ مَنْ في البورة قد خرجوا. الوالدة والأختان وأنا، والفلاّحان، والجمّال الذي بات ليلته على البورة بانتظار جماله التي تـأتي صباحـاً. لقد تحرّك الجميع إلا المطعون. رفض الذهاب بإصرار وقال:

- دعونا في مكاننا . . إلى جهنم بما هناك . . المثل يقول: «اللهم حوالينا ولا علينا».

ضحك الفلاّحان، وقال عزيز:

- لكنّنا نحن هنا، في الكرم . . يعني علينا وليس حوالينا . .

- سدّ بوزك أنت. . تترك البورة وتذهب، وإذا أغاروا عليها في غيابنا؟
- من يجرؤ على ذلك؟
- لا أدري. . هل هذا الرصاص على الفاضي؟

قال الفلّاح يونس ساخراً:

- قوّصوا على الضبع يامعلمي. .
- سدّ بوزك أنت أيضاً. . على الضبع طبعاً. . وعلى مَنْ تظنُّ؟ من يسرق زيتوناً على أمّه؟ وكيف تكون السرقة والإنسان لا يرى إصبعه. . إذا كانت هناك عصابة، عدم المؤاخذة، فالخطر على البورة. . سأبقى على البورة. . انتظروا. . ساحضر الفرد[1].

دخل خيمته وأخرج فرداً صغيراً يكاد لا يرى. كان الفرد نمرة سبعة، لا يصيب لمسافة مترين، ومع ذلك كان المطعون يتباهى به. وقد شكّله في زنّاره، وقال للوالد:

- اجلس. . إذا صار هجوم على البورة تصدّيت بمفردي لهم.
- لن يقع هجوم على البورة ما دام فردك في يدك. . مع ذلك يجب أن نذهب.
- أنا لن أبرح البورة. .
- أعطني الفرد فأذهب وحدي.
- أنا لا أتخلى عن فردي لابن امرأة.

شزرَهُ الوالد بنظرة وقال نزقا:

- أبق الفرد معك. . لكن عليك أن ترافقنا.
- لن أغادر البورة. .
- أنت حرّ، سأذهب وحدي. . يجب أن أذهب، أنا حارس هنا.
- أنت حارس على البورة. . انتبه. . في حال الهجوم على البورة سأحمّلك المسؤولية. .

(١) الفرد: المسدس.

انتتر الوالد:

- أيّة مسؤولية هذه؟ . نطّتني ابن اليوم . . البورة سالمة، لن يقربها أحد . . هيّا بنا . . إذا كان ضبعاً سنأتي به للفرجة، وإذا كان لصاً . .

- أعوذ بالله، إذا كان ماذا؟ ربما كانت عصابة، وهذه تكون مسلّحة، وفي الليل . . أعوذ بالله . . . . يا عزيز . . اسمع . . أركض إلى الشوباصي، قل له علقت في الكرم . . قل له عن لساني أن يحضر المارتين[1] والرجال ويسرع . . سأبصق على كعبك . .

قال الوالد نافد الصبر:

- يعني لن تذهب . .

- قلت لن أذهب.

تناول الوالد عصاه ومضى يخترق أجمة الزيتون. كان يمشي مسرعاً، وما لبث أن غاب في الظلمة، وعندئذ أرسل المطعون وراءه هذه الكلمة:

- حشري!!

قالت الأم خائفة:

- يا ويلي . . كيف حشر نفسه في شيء لا يعنيه؟

- وما أدراني؟ الآن، إذا كان أحد لاطياً وراء زيتونة، يتناوله من ظهره . . طق . . ويقع على الأرض، وهات يا مطاردة في هذا الليل . . الحقّ عليه . . حشري، لماذا ذهب . ؟ ناديه . . ناديه يا أختي!

نادت الأمّ:

- يا سالم! . يا سالم! .

غير أن أحداً لم يجب . كان الوالد قد ابتعد، وعندئذ قال المطعون:

- دمه على كفه . . سيذهب هدراً . . أنا نصحته . . هذه مخالفة . . حتى لو عاد سالماً فهذه مخالفة . . ترك البورة جنحة مسلكية . . إذا كان هو لا

(١) المارتين: البندقية، كلمة تركية.

يسأل، لا يعرف الأصول، لم يخدم في سلك الدرك، لم يحرس قبل الآن، فأنا أعرف كل شيء جيداً.. الحارس، عدم المؤاخذة، لا يترك منطقته.. وقعت عندنا، في اللاذقية، مشاجرة، فركضت في كلّ الاتجاهات، كان الليل قد انتصف، لم أجد حارساً في الزاروب.. ركضت إلى منطقة أخرى، رأيت حارساً، أبلغته النبأ، أتدرين ماذا قال؟ قال إنه لا يستطيع التدخّل في منطقة غيره، لا يمكن أن يترك حراسة الزاروب الذي هو فيه، رجوته، نخّيته، أجابني: لو لم أكن حارساً لركضت معك.. أما وأنا حارس، وفي هذه المنطقة، فإن المسؤولية تقع عليّ إذا تركتها.. سأكتفي بإطلاق الصافرات.. فعلاً أطلق عدة صفرات.. جاوبته الدورية من بعيد.. أبلغها عن المشاجرة. انتهت مهمته، لم يستطع أحد أن يلومه.. كان انضباطياً، راعى القانون والنظام، وإلا ما معنى النظام؟ ما معنى الانضباط الخاصّ بالشرطة والدرك؟.

أجابت الأم وهي ترتجف:

- لا أدري.. لم أكن حارسة، ولا أحد من العائلة مارس هذا الشيء.

- أنا أدري.. القانون هنا (وضرب على صدره) والنظام هنا (وضرب على صدره ثانية) وقد كنت، الليلة، نظامياً، قانونياً، ولولا عناد زوجك لمنعته بالقوة.. كان يجب أن أمنعه بالقوّة.. حتى لو اضطررت إلى سحب الفرد، أو اضطررت إلى إطلاق النار..

صاحت الأمّ:

- ويلي.. كيف تطلق النار؟ تقتله؟

- أقتله.. نعم أقتله. أنا لا أريد التكلّم عن نفسي.. أنا، يا أختي، مشرّاني.. أنا، عند اللزوم، قـ.. ظـ.. يع!

- أهذا كلام؟ تقتله لأنه خالفك وذهب ليرى الحادث؟

- أقتله ولا أتحمّل مسؤولية.. نسيت أنني، هنا، وكيل الخواجه؟

- أنت وكيل القبّان، وكيل الحسابات، لكنك لا تستطيع أن تقتله.. الربّ لا يسمح.. وأنت، أنت لا تفعل هذا.. أرجوك..

- لا ترجّيني.. الرجاء لا ينفع.. إذا دارت في رأسي، وكان القانون إلى جانبي، فإنني أفعل كلّ شيء.. زوجك، يا أختي، تمادى.. تمادى كثيراً.. هل عرفت ماذا فعل أمس؟

- ماذا فعل من غير شرّ؟

- تدخّل بيني وبين بدّور، تحرّش بها.. زوجك «نسونجي»[1].

- أنا لا أصدق.. زوجي يحب السكر، لكنه لا يركض وراء النساء.

- ماذا؟ تتستّرين عليه؟ لقد فعلها هنا، على البورة، وأمام عائلته، وبوجودي، وفي دائرة مسؤوليتي.. لا.. لن أسكت على هذا بعد اليوم، لن أسمح له.. وإذا تمادى أكثر، عدم المؤاخذة، شكوته إلى الخواجة وأبعدته عن البورة.. وجعلت تعبكم يضيع..

- يا شحّار راسي، لا تقل هذا.. أرجوك.. استجير بك..

- لا تستجيري.. لن أقبل رجاء بعد اليوم.. يكفي.. قلت يكفي، يعني يكفي.. هذا الفرد لم أجلبه من بيت أبي، الخواجه بذاته أعطاني اياه.. قال لي: «أطلق النار ولا تخف.. المحافظ مثل الخاتم في إصبعي».

- وأنت لن تطلق النار، أليس كذلك؟

- سأطلقها.. نعم سأطلق النار عند اللزوم، وإلّا لماذا أحمل هذا الفرد؟

كانت الشقيقة التي ورثت عن والدي الجسارة، تسمع وهي تبتسم. كانت حركة المطعون نوعاً من تمثيل مسلّ بالنسبة إليها. كان تهريجاً تريده أن يستمّر حتى يعود الوالد. إنها تعرف، كما تعرف الأم، أن الوالد يسكر، يرحل، يتشرد، يرتخي إذا رأى امرأة، لكنها كانت تعرف أيضاً أنه لا يخضع

(١) نسونجي: زير نساء.

للتهديد، ولا يصبر على ضيم، ولو سمع ما يقوله الوكيل لحمله وطمره في بيدر الزيتون.

أخيراً نفد صبرها كما يبدو، فخرجت من وراء الأمّ وقالت للوكيل باستهزاء كامل:

- أنت ستطلق النار؟

- اسكتي يا بنت.. ادخلي الخيمة.. لا أريد، عدم المؤاخذة، تدخّلاً في شؤون الرجال.

- أنت تهدّد بطردنا من البورة جميعاً.. تخوّف أمّي المسكينة.. أين هذا الفرد الذي تتبهور به[1]؟

- الفرد في مكانه.. وأنا لا أتحدث مع النساء!

- ولكنك كنت تهدّد أمي..

- نعم.. هدّدتها.. وماذا تريدين حضرتك؟

كانت في يدها عصا تتكىء عليها، رفعتها.. تقدّمت وهي تقول:

- أين الفرد؟

أجفل الوكيل. رفع عصاه، ناحت الأمّ، ركض الفلاح عزيز، وتابعت الأخت تقدّمها وهي تقول:

- أعطني الفرد..

- لماذا؟

قالت باستهزاء وهي تمد يداً ثابتة إليه:

- كي لا تقوّص والدي حين يعود!

- أنا لن أعطيك أيّ فرد.

(٢) تتبهور: تتبجّح مع حركات تهديدية.

- إذا لم تعطني الفرد أخذته بالقوة.
- أنت تأخذين الفرد بالقوة؟
- أو تطلق النار عليّ؟
- أنا أطلق النار على امرأة؟
- أنت رجل.. رجل خطير. أنت لا تفعلها مع امرأة.. تريد رجلاً مقابلك.. وبعد قليل يأتي والدي ونرى.. ستكونان رجلاً لرجل. والدي أيضاً لا يضرب النساء.. والدي يضرب رجلاً مثله، وأنا أخاف أن تقوّصه، أخاف جدّاً، أنحلّ من الخوف، لذلك أعطني الفرد.. أو أعده إلى الخيمة.. هيّا!
- وإذا لم أعطك الفرد ولم أُعده إلى الخيمة؟
- عندئذٍ أجعل الشوباصي، والخواجة، والحاضرين، يروون قصة طريفة عنك..
- لا تهدّديني.. اسمعي، أنا لا أؤخذ بالتهديد.. المطعون لم يأخذه ابن امرأة بالتهديد، المطعون يؤخذ باللين، بالكلمة الطيبة.. قولي كلمة طيّبة وأنا أترك الشرّ جانباً.
- أعطني الفرد إذن.
- وإذا أعدته إلى الخيمة؟
- نعود أصحاباً كما كنّا.. نعود عائلة واحدة كما عشنا حتى الآن.
- ولن تقولي لوالدك شيئاً؟
- لن أقول له شيئاً..
- اسمعي، أنا لا أخاف من والدك ولا من غيره، ولكنّني أريد أن أكسر الشرّ..
- هذا واضح.. أنت لا تخاف.. ولماذا الخوف؟ اذهب إلى خيمتك.. دَعْ والدتي بحالها.. كفّ بلاءك عنها، سمعت؟ هذه آخر مرة أسمع منك

تهديداً. نحن، هنا نعمل بعرق جبيننا.. الميزان في يدك، ويدك وما تطول،.. واعتباراً من الغد سأراقب القبّان.. أنا نفسي.

ابتسم المطعون:

- هوه.. هوه.. لم تصل الأمور إلى هذا الحدّ.. لن أهدّدكم.. أنا أهدّدكم، ومن أنتم؟ عظمي ولحمي؟ عمّك من يكون؟ زوج خالتي.. تحسبينني أنسى القرابة؟ تظنينني لا أعرف من هو أبوك.. وكيف كان في إسكندرونة، وقبلها في مرسين.. يا أختي، ابنتك لا تعرف القرابة التي بيننا (هىء، هىء، هىء) لعن الله الشيطان.. لم نسمع ولا طلقة واحدة من جديد.. معنى هذا كل شيء على ما يرام.. والمسألة سليمة.. سيعود المصري بعد قليل.. العمى وكيل يقوّص الحارس؟ من سمع بهذا.. والدك، يا بنتي، أخي.. سترين الآن، سترين حين يعود أننا إخوة..

عاد الوالد بعد قليل.. كان يضحك، ويهزّ برأسه، فوقف المطعون، وتقدّم نحوه، وصاح معطياً لنفسه وضع خطورة مبالغاً فيه:

- خير.. خير.. ماذا جرى؟

ضرب الوالد يداً بيد وهو يقول:

- يا عيب الشوم.. حسبناها معركة، حسبناهم أطلقوا النار على لصوص..

- وعلى من أطلقوا النار إذن؟

- على ضبع.. (قالها وهو يواصل الضحك).

صاح الوكيل:

- أما قلت لكم إنه ضبع؟

زوى الوالد بين حاجبيه، أغمض عينه الواحدة علامة الهزء والاستخفاف والغضب:

- أيّ ضبع هذا يا مطعون؟ جننت. .؟ ما دخل النواطير في الضباع في هذا الليل؟

صاح الوكيل نافد الصبر:

- قل لنا إذن، ماذا هناك، على من أطلقوا النار؟

قال الوالد وهو يدفدف شفتيه علامة الأسف:

- أطلقوا النار يا حضرة الوكيل على فلّاح؟!

- فلّاح؟

- نعم فلّاح. . من «ح» نفسها فتأمّل! كان الفقير يمرّ بالكرم، وخطر له أن يمرش حفنة زيتون لأولاده .

- يعني يسرق؟

- وهل هذه سرقة؟

- وما اسمها إذن؟

- فشرة. .

- كيف فشرة؟ واين هو الفلّاح الآن؟

- في الطريق. . قيّدوه وساقوه إلى البورة. . ثلاثة نواطير، وجفت مصوب إلى فلّاح أعزل، فهل يرضيك هذا؟

- يرضيني؟ نعم يرضيني. . يسرق ونقول له عافاك؟ لولا سهر النواطير لضاع الكرم، أين هذا الخنزير؟ اين ابن الكلب هذا؟

قالها وشرع يروح ويجيء. . الوالد قرفص قرب البورة يلفّ سيكارة، وظلّ الوكيل يمشي، يقف، يتكلّم، يؤشّر بيديه، أصبح مستثاراً،خبر السرقة استثاره، وزاد في استثارته أنهم قبضوا على اللصّ، وساقوه إلى البورة.

أخرج المطعون قضيب رمّان من الخيمة، وقام بحركات مسرحيّة

عنترية، والوالد يروزه، ينظر إليه من طرف عينه، حتى إذا لم يعد لديه مجال للصبر صاح به:

- مالك يا مطعون؟ تذهب وتجيء كالدجاجة التي في مؤخرتها بيضة، اهدأ، اجلس، ماذا ستفعل بهذا الفلّاح الفقير؟

- أنا لن أفعل أيّ شيء، حين يصل سأطلب من النواطير ربطه بالزيتونة، تقييد جذعه إلى جذعها، وحين يصل الشوباصي يرى رأيه فيه، أنا مسؤول عن البورة فقط. هو المسؤول عن الكرم، وعن الضيعة، وعن الزراعة كلها، والويل لمن يقع في يديه، سيتمنّى لو لم تلده أمّه.

- ومن أجل ماذا؟ حفنة زيتون؟

- ليكن.. الحفنة مثل الشنبل، وهذا مثل البيدر.. السرقة هي السرقة. من يسرق يعاقب، سترى الآن ماذا يفعل أبو اسكندر به. سيضربه حتى الموت، وبعد أن يشفي غليله منه يسلّمه غداً إلى الدرك، ورأساً إلى السجن، وهناك، في «بيت خالته» يعرف أن الله حقّ، يتربّى..

- هكذا إذن يا مطعون؟

- وماذا تظنّ إذن؟ الدنيا سائبة؟ مال بيت «ف» داشر؟ ولماذا النواطير والوكيل والشوباصي؟ لماذا يدفعون لهم أجورهم؟ والدرك لماذا يعلفونهم؟ أليس لمثل هذه الأوقات؟

- وما دخل الدرك في القضية؟ فلّاح كان يمرّ بالكرم..

قاطعه:

- أرجوك لا تستخدم عبارة كان يمرّ بالكرم.. أنا أسمعها منك، الليلة، للمرّة الثانية. الفلّاح، عدم المؤاخذة، لم يكن يمرّ بالكرم بل قصده، تسلّل إليه ليلاً ليسرقه. هذه جناية موصوفة، عن سابق تصوّر وتصميم.

قال الوالد بهدوء وتأنيب:

- وما هي هذه الجناية الموصوفة؟ وما معنى موصوفة، وعن سابق تصوّر وتصميم. . تكلّم بالعربي. . تريد أن تعاقب هذا الفلاّح الفقير، أم تلفلف القضية كأنّ شيئاً لم يكن؟

- ما شاء الله! قال حارس قال. . أنت حارس وتقول هذا الكلام؟ كيف، بالله عليك، تفعل إذا جاء فلاّح غداً وسرق البورة أمام ناظريك؟

- سرقة الزيتون عن البورة شيء، ومرش حفنة زيتون للأولاد الجياع شيء آخر.

- كلّه واحد. السرقة هي السرقة أينما وقعت. . لقد سرق. . وقُبض عليه، وهناك شوباصي، وحكومة. . ليكن هذا كلّه في علمك. .

- كثّر الله خيرك. . شهم والله!

- تعرّض بي؟

- أستغفر الله . . من يجرؤ على التعريض بالوكيل؟

- لا تستغفر الله على الخطأ. الأصل ألاّ تخطىء. . أنت، يا مصري، صاحب مشاكل. أعرف شقيقك، حذّروني منك، ومع ذلك قبلت بك حارساً. . انتبه، أنا لا أستطيع، عدم المؤاخذة، أن أحميك كلّ الوقت.

- وأنا لا أحتاج إلى حمايتك. . .

- إذن ضبّ لسانك. . دعه في حلقك. . لا تتدخّل بما لا يعنيك. . وهذه المرجلة التي عملتها الليلة لا أريدها أن تتكرّر. حين لا تكون السرقة على البورة فلا دخل لنا. أما إذا كانت على البورة فعندئذ أظهِرْ مرجلتك.

- العفو يا جناب الوكيل. .

- لا تستهزئ . . هذه السخرية المسمومة لا أريدها.

- أنا أقول العفو. . من يجرؤ على سرقة البورة ورجل مثلك موجود عليها؟

- تنتقص من شجاعتي؟ أنت، يا مصري، لا تعرف من هو المطعون بعد. . لا أريد الكلام على نفسي، عيب على الإنسان أن يمدح نفسه، أما عندما يجدّ الجدّ. . اسمع. . لولا أن استعجلت بالذهاب لكنت رأيتني أخرج الفرد وألقمه. . أجعله جاهزاً للإطلاق. . وإذا اقترب ابن امرأة يلقى مصيره.

قالت أختي التي كانت تسمع الكلام:

- منذ ذهابك يا والدي وهو يتبهور بفرده. . احذر فقد يطلق النارَ عليك.

- عليّ؟ قال الوالد بسخرية (ومتوجّهاً إلى الوكيل) حقّاً تطلق النار عليّ؟

- عندما يكون هناك موجب لا أتردّد. .

- مثل ماذا؟

- كأن تتهاون في الحراسة، أو تتهاون مع اللصوص. . قد لا تصل المسألة إلى حدّ إطلاق النار، ولكن إذا اقتضى الأمر، انتبه أقول إذا اقتضى الأمر.

قال الفلاح عزيز:

- الوكيل يفعلها. . أي نعم، يفعلها. .

كان الوالد يدرج سيكارة، فلم يرفع رأسه بل قال:

- العفو منك يا مطعون. . ولكنني، إذا أخرجت الفرد ثانية، سأضعه هنا. .

قالها وأشار إلى مؤخرته. .

استثارت حركته الضحك من حواليه، بينما اربدّ المطعون. تغيّر لونه. ملأه الغضب، وعوى بغير داع:

- هذه قلّة حياء. .

نهض الوالد. ركضت أختي ووقفت في طريقه. أزاحها، تقدّم بهدوء، بأن الشرُّ في العقدة بين حاجبيه، لكن المطعون تراجع، وصاح بالفلاح عزيز:

- انظر ماذا يفعل؟ أنت شاهد.. سأخرب بيته إذا مدّ يده عليّ.

وما كان الوالد ينوي ضربه. أراد إخافته فقط، فتراجع حتى صار على باب خيمته، منكمشاً، متضائلاً أكثر مما هو في الواقع. وفجأة ضحك الوالد. قال وهو يخزره بعينيه:

- لن أضربك.. أنت لا تستحق ذلك.. يا ضياع الضرب فيك.. أما إذا تلفّظت بعبارة مماثلة مرة أخرى فسترى!

لم يجب المطعون بشيء، كان الفلاّحان عزيز ويونس حاضرين، وكان، على أطراف البورة، بعض الناس. وقد استيقظ الخوف في ذات المطعون، ركبه وسواس من النوع الذي يعتاده إذا هدّده أحد، لذلك أخلد إلى الصمت.

وحين تراجع الوالد إلى وراء، خرج هو من الخيمة، وتوجّه بالخطاب إلى أميّ:

- ليس كرمى له، بل كرمى لكم، اعتبر ما كان كأن لم يكن، أنا، بعد كل شيء، لا أخون الخبز والملح. أنا هو الوكيل لا زوجك، ومن الآن فصاعداً سأجعله يعرف هذا، وأعامله كعزيز ويونس تماماً، دون اعتبار للقرابة البعيدة التي بيننا.

قالت الأم ملطّفة الجو:

- زوجي لا يقصد شيئاً. سمع صوت الرصاص فذهب ليرى ما هناك، وهذا لا يستدعي كلّ هذا الغضب منك.

- ماذا؟ لا يستدعي غضبي؟ ولماذا أنا وكيل هنا؟ تظنّين أن الوكالة جاءتني بسهولة.. هذه حصيلة أعوام من العمل والتفاني والثقة التي نلتها

بوفائي وإخلاصي . .

- نحن نعرف هذا. نحترم وكالتك. لا نخالف تعليماتك. . بماذا تماهلنا؟ قل، حاسبني إذا اقترفت ذنباً.

- أنت طيّبة. أشهد بالله أنك طيّبة، ولم تبدر منك بادرة سوء، أما زوجك؛ وابنتك، فلهما حساب عندي، وياله من حساب عسير. حين يؤون الأوان.

في هذه اللحظة علت ضجة من بعيد. كان النواطير الثلاثة، وزوجاتهم، وأولادهم، يسوقون صخر الفلاح مقيّداً، وقد ركض بعض الفلاّحين من هنا وهناك، وحاول بعضهم تسوية القضية، كيلا تصل إلى البورة أو يسمع بها الشوباصي. لكن الناطور الذي أطلق النار رفض ترك صخر وأصرَّ على تسليمه إلى الوكيل.

كان صخر الفلاح طويلاً، بارز العضلات، معافى البنية، في عينيه جسارة، وفي وقفته نوع من التحدّي الذي زاد في رهبة المطعون، وجعله يزعق بأعلى صوته:

- يا ابن الكلب، تسرق زيتوننا؟ قل لي منذ متى وأنت تسرق؟، وكم شوالاً ملأت حتى الآن، ولمن بعت الزيتون المسروق؟

قال صخر الفلاّح هادئاً متماسكاً:

- أنا لم أسرق أيّ زيتون، لامن كرمكم ولا من الكروم الأخرى. أنا مرابع عندكم، وقد تشقّقت كفّاي من العمل في فلاحة هذا الزيتون، وكنت ماراً بالكرم، فخطر لي أن أقطف حفنة لأولادي الذين يعيشون على خبز الشعير الأسود اليابس.

- اخرس، أنت كنت تسرق. أما فلاحة الأرض فهي من واجبك ولك عليها أجر.

قال صخر:

- أيّ أجر هذا يا مطعون؟ . . إنه لا يطعمنا خبزاً . . نحن حفاة عراة نتأدّم بالحشيش. إننا لا نعرف الشبع، حياة الكلاب أفضل من حياتنا.

قال المطعون:

- على فرض أن ما تقوله صحيح . . فهل يبرّر هذا سرقة الزيتون ليلاً؟

- قلت لك ما كنت أسرق. . مصادفة مررت بين الزيتون وقطفت مقدار حفنة، فهل هذه سرقة؟

قال الناطور الذي أطلق النار عليه:

- وكيف تكون السرقة إذن؟

- تكون بالهجوم على الكرم، وقطف الزيتون بالقوّة.

قال المطعون:

- لو كان لديك سلاح لهاجمت البورة نفسها.

قال الفلاح بحقد:

- يا ليتني فعلت. . هذا الزيتون المكوّم هنا، من حقّنا، من تعبنا، من عرق جباهنا . .

- والأسياد؟ وأصحاب الكرم؟

- يبقى لديهم ما يكفي ويزيد . .

كنت أقف في الحلقة التي وضع صخر وسطها . والبنادق مصوّبة إليه. كان جميلاً، بعينيه السوداوين، ولامبالاته بكل ما ينتظره من عقاب، لقد سرّني مرآه، أسعدتني كلماته. كانت كلمات مما سمعتها في إسكندرونة. وتعبيراً عن إعجابي ركضت وأحضرت له طاسة من الماء، فشربها كلّها، حين أدنيتها من شفتيه.

قال لي:

- تسلم يداك.

عندئذ انتهرني المطعون:

- من أمرك بجلب الماء له؟

- أحضرته من تلقاء نفسي.

- لو فعلها غيرك لأريته كيف يتجاسر على ذلك.

قال الوالد:

- ولكن الرجل عطشان.. وهو تعِب، وربما جائع، فهل نتركه يموت لأجل حفنة زيتون؟

- هذا ليس شغلك.. اهتمّ بما يعنيك، إذا تساهلنا مع سارق حفنة الزيتون، نجعل الفلّاحين يطمعون فينا.. يسرقوننا وعيوننا مفتّحة، العدل ملح الأرض، من يسرق يعاقب، ونحن نعاقبه لأنه سارق.

فكرّت بالعدل الذي هو ملح الأرض، وبهذه العينة منه، وتساءلت: من الذي يعرف العدل ويطبّقه؟ القاضي موظّف في السلطة، والسلطة بيد الأسياد، والعدل، إذن، عدلُهم، ولمصلحتهم، وليس للفقراء والمضطهدين من أمثالنا.

أخيراً طلب المطعون تقييد صخر إلى شجرة زيتون غليظة الجذع. أوصاهم بشدّه اليها جيّداً. فعلوا ما طلبه منهم، أوثقوه بالحبال، ولم يصرخ أو يتأوّه أو يحتجّ، ظلّ قويّاً، شجاعاً، متماسكاً، وفي وجهه تعبير ساخر بكل ما يجري.

بعد ذلك أخرج المطعون قضيب الرمّان من الخيمة. كان الآن متعطّشاً للانتقام، للإرهاب، لإدخال الرعب إلى قلوب الحاضرين، ومن أجل ذلك ساطه بضربة على خاصرته، تبعها بضربة أخرى على فخذه، وانهال، بعد ذلك على جسمه كله، ولم يوفّر حتى وجهه. وصخر صامت، لا يصرخ، لا يتأوّه، لا يئنّ، ولم يقل إلّا عبارة واحدة:

- ستدفع الثمن يا مطعون...

ولم يكترث أحد بما قال صخر، عدّوا كلامه تهديداً عابراً، صدر عن ألم وجروح ملتهبة في الجسم الإنساني الذي أصبح الآن مدمّى كله.

وفجأة وصل الشوباصي. وصل الرعب الذي لا يقاوم. أوقف المطعون عمليّة الجَلْد وهرع للترحيب به. قال:

- أمسكنا بهذا السارق بالجرم المشهود.

سأل الشوباصي وفي وجهه يتشهّى غضب قاتل:

- ومن الذي أمسكه؟

تقدّم الناطور الذي أطلق النار وقال:

- أنا يا أبو اسكندر!

- وما هي كمية الزيتون التي سرقها؟

- ليست كبيرة..

وقال الوالد:

- مجرّد حفنة يا أبو اسكندر.

غير أن الملاحظة لم ترق للشوباصي، فحدجه بنظرة صارمة، وأجابه بجفاء:

- أنا أسأل الناطور لا أنت. ابق ساكتاً.

امتثل الوالد للطلب. أغلق فمه وابتعد. فعل ذلك على مضض. كان يعرف أن الشوباصي غير الوكيل، وأن الشجار معه سيؤدّي، لا محالة، إلى الموت أو مغادرة البورة.

بعد هذه الكلمات ساد صمت تامّ على البورة، كأن الرعب قد حلّ عليها. ومع أن الفلاّحين عزيز ويونس كانا يتألّمان لربط صخر بالشجرة،

وجلده بقضيب الرمّان، فإنهما آثرا الصمت، وذهبا فوقفا على الطرف الآخر للبورة.

الكلمة الآن للشوباصي. هو الذي يحكم في الموضوع. توقّع الجميع حكماً قاسياً لا رحمة فيه. لكن الشوباصي، لإطالة عذاب صخر والحاضرين، لزم الصمت، وراح يلفّ سيكارة وهو مطرق مفكّر.

أنهى لفّ سيكارته. أشعلها، شربها كلّها، ثم نهض وسار بخطى وئيدة، راسخة. عنيفة، حتى واجه صخر، ودونما كلمة، صفعه بكفّه الضخمة صفعة استنفرت الدمع من عينيه.

- كلب، قال، تشتغل عندنا وتسرقنا، أين الأمانة لمن يؤويك ويطعمك؟

رفض صخر الكلام. اكتفى بنظرة تكثّف فيها حقد حارق كالنار. إنه لم يسرق. ما فعله لم يكن سرقة، كان إداماً قليلاً لعائلته، وكان هذا من حقّه الذي لا يعرف طريقة لاسترداده.

وكان الشوباصي، بخلاف الوكيل، يكره اللجوء إلى الدرك، يميل إلى تأديب الآخرين بنفسه، وكان ينزّ غضباً وهو يرى الفلاّح «السارق» أمامه، لكن هذا الفلاح كان قد تمزّق جسمه، وجرت الدماء من وجهه وعنقه ويديه، وقد سبقه إلى ضربه المطعون.

مع ذلك كان عليه أن يثبت، هو لا المطعون، أنه كتلة الرعب التي تنتقل من مكان إلى آخر. وهذه الكتلة هي هنا الآن، أمام سارق ضُبط بالجرم المشهود. كان عنفه من نوع آخر، كان عنفاً تكفي فيه النظرة، الحركة، الكفّ التي خلقت للصفع، لذلك اكتفى بعدة صفعات، وبضربات موجعة من عصاه الغليظة وقال لمن حوله:

- اعتبروا بما ترون، لقد رأيتم ما حلّ بهذا اللص.

عندئذ صاح الفلاّح، من بين دموعه وجراحه:

- لم أسرق.. وحقّ الله لم أسرق.. كل ما فعلته أنني مرشت حفنة زيتون

للأولاد. ليس في بيتنا شيء، وخطر على بالي أن الكرم أكرم من صاحبه، وأنني يمكن أن أمرش حفنة زيتون، ليأكلها الأولاد فريكاً مع الخبز.

زعق الشوباصي وهو يدفع قبضته في صدر الفلاح:

- اخرس يا عرص!

خرس الفلاح، لوى رقبته من الألم، وطلب أن يقيّدوه إلى الشجرة وهو جالس فرفض المطعون.

في اليوم التالي جاء دركيّان على حصانين، بأيديهما الكرابيج، وعلى كتفيها البنادق، وراح المطعون يتمسكن أمامهما، ويشرح لهما ما وقع، وكيف ضبط صخر وهو يسرق الزيتون. لم يكن الفلاّحون في الريف يعرفون الحكومة. كان الدركي هو الحكومة، وكان يتصرّف على هواه، ويضرب الفلاّحين بغير رحمة، وأحياناً، إذا كان المطلوب فارّاً، يقبض على والده أو أخيه أو ابنه، وتعمل يد التخريب بكل ما في بيته من مؤونة أو أثاث قليل.

وأمام مشهد الدركيين يترجّلان عن فرسيهما، دبّ الخوف في الجميع، وقبل أيّ تحية أو سؤال، اتجها إلى صخر وانهالا عليه ضرباً بكرباجيهما، وكعادته بقي صخر صامتاً، يعض على شفتيه ولا يصرخ، حتى إذا ضرباه بما يكفي، أفطرا مما أعدّه لهما المطعون، وأوثقا صخر بمؤخرة سرج الفرس، وساقاه إلى سجن اللاذقية.

وراحت امرأة صخر تستجير، ترتمي على قدمي المطعون، وقدمي الدرك، وتتشفّع بالموجودين، وتبكي، لكن ذلك لم يفد، فقد ساقاه عبر غابة الزيتون، وابنه الصغير يركض وراءه وهو يصرخ:

- إلى أين يأخذونك يا بيي؟

- ٦ -

مضى الدركيّان بالفلاح صخر مقيّد اليدين، مربوطاً بحبل ثخين إلى سرج الفرس، وسارت وراءهم امرأة الفلاّح وأولاده، وظلّ طفله الصغير يصرخ ويتمرّغ في التراب. وحين ابتعد الموكب قليلاً، لكز الدركيّ فرسه فانطلقت خبباً، واضطر الفلاّح المربوط إليها إلى الركض بدوره، وتبعته العائلة مهرولة، وبكى الأطفال، وعبثاً حاولت الأمّ أن تسكتهم، وعبثاً حاولت حمل الصغير إلى القرية، فقد كان، في هذه اللحظة، يريد والده، وليس من شيء في الدنيا يعادل أن يعود إليه، ويضمّه إلى صدره.

أنا لا أعرف بيت «ف» ، لكنّني تساءلت: لو كانوا موجودين، ماذا كان في مقدورهم أن يفعلوا أكثر مما فعل الوكيل والشوباصي ورجال الدرك؟ هؤلاء ليسوا أصحاب الملك. إنهم حرّاسه، رجال الاقطاعيين، وكلّ اقطاعي يتقوّى بملكه ورجاله أيضاً. هؤلاء ليسوا رجالاً.. إنّهم عبيد حتى آذانهم. لقد بدا والدي، على ما بيني وبينه من نفور، الرجل الوحيد بينهم، الرجل الشجاع الذي قال رأيه، وهو يعلم أن أحداً لن يستجيب له. ما همّ! الكلمة تبقي أثراً، وقد رأيت أثر كلمات الوالد على الفلاحين عزيز ويونس والآخرين، الذين أذلّهم الموقف، أحنقهم، أغضبهم، لكنّهم لم يحرّكوا ساكناً. ما كانوا قادرين على شيء، لكن كان في عيونهم وعيد. نظراتهم توعّدت. حركاتهم توعّدت. شعور رؤوسهم توعّدت ، وفي قلب

الصمت الذي ران على البورة بعد سوق صخر إلى السجن، سمعت وعيدهم مسحوباً على المستقبل.

أعترف. أبو اسكندر كان شجاعاً. كنت قد سمعت من والدي عنه، لكنني، وأنا أراه يصفع الفلاّح، كرهت شجاعته نفسها، لقد استعملها في غير محلّها، وأمي التي ركضت تقدّم القهوة إليه، كانت تصدر عن خوف لا عن تكريم. الوكيل تناول القهوة أيضاً. أقعى أمام الشوباصي إقعاء الكلب أمام سيده، الشوباصي يقعي أمام اسياده بدوره، وأقعى الفلاحان، بعد قليل، على طرف البورة، وران الصمت.

كل الذين كانوا هناك هبطت عليهم سكتة مباغتة. لم يتكلّم أحد. وفي عيني الوالد كان ظلّ يرتجف، إنه يغلي من الداخل. لم يفهم كيف، لأجل حفنة زيتون، يفعلون بالفلاّح كل هذا. وكان عتب واضح في عيني الشقيقة، لكنها، بحضورِ الوالد، لم تكن تتكلّم، ارتدّت إلى الوراء. تركت الأمّ تقوم بالخدمة، لكنّها ، عندما التقينا، تحت زيتونة بعيدة قليلاً، سألتني:

- أرأيت؟

لم أجب . كنت قد رأيت. كانت تعرف أنني رأيت. لكنّها سألت مستنكرة. كان هذا الاستنكار منها تحية بالنسبة إليّ. أختي حيّتني. تضامنت معي. كان تضامنها واضحاً، شكراً يا أخت. ما كنت سيّئة، وما كان الوالد سيّئاً، لكننا لسنا إلا غرباء، لسنا إلا أجراء على البورة، عمّالاً مياومين، كسبة مشرّدين، نحاول أن نأكل خبزنا المغموس بهمومنا.

الشوباصي لم يتكلّم أيضاً. كان وقوراً رهيباً، بطّاشاً، كان عبداً كله، من أنامله تنقط العبودية، لكنه، لم يقل شيئاً، لأنه رأى نظراتنا الحاقدة. احترم ما فيها من غضب، أدرك، هو الخبير، أننا فوجئنا بالمأساة، وأننا ننزّ المًا، وأن من الخير أن يَدعنا نداري عواطفنا. . إنه يعرف الفرق بيننا وبين الفلاّحين. نحن لسنا فلاحين. نحن من المدينة، وهو يعرف هذه الحقيقة.

يعرف أيضاً أننا ، إذا ما صرنا غداً فلاحين، فسيكون نصيبنا نصيب الفلاح صخر، هو، عندئذ، سيجلدنا. سيصفعنا كما صفع الفلاّح، وسيضربنا بالعصا أو قضيب الرمّان، وإذا قاومنا فسيقتلنا، إنه قادر على القتل، ومستعدّ له في كلّ لحظة. هذه مهنته. كان شجاعاً، وشهماً وربّما كان إنساناً، لكن السادة اشتروا شجاعته وشهامته وإنسانيته، صيّروه يَدَهم الضاربة، وبندقيّتهم القاتلة، وضميرهم المدوّد، إنه لا يتكلّم، حين يفعل ذلك يصدر أحكاماً نافذة. هو، هنا، الحاكم، يحكم باسم السادة، وباسمهم ينفّذ الجلد والضرب والعقوبات، ومقابل ذلك يعطونه أن يعيش جيّداً، وربما أباحوا له ما لا يباح من أنفسهم ذاتها.

ارتفعت الشمس متسلّقة جانب القبّة السماوية. كانت حارّة منذ الصباح، الآن، بعد الذي شهدته، ازدادت حرارتها. غضبت على طريقتها، أرسلت أشعّتها شواظاً حارقاً يجفّف دموع الأرض وإنسانها المعذّب. أبي كان معذّباً، أميّ كانت معذّبة، أنا وأختي كنّا معذّبين، لكن عذاباتنا توحّدت الآن. رأسها كان عذاب الفلاح، هو أيضاً تحمّل، في سبيل حفنة زيتون لعائلته الجائعة، وصمة السرقة. كان يُضرب، يُوثق بالقيد، يُربط إلى فرس، يُجرّ خبباً إلى المدينة، حيث السجن فاغر الفم لتلقّف أمثاله، دون أن يرضخ أو يتوسّل. في السجن سيحكي قصّته. سيصدّقها بعضهم. يرفضها آخرون. فالذين أجرموا يرون الإجرام في كلّ من يدخل قاووشهم، أما الأبرياء، المظلومون، فسيقفون إلى جانب هذا البريء مثلهم. قد يكون بينهم من يسمع القصة ويردّها إلى أصلها الاجتماعي، وقد يكون من يتسلّى بها، كحكاية لا رابط بينها وبين ما يجري في المجتمع، لكن الأحساس بالظلم سيمسّ الجميع. هنا أيضاً أخوّة، في السجن أخوّة من نوع آخر، هي النوع الأكثر شعوراً بالرابطة الاجتماعية، لكن صخر لن يفهم ذلك بالسرعة المطلوبة. سيسمع، بدوره، قصص الذين وقعوا في الأعماق المظلمة مثله، وسيري المصائب كثيرة وكبيرة، سيراها متحدّرة من جيل إلى جيل، وقد يقع في حيرة وهو يتساءل: «مَنْ

يرفع عن صدورنا هذه الجبال الرصاصية؟». لكنه سيجد الآخرين، الذين تركوا عيالهم بائسة، والذين يكى أطفالهم وهم يساقون مكبّلين كما بكى أطفاله، وبنظراتهم الغضوب، سيخترقون جدران السجن بنظرات ثاقبة، نظرات ضاقت ذرعاً بالصبر ولجأت إلى شتم الدنيا التي لا تردّ مظلمة. ولكن لا بأس! هؤلاء أيضاً سيتعلّمون في هذه «المدرسة» جيّداً، سيعرفون أن الإنسان لا يموت لمجرّد أن السادة يريدون له الموت، وأنه قادر على المقاومة، وعلى الصبر بحقد يتغذّى من ذاته، وقادر أن يفهم ويتفاهم ويعيش ليوم يخرج فيه وهو يطلب ثاراً لا يدري متى يدركه.

على البورة كان المطعون يروي للشوباصي كيف سمع إطلاق الرصاص، وكيف ذهب الوالد ليرى ما هناك، وكيف بقي هو لحراسة البورة. كان يقول: إنني مسؤول هنا، وكان عليّ الاستعداد للدفاع عنها، وقد أخرجت المسدس، واستنفرت الرجال، وأكثر من ذلك، قدتهم للبحث حول البورة، وطمأنت النساء، وكنت الليلة كما كنت في ليالي خدمتي في الدرك، جندياً يؤدّي واجبه.

ولم يردّ الشوباصي عليه، ولا تكلّم الوالد، والفلّاحان عزيز ويونس ابتعدا. وخيّم الصمت، بينما أبو اسكندر ينكت الأرض بعود في يده، ويستمع إلى هذر المطعون حتى النهاية.

كانت الأيام قد علّمته هذا الأسلوب في المراوغة، فالمطعون لم يذهب لأنه لا يجرؤ على الذهاب، وصدره ينطوي على قلب عصفور، وقد همّ، أكثر من مرة، لإيقافه عن ثرثرته، لكنه كان ينتظر من والدي أن يتكلم، أن يقول كيف كانت حالة المطعون وهو يسمع صوت الرصاص.

الوالد لم يتكلم، التزم الصمت التامّ، والمطعون تجنّب الدسّ عليه، لكنه، بغية إبراء الذمّة، أبلغ الشوباصي أن كل شيء، بفضل قيادته، كان على ما يرام.

وقال الشوباصي أخيراً:

- لو كنت ابن حكومة لاقترحت لك وساماً.

قال المطعون:

- رضاك هو الوسام.

- استغفر الله.. أنا لم أواجه وضعاً كهذا الذي واجهته الليلة.. (وملتفتاً إلى والدي) أليس كذلك يا مصري؟

- مَنْ يدري؟.. شجاعة الوكيل لا تدانيها شجاعة..

قال المطعون:

- تُعرِّض بي؟

لم يجب الوالد، ظلّ سادراً، منصتاً، متأملاً، عصيّاً على التلاؤم مع الجوّ، وهذا ما دفع الشوباصي إلى التحرّش به:

- إذن خالفت تعليمات الوكيل يا مصري؟

كان واضحاً أنه يسخر من الوكيل، وأنه يريد إبلاغه أنه أدرك قصده من تلميحاته.. لكن الشوباصي كان في أعماقه، قد ارتاح لفعلة الوالد، ولم يشأ أن يظهر أيّاً من لوينات عواطفه هذه، واكتفى بالسؤال، راغباً في أن يسمع جواب الوالد، وأن يغيّر جوّ المأساة التي لحظها في كلمات وتصرفات العائلة القادمة من المدينة، وغير المعتادة على رؤية الفلاّحين يجلدون على هذا النحو الرهيب، ويساقون إلى السجون.

قال الوالد وهو يلفّ سيكارة:

- خالفتها يا أبو اسكندر..

أضاف:

- انتظرت من الوكيل أن يذهب ويرى ما يجري، لكنّه كان مشغولاً بتلقيم مسدسه.. (وبعد وقفة) المهمّ أنني مرتاح لأنني ذهبت، فقد رأيت بعيني..

تنبّه الشوباصي كمن لدغه عقرب. لم يكن ينتظر هذه اللامبالاة بسلطته.. أن يذهب الوالد، حارس البورة، فهذا وجه للاختلاف، لكنه هو، أبو اسكندر، رجل الوقائع الكبيرة، لن يكترث بواقعة صغيرة كهذه. أمّا أن يتكلّم حارس ما بلهجة استنكار، ويستخفّ بما فعله الحرّاس الآخرون، فهذا يعني نشازاً في النغمة بحضرته.

مع ذلك تماسك على عادته. لم يتسرّع. لم يظهر ما في صدره، ولم يرد على الوالد ردّاً مباشراً، فيه إفصاح عمّا في نفسه.

قال وهو يمسّد شواربه:

- كان يجب أن تذهب وأن ترى بنفسك.

أضاف:

- هذا ينفعك في المستقبل.

قال الوالد هادئاً وبغير اكتراث:

- عشت ورأيت يا أبو اسكندر.. قبل مجيئي إلى هنا كنت في برّ أرسوز.. هناك أيضاً أغوات.. وهناك شوابصة، وفلاحون، ودرك.. الصورة إيّاها.. لا جديد عليّ من هذه الناحية.

- اعذرني.. حسبتك تأتي من اللاذقية إلى هنا مباشرة.

- حتى لو كان الأمر كما تقول، فإنّ ما مر على رأسي كافٍ لأن أعرف الحياة..

- عرفتها بحلوها ومرّها إذن؟

- عرفتها بمرها أكثر.. ومع ذلك فما المانع أن نرى هنا أيضاً؟ نحن في أرضكم، تحت جناحكم.. وما تحكمون به نتقبّله.. العين لا ترتفع على الحاجب..

لم يرضَ الشوباصي عن كل هذه الأجوبة. رغب أن يؤدّب الوالد على

طريقته، لكنه لا يريد، لأن الوالد ليس فلّاحاً، ولأنه رجل شجاع، لذلك غيّر الحديث سائلاً:

- فلان أخوك؟

- أخي..

- كنت في إسكندرونة؟

- وقبلها في مرسين..

- وماذا كنت تشتغل؟

- في الميناء..

- هناك أيضاً وكلاء لأصحاب الأعمال؟

- هناك أيضاً وكلاء، يتصرّفون بقسوة، وغايتهم إذلال العمّال، لكنهم، هناك، لا يستطيعون.

- يكونون أكثر لطفاً: في المدينة يكون الوكيل أكثر لطفاً.. ماذا نفعل إذا كان الريف يقتضي ترك اللطف جانباً.؟ من لا يعرف كيف يعايش الذئاب، أفضل له أن يتسلّ في المدينة بتربية القطط.

- والقطط تخرمش أيضاً.. ثم إن الذئاب في كلّ مكان..

التفت أبو اسكندر إليّ بغتة وقال:

- أتسمع ما يقوله والدك..؟ تعلّم أن تكون ذئباً إذن.. هل تدرس أم تعمل؟

- أعمل..

- ماذا..

- في الحلاقة.. لم أستطع إكمال الدراسة..

- ولماذا تكملها؟.. أصغ إلى والدك تنتفع أكثر.. تجارب الحياة علّمته..

- الولد، قال والدي، لا ينقصه علم.. هو أيضاً كان في المرفأ..
- هكذا إذن. علم المرفأ أكبر من علم الزيتون..
تدخّلت أختي:
- العلم في كل مكان.. لو كنتم من إسكندرونة، وهاجرتم مثلنا..
- وماذا في إسكندرونة أكثر مما في اللاذقية؟
- لا أدري.. لكن اللاذقية ليست إسكندرونة.. هناك لا يضربون الناس..
- هه.. النغمة واحدة..
قال الوكيل:
- أعوذ بالله..
- يبدو أنهم أتعبوك يا مطعون!
التزم المطعون جانب الحذر وقال:
- لم يتعبوني.. المصري رجل طيّب.. ثم نحن أقرباء.. أخوه زوج خالتي..
ضحك الشوباصي وقال:
- قرابة غير منتظرة.. لا تتّفقوا علينا إذن..
قال الوالد:
- لا اتّفاق ولا اختلاف.. المطعون يعاملنا مثل النواطير الآخرين.. يهدّدنا عند اللزوم.
- يهدّدكم؟
وقال المطعون:
- معاذ الله، رغم أنّ ذلك وارد إذا ظلّ المصري مشاكساً.

نهض أبو اسكندر فجأة وهو يقول:

- موسم ويمضي. . لا تشدّ إيدك على الجماعة يا مطعون. .

وقال الوالد:

- حين ينقضي الموسم نلتقي في اللاذقية. وحدّوا الله يا جماعة. . الظفر لا يخرج من اللحم. .

وقال أبو اسكندر:

- هذا صحيح.

والتفت إلى أميّ قائلاً:

- شكراً على القهوة يا أختي. .

قالها ومضى طويلاً، ممتلئاً وئيداً، واثق الخطو، بيده عصاه، وفي كتفه البندقية، لا يلتفت إلى وراء، جرياً على عادته، فكأنما لا شيء، في الخلف، يأبه له. ولم يجرب المطعون أن يتبعه. أوقفه عن ذلك حين تحرّك، وخيّل إلي، وأنا أتابع قفاه، أنه جامد كوجهه الذي لا تعرف منه حقيقة مشاعره، وقلت في سريّ، متذكّراً ما سمعت من علاقته بإحدى النساء «إنّه كفؤ!» ولم ألبث أن تساءلت: «ماذا حبّبها فيه؟ أهو الإعجاب برجولته؟ أهي مكافأة على بطشه؟ أم أن في صمته شيئاً يجذب إليه، وفي صوته الضخم العميق، ما ينمّ عن فحولة تحبّها المرأة، خاصة حين تكون امرأة من النّوع الشبق؟».

• وما كاد الشوباصي يغيب، حتى جاء المطعون إلى والدي يستقرئ دخيلته:

- أنت مرتاح يا مصري؟ أنا لم أقل شيئاً، أو لم أقل شيئاً يسيء إليك، مع أني كنت قادراً على رواية ما وقع كما حدث، وأترك للشوباصي أن يتدبّر أمره معك.

قال والدي:

- ولماذا لم تفعل؟

- لأنني أريد البرهنة عن حسن نيّتي تجاهك.

- وماذا فعلت لتسوء نيتك تجاهي؟

- تركك البورة لم يكن عملاً في محلّه..

- من قال هذا؟

- أنا..

- طظ..

- ألا تهتّم بي إذن؟

- لا فيك ولا في غيرك.. لست فلاّحاً، ولا أجيراً كما تتصوّر، ولم أفعل ما أؤاخذ عليه، وحتى لو فعلت فإنّ الشوباصي لا يقطع رأسي. إنني غير مرتاح لضرب الفلاّح صخر. وغير موافق على هذه المعاملة الظالمة، ولو سألني أبو اسكندر لقلت له ذلك، وأنا مستعدّ، الآن أيضاً، أن أقولها له وللخواجات معه، وتستطيع، دون حرج، أن تذهب وتقول ذلك عن لساني.. فهمت؟

- فهمت ولكنني لن أقول..

قالت أمي:

- أبو نعمة لا يقول كلّ ما يسمع..

قال والدي دون أيّ ميل إلى المصالحة:

- يقول أو لا يقول، هذا ليس من شأننا.. سأكون على البورة مساء، وسأراقب القبّان، ولن أسمح بغشّ أيّة فلاّحة، وفي الليل سأذهب، وكلمة واحدة تجرُّ كلمات.. وكلُّ حديث له في وقته حديث آخر.

قالها وطلب قهوة. أمّي الطيّبة هرعت لإعدادها، وصاحت عندما أصبحت القهوة جاهزة:

- يا أبو نعمة، تعال أشرب القهوة . . سنفطر ونذهب إلى الكرم.

ولم يقل الوالد شيئاً، ما كان يريد دعوة المطعون إلى القهوة، أما وقد صدرت عن الوالدة، فإنّه لم يعترض، لكنه قال:

- في هذه الحال أعدّي القهوة للجميع (وبصوت مرتفع) تعالوا يا إخوان . . تفضّلوا لشرب القهوة.

جاء المطعون، وجاء الفلّاحان والجمّال، ولم يتكلم أحد على ما جرى، لكن يونس الفلاح تطوّع، ذلك النهار، لجلب الماء لنا . . رفض أن تذهب الوالدة أو الأخت لملء الجرّة. أخذها منها وقال:

- بعد اليوم نتناوب . . الرجال يملأون الماء، والنساء يقمن بعمل آخر.

قاطعته الوالدة:

- شهم والله . .

وقال المطعون:

- هذه اللفتة كانت يجب أن تأتي منذ وصولكم.

قال الوالد:

- المهّم أنها أتت . . شكراً على كلّ حال . .

شربت القهوة مع الرجال. حسدت والدي على رجولته. تذكّرت قولة أختي: «أرأيت؟». كانت رجلاً في جلد امرأة، أحببتها. سأظلّ أحبها. لقد رأيتها وهي تواجه المطعون. كانت قادرة على ضربه، لم تَهَبْ مسدّسه. أرغمته على إعادته إلى الخيمة. فعلت ما كان ينبغي أن أفعله أنا، فعلته عنّي، عن أبي وأمّي، عن جميع الذين على البورة، وبعد اليوم لن يجرؤ المطعون على التحرّش بها. قد تكون، غير راضية عن الوالد، لكنّها معجبة به مثلي من غير شك، فهو شجاع، ولم يبدل موقفه أمام الشوباصي نفسه.

أختي هذه، ستكون تعويضاً بالنسبة إليّ. فيها أهمّ ما أفتقده أنا، وهو المجابهة. ولقد فكرت أنّها صبية ما تزال، ومن المبكر أن تتخذ صفة المرأة

الراشدة، لكنها، في اندفاع شجاعتها، لا تماثلها أيّ امرأة راشدة، وهي البديل التامّ عن أميّ. . المرأة، حين يستيقظ وعيها، قادرة على نقل الجبل من مكانه كما في الأسطورة. ولكم أسفت أنني لا أعرف أن أعبر عن أفكاري لأزيد معارف أختي، لأجعلها تقوم بما تقوم به بالوعي مع الشجاعة، لا بالشجاعة وحدها.

أفطرنا وتوجهنا إلى الكرم. ذهب الوالد معنا. لم تكن الجمال قد جاءت، ولديه متسع من الوقت، ولم يستأذن المطعون، وجاء الفلاح عزيز، بعد قليل، ونَبَرَ لنا زيتونتين. . أراد، هو الآخر، أن يظهر تعاطفه معنا، أن يقول، بغير كلام، إننا متضامنون، وقد لاحظت كلّ ذلك، وامتلأت سروراً به. قلت في نفسي: «الفلاّحون يفهمون جيّداً، ويعبّرون، بغير خوف، عن فهمهم هذا. . . وأنا، لو رأيت عائلة الفلاح صخر، سأنبر لها زيتونة أو اثنتين، سأعطيها زيتوناً مما جمعنا، سأفعل أيّ شيء تشعر معه أننا إلى جانبها. لكن عائلة الفلاح لم تأت إلى الكرم، كان جمع الزيتون، بالنسبة إلى الفلاحين، باكراً بعد. نحن النواطير، وكذلك المقرّبون إلى المطعون والشوباصي، نجني من الكرم القطعة الأولى، ننبر زيتونة ما، نترك أخرى، نلحق الجانب المثقل بالحمل من الكرم، ولا يسمح للفلاّح، إلا حين يشارف الموسم على نهايته، بأن يعمل جماعة، وبالصفّ، وأن ينظف الكرم جيّداً، لأن دوره، في نظر السادة، يأتي في المرتبة الثانية.

سألت الوالد، ونحن ننبر الزيتون:

- لماذا لا يسمحون للفلاّحين بجني الزيتون مثلنا؟

- لأنهم مشغولون بالزراعة. . .

- وكيف يجني الذين أمثالنا على هواهم، ويتركون الزيتونات الصعبة، قليلة الحمل، للفلاّحين؟

- هذه هي العادة. . .

- عادة سيئة. .

- يكفي ما تدخّلنا بشؤون الفلاحين وأسيادهم. هنـاك كثير من العـادات السيّئة يا بنيّ.

- موقفك كان جيداً اليوم.. الفلاحون كانوا ممتنّين كما لاحظت.

قال الوالد بغير اكتراث:

- أنا لم أفعل ما فعلت لأجل الفلاّحين..
- لكنك قلت ما يجب أن يُقال..
- لأنني لا أسكت على واحدة..
- على كلٍّ رأيت كلّ شيء بعينيّ... الفلاّحون مظلومون..
- يستحقّون..

أجفلت. لماذا يقول والدي هذا؟ كنت أحسبه إلى جانب الفلاّحين، وها هو يتكشّف عن إنسان لا يسكت على واحدة ليس إلاّ... إنّه، إذن، ليس مثلي، ولا مثل أختي، وربما كان يعطف على نفسه لا على الفلاّح. إنه يرفض الظلم، وهذا كل شيء، مع أنني حسبته يدافع عن الفلاّحين.

عدت أسأله:

- كيف يستحقّ الفلاّح ما ينزل به من شقاء؟
- لأنّه يصبر عليه..
- وماذا يفعل؟
- يقاتل..
- يقاتل الوكيل أو الشوباصي أو الأسياد؟
- لا أعرف.. المهمّ أن يقاتل.
- إنه مغلوب على أمره، ولو كان واعياً كما عندنا، هناك...

توقّف الوالد عن النبر ونظر إليّ مليّاً، بكثير من الحنان وقال:

- لا تردّد هنا، في اللاذقية، ما كانوا يقولونه في إسكندرونة.. هنـاك.. كيف أقول؟ إسكندرونة تختلف.

- ولكن الظلم واحد..
- الظلم واحد ولكنّ الناس يختلفون..
- وهنا سيفيقون كما أفاقوا هناك.
- ليس الأمر بهذه السهولة..
- لكنهم سيفيقون مهما طال الوقت.

وقالت الوالدة:

- إن شاء الله..

وقالت الأخت:

- لو كان في اللاذقية مثل فايز الشعلة وأسبيرو الأعور[1]..

وقلت لنفسي هذه المرّة واثقاً:

- سيصير مثلهما.. ربما وُجد بين عمال الريجي مناضلون أيضاً.

بعد ذلك شرعنا بجمع الزيتون..

كنت الآن، فرحاً، كنت مسروراً لابتعادي عن البورة، لانزياح ظلّ الشوباصي والمطعون، لبقائنا وحدنا في هذا الكرم الكبير، الذي لا تشكل نقطة في بحره. كان الصباح جميلاً. كان يحتفظ بجماله رغم الذي حدث فيه. وكنت أحبّ الطبيعة، أو لعلّي أحببتها أكثر لأنّ فيها أمثال أختي ووالدي.. وكان وجود أمّي معنا طمأنينة بذاته. ولم تكن أختي الصغيرة تشكّل شيئاً سوى البراءة. وكنت أعاملها كصغيرة، شاعراً على هذا النحو أنني كبير، وأن الحياة التي أسلمتني إلى عذاباتها مبكّراً، قد خلقت مني فتى منذوراً للعدالة مستقبلاً. أهلي لا يفهمونني. لا يعرفون ما أقرأ، وربما لا يكترثون به، لكنني عارف، عارف أنّ عليّ، أنا الابن الوحيد لهذه العائلة الفقيرة، أن أعمل كي أحصل على اللقمة، وأنا أتعلم لأنّي بذلك أنقذ نفسي من جهالة فرضتها عليّ الأيام،فأصبح واعياً أكثر. أما قراءاتي فليست

(١) من أبطال رواية المستنقع.

للتسلية ولن تكون كذلك. التسلية كانت واردة، المتعة كانت أساساً في قراءاتي، لكنني كنت أنشد أيضاً المعرفة، ولهذا أحفظ الشعر، وأدوّن الكلمات الصعبة لأراجعها في القاموس، وأسأل عمّا غمض عليّ. هكذا وعيت الأشياء، أدركت أن الحياة ظالمة، وأن ثمة من يريد، ويعمل، لإزالة هذا الظلم. ومنذ المدرسة قام في ذهني أنني واحد من أولئك الذين سيساعدون، بشكل ما، على إزالته. ومن هذا المنطلق، ولأنني أساساً أتلمّس العدالة وأنشدها، فقد كانت تشوُّهات العيش تؤلمني، وكان الاستثمار، والاستغلال، والضرب، والتعذيب، والاحتلال الأجنبي، وحكم الأغوات في الريف، وحكم الأسياد في المدينة، يولّد في نفسي رغبة في المقاومة، لا تعبر عن نفسها بالأفعال أو الأقوال، بل تختزن ذلك في الصدر الذي سينفجر يوماً. لقد كبرت الاسكندرونة في عيني مرتين: الأولى لأن فيها من يناضل ضدّ الظلم، بخلاف الحواء الذي يسرين على اللاذقية، ولأنني، هناك، كنت أجد من يساعدني في فهم بعض القضايا التي تبدو لي عسيرة على الفهم.

من أجل ذلك كان الانفراد بالكرم انفراداً بالذات. إنّه عالم قائم بذاته، وكثيراً ما تمنّيت لو أجلس تحت زيتونة فأقرأ وأقرأ حتى يهبط الليل. وليس نادراً ما تركت عائلتي، وهي تجمع الزيتون، ومضيت مع نفسي بين الزيتون حتى أبتعد عن الأنظار. وكانت والدتي تراعي حاجتي إلى هذه الانفرادات بذاتي، كانت تحسبني تعباً، وضجراً، أو راغباً عن العمل، لكنّني، بخلاف ذلك، كنت أعمل، أفكرّ، أخطّط، أتصوّر نفسي، أنا الغريب عن اللاذقية، النحيل أكثر من كلّ فتيانها، البائس إلى حدّ استجلاب الرثاء، مبشّراً في هذه المدينة بما كان يبشّر به «الطيّبون» في مدينة إسكندرونة، وكانت الحيرة التي أتخبّط فيها هي كيف أبدأ، ومع من أبدأ، وفي أية عجينة أضع خميرتي.

عاد والدي إلى بالبورة بعد أن ساعد في نبر عدة زيتونات لنا. لم تعد الأفاعي مثار رعب شديد. كان علينا أن نوطّن النفس على مواجهتها، ما

دمنا في الكرم، وما دام علينا أن نقلب المدرات لنلتقط ما تحتها من زيتون.
إضافة إلى ذلك، كانت الأفاعي تتدلّى حبالاً بين الأغصان، أو تلتفُّ كعكات في غلاغيل الأشجار، أو تقبع تحت الأحجار. وكان منظرها يبعث على الرعب، أقلّه على البرودة، ولم نتوصل قطّ إلى الألفة معها، حتى عندما قلّ خوفنا منها، أو صار خوفاً معجوناً ومخلوطاً بالعمل. والدي قتل عدة أفاع. أختي قتلت أفعى. أنا قتلت الكثير منها، وصار وجود العصيّ معنا ضرورة، فكنّا، إذا ما أتلعت أفعى برأسها، وانسابت أمامنا، نلحقها ونقتلها، وإذا انسلّت وابتعدت تركناها وشأنها. في هذه الحال تعلّق الأم أهمّية على ما إذا كنّا قد آذينا هذه الأفعى، تعتبر ذلك تحرّشاً، اعتداء، ستقابله الأفعى بمثله، وأن علينا أن نحتاط، وكنت أفهم رقّة الأم هذه، فهي تكره أن تقتل روحاً ولو كانت مؤذية كالأفعى، وإذا هربت منّا كانت تكرر قولها: «اذهبي يا مباركة واتركينا» وحين نحاججها، تقول: «قد تكون أمّاً، ولها صغار» فتردّ الأخت:

- أنا من جهتي سأقتلها وأقتل صغارها..
- ولكنّ هذا حرام.. إذا لم تؤذنا الأفعى فلماذا نؤذيها؟
- ولكن كيف نعرف أنّها ستؤذينا أم لا؟ ننتظر حتى تلدغنا؟
- أظنّ أنها لن تفعل.. هي أيضاً تخاف.. الأفعى تخاف يا أولاد..
- ونحن نخاف أيضاً.. نحن نخاف أكثر، وهذا هو الخطر.. علينا ألّا نخاف منها بعد الآن.
- لنسأل الله اللطف بنا.. لنسأله الرحمة بعائلتنا وجميع الناس.
- رحمة الله على الرأس، ولكن رحمة العصا ضرورية.

تقولها الأخت وترفع عصاها تضيف:

- إذا لم نقاوم الأفعى لدغتنا أليس كذلك؟

كنت أكبر جراة أختي، إقدامها، هجوميتها التي تنقصني، لكنني أرتبك أمام موضوع الأفعى، فأنا لا أريد، لو رأيت أفعى ومعها صغارها أن

أقتلها، بينما أختي تعتبرها عدوّاً، وتستحلّ قتل العدو على أيّة صورة. كانت قد ورثت بعض صفات والدي. لا شيء يخيفها، وكان هذا واضحاً وطبيعياً في سلوكها اليوميّ، وهذا ما جعلها محبوبة وأثيرة عند الوالدين، وبقيت كذلك حتى رحيلها عن الدنيا.

بدأنا نجمع الزيتون كعمل يوميّ لا بدّ منه. كانت رغبتنا في العمل مبعثها حاجتنا إليه، ولكنه، في حميّا الاندفاع، أخذ يصبح لعباً، يصبح متعة وممارسة لنشاط اجتماعي غير ملحوظ منّا. اقترحت الأخت أن نغني. كان صوت أختي الصغيرة حلواً. لكنها لم تكن تحفظ الأغاني، وكانت الأخت تحاول أن تعلّمها. تقول لها:

- ردّي معي..

يا رايحين ع حلب	حبّي معاكم راح
يا محمّلين العنب	تحت العنب تفّاح
كل من وليفه لفى	وأنا وليفي راح
يا ربّ نسمة هوا	تردّ الوليف ليا

وتبكي الأم لسماع الأغاني القديمة، الأغاني التي تذكّرها بأهلها وأحبابها، وإذ تشارك فيها، ترنّ نغمتها حزينة، ملتاعة، وما تلبث الدموع أن تطفر من عينيها، وعندئذ تثور الأخت:

- لماذا البكاء؟
- هكذا.. لا شيء.. أنا لا أبكي.
- ولكنّك تبكين.. ماذا جرى؟
- تذكرت الأهل.. تذكّرت الجيران.. أيامنا في إسكندرونة.. ترى هل يذكروننا كما نذكرهم؟
- لا بدّ أن يذكرونا.. عشرة العمر لا تضيع.. كنا إخوة حقيقيين.
- إخوة وأكثر.. لا وفّق الله تركيا التي فرّقتنا.

تدخلّت في الكلام فقلت:

ـ لعن الله فرنسا . . هي التي كانت السبب . . تآمرت مع تركيا .

دهشت الأم :

ـ ما معنى ما تقول؟

احترت في الجواب :

ـ يعني فرنسا دولة مستعمرة . . ولأنها كذلك فهي تبحث عن مصلحتها ، ومصلحتها كانت مع تركيا .

قالت الأخت :

ـ أنا فهمت مثلك ، لكن لا أعرف أن أشرح . .

وعادت الأم تردّد يقينها السابق ، وتدافع عن فرنسا .

ـ مع ذلك تبقى فرنسا دولة مسيحية . .

فكّرت وقلت :

ـ لتذهب إلى الشيطان . . أقول لك إنها مستعمرة وتقولين إنها مسيحية . . لو وقف المسيح نفسه ضد مصلحتها لأعادت صلبه . . إنّها عدوّتُنا وتحتلّ بلادنا .

ـ أليست هذه إرادة الله؟

ـ لا . . هذه إرادة استعباد بلادنا ونهب خيراتنا . . وهذا هو معنى الاستعمار .

ـ مهما يكن . . فرنسا هي التي أنقذتنا من تركيا . .

ـ لم تفعل ذلك لسواد عيوننا ، بل لتحتلّ بلادنا .

تدخّلت الأخت لتغيير الموضوع . أدركت أن الأم لن تفهم إلّا عملياً ، وأنه سيأتي هذا الفهم يوماً ما .

اقترحت :

ـ لنواصل الغناء . . هيا يا أختي ، اطلعي أنت ونحن نلحقك . .

غنّت الأخت الصغيرة موّالاً، وتابعتها أختي بميجانا، لكن الأمّ سرعان ما بدّلت اللحن، راجعة إلى أيام صباها، بأغنية عذبة، تترقرق مع ما في صوتها من شجن وغنّة:

يا طالعين القصر لفوق   يا نازلين سلّموا لي
على غزال وعيونو سود   والعنق أبيض بلوري

ردّدنا نحن هذه اللازمة، فتابعت الأم:

يا بيض صبحكم بالخير   يا سمر يسعد مساكم
لضل صبّح ومسّي   طول ما حبيبي معاكم

شعرت أن علي أن أتوقّف عن المشاركة في الغناء، كنت أعرف أن صوتي قبيح، وأجهل الأغاني، لكنني استمتعت إلى حدّ الطرب، وأخذتني حماسة ضاعفت من نشاطي في العمل. لاحظت أن الأيدي قد نشطت تلقائياً فيما الأفواه تغني. لم يكن آنذاك راديوات، ولا مسجّلات، كان الناس الذين مثلنا يغنّون لأنفسهم، كان ذاك طرباً ذاتياً، أليفاً، حبيباً، وكان يصعد بالفرحة الهاجعة في الأعماق، لأنه غناء جماعي. وهنا، في الريف، ونحن ضائعون في كرم الزيتون، كان الغناء بمثابة تأكيد على وجودنا. على تخطّينا للمصاعب التي تحيق بنا. وقد سرقتنا الأغاني من أنفسنا، فلم نشعر إلاّ بمرور سيارة من قربنا، على طريق اللاذقية دمسرخو ـ كسب. ركضت بين الزيتون، كانت السيارة قد ابتعدت، قفزت التخم ووقفت على الطريق العامّ، متأمّلاً ما حولي من زيتون يغطي الروابي والمنبسطات، ويترامى إلى حيث يصل البصر. كان ذلك كلّه لعائلة واحدة، قدرت، منذ وصلنا «ج» أن ملكيّتها كبيرة جدّاً، ولكن أن يكون طرفها في القرية، وطرفها الآخر على طريق كسب، فهذا ما لم أتصوّره، كما لم أتصور أن عائلة بهذا الغنى، تطلق النار على فلّاح يمرش حفنة من الزيتون لأطفاله، ثم تضربه، بأيدي زلمها، وترسل به إلى السجن. داهمني تفكير فرض نفسه عليّ، فرحت أسير على الطريق «الإسفلتي» راغباً أن أمشي وأمشي فلا أعود إلى الكرم أبداً. أصبح

الكرم في نظري شجراً هيكلياً، شيطانياً، مغروساً في أمعاء الفلاّحين، ومنها ينبت ويستمدّ نسغه. كان، كما خيّل إلي، في أساس كلّ شجرة فلاّح، فالأرض، تالياً، قبور، والشجر يتعالى فوقها، وفي هذه القبور أجساد تفسّخت، لكنّها ما زالت تحتفظ بهياكلها العظميّة، وهي ترصد، من مثاويها، المهزلة التي تدور حولها، وقد رأت، بغير شك، مأساة هذا الفلاّح.

مشيت، مشيت، مشيت. كان كرم الزيتون عن يميني، وفكرت أن أعدّ صفوف الأشجار، ثم أعدّ كم شجرة في كلّ صف، وأضرب الناتج بعضه ببعض، وعندئذ كم يغدو الرقم؟ إنه سيكون كبيرا إلى درجة لا تصدق، وكميّة الزيت التي يعطيها لا تصدق أيضاً، وكلّ هذه الكمية ستحصل عليها عائلة واحدة، دون تعب، دون نفقه، دون أيّ مجهود يذكر.

لم أكن، تلك الأيام، قد سمعت بملوك الحديد والنحاس والنفط والمعادن، وإلاّ لأضفت إليهم ملوك الزيت، هؤلاء الذين يكدّسون الثروات بينما الفلاّحون الذين يعملون في كرومهم يسلقون العشب ويقتاتونه.

رجعت أدراجي مغموماً، كانت أمي وشقيقتاي على الطريق العامّ ينتظرنني. يقتفين أثري، وصاحت الأمّ حين رأتني:

- أين أنت يا بنيّ، ماذا هناك؟ عَمَّ تبحث في البعد؟
- لا أبحث عن شيء. . .

وقالت الأخت:

- كان يفكّر . .

سألت الأم:

- بماذا؟

قلت:

- بهذا الكرم الذي لم أستطع الوصول إلى نهايته . .

- ليبارك الله لأصحابه..

نظرت إلى أميّ، أحببتها أكثر، فاض الحنان في نفسي إليها، وتصوّرتها واحدة من نساء شعبنا، اللواتي سيمضي وقت طويل قبل أن يستيقظن ويعرفن الحقيقة. إن مباركة أمّي لأصحاب كروم الزيتون لن تزيد في مردودها، ولكن أمي، بهذا الدعاء، تكرّس «حق الملكية المقدّس» حق الإقطاع الذي يفقرنا ويُذلّنا.

وبلهجة فيها أسى، وإشفاق، قلت لها:

- مباركتك وصلت، وفي العام المقبل سيكبر الكرم أكثر.. وستقوم كروم أخرى.. وستزداد ملكية عائلة «ف».

وقالت الأم:

- لا تكن حسوداً، الله لا يرضي بهذا.

- أنا لا أحسدهم، ولكن أقول إنهم يملكون كلّ هذه الكروم.

- وماذا إذا ملكوها؟

- لا شيء... إنهم أغنياء بشكل لا يصدّق، ونحن فقراء بشكل لا يصدّق أيضاً.

- إنّهم أغنياء أباً عن جدّ..

- ونحن فقراء أباً عن جدّ..

• وقالت أختي، كأنما لتنقذني من ورطتي مع أميّ:

- انظروا ظلال الأشجار. لقد انتصف النهار، وأنا جائعة جدّاً، هيّا إلى الغداء، لا عمل قبل الأكل.

قالت الأم:

- ولكننا تأخرنا في الصباح، وها هو الظهر ولم نجمع شوالاً من الزيتون، كيف تطالبون بالغداء دون أن تعملوا ما يقابله؟

قالت الأخت:

- نحن جياع.. أتحسبين عشاءنا أمس كان عشاء؟

- وماذا نفعل إذا كان هذا هو طعامنا؟ ماذا يأكل الفقير مثلنا؟ نحن في الزيتون ونتكبّر عليه؟

جلسنا تحت زيتونة قديمة. مدّت الأمّ قماشة بيضاء، ووضعت عليها أرغفة من الخبز، وصحنا من الزيتون، وجاءت بحجرين فكسرت بينهما بصلة، وقالت:

- باسم الله.. ولنبدأ..

مددت يدي إلى رغيفي. كان يابساً. كان حجراً، ولم تكن بي شهيّة. لقد مللت هذا اللون من الطعام الذي لا يتغيّر، وقالت أمي تستثير شهيّتنا:

- في المساء سنطبخ برغلاً...

قالت أختي:

- وهذا مللناه أيضاً..

- لماذا؟ وما هو طعام الفقراء إذن؟

- ومللنا الفقر أيضاً..

- صيروا إذن أغنياء..

- لا نستطيع..

- كيف استطاع بيت «ف»؟

قلت:

- لا أدري..

نهضت ومضيت إلى أعماق الكرم كرّة أخرى، رغبت، هذه المرّة، عن العمل، والعودة إلى الأهل، والبورة، ورؤية الوكيل أو الشوباصي. بل رغبت عن التفكير في كلّ الذي جرى، والذي سمعت ورأيت. كنت أنزف من الداخل. ارتطم القهر بجدار القهر، فتولّد في نفسي إحساس بعَبَثيّة ما

نحن فيه. وكان الشقاء والتبلّد ونسيان الواقع الذي نحيا شيئاً مستحيلاً، وكلّ هذا يلبلني إلى درجة الصياح، ومع ميلي إلى الراحة، وترك التفكير، والخلاص من جو إسكندرونة، ومن الكلمات الغريبة، الجريئة، التي كان رجعها يلازمني، فإنّ القبول بما نعانيه، وما يعانيه الفلاحون هنا، والفقراء في المدينة، شيء ضد المنطق، ضد الإمكان. ورفض فكري الهدنة، وراح يعذّبني في غير طائل.

الوحدة، في وقت كهذا، كانت عبادة حقيقية، أسير، أجلس، أنام، أستيقظ، كلّه مقبول، إلا أنْ أكون مع الناس. إنّني أعرف العزاء الذي تجلبه المشاركة، وكان عزائي بين أهلي مستمداً من شجاعة أختي، من اندفاعها، إقدامها، لامبالاتها بالمصاعب، لكنني، عند انحسار المشاعر الباسلة، عند هجوع القوّة الروحيّة، كنت أنأى عنها، كيلا أخجل من ضعفي أمامها. القراءة وحدها، في مثل هذه الحال، كانت تمتصّ بعض نقمتي على ضعفي، وبعض حنقي على الوجود، وشيئاً من الإحباط المبهظ الذي أستشعره، لكن القراءة تتطلّب كتباً، وفي الخيمة لا يوجد سوى كتابين، قرأتها وانتهيت، منذ اليوم الأول، كان شيء من الأمنية المستحيلة يداعبني في الذهاب إلى قرية «ح» والبحث عن كتب، لكن الذين سألتهم أفادوني أنهم في القرية يجهلون الكتب، لأنهم يجهلون القراءة، ولقد سألت المطعون عما إذا كان لديه أيّما كتاب فنفى ذلك، وسألته عما إذا كان لدى الشوباصي كتب من أيّ نوع، فضحك وأجاب:

ـ في القرية لا توجد كتب يا شيخنا. .

ـ وفي بيت الأسياد؟

ـ ولا في بيت الأسياد أيضاً. هنا لا يقرأون. .

ثم أضاف:

ـ حتى لو وجدت عندهم، أتحسب أنكَ تستطيع الوصول إليها؟

ـ أستعيرها. .

- لا تحلم بهذا.

- ولكنني قرأت عن بعض الأسياد، في بلاد العالم، أن لديهم كتباً، ويمكن أن يستعيرها أحد ما.

- أين هذا؟

- في الروسيا. . غوركي كان خادماً. .

- ومن هو غوركي هذا؟

- كاتب. .

- في المحكمة؟

- كاتب كتب . . أديب. .

- لم أسمع به. . أنا لم أسمع بأيّ كاتب. .

فكرت بالواقع الذي كشف عنه المطعون، فاغتممت جداً. قلت في نفسي: «ما أشدّ تخلّف ريفنا! حتى الأسياد لا يقرأون، والقرى لا تعرف الكتب، والكلمة غريبة، والأفكار يتيمة، لا مأوى لها ولا أهل، وفجأة، كأعزّ الأماني، انبثقت في نفسي هذه الأمنية:

- ما أجمل أن تكون في القرية كتب أيضاً!

خطر لي أن أغادر «ح» إلى المدينة. هناك لا بد أن أعثر على ما أريد، لكن شراء الكتب يحتاج إلى نقود، وليس معي منها شيء، ولا أحسب أن الوالد يملك شيئاً، وهكذا استحالت الأمنية إلى لعنة، لكن ولعي بالكتب دفعني، ذلك المساء، إلى الطلب من الجمّال، أن يأتيني بجريدة من المدينة، فقال:

- إذا وجدت فعلى رأسي. .

ورحت، طوال أيام، أحلم بأن يصل الجمّال، ومعه الجريدة الموعودة، لكن هذا الحلم لم يتحقق أبداً. الجمّال لم يمرّ بسوق المدينة، ولم يجد مكاناً

يبيع الصحف، وهكذا خابت مساعيّ جميعاً في العثور على ورقة مطبوعة، أقرأ فيها الحروف التي صارت عزيزة لشدّة الاشتياق. ثم يئست من وصول جريدة ما، ومن العثور على كتاب، ولم يبق إلّا أن أقرأ على أديم الكرم، أو صفحة السماء، وأن أحدّق في الأرض، أو أرفع رأسي إلى أعلى، في هيئة تجعلني نصف عاقل أو نصف مجنون.

تعبت من دوراني في الكرم فعدت، كان لا بدّ من مواجهة الواقع والنزول عند أحكامه. إنني حرّ في أن آكل أو لا آكل، وحرّ في أن أنام أو أسهر، لكنني لست حراً في مسألة العمل. إننا نستدين على الموسم. حالنا، هنا، كحال الفلاح، والفارق الوحيد بيننا أننا لا نسكن القرية، ولا نعمل في الزراعة، ولم يكن الموسم الذي نستدين عليه قمحاً أو شعيراً أو غلالاً نتصرّف بها في نهاية الخريف، بل كان زيتوناً حصّتنا فيه واحد من عشرة، ومن هذه الحصّة نأكل ونشرب ونسدّ الدين، وقد ندّخر شيئاً للشتاء، إذا لم يكن نقوداً، فشيئاً من زيتون، وشيئاً من برغل، كعادة الناس في المدينة.

اشتغلت إلى المساء، لم أتكلم، لم أتذمّر، لم أشارك في الحديث أو الغناء، جمعت كميّة طيّبة من الزيتون، وفي نوع من التحدّي ضاعفت جهدي، وكانت أختي تقول:

- أخي يكاد يسبقنا.. لو دخلنا في سباق معه لخسرنا.

وقالت الأمّ:

- أخوك ليس على ما يرام.. يتألّم من شيء ما..

قالت الأخت:

- يتألّم لحالنا..

- وماذا نفعل؟

رجوت الأم:

ـ لو تركنا الكلام على وضعنا لنتحدّث في شيء آخر . .
ـ لكنك لا تتحدث في أيّ شيء .
ـ أفكّر . .
ـ وبماذا تفكّر يا حبيبي؟
ـ لا أفكرّ بشيء معين . . لا أريد أن أتحدّث أو أغنّي . .
ـ لو فعلت لتسلّيت . . فرّجت عن نفسك . .
ـ أنا مرتاح مع نفسي . .
قالت أختي :
ـ إنه يفكّر كثيراً . . مثل ابن عبده بني . .
ـ الذي جُنّ؟
ـ نعم . .
ـ يا ويلي . . التفكير يقود إلى الجنون إذن؟
قالت أختي :
ـ يجنّ أو يصير فيلسوفاً . .
ـ ماذا؟
ـ فيلسوف . .

رسمت الأم علامة الصليب على وجهها. ضحكنا لحركتها. إنها تسمع بالكلمة للمرة الأولى. والأخت سمعت بها ولا تعرف معناها، أما أنا فلا أستطيع تفسيرها. كنت أعرف أن الفيلسوف هو من تبحّر في العلم، وأن كثرة التفكير من علامات الفلسفة، ولقد كرهت التفكير وأحببته، كرهته لأنّه يسبّب لي الآلام، وأحببته لأنه الطريق إلى الفلسفة، ولم أسأل نفسي ما هي الفلسفة، متى أصير فيلسوفاً. إذ كنت عند نفسي، وفي البيئة الجاهلة التي أنا فيها، فيلسوفاً صغيراً، ومنذ زمن بعيد.

في المساء عادت الحياة إلى ضجيجها على البورة.

لكن حادثاً وقع بعد أيام، أدخل جديداً إلى الحياة الرتيبة التي نحياها. كانت بطلة الحادث الفلاحة بدّور، التي حاول المطعون إغراءها ولم ينجح، وقد اتّهمت بأنها غادرت الكرم إلى البيت، وفي صدرها وجيوبها كميّة من الزيتون. زعم المطعون هذا وقال إنه رآها بعينيه، وأنها تفعل ذلك منذ بدأت العمل، وهذا يُعدّ سرقة، وسيخبر الشوباصي، ولديه شهودٌ على ذلك. زاد قائلاً إن بدور تحمل، حتى في هذه اللحظة، زيتوناً في صدرها وتحت فستانها، وأنه سيفتّشها.

في البدء ظنّ الحاضرون على البورة أن المطعون يمزح، لكنّهم وجدوا مزاحه ينقلب إلى جدّ، وأنه سيفتش الفلاحة حقّاً. وقد ضحكت بدّور أوّل الأمر، ووجدت في اتّهام المطعون تسلية، لكنّه ما لبث أن أصرّ عليه، وأوقف التقبين ومنع بدّور من العودة إلى قريتها، طالباً من الوالدة إدخالها الخيمة وتفتيشها.

قالت الأمّ:

- حرام عليك يا أبو نعمة.. لا تتّهم الناس زوراً.

قال المطعون:

- فتّشيها يا أختي تجدي ما أقوله صحيحاً..

دهشت لتخريف المطعون.. رددت ذلك إلى رغبته في التحرّش بها، باعتبارها امرأة صبيّة، جميلة، لكنني، أمام إصراره، وصرامة وجهه، وإيقاف العمل. تساءلت: «هل يمكن هذا؟ وأين تخفي بدور الزيتون المسروق؟» صدرها، كحاله كل يوم، عامر، وهذا طبيعي من شابّة ريفية، صحّتها جيدة، لكن جيوبها غير منتفخة، ولم يبق إلا سروالها وتلك نذالة لو خطرت للمطعون. غير أنها خطرت، وهذا هو السبب في أنه طلب من والدتي أن تحملها على خلع ثيابها في الخيمة.

تحلّق جميع من على البورة حول المطعون، كانوا يضحكون في البدء. حسبوا الأمر نكتة اخترعها المطعون لنرفزة بدّور، غير أن هذا كان يعوي، كمن به مغص، طالباً من بدّور دخول الخيمة وخلع ثيابها. ولم تتحرك بدّور من مكانها. غاضت ضحكتها، جمدت، تغيّر لونها، أربدّت، وتوفّز الفلاّحون، وتوتّر الجوّ، أصبحت القضيّة، الآن، قضيّة كرامة، قضية شرف، ومساس بالأخلاق، لكن المطعون لم يتراجع، رفض الوساطة. أخذته العزّة في الإثم. فقلب ما كان مزاحاً في البدء، إلى اتّهام صريح، لو أثبته، ويريد اثباته، لأدّى بالمرأة إلى السجن، أو ربما إلى الطرد، وإضاعة كلّ ما لها من حصة عملت للحصول عليها منذ أوّل الموسم.

كنت أراقب هذه التراجيديا الصغيرة دون أن أستغربها. أليس الفلاّح، كالمرأة، نهاية السلّم الاجتماعي، ومصبّ الظلم الطبقي في حياتنا؟ الفضيلة، في مجتمع كهذا، تبحث عن ضحايا، على هذا النحو يطاردون امرأة فقيرة ويرجمونها. أما الدعارة في بعض القصور فهي محميّة، مسوّرة بالأزواج أنفسهم. ومن حين لآخر، يقبضون على فتاة بائسة ويدخلونها المبغى، أما البغاء العلنيّ، ذو الشبابيك العالية، فليس مَنْ يستطيع حتى التطلّع إليه! وهذا المطعون، الذي يعرف أنّ العثور على ضحيّة، من حين لآخر، يبهج المتفرّجين ويرضي الأسياد، يريد أن يكون للزيتون ضحيّته، حتى يقال إنّ الوكلاء يسهرون على كروم السادة.

تمنّيت، لوقت غير قصير، لو تدخّل الوالد. انتظرت ردّ الفعل من الأخت التي كلّفها بعد الأمّ بتفتيش بدّور. أرسلت خيالي مع الفلاحة وهي تدخل الخيمة، وتتعرّى قطعة قطعة، بحثاً عن حبّة زيتون عالقة في مطاوي الثياب. خطر لي أن أركض إلى «ح» وأخبر الشوباصي بما يجري، لعلّه يأتي ويكفّ أذى الوكيل، لكنّني، وا أسفاه، لم أفعل شيئاً. كنت عاجزاً، وأعرف عجزي. لم تكن لي نزعة الوالد في القتال، ولا قدرة الأخت على الخصام، ولم أكن لاصطدم بأيّما مخلوق، وكنت أفلسف هذا الضعف بأنّ العمل الفردي لا يأتي بنتيجة، وأدّخر نفسي للعمل الاجماعي .. كنت،

والأسفاه، ذرائعياً، أعطي لتردّدي تبريراً يخفّف من وطأته في نفسي.

رفضت الأخت أن تفتّش بدّور. قالت إن الخيمة لم توجد لمثل هذا. عندئذ عاد المطعون يطلب من أمّي أن تفتش الفلاحة، فرفضت بدورها. ولم تكتفِ الأخت بالرفض. صدر عنها ما كنت أتوقّعه وأرغبه. قالت بلهجة قاسية، وهي تزوي ما بين عينيها، في عبوس أعرف أنه يخفي انفجاراً قادماً:

- دَعْ بدّور تذهب إلى بيتها، فهي لم تسرق شيئاً، وليس في ثيابها زيتون كما تدّعي.

- ومن أدراك أنت؟

- في وجهي عينان..

- وفي وجهي عينان مثلك. لقد جرت العادة. هذه ليست أوّل فلّاحة نفتّشها، وفي الماضي عثرنا على الزيتون المسروق واتّخذنا بحق السارقة ما يجب من إجراءات.

- وما هي هذه الإجراءات؟

- الطرد من الكرم، أو التسليم للدرك، أو مصادرة حصتها مما جمعت من زيتون.

- هكذا إذن!!

- نعم هكذا. هذا ملك بيت «ف» وليس داشراً. أن يأكل المرء عَظْم أفعى أسهل من أن يأكل الرزق وأنا وكيل..

- وأنت؟ ألست تأكل أيضاً؟

صاح بها بصوت قويّ:

- الزمي حدّك، وإلّا أدّبتك.. سفيهة!

أجابته بهدوء:

- السفيه هو أنت. . اضبط لسانك وإلّا قطعته. .

التفت إلى والدي شاكياً:

- أتسمع يا سالم؟ اتسمع يا مصري؟ أهذا ما انتظره منكم وأنا أقوم بواجبي؟

صاح والدي بأختي:

- أدخلي الخيمة ولا تتدخّلي. .

- لكن بدّور مظلومة. . أيهون عليك أن تظلم ونبقى ساكتين؟

- بدّور لن تظلم. . أبو نعمة طيّب القلب. .

قالها والتفت إلى بدّور قائلاً:

- وأنتِ. . اذهبي، إلى بيتك. . دون كلمة حول ما جرى. .

صاح المطعون:

- لن تتحرّك من هنا. . أنت لا تملك هذا الحق. . من فوّضك لتتدخّل فيما لا يعنيك؟

قال الوالد وقد أربدّ لفرط عصبيّته:

- أنا فوضّت نفسي. دع المرأة تذهب وشأنها. . هي لم تسرق. . بدّور شريفة لم تسرق، وأنت تتحرّش بها. . تفعل ذلك لغاية. وربما وراء غايتك من يدفعك إليها، لكن احذر. . لن أسمح بأن تمرّ الأمور على خير إذا كنت لا تدع بدّور تذهب إلى بيتها.

انفرجت أسارير بدّور. لاحظتها. كانت تتطلّع صوب والدي بكثير من الرجاء. كانت نعجة من النوع الذي لم يعتدْ تعكير الماء على أيّما ذئب، لكنها، فجأة، وجدت الذئب أمامها، وها هو الراعي الذي سينقذها. . إنه منحة من الله، الله أرسله ليساعدها، ومهما كان سبب تدخّله، فإن هذا التدخّل أرضاها. لقد كان والدي عنيداً، وكان هادئاً، وقميناً بأن يفعل ما يقول، لذلك سألت الله في سرّي الّا يتطورّ الموقف أكثر من ذلك. وفي

اللحظة التي وجدت تدخّل الوالد مبرراً، ومتوقعاً، وكلّ من على البورة يؤيّده، ويباركه، تساءلتُ في سرّي: «لماذا يندفع الوالد هذا الاندفاع؟» كنت أخشى أن يكون على صلة خفيّة مع بدّور. إنّه يحوم حولها منذ وصولنا، وهو يعرف أن المطعون يريدها لنفسه، لكن المنافسة بينهما لا أدري كيف حُلّت. ربما كان تحرّش المطعون بالمرأة انتقاماً، وربما كان بدفع، كما لمح الوالد، من الشوباصي. ومهما يكن فإنها امرأة، وفلّاحة وثمة ثلاثة ذئاب حولها: المطعون والشوباصي والوالد. ولكم تمنّيت، في هذه اللحظة، أن تكون نيّة الوالد سليمة، خالية من الغرض، وأن يكون دفاعه عن بدّور لوجه الحق وليس لوجه الشيطان.

توقّعت عراكاً بين المطعون والوالد، لو حصل ذلك لكان كارثة، أعرف والدي، إنه لا يبالي بالكوارث، ومهما كان الدافع وراء موقفه هذا فإنه سيمضي إلى النهاية. وبدافع الخوف على عملنا، ومنعاً للاشتباك المتوقع، وبحميّة زائفة، تقدّمت من المطعون وأمسكته من ذراعه:

- يا عم أبو نعمة.. لا يليق هذا الموقف بكما.. تتضاربان وأنتما أقارب؟

نبح المطعون:

- قل له إذن.. قل لوالدك أن يخجل..

صاح الوالد:

- وإذا لم أخجل؟

- عندئذ يكون بيننا حساب..

لم يقل الوالد شيئاً.. كانت في يده عصا. كانت عصا من السنديان، كانت عصا حارس حقيقيّ، فخيّل إليّ أنه سيضرب بها، لكن الوالد اقترب من بدّور وسحبها من يدها قائلاً:

- هيّا بنا..

تردّدت بدّور. احتارت فيما تفعل. لكن قبضة الوالد أطبقت على ذراعها بإحكام، وبقوّة دفعتها إلى أمام، فسارت الفلّاحة والوالد وراءها، وراحت

العيون، من حولها، تحملق غير مصدّقة. كان الجميع ينتظرون ردّة فعل المطعون. من جهتي توقّعت أن يدخل خيمته ويأتي بالمسدس فيشهره على الوالد. توقّعت أن يطلق الرصاص، أن يسرع ويقف في طريق بدّور، حائلاً بينها وبين العودة إلى بيتها، لكن المطعون لم يفعل أيّ شيء من ذلك. غادر البورة «إلى «ح» وقال وهو يبتعد:

- لا أحد يتحرك من مكانه.. كلّكم شهود.. سأخرب بيتك يا مصري.. سأبلغ الشوباصي أنك خنت الأمانة التي أوكلت اليك. أنت لست حارساً، أنت متواطئ مع الفلاّحين، أنت شريك بدّور، ولن أعود إلى عملي ما دمت أنت على البورة، هي كلمة واحدة: إمّا أنت أو أنا، وكفى مهازل.

خلت البورة من الاثنين: المطعون والوالد: أحدهما ذهب ليشتكي، والآخر، المشتكى عليه، ذهب يوصل بدّور إلى بيتها. عقب ذهابها علا اللغط. قال الفلاحون إنّ المطعون سيقيم الدنيا ويقعدها، وأنه سيأتي بالشوباصي معه، وعندئذ الويل لبدّور، والويل لمن ناصرها. وقال آخرون إن الخبر سيبلغ بيت «ف» أنفسهم، وأن تحقيقاً سيجري، وسيطردوننا من الحراسة، ويمنعوننا من جمع الزيتون، وسنعود إلى المدينة، إذا لم يكن إلى السجن. الأم خافت. كادت تتهاوى، وجدت فيها حدث امتحاناً من الله. وجدته كارثة حقيقية، وغضباً يلاحقنا منذ تركنا مدينتنا إسكندرونة. جلست أمام الخيمة واضعة يدها على خدّها. ولم تلبث أن بدأت تبكي، وكلّ من على البورة يراها، مما دفع الأخت إلى التوسّل اليها أن تدخل الخيمة، وأن تكفّ عن البكاء، لأن الدمع لا يفيد، ولأننا، لو طردنا، سنأخذ حقّنا ونعود، ولا بدّ أن نعثر في المدينة على عمل. كانت شجاعتها تمدّها دائماً بما تمزّق به الستارة السوداء التي تنصبها الوالدة في مثل هذه الظروف. لقد اهتمّت، لكنها وجدت ما فعله الوالد منطقياً، ولم تكن آسفة عليه، ولم تتعجّل الأمور، وجاءت إليّ تسألني:

- ما رأيك؟ يأتي الشوباصي الآن؟ ترى يضرب والدنا، يعاقبه، يطرده من

عمله؟

- ربّما.. كل شيء جائز.. غير أنّ الوالد فعل ما كان يجب أن يفعل، حمى بدّور وهذا هو المهمّ.

- لتذهب بدّور إلى الموت.. لقد تسبّبت لنا بمشكلة..

- لو لم تقع المشكلة اليوم، لوقعت غداً.. كان الاصطدام مع المطعون متوقعاً.

- وهل تحسب أن بدّور سرقت؟

- وأين تخفي ما سرقته؟ إنه افتراء... إرهاب.. تهمة مزوّرة، الله يعلم الغاية منها.

- أنا أعلم.. هذا السفيه لا يتّهمها إلّا لوجه الشيطان.

- إذن موقف الوالد صحيح..

- ومن قال إنه خطأ؟.. لكن الأمور ستتطوّر الآن.. ثم أنظر الفلّاحين ما أكثرهم على البورة، والجمال لن تلبث أن تصل، والعمل معطّل، والزيتون قد يفسد، وكل هذا سيتحمّل نتيجته الوالد.. أليس كذلك؟

- سنتحمّل مسؤوليته كلنا.. ما أظن أنّهم يتركوننا نجني زيتونة واحدة بعد الآن.

- للقرد.. نعود إلى المدينة..

- وماذا نعمل في المدينة؟

نظرت إليّ بعينين عاتبتين. كانت تحاول، وقت المصيبة هذا، أن ترتفع عليها. ما هو الأسوأ في الأشياء؟ أن نتوقّف عن العمل؟ حسناً! وماذا بعد؟ ما يفعل المطعون والشوباصي والسيد (د) نفسه؟ أنها تدفع الأشياء إلى نهاياتها. تصل إلى المرحلة الأسوأ وتتصدّى لها بشجاعة، بينما أنا أنطوي على خوف، وأسأل الله في سري أن تنقضي الأمور على خير.

فجأة سألتني :

ـ لماذا لا نعمل؟

ـ وماذا نعمل؟

ـ أنت تكتب وتقرأ . هيّا إذن . استلم القبّان ، وخُذ ورقة سجّل عليها ما تتسلّمه من زيتون ، وهذا أفضل من الوقوف مكتوفي الأيدي .

ـ لكن هذا عمل الوكيل . . .

ـ وإذا تأخر الوكيل؟ نترك الزيتون يفسد؟ وإذا عادت الجمال من المعصرة ، مَنْ يُقبّن أحمالها؟ هيّا اذهب إلى القبان وأنا أساعدك . انتبه . لا تخطىء في الوزن ، لا تتذمّم الناس ، ولكن لا تدع ما تتسلمه ينقص . .

ذهبت إلى القبان ، تفحّصته . سحبت البيضة . ضبطت العيار ، وصاحت أختي بالفلاّحين :

ـ تقدّموا بالدور . . . دون مزاحمة ولا تدفيع . . . .

جئت بورقة وقلم ، جلست على الكرسي . اضطربت في البدء ، كنت أخاف المسؤولية . رغبت أن أتأكد من ضبط العيار . من جديد سحبت بيضة القبان ، وضبطت العيار ثانية . بدأت العمل مراعياً فيه أن يكون الوزن إلى جانبي قليلاً ، حتى إذا أعيد الوزن لم يكن ثمة أي نقص .

الفلاّحون دعوا لأختي ، طلبوا لها طول العمر ، والصيت الحسن ، وأن يرزقها الله ابن حلال ، وأطاعوها في كل شيء ، حين طلبت منهم أن يفرغوا الزيتون المقبّن على طرف البورة ، وألاّ يمسّوا بيدر الزيتون الذي يرتفع في وسطها .

أمّي لم تكن مرتاحة . زاد تشاؤمها . صاحت بأختي :

ـ أنت ووالدك ستخربان بيتنا . .

وقالت الأخت لي :

ـ لا تردّ . . هيا . . ماذا تنتظر؟

بـدأت، كانت أصابعي ترتجف، كنت أزن كيس الـزيتـون مـرّتـين، ولاحظت أختي، فاقتربت منّي وقالت:

ــ أسـرع. . هذا ليس ذهبـاً. . مهما يكن من زيـادة أو نقص، فإن بيت (ف) لم يخسروا شيئاً.

ومن بعيد تعالى رنين الأجراس. أقبلت الجمال، وبان الجمّال على حماره في المقـدمة، وحـدثت ضجة، لكن الأخت، بقـوّة شخصيتها، ومهـارتها، ضبطت الأمور، وطلبت من الجمّال أن يستريح، وذهبت لتعدّ له فنجاناً من القهوة. .

نسيت، في غمـرة العمـل، مخـاوفي. . انسجمت فيـه، تخيّلت نفسي الـوكيل، كـانت العملية سهلة، ولم تمض دقـائق حتى كنت أسحب بيضة القبان بثقة، بل أسحبها رأساً حول الرقم الذي أقدره، ثم أذبذبها قليلاً، فإذا لسان القبان يستقيم، وأنا أصيح:

ــ غيره. . .

وطفق الفلاّحون يضحكون، ويتعاونـون معي. ينتظرون دورهم، ولا يجادلون في الكمّية، بسبب ثقتهم بأنني لا أغشّهم. كانوا يحملون أكياسهم إلى حيث أشارت الأخت، عند طرف البورة، فيفـرغونها ويمضـون، وأنا أرهف السمع، لمعرفة ما إذا كان المطعون قد عاد، وما إذا كان الشوباصي قد أقبل، أو رجع الوالد من القرية، وأتمنّى أن يتأخر الجميع، حتى أفرغ من المهمّة التي انتدبتني لهـا الأخت، وأظهر للجميـع أنني قادر عـلى الفوز بما تصدّيت له.

فرغت من وزن الزيتون الذي جمعه الفلاحون. جاء دور تحميل الجمال. كانت هذه ترعى العشب اليابس والأشـواك، على أطراف البورة. وكـان الحمار قد انفصل عنها، ليأكل عليقه، والجمّال يجلس أمام الخيمة، يدخن سيكارة بعد أن شرب القهوة التي أعدّتها الأخت، كان اسمه مصطو، وكان ربعة، على رأسه كوفيّة، وفي يده عصا، وفي وجهه تعبير شكر للدنيا، كأن

كل شيء فيها قد استقرّ على نحو جيّد. ذهبت إليه، تشاورت معه حول تحميل الجمال، فأبدى رغبة في التحميل والعودة إلى المعصرة بسرعة، خشية أن يتأخّر المطعون، ويفسد الزيتون الذي على البورة. وافقت الأخت التي انضمّت إلينا وقالت:

– لا بأس، نملأ الغرارات ونقبّن..

– وأين الدفتر الذي نسجّل فيه الكميّة التي حملناها؟

– نسجلّها على ورقة برّانيّة.. وحين يعود المطعون ينزلها في الدفتر.

سأل مصطو الجمّال:

– والوصل الذي آخذه للتوقيع من المعصرة بالاستلام والإعادة؟

قالت الأخت:

– هذه مشكلة..

ثم سألته:

– الا يحدث، حين يكون المطعون مشغولاً، أن تأخذ وصلين معاً؟

– يحدث..

– إذن تأخذ وصلين في النقلة القادمة.. أعطنا الغرارات الفارغة.

تردّد الفلاحان عزيز ويونس اللذان يعملان على البورة، لكن اختي التي سحبت الرفش، ونبهّتهما إلى أن الزيتون، لو تأخّر التحميل سيفسد، بثّت فيهما شيئاً من شجاعتها، وهكذا بدأنا العمل من جديد، شاعرين هذه المرة أننا أوقعنا المطعون في ورطة. كان بيدر الزيتون ضخماً عالياً، فما إن دفعنا الرفش في جوفه حتى انتشرت رائحة زيتيّة حادّة، وهذا يعني أنه يجب التحميل دون تأخير، وإلا تأكسد الزيت وتدنّت قيمته بعد العصر.

ملأنا ستّ غرارات. خِطْناها وقبّناها. بقيت أربع. كنّا نعمل بحماسة، باندفاع، بنوع من ثار، وكنا نريد، في أعماقنا، أن نفرغ من التحميل، وتغادر الجمال قبل أن يعود المطعون. تواطأنا، على هذا النحو، أن نصنع له مفاجأة، مؤدّاها أننا قادرون على القيام بعمله تماماً، وأنه

يستطيع أن يُضرب، أو يحرد أو يذهب إلى «ح» أو المدينة، دون أن يختلّ توازن القبّة الزرقاء.

كان الوالد أوّل من عاد، دهش حين رأى العمل يجري، والجمال تحمّل، دون أن يكون أثر للمطعون، فصاح وهو يرانا:

– كيف تفعلون هذا؟

قالت الأخت:

– وماذا نفعل إذن؟ نترك الزيتون يفسد؟. المطعون أقسم ألّا يعود إلى البورة ما دمت أنت عليها، وها أنت هنا، وهو هناك، ولن يعود إلّا مع الشوباصي، وعلى فرض أن هذا في المدينة، أو في قرية مجاورة، أو يتفقد الحبوب على البيادر، فماذا نفعل في حال كهذه؟ غاية المطعون أن يتوقّف الشغل، أن يفسد الزيتون، وأن يلقي عليك بمسؤولية كلّ ذلك، فلماذا ندعك تتحمّل المسؤولية؟

– ولماذا أتحمّلها ما دام هذا شغله؟

– سيزعم أنك أجبرته على توقيف العمل، ولم يعد بالإمكان تقبين الزيتون قبل أن يأتي الشوباصي، سيخترع ألف قصة، ويلفّق ضدك التهم، وما فعلناه، على فرض أنه لم يرض الشوباصي، فإنه لن يزيد الموقف سوءاً..

– الشوباصي لن يكون راضياً.

– ممّ؟

– من كل ما جرى..

– أنت تدافع عن موقفك، ونحن ندافع عن موقفنا.

– ومنذ متى كان لكم موقف مستقلّ؟

– منذ أن تركتم البورة وذهبتم، أنت والمطعون.

قالت الأم:

– كبرت المسألة. الله يستر.

قالت الأخت:

– ليحدث ما سوف يحدث. . أنا لا أبالي. .

– أنت لا تبالين. . أنت لم تخلقي إلّا للصدام.

صاح الوالد بالأمّ:

– كفى!

كان قلقاً، محتاراً، متردّداً، لكنه، بعد ذلك، اعترف:

– البنت فعلت عين العقل. . ولكن كيف تمّ الشغل بهذا اليسر؟ هل سجّل أخوك كل شيء كما يجب؟

قلت:

– نعم فعلت. . سجّلت الزيتون الوارد، ووضعناه على حدة، إنه هناك، تلك الكومة التي على طرف البورة، وسجّلت الصادر، وكل شيء على ما يرام. .

لم يقتنع الوالد تماماً. كان على شكّ من أن كل شيء قد تمّ كما يجب، الآن فقط شعر بأنه أقدم على فعلة أدّت بالمطعون إلى الحرد. . لفّ سيكارة وأشعلها. قرفص تحت زيتونة وراقب ما نعمل، فلما حمّلنا الجمال وانطلقت نبّهته أجراسها إلى الواقع، فابتسم وقال:

– القصّة كبرت يا أولاد. . لسوف نواجه الطرد. . سيطردوننا لا محالة. .

قالت الأمّ:

– إذا حدث ذلك فهو بسببك. . .

عندئذ انفجر، كأنه كان ينتظر كلمة منها لينفجر. . .

– لماذا بسببي؟ ماذا فعلت؟ وماذا تريدين بعد؟ هل كان يجب أن نترك بدّور بين يديه؟ كان يرضيك أن تجبر على خلع ثيابها؟ لماذا رفضت تفتيشها؟ ماذا لو دخلت الخيمة وخرجت، ثم قلت له: «لا شيء تحت ثيابها؟».

قالت الأمّ:

ـ بدّور ما كانت تخبّيء شيئاً.. إنه اتّهام كاذب.. افتراء على امرأة بريئة.

وقالت أختي:

ـ فعلت ما كان يجب أن تفعل، فلماذا تندم الآن؟

دافع عن نفسه:

ـ لست نادماً.. لكن المسألة تطوّرت.. لننتظر ما سوف يفعل هذا الكلب.. إذا أدّت شكواه إلى طردنا فإنني ساضربه، نعم.. سأفعل ذلك.

صاحت الأم:

ـ لا تضربه، أرجوك، ليذهب إلى جهنّم هو البورة والزيتون.. كنا بغنى عن المشاكل.

قال الأب:

ـ لا يستطيع الإنسان أن يعيش دون مواجهة المشاكل. هي التي تفرض نفسها عليه. ما بقي هو أن يواجهها أو ينحني لها.. أنا لا أنحني حتى للعاصفة.. في حياتي رأيت كثيراً من العواصف.. واجهتها، ولم أنحنِ أمامها..

ـ لكنك لم تنجح ولا مرّة.

ـ هذا بسبب الحظّ..

ـ بسبب سوء التدبير.

ـ مهما يكن.. ما فعلته اليوم كان لا بدّ منه.. أنا لست امرأة، ولن أكون امرأة ولا في يوم من الأيام.

ـ وأنت لست رجلاً أيضاً.. وإلا ما ضعت بهذا الشكل...

ـ الرجل شيء، والتوفيق شيء آخر.. الذين يتوفّقون لا يكونون رجالاً دائماً.

ـ وماذا يكونون؟

ـ امرأة مثلك. . . اللعنة على حواء!. .

انسحبت الأمّ صامتة. هي تعرف أخلاق الوالد، إنه على حافة الانفجار، وإذا انفجر فسيضربها. في حالة الغضب لا يسأل عن شيء. تستوي الأمور عنده، لكنّه، الآن، لا يقدر أن يضربها، أمام أولادها، لم يعد ذلك لائقاً، وليس لائقاً أكثر أمام الناس. في حالة الغضب يضرب السيد نفسه، ومن الأفضل ألّا تستفزّه. لقد قطعت الأمل، منذ زمن بعيد، من انصلاحه. هذا هو: سكير، خاسر، مشاغب، لا يسكت على واحدة، ولا يأبه، حين يتصرّف، بالعواقب، هذه التي تتصل بالخوف، بالحذر، وهو لا يخاف ولا يحاذر، ويستطيع عند اللزوم، أن يقتل، وأن ينام ملء جفنيه، ليلة شنقه نفسها.

من جهتي كنت أعرف والدي، لكنه، في كل تصرّف جديد، يبدو جديداً تماماً، كأنه لا يكرّر نفسه. هكذا، بشعور من الأسف الشديد، رحت أراقبه، ألاحظ كلّ حركة من حركاته، عسى أن أفهم ما هي دوافعه. لكنّه كان يفاجئني، حتى أحسب ألّا دوافع وراء أفعاله، وأنه يتصرف بعفوية لحظته، ثم لا يبرر سلوكه، كأن ما أتاه هو الصواب الذي لا يأخذه في أمره شك. ليس معنى هذا أنه لا يندم. في حال واحدة كان يندم، هي حالة السكر، كان يستشعر عاراً بحق رجولته، وأسرته، لكن ندمه كان عيشاً ثانياً لفعلته، لا يمنعه من الإقدام ثانية على فعلة أسوأ، كأنما يندم لأن من طبيعة الأشياء أن يتصرّف على هذا النحو، أو كأن الموبقة تتطلّبا ندماً، وهذا يتطلّب موبقة جديدة.

لست أجزم بأنه انتصر لبدّور لأنه يريدها، لكن بدّور وجدت في هذه الحركة تصرّفاً رجولياً يستحقّ الالتفات. هكذا تضعه تصرّفاته اللامسؤولة أمام إغراءات لا يقوى على الصمود لها. بدّور ستقع بين يديه، هو لا يستعجل، لا يبالي، لا يتحسّر، وحتى ولو لم تقع فلن يتأثر أيّما تأثر. ما يقال له حبّ، ما يقال له عشق، وما في الحب والعشق من لوعة، من هيام، من غرام يحمل الرجل على الذبول، على النحول، على البكاء، غير وارد في

قاموسه. إنه يعيش اللحظة لذاتها. يتصرّف بحقّ الفعل الطبيعي، وبعد ذلك يترك كل شيء للمجرى الذي يتّخذه. لقد دافع عن بدّور، حماها، وأنقذها من التفتيش عنوة، وسيدفع ثمن كل هذا راضياً، دون أن ينتظر أجراً أو شكوراً، فإذا ما جاء هذا، وإذا ما استسلمت بدّور، فإن ذلك أمر آخر، منفصل، لا علاقة له بما قبله. إنه لا يراكم الأسباب، ولا يربطها، ولا يكترث بها، وكل تصرّف يقوم به يُعدّ جديداً، وحتى لو تورّط، فإنّ غاية ما يستطيع أن يبرّر به تورُّطه هو إرادة الله، ففي نظره كلّ شيء يعود إلى الله، لأنه هو، بعد كل شيء، مسؤول عنّا، ولأن شعرة، كما قال المسيح، لا تسقط من أبداننا إلا بإذنه.

تمنّيت، عمري كلّه، أن يكون لي ما كان لوالدي من لامبالاة. أن تكون لي شجاعته، إقدامه، تهوُّره، ونسيانه أيضاً. فقد كنت أنا، لا هو، مَنْ يجب أن يدافع عن بدّور، يحميها، ويوصلها إلى قريتها. لكن الحذر كان دائماً قيداً في عنقي، وهكذا ضاعت الفرصة، هذه التي لم يفكّر بها والدي، لكنّه لم يضيّعها، ولست أدري ما قاله للمرأة، لكنه، أثناء الطريق، قال أشياء ترضيها، ولا شكّ، أو ربما تعهّد لها بأن يضرب المطعون، وترك لها، مقابل تعهّده، أن تفكّر فيه على هواها، فإذا فكّرت لا بدّ أن تُعجب، والإعجاب طريق مفتوح لكل الاحتمالات. لقد كنت في السادسة عشرة من عمري، كنت في سنّ المراهقة، وفي مثل هذه السنّ يشكّل جسد المرأة إغراء لا يُقاوم، وفي الحقيقة أغراني جسد بدّور، لكنني رفضت فكرة تفتيشها، وحتى لو أرغموني عليه فسأنكر أنها سرقت أيّما زيتونة، ولو وجدت زيتون الكرم كلّه في طيّات ثيابها. إنني، من ناحية المرأة، أتساوى مع والدي، ويظلّ الفعل هو الفارق، يظلّ الحذر غلّاً في عنقي، بينما والدي حرّ، لا يعرف الأغلال، منذ ولد. نعم لقد تمنّيت أن أعرف، وهو يمشي معها، ما قاله لها، لكنني رغبت رغبة صادقة أن يظل عفيفاً معها، فلا يتلفّظ بكلمة غير لائقة أبداً.

هذا ما كان شعوري. ولم أتساءل ما هو شعور أختي، فقد كانت طاهرة

في نظري، أما أمي فقد كانت نوعاً آخر من المرأة. لم أتصوّر يوماً أن نفسها جاشت بما تجيش به النفوس الأخرى. خيّل إليّ دائماً أنها خُلقت كبيرة، خُلقت أمّاً على نحو ما أراها. ولم تكن هذه الأمّ تعطي لنفسها أيّ حقّ من الحقوق. كانت مع الوالد مستلبة الحقوق جميعاً، وكان يخيّل إليّ أنها قانعة بذلك، فإذا وفت بواجبها الزوجيّ فإنّما تفي به كارهة. والدي هو الذي أطفأ كل إحساس فيها. استلّه منها على نحو بطيء مستمرّ، حتى أضحت جسماً فارغاً من الداخل، قصبة جوفاء، مكرّسة لخدمته، للعناية بنا وتنشئتنا، وما رأيتها مرّة تروح وتجيء، إلاّ والهمّ يروح ويجيء معها. كانت طيّبة، مؤمنة، قدّيسة، وتكره، بشكل لا يظهر عليها، زوجها، وتضمر عتباً غير قليل على حظّها الذي رماها به، ثم هي تعزو كلّ ذلك، بعد الحظّ، إلى اليتم. تقول إنها كانت يتيمة، وكانت تعمل في بيوت الناس، وأنها تزوّجت دون حبّ، دون رغبة، دون معرفة بما وراء الحب والزواج. لقد كانت صغيرة، وكان والدي يكبرها، وكان يمكن، لمشاعرها أن تتفتّح أو تنغلق نتيجة موقفه منها، ومن سوء الحظّ أن هذا الموقف تبدّى أنانيّاً، بشعاً، كريهاً، وهكذا انقلبت حرارتها الجسديّة إلى برودة، ومن الصعب أن يكون حادث اليوم، وذهاب والدي مع بدّور، وما يتوقّع لذلك من أثر في علاقة رجل بامرأة قد أثار فيها أيّما انفعال.

طاب لي، بعد الانتهاء من تسلّم الزيتون، وتحميل الجمال، وغسل الوجه واليدين، أن أشرب فنجاناً من القهوة. ما كنت أدخّن، لكنّني، في نشوة داخلية أعيشها وحدي، رغبت في القهوة، وشاركتني فيها أختي. ما كنا نشرب الشاي، في إسكندرونة لا يشربون الشاي إلا مع الإفطار. إنه أدام طعام الصباح، ما عدا ذلك، فإن القهوة هي التي تقدّم للضيف، وتشرب للمزاج، وتؤخذ للاستمتاع في الأصباح والليالي.

كنت، الآن، على مزاج طيّب، فقد بعث بي الإقدام على ما أقدمت عليه، شيئاً من شعور بالثقة، بعضاً من الراحة، وقليلاً، قليلاً جداً، من الزهو، كان يمكن أن يكون أكبر وربما وصل إلى حدّ الغرور، لولا توقّعي أن

المطعون سيقيم الدنيا ويقعدها بعد عودته. ولم يكن خوفي من المطعون هو كلّ خوفي، كان هناك الرعب من الشوباصي، الذي سمعت عنه من كل من صادفته، ورأيت منه، بعد أن عرفته، ما ثبّت هذه القناعة الرعبيّة في قلبي.. وها هو الوكيل يذهب إليه شاكياً، وسيعود به هذا المساء لننال جزاء تصرُّفنا الخارج عن المألوف، أو المضادّ لكل مالوف، في مهمّة الحارس التي كانت تقتضي من والدي أن يكون مع الوكيل وضدّ بدّور، لا مع بدّور وضدّ الوكيل.

شربت قهوتي متمهّلاً. كانت قهوة حلوة، ترشّفتها متلمّظاً، متمنّياً أن أشرب فنجاناً آخر، دون أن تخطر لي السيكارة، هذه التي سأعرف، في الكبر، أنها مع القهوة تساوي ثقلها ذهباً. وقد سألتني أختي، التي تعرف تحسّباتي:

- لماذا أنت مهموم؟
- لست مهموماً..
- وما رأيك بما فعلنا؟
- جيّد لولا أنّه..

قاطعتني:

- ألا تستطيع العيش دون «لولا» هذه؟
- ولكنّنا..
- قد نُطرد، أليس كذلك؟
- على الأقل سنحاسب..
- دَعْ عنك هذا.. حين تُقدم على شيء، لا تبالِ سلفاً بما ينجم عنه.. أنت رجل، ستصير رجلاً، فاعرف كيف تتصرّف إذن.. لا تخف من أيّما شيء، وعندما تكون على حقّ، أو تعتقد أنّك على حق، كن شجاعاً وتحمّل التبعات.

فكّرت بما قالت، وخطر لي تبرير خوفي فقلت:

- لو لم نكن فقراء..

أضافت:

ــ حتّى مع الفقر كن شجاعاً..

أضافت أيضاً:

ــ الشجاعة، مطلوبة خاصّة مع الفقر، ليستطيع الفقير أن يواجه الحياة.

ــ أنا لا أنكر ذلك...

ــ ومتى ستعمل به؟ كنت أتوقّع أن يصدر عنك ما صدر عن أبيك..

ــ لماذا؟

ــ هكذا.. والدك غير متعلّم، والدك لم يقرأ تلك «الكراريس» التي قرأتها، ثم هو غير معنيّ بالعدالة مثلك.

ــ لماذا وقف مع بدّور إذن؟

ــ لا أدري.. ربّما وقف مع بدّور بمقتضى الشهامة، بينما كان عليك أن تقف إلى جانبها بمقتضى المبدأ... ألا تقول إنّك صاحب مبدأ؟

أزعجني ما تقول. كان صحيحاً وهذا ما زاد في إزعاجي، صحت بها:

ــ كفى تقريعاً..

ــ أنت حرّ، ولكن أيّ رجل ستكون، إذا ما استولى عليك الخوف أمام أيّة مشكلة؟

ــ أنا لست خائفاً..

ــ لكنك لست جريئاً. أنت تستمدّ من وجودنا بعض الشجاعة.. تريد أن تصرف نفسك عن التفكير بما قد يحدث.

ــ وأنت؟

ــ أنا مثل والدك، لا أباليّ..

دون تفكير، صدر عنّي هذا السؤال السخيف:

ــ وكيف تفعلين كي لا تبالي؟

ــ لا شيء.. الله خلقني هكذا..

قالتها وغادرتني وفي يدها عصا. كانت العصا تعبيراً عن ذات صدامية.

لم يكن هذا ليفوتني، غير أنّ العصا في يدي، ما كانت لتعطي المعنى نفسه. لا بدّ أن أبدّل نفسي إذن.. يا الله، كيف يبدّل الإنسان نفسه؟ هبني هذه النعمة يا ربي! اجعلني أتبدّل، صيِّرني مثل أبي، صيِّرني مثل أُختي.

غير أنّ ذلك لم يصر.. كان باكراً بعد، وكان عليّ أن أكون مناضلاً لأكون شجاعاً وبالعكس.

- ٧ -

طالت غيبة الوكيل. طولها أعطانا المبرر، أختي وأنا، لنقول إننا كنّا على حق. كان المطعون، في قرارة نفسه، يحسب أنه فعلها. ما كان مهتمّاً بالزيتون، ما دامت المسؤولية، بعد كل شيء، ستلقى على والدي. ولم نكن، حين شرعنا بالعمل مكان الوكيل، نعلم أنه سيتأخّر إلى هذا الحدّ، قرارنا كان عفوياً، غير محسوب بالمسطرة كما ظهر فيما بعد، وقد ارتحنا، عند هبوط الليل، أننا فعلنا ما فعلناه، فقد سيّرنا الشغل، وأنقذنا الزيتون، وأبطلنا حجّة المطعون في أننا نعرقل العمل، وأننا نقوم بالتخريب ضدّ السادة أصحاب الكروم.

أشعلنا النار، وخبزت لنا الوالدة على الصاج، أشعل الفلاّحان اللوكس، وبدا كل ما حولنا ساكناً، كأنّ الليل الساجي قد امتصّ كل نأمة، ما عدا بعض الأصوات لعصافير طائرة، متنقّلة، متأخّرة عن أسرابها، ولبعض الجنادب، التي تصرّ في ليالي الصيف. وفي الأبعاد كانت نيران تشتعل، تلك هي نيران التنانير التي أوقدها القرويون، وقد أطّلعت عليها من الرابية، وسمعت، من هناك، ثغاء وخواراً، صادرين عن المواشي، وهي تعود إلى حظائرها، وترسل النداءات لصغارها المنتظرة في الزرائب. كان بهاء المساء يفتنني، وقد أحسست، هذا المساء، بفتنته على نحو أروع، برغم ما بي من قلق من جرّاء الحادث الذي وقع.

ولقد رغبت، في هذه الخلوة على رأس الرابية، أن أتملّى الكون، وأكون وحيداً، فأنفرد بنفسي وأحلّل مشاعري على مهل. ومن نافلة القول، أنني كنت راضياً، لا بما قمت به من عمل، وإن كان هذا قد أرضاني، بل بما أثار إعجابي، مما أظهره الوالد من جراة تحدّت المطعون في أعزّ شيء لديه: وظيفته! قلت في نفسي: «لو أن الوالد على وعي قليل لكان أشدّ جراة» ثم خطر لي أن جراة والدي تأتيه من لامبالاته، من نزقه، من انعدام الشعور بأيما مسؤولية لديه حتى تجاه العائلة. إنه الفلتان، التصرُّف حسب الطبيعة. بدائية الفعل حين لا يعقله حَذَرٌ، فهل كان الوعي، لو واتى الوالد، يلجم بدائية فعله هذه؟ يدخل دائرة الحسابات والمحاذير؟ يجعله يفكر بما يفعل، قبل أن يفعل؟ يصبح مثلي، على الأقل، أنا ابن المدرسة، الذي يعرف الحق والباطل، أو يخيّل إليه أنه يعرفهما، لكنه، أمام قيد العقل، لا يندفع مع غريزته، ولا يتصرّف دون رقيب من وعي يقول له افعل هذا ولا تفعل ذاك. إنني أناجي ربّي، أسأله أن يهبني جسارة كجسارة والدي، وشجاعة كشجاعة أختي. لكن والدي وأختي أميّان، لم يذهبا إلى مدرسة، ولم تتهذّب طبيعتهما الفطرية، وهما يصدران عنها في نوع من عنفوان، يجعل التململ الداخليّ الذي أحسّه تمرّداً صريحاً عندهما. أكفر بالمدرسة إذن؟ أكفر بالوعي الذي عقل اندفاعاتي الطبيعية؟ أضع اللوم على ما قراته ووعيته من الظلم النازل بالناس؟ أم أن طبيعتي هي طبيعتي، فأنا حذر بالفطرة، وحذري هذا، إذا كان له أن ينتفي، فإن دفع الظلم عن الآخرين، أو الإيمان بذلك، هو ما سوف ينفيه رويداً رويداً؟

لقد كان فايز الشعلة جريئاً، ولم يكن أمياً. وكان سبيرو الأعور جسوراً، ولم يكن غافلاً، وقد قال لي فايز الشعلة مرّة: «لا تشكُّ من ضعفك الجسدي. هذا لا شيء. القوة في القلب، هناك تكون أو لا تكون. الشجاعة تأتي مع الإيمان، الموت نفسه، يأتي مع الإيمان. حين تؤمن بشيء فأنت على استعداد لأن تموت من أجله، أما إذا كنت مستسلماً لموج الحياة، فإنك لن تجيد السباحة في بحرها، ولن تكون قادراً على مواجهة مصاعبها.

الخوف ليس فطرة. . الجرأة ليست فطرة، كلاهما يُكتسب اكتساباً». وقد صنع هذا الكلام لي بهجة. منذ ذلك اليوم تبدّلت. كنت انطوائياً فصرت اجتماعياً. كنت متشائماً فصار لديّ بعض الأمل. كنت يائساً، ولو ملكت الجرأة لانتحرت، وها أنا أتخلّص من يأسي وضعفي شيئاً فشيئاً، لكن الجرأة التي تأتي مع الإيمان لم تواتني بعد، فهل ذلك لأنني لم أؤمن بشيء بعد؟ أو هل ذلك لأن إيماني غير كافٍ؟ وما دامت الجرأة، بالفطرة أو بالوعي، هي الجرأة أخيراً، إذن ما الفارق بين الفطرة والوعي؟

كذلك قضيت ساعة كاملة وأنا أفكر. كان في داخلي معمل للتفكير، ما إن تدور آلته حتى يجذبني كورقة بين مسنّناته، فتروح أسطواناته تدور بي حتى أدخل عالماً منفصلاً عن عالم الأرض، عالماً أليفاً، حبيباً، لكنه لا يفضي إلى شيء، وهو، في أحسن الأحوال، يجعلني أضطرب في متاهات ما تفتأ تتشعّب وتتفرّع وتقودني إلى متاهات أخرى، فأضيع، وأحتاج إلى الهرب من عقلي وتفكيري كليهما.

أخيراً اضطررت إلى التجوال. جعلت أهبط الرابية وأصعدها كرّة أخرى. وجدت في هذه الرياضة بعض التسلية، ومع انه لم يسبق لي أن قمت بجولة في الكرم أثناء الليل، فقد غامرت وذهبت إلى بعيد، متنبهاً في كل لحظة، إلى أيّما خشخشة بين الأعشاب، خوفاً أن تكون ثمة أفعى، أدوسها فتلدغني دون أن أفطن إليها.

بلغت في سيري طرف الكرم الآخر، لم أكن في الواقع أقصد هذا البعد كله، لكنني، حين أوغلت في الكرم، قررت أن أخرج منه وأعود إليه عن الطريق العام، الذي جئنا منه يوم وصولنا إلى قرية «ح». كان طرف الكرم ينتهي عند مجرى سيل. كان المجرى، في الصيف، جافاً، وعلى كتفه رأيت خيمة أمامها فانوس مؤطّر بزجاج، ينير فسحة جلس عند طرفها، تحت زيتونة شاهقة، رجل في مثل عمر والدي، وإلى جانبه فتاة عرفت من صغر سنها أنها لا يمكن أن تكون زوجته.

تنحنحت حتى ألفت النظر إلى وجودي. كنت أستطيع أن أظلّ وراء

شجرة زيتون، أراقب ما يجري في الفسحة المؤطرة بضوء الفانوس، لكن معرفتي أن هذا ناطور آخر من نواطير الكرم، وأن هذه ابنته، دفعتني إلى الإعلان عن نفسي، كأنما كرهت أن أتلصّص، أو حكمت بأنني لن أقع على أيّ مشهد مثير، أو أن رغبة خفيّة دفعتني إلى التعرّف على حياة ناطور، وإلى رؤية ابنته التي تبدّت لي في الضوء الناعس على قدر من الجمال لم أتوقع رؤية مثله في هذه البرّية المقفرة.

صاح الرجل:

ــ من هناك؟

ــ أنا..

رأيته يقف، ويتناول عصاه، وتقف ابنته وراءه، حالما جاءهما صوتي الغريب، غير المألوف منها. تقدّمت باتجاه الضوء، وتقدّم الرجل باتجاهي، وظلت الفتاة مكانها، وقد ارتسمت على محياها ظلال وشحّتها بغلالة من جاذبية مضاعفة.

ــ من أنت؟ صاح الرجل.

ــ أنا من البورة، ابن الناطور هناك..

تراخى صوته بعد توتّره:

ــ تفضّل... أهلاً وسهلاً..

أضاف:

ــ تقصدنا أم كنت مارّاً من هنا؟

ــ كنت مارّاً فرأيت الضوء، ووجدت من المناسب أن ألقي عليكما تحيّة المساء.

ــ أهلاً وسهلاً.. أهلاً.. الاسم الكريم؟

ــ أنا ابن الناطور..

ــ ابن سالم الذي على البورة؟

ــ هو بعينه..

صافحت الرجل الذي قال إن اسمه عبد الله، وصافحت ابنته التي

قدّمت نفسها باسم رئيفة، وتردّدت بين الجلوس وبين البقاء واقفاً، لكن عبد الله الذي كان يشرب كأساً، محاولاً إنعاش نفسه بعد تعب النهار، أصرّ على جلوسي، ودعاني إلى كأس معه.

المرء لا يعرف كيف تقع المصادفة. يكون خالي الذهن من أيّ شيء، يعيش أيّامه بوتيرة واحدة، وإذا المصادفة تنبت زهرة في كفّه، فيتضوّع منها عبق يعطر أيّامه. حتّى قبل ساعة، عندما كنت على الرابية، وقبل ذلك على البورة، كان محالاً عليّ أن أحزر أنّه في هذه الليلة، هذه الليلة بالذات، سيشرق في ظلمة حياتي مصباح يحمل النور والبهجة والأنس، وسيقلب الجمود الذي أحسُّه، إلى نشاط في دمي وعملي وتفكيري على السواء. المجهول ستاره عدميّ يخفي وراءه مفاجأة. أنا جئت من وراء هذه الستارة، أهلي كلّهم جاءوا من ورائها. أمي وأبي كانا، كلّ منهما، وراء ستارته قبل أن يلتقيا، الحياة نفسها ستارة، ومن وراء سجفها يبرز ذلك المجهول ليصير معلوماً، ليقلب ما كان إلى ما هو كائن، وما هو كائن إلى ما سوف يصير، مُغيّراً، في لحظة، مقادير الناس على نحو مفرح أو محزن. أحمد ربّي لأنه بعث الضجر في عروقي، فقمت في هذا الليل بجولة كنت قبلها أخافها، أو لا أتوقعها، أو ربما أخشى أن أقوم بمثلها؟ أسأل الله أن يرزقني كثيراً من هذه الجولات، وأن يكشف أستار حياتي، ستراً بعد ستر، كي تشرق في أيّامي أنوار تضيئها؟ ربما كان على الإنسان أن يخطّط، أن يدبّر، أن يرسم، مثل ورق الجوز، خضرة غده المنتظر، ولكن الغد، هذا الذي في رحم الآتي، كثيراً ما يجانف ما خطّطنا وما دبّرنا، وكثيراً ما تأتي رسمة ورق الجوز رسمة ورقة دلب، أو رسمة ورقة الدلب رسمة ورق ورد، فالقلم الذي بيد المقادير، لا ينصاع كلّ مرة للأنامل البشريّة، ولا يستوي مع التفكير الرغبيّ الذي يمتدّ حلماً طيّباً، مباركاً، مزهراً، ثم نحصد من حلمنا هذا شِلْواً ممزّقاً لليأس والعجز. إنّه القدر، في حالات الابتهالات القصوى، يتبدّى لنا في صورة غير التي أنشأناه عليها في حلمنا، مع ذلك فإن الحلم مبارك، ولا بدّ أن نحلم. الحلم ضروريّ للحياة، لكنّ هذه، أحياناً، تأتيك بتحقّقات

حلميّة لم تخطر لك يوماً على بال. إنّني أعيش مع عائلتي منذ مدّة في هذا الكرم، وربّما كان الكرم كبيراً بحيث لا أفكّر أن أطوف به كلّه، وربما كان صغيراً. ومع ذلك لم أقم بالتجوال فيه، ثم فجأة تتشكّل رغبة في النفس، ويندفع الجسد للتنفيذ، وإذا المصادفة تضع صاحبها على الطرف الآخر للنهر، الطرف الذي ما خطر له يوماً أنه سيصله.

فكرت، وأنا أجلس إلى جانب العمّ عبدالله، كيف لم أعرفه قبل الآن؟ وكيف لم ألحظه حين كان يجيء إلى البورة، وحتى لم أكترث به؟ وكيف أننا جيران، ولم يخطر للوالد أن يحدّثني أن في الطرف الآخر من الكرم ناطوراً مثله، وله بنت بمثل عمر شقيقتي؟ وما هي الموانع التي كانت تحول دوني ودون القيام، في الأماسي، بجولة في الكرم؟ ولماذا الليلة، دفعني شعور مبهم إلى التغلّب على خوفي، وإلى تجاوز تحفّظي، وترك حذري الدائم، والانطلاق في الكرم، لأكتشف، في طرفه الآخر ضوءاً، ثم لأكتشف، في نور هذا الضوء، ذلك الناطور المتوحد وابنته الجميلة رئيفة؟.

ربما كانت السماء، التي تعرف أن ههنا، على أرضها، ينهض فتى يزخر حشاه بكل العواطف الطيّبة، أرادت أن تكافئني على طيبتي، وربما، أيضاً، أرادت أن تقتصّ من خلوّي، فرمتني بهذا الشجا الذي سيلهب خيالي. إنني لا أجزم. كلّ ما في الأمر أن واقعاً جديداً يتشكّل، وفي حيث لم أكن أتوقع تشكّله قط، وأن هذا الواقع، يضعني أمام طاولة عليها ورقة بيضاء، ثم لا أدري من ذا الذي سيكتب عليها، أنا أم قدري؟ ولا أدري، فوق ذلك، ما هو الذي سيُكتب، وهل يكون حظّاً سعيداً أم نحساً مشؤوماً؟ إنني أفتح صفحة جديدة، وستقرأون هذه الصفحة بكلّ ما فيها من حسن وقبيح، لأنني سأكون صادقاً، فالكتابة على صفحتي يقوم بها قدري.

كان مضيفي يجلس جلسة مستريحة على حصيرة، ويستند بيده اليسرى على وسادة، وأمامه طاولة خشبيّة صغيرة، عليها كأسه، وحول الكأس بعض الصحون، ومن ورائه، وفي شجرة الزيتون، علّق فانوساً مؤطّراً بالزجاج، اتّقاء للريح، وإلى مبعدة، عن يمينه، جلست فتاته التي لا تتجاوز

السادسة عشرة من عمرها. كان الهدوء تاماً من حوله، وبعد حرّ النهار، بدت طراوة الليل منعشة، وكان رداء العتمة، منشوراً حوله، ومن خلاله تبين صفوف أشجار تمتدّ إلى بعيد ثم تغوص في هذه العتمة التي كانت شفّافة في ذلك المساء الصيفيّ الجميل. ولم يكن الرجل يتحدّث إلى ابنته، أو يغنّي على عادة والدي إذا ما جلس إلى الشراب في الأمسيات. كان هكذا ملكاً صامتاً، وقوراً، منسجماً مع نفسه، مكتفياً بانسجامه، سعيداً كأن لا همّ يلمّ به، ولا هاجس يشغله. كان صورة للناطور الذي يقوم بواجب الحراسة قياماً كاملاً، فهو، بعد، لا يبالي بما يحدث خارج كرمه وكوخه ودائرة الضوء من حوله. كان أشبه برجل عزل نفسه عن الناس، وآثر عزلته حتى لا يعتريه قلق بما يجري خارجها. إنه، في السن التي بلغها، يعرف شيئاً واحداً، أنْ يعمل نهاراً ويستريح ليلاً. وكان آمناً حتى كأنّ مملكته الزيتونية لا يتهدّدها لصّ ولا يسوّرها ليل في طواياه خطر، وما كان بينه وبين ابنته جفاء، لكنه لا يتّخذها نديمة أو سامرة، فهي لا تشرب معه، ولا تبادله حديثاً، ولا تقترب فتجلس على الحصيرة التي يجلس عليها. كانت مؤدّبة، راضية، في عينيها بعدٌ لا يدرك كنهه. وكانت مليحة، في وجهها وسامة، وعلى خدّيها غمازتان، تكسبان طلعتها بهاء إذا هي ضحكت. أما إذا ابتسمت فإن الغمازتين تغدوان معجتين في البشرة العجينية القمحيّة الموردة من صحّة ونضارة. وكان شعرها ليلياً، طويلاً، يتهدّل في جديلة على ظهرها، ويبقى منه بعض خصلة تتدلّى على صفحة الوجه، كأنها تريد أن تحجب خفراً يوشّح المحيّا، والشفة العليا منشمرة قليلاً، كتدبير تكويني لإظهار صفّ من الأسنان البيض المنتظمة انتظاماً سمطياً. أما الأب فقد كان في العقد الخامس أو يزيد، وكان ذا شعر رماديّ، وله ذقن مندفعة، تدل على عرض الفكّ الأسفل، وعينان خيليّتان، فيهما لمعة تعطي للوجه كله إضاءة تكسبه طيبة محبّبة. وكان، كما يبدو من كتفيه، فارع القامة، عريض المنكبين، وله طلة استعراضية، وجسارة تلوح من كيانه كلّه.

صبّ لي قدحاً من العرق مزجه بالماء، وسألني وهو يشرب نخبي:

ـ ألا يشرب الوالد؟
ـ يشرب. .
ـ كلّ يوم؟
ـ كلّ ساعة إذا أردت. .

ضحك:

ـ إلى هذه الدرجة؟
ـ وأكثر. . والدي مدمن. .
ـ وأنت؟
ـ هذه هي المرّة الأولى التي أشرب فيها من كأس مخصّصة لي وحدي.
ـ العرق طيب. . وستعتاده وتحبّه. .
ـ لا أرغب في ذلك.
ـ لِمَ؟
ـ هكذا. . كرهته منذ رأيت والدي يدمن عليه. .
ـ يخيّل إليّ، من كلامك، أنّه يسكر بسرعة. .
ـ بسرعة شديدة. . يا إلهي!. . جسمه لا يقاوم العرق أبداً.
ـ أما أنا فلا أسكر. أشرب قليلاً، كلّ ليلة، ولكن لو شربت كثيراً فلا أسكر أيضاً. . أنا قادر على المقاومة.

لم تشترك رئيفة في الحديث. . لعلّ الموضوع ما كان يعنيها، أو لعلّها في خفر الصبا ما زالت تتحفّظ في الكلام مع زائر غريب. كنت أزورها من طرف خفيّ، ألقي نظرة جانبيّة عليها فأراها تزداد انكماشاً، حتى أنني للحظة، يئست من أن نتبادل كلمة، لذلك انصرفت إلى الأب الذي كان يشرب ويتحدّث مسروراً كما بدا، لأن إنساناً طرقه في هذا الليل، وجلس إليه يتسامر وهو في انسجامه الكامل مع الطبيعة.

سألني بغتة:

ـ أنهيت الدراسة؟
ـ نعم. . أعني المرحلة الابتدائية. .

ــ هذا جيّد. . وماذا يريد أمثالنا أكثر. .؟ الشهادة كافية لأن يكون الإنسان قارئاً كاتباً وبعدها المهنة. . المهنة سوار من ذهب. . ولو كان لي ولد لوجّهته إليها.

ــ ألا أولاد لك؟

ــ نعم. . لا أولاد لي. . هذه البنت وأنا. . رئيفة وأنا. . زوجتي توفيّت، وقد كانت ضربة أليمة. . إنه شغل الله فماذا تريد؟ يخطىء العبد إذا عارض مشيئة الله. . أم أنت لست من رأيي

ــ من رأيك، على ألاّ نحمّل الله مسؤولية كل شيء. .

اعتدل في جلسته، وبعد أن حرع بلعة أكثر من المعتادة، قال مستشاراً لأول مرة منذ أتيت:

ــ كيف لا نحمّل الله كلّ المسؤولية؟ أليس هو، عدم المؤاخذة، الذي خلقنا، والذي سيميتنا، ولا تسقط شعرة من أجسامنا إلا بإذنه؟

كانت حكاية الشعرة التي لاتسقط إلا بإذن المسيح قاسماً مشتركاً بين جميع المسيحيين. كانت السند الذي يلجأ اليه كل من سمع اعتراضاً على أيّ واقع في الحياة. كانت شعرة قوية ، وكنت أراها مشهرة في وجهي كنصل حادّ.

غصت في نهر من التفكير. كنت على استعداد دائم للتفكير، وهذا ما أزعجني طوال حياتي. كان أجدر بي، في أوّل لقاء لي مع العمّ عبد الله هذا، أن أحدّثه عن الكرم والزيتون والبورة، وأن استمع إليه يعطي رأياً في كلّ هذه الأمور. غير أنني، منذ انعطف بي فجأة إلى مسألة تدعو إلى التفكير، نسيت وجوده وسمحت للتفكير أن يأخذني بعيداً. ويبدو انه ملّ صمتي، فتكلّم عن نفسه، وكيف يقضي نهاره، قائلاً:

ــ حين أستيقظ صباحاً، أرسم الصليب على وجهي. أكون، بعد رسمه، قد سلّمت وجهي لله، ويكون المسيح حارسي. لقد عانيت في حياتي ما يكفي من الآلام، لكنّ الألم الأكبر هو حرماني من الذرّيّة. مع ذلك

فهذه ابنتي رئيفة، المسيح أراد أن تكون لي ابنة وحيدة، وأنا قانع، ومفوّض أمري إليه. أحسب أنني عشت بشرف واستقامة، بحيث شملني المسيح برعايته، وما زلت على هذا الإيمان، وعندما ماتت زوجتي صبرت على البلوى، اقتداء بأيوب، وما زلت أصبر، وأنا مرتاح لأنّ الدودلم يرع جسدي بعد، كما رعى جسد أيوب. إنني أنسى، وأنا أعمل نهاري كلّه، أن فقد زوجتي قد رماني بألم موجع، مثل ألم أيّوب.

– أتظنّ أنّ التشبُّه بأيّوب، والإيمان بعدم سقوط شعرة إلّا بإذن المسيح، يكفيان لردّ ما نعانيه في حياتنا من آلام؟

– وإذا لم يكونا كافيين، ماذا نفعل في رأيك؟

– لا أقول أن نفعل فعلاً معيناً، ولكن يجب أن نفكّر.. الإنسان، بعد كل شيء، ليس بهيمة..

– في هذه معك حق.. الله خلق للإنسان عقلاً..

– وعلى الإنسان الذي أُعطي عقلاً للتفكير أن يفكّر، لا أن يجلس ويقتدي بأيّوب.

– هذا رأي والدك؟

– هذا رأيي..

– تعلّمته في المدرسة؟

– سمعته من الناس.. في بلدنا إسكندرونة، لا يفكرون على هذا النحو.. هناك يعملون لتأليف نقابات تدافع عن حقوقهم، ويتظاهرون ضدّ فرنسا، ويقولون أشياء جيّدة عن المستقبل، أشياء لم أسمع بمثلها هنا، أعني في اللاذقية، مع أن المسافة، بين إسكندرونة واللاذقية، ليست كبيرة، وهما تقعان على بحر واحد.

أضفت:

– أنا لا أظنّ أنّ الفقر من الله، أو الاحتلال الفرنسي منه.. هذه أشياء

صارت نتيجة فعل الإنسان . .

ــ حلو . أنت فلسفون (فيلسوف) إذن؟

ــ لست فيلسوفاً، وهل يحتاج ما نحن فيه إلى فلسفة؟

ــ لا أدري، لكنني لم أسمع مثل هذا من قبل . . . إنه اعتراض . .

قاطعته :

ــ اعتراض على ماذا؟ إذا كان اعتراضاً على الأغنياء، الخواجات والاقطاعيين، فأنا معترض فعلاً . .

ــ هذا اعتراض على حكمة الله . .

ــ استغفر الله، بل هو اعتراض على تصرُّف الحكومة والأسياد.

ــ إذن هو سياسة . . هذه لا نفهم بها . . نحن، كما ترى، لا نفهم بالسياسة . . السياسة لها أربابها.

سادت لحظة صمت بيننا. كانت مسألة السياسة، وتعليق كلّ مطلب حياتي على التعاطي معها، تحمل تاريخاً طويلاً من التجهيل. لقد أدخلوا في عقول الناس أن السياسة شيء خطير، وأن مجردّ الاقتراب منها يعني التماسّ مع الخطر، وأنّ على الإنسان، إذا أراد تجنّب وجع الرأس، أن يبتعد عن السياسة، وها هو العمّ عبد الله، واحد من الذين يخشون السياسة، ولو كانت تدخل في موقفهم الذاتيّ من الحياة. لشدّ ما صادفت، وما عانيت، من هؤلاء الذين يعتقدون اعتقاداً راسخاً أنّ السياسة لم تخلق لهم، فإذا سألتهم لماذا؟ أجابوك لأنّ لها أربابها، وهم يقصدون فوراً الأسياد. كانوا مستسلمين إلى خمول ذهنيّ، إلى بلاده تفكيرية قاتلة، إلى نوع من تطويب التساؤل والتفكير والبحث إلى غيرهم، إلى أسيادهم على الأرجح. وهكذا كان هؤلاء الأسياد يحتكرون السياسة، دون أن يبذلوا أيّ مجهود لذلك. إذن كانت ثمة ضرورة أن يعرف الناس، الشعب، الفقراء خاصّة، أن السياسة داخلة في كل شيء، من الرغيف إلى أيّما سلعة يبتاعونها، وأن هذه الخشية

من السياسة لا موجب لها، وهذا الجهل السياسي عيب وإساءة إلى أنفسهم، وإلى فهمهم وموقفهم من الحياة كله.

لكنّ ذلك كله لا يقال مباشرة. الناس يعيشون كيفما اتّفق أن يعيشوا، وعلى من يريد إيقاظهم، أن يدفعهم للتفكير كيف يصح أن يعيشوا، وبمجرد حصول ذلك يعني نقلة كبيرة إلى الأمام، ومن هنا ينبغي البدء. من هذه المسألة البسيطة الخطيرة في آن يجب أن ينطلق نشر الوعي. وهذا ما سوف أمارسه، وأجد فيه صحّة مطلقة عندما أكبر.

إنني في جلسة التعارف هذه، لا يمكن، ومن غير المفيد، أن أدخل في نقاش مع الناطور عبد الله، الجدل معه، دون كسب ثقته، عقيم. وسأعرف، بعد ذلك أنه ليس عقيماً فقط، بل هو مثير، لأن ذهن هذا الناطور قد تصفّح ضدّ أيّة محاولة للاختراق. ضد أيّة محاولة لإنارة الظلمة، ولو قليلاً، في فكره الذي تجمّد عند حبّ الأسياد إلى درجة العبادة، ووقف النفس على خدمتهم، مهما يصدر عنهم من سوء أو عسف.

كان الناطور عبد الله، وأنا صامت أفكر بهذه الأشياء، يروزني باستخفاف، مصدره أنني من طينته، وأنني ابن ناطور، ولا أفهم أكثر منه، حتى لو كنت ابن مدرسة، ويحسن بي، في حديثي معه، أن نتبادل المعلومات عن الكرم والزيتون والنظارة، لا أكثر.

سألني:

ـ ماذا يجري هناك، على البورة؟

ـ والدي يحرس في الليل، ونحن نجمع الزيتون في النهار.

سألت رئيفة:

ـ عائلتكم كبيرة؟

ـ الأم وأختان والوالد وأنا.

ـ لم يسبق لكم أن نطرتم زيتوناً، أليس كذلك؟

ـ لم يسبق أبداً. . هذه هي المرّة الأولى. . كنت ، في البدء. . أحسبها شغلة ملعونة.

ـ والآن؟

• كان في صوتها دلّ غريب، نضج أنثوي مبكر أيقظ فيّ مشاعر نائمة، وكانت، كما خيّل إليّ، تنتظر جواباً معيّناً لتفرح، وكنت على استعداد لمثل هذا الجواب المفرح، لو أني فعلاً كنت أؤمن به. أليست نطارة الزيتون لعنة؟ وهذا العذاب، والأفاعي، والتشرّد في البريّة، وجمع عشرة أمثال مقابل واحد، أليس لعنة؟ بلى هو كذلك، وقد كنت، حتى إلى ما قبل مجيئي، تعيساً، ضجراً، مستاءً من أشياء كثيرة، ليس أقلّها، ولا آخرها، المشكل الذي وقع على البورة.

قلت لها ملاطفاً:

ـ الآن تغيّرت الحال قليلاً، اعتدنا. . كان يجب أن نتعارف قبل الآن.

قال والدها:

ـ لم يفت الوقت. .

ـ صحيح. .

وقلت لرئيفة:

ـ لدي أختٌ بعمرك. .

ـ يمكن أن تأتي بها الليلة القادمة؟

ـ يمكن. .

صاح الأب:

ـ رئيفة لا تعاشر أحداً، ولا تتكلم حتى معي أنا.

فطنت، الآن فقط، إلى أن ابنته لا تشاركه الحديث، وتجلس وراءه لا إلى جانبه، وتصوّرتها من فوري سجينة خيمة قشّية، هي بدورها سجينة

كَرْمٍ لا بشر فيه، وأنها تتعذّب في وحدتها، وتنتظر، بصبر نافد، مخلوقاً يؤنسها، وأنها ستتعلّق بأختي ما إن تراها، ستحبّنا، ونحبّها، وربما كانت الليالي المقبلات حافلة بطعم آخر للحياة، طعم لم أذقه حتى الآن، ولكن حدساً ما ينبئني أنّني سأذوقه.

استأذنت ونهضت، لم أشرب كأسي كلّه، ولم تكن بي شهيّة إليه، وقد حمدت الله أنّ والدي ليس على هذه الشاكلة، وأنه فنّان على طريقته، في الشرب والحديث والشجاعة. تساءلت ما إذا كنت مبالغاً في كرهه، حتى وهو يسكر كثيراً، فربّما كانت الحياة نفسها تدفعه إلى السكر، كي ينسى كثيراً من الأشياء التي يحسن نسيانها، إذا لم يشأ المرء أن يسوّد أيّامه، وينظر من خلال نظارة معتمة إلى كل ما حوله.

حين رجعت إلى البورة لم يكن المطعون قد عاد بعد. كل شيء كان هادئاً، وكان الوالد يجلس على حصيرة تحت الزيتونة المعلّقة بها خيمتنا. وجدته يدخّن وحيداً، وليس ثمة دلالة على أنه تناول شيئاً من العرق. لعلّه استنجد بكلّ ما تبقى من إرادته كي يبقى صاحياً، ولعلّه كان قلقاً من جرّاء ما حدث، فهو لا يتكلّم، لا يغنّي، لا ينشد مجراوية الزير سالم، وترفّ على وجهه ظلال جدّ رقيقة من ألم يكابده. حيّيته وجلست قربه. كانت الأمّ والأختان يتنزّهن حول البورة، والفلّاحان يلعبان الورق، وخيمة المطعون مهجورة، ورائحة عطنة تأتي من الزيتون الذي دبّ فيه الفساد بسبب التراكم على البيدر. كان يجب أن تأتي الجمال ليلاً، وقلت في نفسي: «من الأفضل ملء الغرارات، حتى إذا عادت الجمال كانت جاهزة للنقل» وحين أعلنت ذلك لم يعارض الوالد، اكتفى بالقول:

ـ تأخّر المطعون..

ـ لعلّه لم يجد الشوباصي في الضيعة.

ـ في هذه الحال يكون قد ذهب إلى اللاذقية. هناك الشكوى أبلغ. يصوّر الأمر على كيفه. يقول لبيت «ف» إني ناصرت الفلّاحين،

وقاومته، وحاولت ضربه، ومنعته من تفتيش بدّور. . يقول أشياء كثيرة، قليل الوجدان هذا.

– وماذا تتوقّع؟ يصدقّون شكواه؟ يخدعهم ويجعلهم يرسلون الدرك؟ وماذا لو جاء الدرك؟ تستسلم لهم أم تهرب؟ وماذا ينفع الهرب. . الأفضل أن تدافع عن نفسك، أن تقول الحقيقة، والفلاّحون يشهدون. .

– الفلاحون لا يشهدون معي. يخافون المطعون، ويخافون الشوباصي، وأكثر من ذلك يخافون بيت «ف» إنّهم يسكتون عن الحقيقة مضطرين.

– يجب ألاّ يسكتوا. .

قال الوالد كأنه تحيّن فرصته للهزء مني، أنا الذي أجرؤ على انتقاده بسبب السكر:

– ولماذا سكتُّ أنت؟

– وماذا أقول؟ بحضورك لا بدّ أن أسكت. .

– ولو لم أكن حاضراً ستسكت. . كأنك لست ابني.

جرحتني كلماته. . كانت حقيقية وجرحتني. كنت أسمعها منه للمرّة الأولى، وقد عجبت أنه يضمر في نفسه كلّ هذا الوجد عليّ، وأنه لا يهتني رحمة بي، وأن ما بيننا من كره متبادَلُ، وأنه يفضل أختي عليّ، وأن ما أقوله عن العدالة والمساواة وحقوق الفقراء، يحتاج إلى توكيد، ولا يمكن أن يتأكّد إلاّ بموقف صحيح، ينطوي على قدر من الشجاعة كفيل بفرض احترام قائل هذه الأفكار.

لزمت الصمت. أدركت بماذا كان يفكر والدي. إنه يعتب عتباً ساخراً. لقد كان من الأولى أن أنوب عنه في حماية بدّور. كان ذلك يرضيه. يضعه خارج دائرة المواجهة مع المطعون، وكان يمكن في حال كهذه، أن يدافع عني، وأن يجد نفسه حرّاً وقويّاً. كان والدي يفهم الكلمات بالمواقف، فما دمت مؤمناً بالعدالة، وأتكلّم عن الظلم، فلماذا، حين وقع الظلم سكتّ؟

طبعاً كنت، في حال الكلام، التحدّي، الوقوف إلى جانب بدّور، ساجعله يزداد ضيقاً بي، لأنه، في وضع كهذا، كان يراني جديراً بمواقفي منه، أما وأنّ ذلك لم يحصل، فهو مرتاح الآن، وهو يسخر على نحو فيه كثير من التشفّي.

– لم يأت دوري بعد.

قلت ذلك كي أستعيد توازني النفسي الذي اختلّ. ولم تفته هذه المحاولة، فقال دون أن يكترث بدفاعي:

– ومتى يأتي دورك يا بطل؟ حين أموت؟ بودّي أن أرى هذه البطولة بعيني.

– لست بطلاً، ولا أريد أن أكونه، لكن ما أقوله عن مقاومة الظلم حقيقيّ.

– وكيف يقتنع الناس بحقيقته إذا كان القائل لا يؤمن به؟

– أنت تراني كذلك؟

– لست أنا وحدي. . أسأل أختك أيضاً. . أسأل الفلاحين الذين كانوا على البورة.

– سيأتي يوم تتبدل فيه صورتي في عينيك.

– ومتى يكون هذااليوم؟ بعد الزواج؟ حين يتزوّج الرجل يُودّع شجاعته. . المرأة والأولاد لا يتركون للشجاعة موضعاً. . إذا أردت أن تفارق الجسورَ جسارتُه زوِّجْه!

– ساكون جسوراً قبل الزواج وبعده. .

– ما أظنّ. . البداية تقرّر كل شيء. .

– بدايتي لم تأت بعد. . حين أعمل وأستقلّ. . حين يكون عليّ أن أفدي أفكاري. . حين تتعرّض هذه الأفكار للخطر، عندئذ يكون الموقف

مختلفاً. أنا لا أقاتل في سبيل امرأة، ولا أقاتل في حالة السكر. لا أدع السكر يسيطر عليّ.

رددت السهم. هو البادئ. ربما كنت جباناً أمس، لكن الشجاعة ليست فطرة كلّها. سأتعلّم أن أكون شجاعاً. وكما صيّرتني أفكاري قويّاً بالنسبة للمرض، وللانطواء، وللكآبة، ستصيّرني شجاعاً. وإلى أن يأتي ذلك الحين، لا بأس أن يعرف والدي أن شجاعته مصروفة في غير وجهها الصحيح. نعم هو يقاتل في حالتين: المرأة والسكر، وقد لا أقاتل أنا، لكنني وراء أفكاري التي أؤمن بها حتى الموت. المرأة والسكر لن يستعبداني، ولن أندفع مثله لأجلهما. أعرف أنني جرحته كما جرحني، وأعرف أنه جُرح من قولتي إنّ السكر يسيطر عليه، لا من قولتي إنه يقاتل في سبيل المرأة، لكن علي أن أقول ذلك، وعليه أن يسمعه، دون أن يقلّل ذلك من إعجابي به هذا النهار.

نهضت وذهبت أبحث عن أميّ وأختيّ. كنّ على الرابية، كان القمر يطلع من وراء الأفق المحجوب بالأشجار، وكان طلوعه بهيّاً، كأنّه معلّق حيث هو، فلا هو يتحرّك، ولا طرف السماء يتطامن حتى يتسلّقه. كان ورديّاً، فيه صفرة وشحوب، وكانت السماء العالية، بمظلّتها الزرقاء المرقّطة بالنجوم مضاءة بفعل شعاعه المنبعث بقوة خارقة. وبعد أن اخبرتهن أنّني زرت عبد الله الناطور، في الطرف الآخر من الكرم، وأن ابنته رئيفة، التي بعمر الأخت، تبعث لهنّ بسلامها، تركتهن ومضيت أنحدر عن قمّة الرابية، قاصداً طرفها الآخر، راغباً الاختلاء بنفسي لترتيب مشاعري التي أفسدها والدي.

كنت، رغم الابتسامة، ومحاولات النسيان، واصطناع اللامبالاة، متأثّراً من نفسي لا من والدي. كان على والدي أن يقول ما قاله كي يوقظني من سباتي الناجم عن خمولي. كان عليه أن يطعنني بسكين الصراحة حتى أفيق وأفهم أن الدنيا قاسية بما يكفي، وأن عليّ، إذا أردت شقّ طريقي فيها، أن أكون شجاعاً، وأن أبرهن عن هذه الشجاعة عند اللزوم. ليس للجبان

مكان، عند الأهل أو المرأة أو الناس. إنه سالم سلامة الزواحف التي لا تفارق أوكارها. وهذه السلامة ذاتها هي مقتلة ومجلبة العار له، فالحَذِرُ يؤتى من مكمنه، ومهما دفنت النعامة رأسها في الرمل، فإنّ الصيّاد يراها، ويطلق عليها ويرديها. عليّ إذن ألاّ أكون زاحفة، أو نعامة، أو صلاًّ، عليّ أن أكون نفسي، في الشرف الذي للنفس التي تعرف أن تجابه وأن تموت في وقت اللزوم. الإنسان لا يكون حرّاً من الخارج فقط. عليه أن يكون حرّاً من الداخل أوّلاً، أن يملك من الاعتداد ما يكفي لتوازن الشخصيّة، ومن الزهو ما ينبغي كي لا ينكسر أمام أية مصيبة. يقال إن طلب الحريّة عبء، لكنّ الذلّ، الخضوع، العبودية، عبء أكبر، وصاحب المبدأ ينهض بعبء الحرية بأيسر ممّا ينهض عديم المبدأ بعبء العبوديّة. إنّني لن أكون كالذين يخافون، ويندمون، وعن طريق الندم يصنعون لأنفسهم أخلاقاً ذات مقاييس متساوقة مع جبنهم. إنّني لن أفرغ ألمي الذي أحسست به هذه الليلة عن طريق تعنيف نفسي أو إهانتها، نفسي شريفة، ومن شرفها عليّ أن أستمدّ العزم لمقاومة الوهن، حين يلمّ بي ويقودني إلى الضعف. أنا منطقيّ مع نفسي، وسأمتلك الشجاعة لأدافع عن أفكاري.

مشيت، مشيت، مشيت، كان السير يفيدني وقت هذا التدفّق من المنولوجات الداخلية التي كلّمت فيها نفسي، واستحضرت كلّ العبارات الرنّانة التي قرأتها في الكتب. كان الأمر بسيطاً: ألاّ أخاف، ولكنّ عدم الخوف هذا كان بحاجة إلى مصداقيّة، وهذه لن تأتي إلا عن طريق الفعل، وأنا بحاجة إلى مجابهة سريعة، أحقّق فيها انتصاراً يمحو من نفسي أثر الكلام الذي قاله لي والدي. قرّرت العودة إلى البورة، لأرى ما جدّ فيها، ولأتخذ موقفاً، حين يكون ذلك ضرورياً، أبدأ فيه البداية الموعودة، التي أنذرت بها والدي.

سمعت، من بعيد، أصواتاً على البورة. حثثت الخطو، درت بالرابية وقصدت الخيمة، راغباً في أن يحدث ما سوف يحدث بسرعة، ننتهي بها من القلق العاصف الذي يلمّ بنا جميعاً، ونكبته جميعاً، في محاولة للتماسك،

وعدم الإفصاح عن أفكار السوء التي تتناوشنا منذ وقوع حادث بدّور. كان المطعون قد عاد، كانت عودته بطبل وزمر، فقد عرج على الضيعة وأتى بالشوباصي معه، وكان، لذلك، يتكلّم بصوت مرتفع، مهدّداً بخراب بيوت الذين قاوموه، وكان الشوباصي يحمل عصاه، والبندقيّة في كتفه كالعادة، ولم يكن يتكلّم، بينا المطعون يصيح بالفلاّحين:

ـ من قبّن الزيتون وتسلّمه؟

ـ ابن المصري.

ـ ومن طلب اليه أن يفعل ذلك؟

ـ لا ندري، هو تطوّع من نفسه..

ـ وكيف سمحتم له بذلك؟

ـ وماذا نفعل؟ نترك الزيتون يفسد؟

ـ وهل نتركه يضيع إذن؟

ـ لم يضع شيء.. كلّه مسجل.. (وصاح الفلاّحان منذ أبصراني) ها هو.. اسأله واعتقنا..

تقدّمت بهدوء لكن بخوف. عاد الخوف يسيطر عليّ، تمنّيت لو عاد المطعون وحده، كان ذلك أهون عليّ، كنت أكلّمه دون هذه الرهبة التي ابتعثها في أعماقي الشوباصي وهو يلفّ سيكارة، وقد عقد حاجبيه، وبرز غضب لاهب في وجهه، ورفض، منذ وصل، أن يقترب من خيمتنا، أو يلقي السلام على الوالد.

قال لي المطعون:

ـ تعال إلى هنا.. من الذي استلم الزيتون من الفلاّحين؟

ـ أنا استلمته، وسجّلت كلّ شيء في ورقة، وحسبت أنني أقضي غرضاً، لأنّ الفلاّحين يجب أن يعودوا إلى بيوتهم، وقد جاءت الجمال.

وكان يجب تحميلها، خوفاً من أن يفسد الزيتون، إذا لم ينقل إلى المعصرة..

– ومن طلب منك أن تفعل ذلك؟

صاحت أختي من أمام الخيمة، موجّهة كلامها إلى المطعون:

– أنا.. حين رأيتك تترك العمل، وتَدَع الزيتون والناس وتذهب، وجدت من المناسب أن نعمل ما عملنا.

– هذا الذي عملتموه خطأ.. هذا شغلي، كان يجب أن تعرفي أنه شغلي، وأنا المسؤول عنه، وأن الزيتون له أصحاب، ونحن وكلاء أصحابه.

قالت أختي دونما اكتراث:

– يسلم الزيتون لأصحابه.. نحن لم نأكله..

قاطعها:

– لم يبق إلاّ هذا.. لم يبق إلا أن تأكلوه يا خنزيرة..

– أولاً أنا لست خنزيرة، وثانياً أنت تشتمنا أمام الشوباصي لتستر فعلتك، لكن الشوباصي جاء ورأى من الذي عطّل الشغل، ومن الذي سيّره.

– وتحرّضين الشوباصي عليّ أيضاً؟ أعوذ بالله.. أيّة عائلة هذه؟ الأب لا ينظر، والابن الذي ظننّاه عاقلاً يسعى ليأخذ مكاننا، والبنت تتصدّى لنا من الصباح إلى المساء، وكلما دققنا مسماراً علّقت عليه منخلاً.. لم يبق إلاّ أن نترك الكرم والبورة والملك لكم.. لم يبق إلاّ أن تتوكّلوا أنتم ونصبح نحن الأجراء عندكم.... يا أبا اسكندر، استحلفك بالله، رأت عينك، على كثرة ما رأت، شيئاً كهذا؟!

لم يردّ الشوباصي، كان غير راضٍ عن فعلة الوالد، لكنّه، في المقابل، ما كان راضياً عن تصرّف الوكيل، وإذا كان يرغب عن تدخّل النساء، فإنّ موقف الأخت كان صحيحاً، وكان المطعون نفسه يعالج الأمور بعقلية نسوية، فهو يأخذ ويعطي، ويثرثر، ويكرّر كلامه، ويدور حول موضوع

واحد حتى يزهق الروح، ويتجنّى على الآخرين بشكل سافر، ويحرّضهم على نفسه كأنما عن قصد، وبكلمة، تفتقد شخصيته كلّها صفة الإنسان المقنع، الإنسان القادر على القيام بعمل أوكل اليه. إضافة إلى هذا كان يخاف، الشوباصي الرهيب يحبّ من هو أرهب منه، لا يطيق الخوّافين، ولا يحبّ المشاكل، والمطعون يخلق له كلّ يوم مشكلة، وإذا كانت مشاكله، قبلاً، مع الفلاحين، فهذه المرّة مع النواطير، ومع عائلة من المدينة حيث لا يريد بيت «ف» أن يفتحوا معركة، أو تتناقل المدينة ما يعرفه الريف عنهم.

ولأنّ هذه المعاني غابت عن إدراك المطعون، فقد عجز عن فهم سبب صمت الشوباصي، قام في ظنّه أن هذا لا يؤيده، وأن سكوته يعني عدم الرضا على ما يقول، ويعني الرضا عما يقوله الآخرون. ثم إن طبيعته كثرثار، كانت تفتقر إلى سند من الصمت، وكلما طال الصمت فقدت الثرثرة ركيزتها، وبدت كلاماً أجوف لا يحمل على الاقناع، ويتطلّب مزيداً من الثرثرة التي تزيد بدورها في تجويف الكلام وإفقاده كل معقولية سابقة.

هكذا بدا المطعون في اتّهام الآخرين، مدافعاً عن تهمة موجّهة إليه، أو صارت موجّهة إليه، من صمت الشوباصي الذي لا معنى له إلا الإنصات إلى ما يقوله خصوم المطعون، هذا الذي سمع منه كلّ هذا الكلام الذي يردّده الآن، وفوقه تهويل بأنّ الدنيا خربت، وأنّ الزيتون صار نهباً، وأن كلّ شيء تعطّل، ولا يمكن إصلاح الأمور إلا بإنزال أشدّ العقاب بالعائلة التي تجاسر ربّها وانتزع فريسته منه.

قال المطعون:

- لست ابن البارحة. سنوات وأنا وكيل على البورة، وكل شيء كان يجري على ما يرام إلا في هذا العام فقط، عام الشؤم، الذي أراني وجوههم.

كان الوالد صامتاً. وزن نفسه فإذا هو من وزن الشوباصي لا الوكيل. كان راغباً عن الكلام إلا إذا تكلّم الشوباصي، أما إذا ظلّ المطعون يثرثر، فهذا من هذر الكلام، ولا بد للقربة أن تفرغ بعد قليل من الهواء، فيسود

الصمت المطلوب. قرّر في نفسه أن يفعلها ويخلص، تأسف، ربّما، لأنه لم يضرب المطعون من فوره، كانت، عندئذٍ، الشكاية تستحقّ، كان يجد، إذا طرد من البورة، سبباً وجيهاً للطرد، سبباً يجعل ابن الفاعلة هذا يندم على يوم رأى فيه وجهه حقيقة.

تابع المطعون كلامه:

- بدّور سرقت، نعم سرقت. رأيتها وضبطتها. كان الزيتون في عبّها وحول بطنها وبين رجليها، لنحسب أن ما سرقته ثلاثة كيلوات. اضرب ثلاثين في ثلاثة، تسعين كيلو في الشهر، وإذا كانت هذه الكمّيّة لا تفقر السادة، فإنها، إذا لم أحاسب عليها، تتضاعف.... بدّور تقول لغيرها، وغيرها يقول لغيره، وهكذا تبدأ الفلاّحات بالسرقة، وربما سرق الفلاّحون أيضاً. إن لهم شراويل واسعة. وللقنابيز جيوب كبيرة، وإذا ملأ كلّ فلاّح شرواله أو غنبازه، فإن الموسم يتبخر، وفي آخر الموسم يأتي السادة ويحاسبونني، يقولون: أين الموسم يا أبا نعمة؟ فبماذا أجيب؟ أقول لهم الكرم لم يكن حاملاً؟ هذه خدعة. أنا لست مستعداً لخداعهم، أنا لا أغشّ من ائتمني. ثم إن السادة لا يغشّون. يعرفون كلّ شيء. من نظرة واحدة على الزيتونة يعرفون ما تحمل، ومن جولة في الكرم يقدّرون الموسم. كلّ هذه الأمور واردة، وكلّها آخذها في حسابي.. أنا هنا الوكيل، وما معنى الوكيل؟ إنه صاحب الرزق في غياب الموكّلين، أنا هو، إذن، صاحب الرزق، في البورة أنا بيت «ف» وينبغي أن يعرف الجميع هذا.. أليس كذلك يا أبا اسكندر؟

قال أبو اسكندر:

– الوكيل مثل الأصيل، ما دام هذا غائباً.

– رحم الله أمواتك.. الوكيل يقوم مقام الأصيل، أتسمع يا مصري؟

قال والدي غير آبه:

– أسمع..

ــ إذا كنت تسمع فلا بدّ أن تعرف . .

قال والدي :

ــ وأعرف أيضاً . .

ــ إذا كنت تعرف فلماذا اعترضتني؟ لماذا تدخّلت لحماية بدّور؟

لم يجب الوالد، وتابع المطعون :

ــ أعرف لماذا تدّخلت . . أنا لا تفوتني واحدة . . أنت رجل . . هذه كلمة حقّ . . وأنت من إسكندرونة، وهناك الرجل شهم، وهذه كلمة حق أيضاً، وبسبب من شهامتك تدخّلت . . أفهم ذلك . . أنا نفسي، لو كنت مكانك، لتدخّلت . . أنا لا ألومك . .

قال الوالد:

ــ لماذا حردت إذن ولماذا تركت البورة وذهبت؟

قال المطعون :

ــ هه، هذا سؤال حلو . . السؤال الحلو يحتاج إلى جواب حلو . . أنا أجيبك . . خذ مني وأعطني . . . إبق معي، ابو اسكندر يسمع ويحكم . . الشوباصي، عدم المؤاخذة، محايد، نحن، جميعاً نحترمه . . لو شتمني ما رددت شتيمته . .

قال والدي :

ــ أبو اسكندر لا يشتم . . يسمع، ويقدر، ثم يحكم . .

ــ طيّب . . ها هو يسمع . . ماذا كنت أقول؟

لم يجبه أحد، فسكت لحظة، ثم صاح :

ــ تذكّرت . . كنت أقول إنّك شهم . .

قال الشوباصي :

ــ هذه سمعناها . .

ـ وكنت أقول إنّ من حقّ الرجل أن يتدخّل . .

قال الشوباصي :

ـ وهذه سمعناها أيضاً . .

تضايق المطعون، نسي ما كان يقول، لذلك صفن قليلاً، ثم انتفض وقد تذكّر، وصاح بوالدي :

ـ انت، يا مصري، تسألني لماذا تركت البورة، أليس كذلك؟ أقول لك : تركتها بسببك . . أنت، عدم المؤاخذة. إنسان يركب رأسه، أنت، كما عرفتك في هذه الأيام ، يدك والضربة . .

قاطعه الشوباصي وهو يكاد يضحك، ويضغط على نفسه كيلا يضحك، فيذهب الضحك بشيء من هيبته :

ـ أنت، يا مطعون، خفت من الضرب إذن؟ لماذا لم تقل لي ذلك من الأوّل؟

صاح المطعون وهو يركع أمام الشوباصي :

ـ يا أبا اسكندر، ورحمة الوالد . . .

قال الشوباصي :

ـ قل دون قسم . . أنا مصدِّقك . .

ـ ورحمة الوالد، أقول هذا ولا أرخّص . . أنا أعرف والدك . وأعرف معزّتك له، وأعرف أن هذا الشبل من ذاك الأسد . .

قاطعه الشوباصي :

ـ اختصر . . خَلّنا في المهمّ . .

ـ نعم، سأبقى في المهمّ . . أنا وسالم أخوان . . نحن، عدم المؤاخذة، عائلة واحدة، ومنذ وصولهم، طبخت زوجته مجدّرة وأكلنا . .

صاح به الشوباصي :

– ما علاقة المجدرة بما نحن فيه؟ أكمل. . قل ما عندك. .

– سأقول، سأقول، ولكن. . اللّهم ساعدني. . أين كنّا؟

لم يستطع الشوباصي منع نفسه من الابتسام، كانت ابتسامته مثل الشمس في شباط، وها هو، أخيراً، يبتسم، بل زاد على الابتسام فتبادل النظر مع والدي، وعندئذ عمد الاثنان إلى لفّ سيكارة، كأنما حلا التدخين في الجو الذي خلقه المطعون.

قال هذا:

– بدّور سرقت، هذا ما لا أشكّ فيه، وكنت أراقبها منذ أيام. .

قال والدي:

– ولماذا تراقبها؟ ثم لماذا، إذا جاءت البورة، تركت شغلك ولحقتها؟

– أنا؟ أعوذ بالله ، كلّ شيء ولا هذا. . يمكن أن تتّهمني بأيّة تهمة، حتى يمكن أن تمون عليّ، وأن تشتم والدي، بل أذهب أبعد من ذلك وقل عني أكولا، أحبّ الطعام الطيّب، أحبّ الطيّبات، أما النساء، عدم المؤاخذة، أنا حافظت طول حياتي على الوصايا العشر. .

– الذي يحافظ على الوصايا لا يغش في القبّان، لا يجعل السبعة كيلوات عشرة لبدور. . الوصايا قالت لا تسرق، لا تزن، والشوباصي أوصاك أن يكون قبّانك مثل الشعرة، ثم بيت «ف» لو علموا بما تفعل. . أنا لن أنقل لهم ما أراه على كلّ حال. .

كان والدي يتكلّم جادّاً. مسح عن وجهه كلّ تعبير يفيد أنه يسخر من المطعون، وجاراه الشوباصي وهو يكتم ضحكه. ولأول مرة، منذ قدومنا، لاحظ أن المطعون به خفّة، وأن جبنه يحمله على التحوّل من متّهِم إلى متّهَم، وأن والدي اكتشف ذلك وراح يحاصره بالاتهامات، حتى نسي كل شيء، وكلّ ما كان قد أعدّه من كلام، وشرع يقسم أنه لم يسرق ولم يزن، حتى قال له الشوباصي:

– أنا لا أحاسبك.. دع المصري يقل ما يريد.. إنما أنت مطالب بالجواب على سؤال محدد: لماذا تركت البورة وعطّلت العمل؟

– وكيف أعمل إذا كانت بدّور سرقت وسليم منعني من إثبات سرقتها؟

– سليم هو الناطور وهو المسؤول عن السرقة.

– – وأنا؟ ماذا أنا؟ ألست الوكيل؟ تشطبون صلاحياتي بجرّة قلم؟ أخشى أن يكون قلبك تحوّل يا أبا أسكندر! موقفك اليوم، عدم المؤاخذة، ليس إلى جانبي..

– أنا مع الحق.

– وأين هو الحقّ؟ من المعتدي؟ من الذي حمى بدّور وأخذها إلى بيتها؟ ثم من الذي، أمس، وقف إلى جانب الفلاح صخر؟

– كل هذا صحيح، وكان عليك أن تُعلمني به.. أقول تعلمني به ولا أقول تترك البورة وتوقف العمل وتذهب إلى اللاذقية.

– العمل لم يتعطّل والحمد لله. كنت أعرف أن هناك من يقوم به.. ورغم أن القيام بهذا العمل تدخّل في شؤوني، فإنني أتنازل عن هذا الخطأ.. أعطني الورقة (وأشار لي) أعطنيها لأرى الأرقام.. مجرّد رؤية الأرقام يكفي، هذه شغلتي. خمس سنوات من عمري.. دهر، دهر كامل، ثم ماذا؟ يأتي المصري وعائلته..

قاطعه والدي:

– احفظ لسانك يا مطعون.. لا تورد اسم عائلتي على لسانك.. أنت تعرف، وأبو اسكندر يعرف (قالها وغمز أبا اسكندر) أنك عطّلت العمل، وأسأت إلى بدّور أخلاقياً بطلبك تفتيشها.

قاطعه:

– لم يفتّشها أحد، زوجتك رفضت، وكذلك ابنتك.. يكفي الرفض.. أنا ما كنت قادراً على تفتيشها بنفسي، أو على تكليفك بذلك.. وكان

الأمر سينتهي لو لم تتدخل.. تدخُلك أفسد خطّتي.. كنت أريد تخويف بدّور والفلّاحين، هذه هي الخطّة.. على الوكيل أن يكون مرهوباً، تماماً مثل الشوباصي، وكيف أكون مرهوباً يا عيني؟ قل أنت يا مصري.. ضع نفسك مكاني، كيف تكون مرهوباً وسط هذا الكرم المخيف؟

— تفتيش النساء، وجعلهنّ، أمام الرجال، يخلعن ثيابهن، عمل غير لائق.

صاح المطعون:

— أمام الرجال؟ خف الله.. من الذي طلب تفتيش بدّور أمام الرجال؟ كلّ شيء ولا هذا، هذه تهمة خطيرة، تهمة أخلاقية.. أنت تتّهمني بأخلاقي، وقبل ذلك اتّهمتني بذمّتي، ماذا بقي؟ ها هو الشوباصي، وهو يعرف أخلاقي، يعرف ذمّتي، يعرف تقواي..

قال الشوباصي:

— هذه لا أعرفها.. تقواك هذه لا أعرفها.. الرجل التقيّ يصوم ويصلّي ولا يشرب العرق..

قال والدي:

— ولا يلاحق بدّور...

— وماذا في قليل من العرق؟ المسيح نفسه شرب قليلاً.. من فعل العجيبة في عرس قانا الجليل؟ والمصري يشرب أيضاً، هو الذي يأتي بالعرق..

قال الشوباصي:

— ومن أين يأتي به؟

قال الوالد:

— كل مساء يعطيني المطعون كيساً من الزيتون، ويطلب مني أن أجلب بثمنه عرقاً.. أنا فعلت، أطعته، جلبت العرق، ومستعدّ لتحمل

العقوبة، شرط أن تعاقبوا المطعون أيضاً. هنا، على البورة، هو رئيس، وأنا عبد مأمور.. كان يأمرني فأنفّذ، يقول لي خذ هذا الكيس وهات لنا به عرقاً، فأحمل الكيس إلى الضيعة وأبادله بالعرق..

قال الشوباصي:

– هه.. هذه سرقة موصوفة ما كنت أعلم بها.. توقّف، إذن، يا مطعون عن الوزن، وأنت يا مصري عن النطارة، وسأعيّن من يقوم بعملكما إلى أن تظهر نتيجة التحقيق...

صعق المطعون. لم يكن يتوقّع هذه المفاجأة، والدي اتّهم نفسه بالسرقة، واتهم المطعون معه، بل جعله المسؤول الأوّل والمباشر.. معنى هذا ضياع كل شيء، ومعناه التعذيب والسجن، ولن ينجو إلا بأن يغيّر الوالد أقواله. بيده أن يجرّمه أو يبرئه.. وبيد الشوباصي أن يأخذ القضيّة كمزحة أو يقلبها إلى جدّ.. وبدا الشوباصي جادّاً حتى خفت أنا نفسي أن يذهب والدي ضحيّة مزحته. ضربت الوالدة يدها على خدّها وقالت متمتمة «يا ويلاه، كنّا في مصيبة وأصبحنا في مصيبة، لماذا يمزح أبوك هذه المزحة الثقيلة؟» وقالت الأخت: «يستحق المطعون، أنا لم أكن أعرف أن والدي قادر أن يخيفه على هذا النحو» وقلت في نفسي: «إذا كان المطعون يمثل فإنّه سيحفظها لوالدي، هو يعرف أن الشوباصي لن يصدّق، وغداً أو بعده يدبّر للوالد مقلباً يؤدّي به إلى الهلاك».

غير أن المطعون، في حركة تضرُّعية بائسة، اندفع نحو الشوباصي محاولاً تقبيل يده:

– أنا يا أبا اسكندر داخل عليك، سليم هذا يفتري علي نفسه وعليّ، بل هو يفتري علي لأنني إنسان بحاله، بذاته، لم يسبق له أن عرف المشاكل من أيّ نوع، ولم يُتهم أو يدخل باب محكمة، ظننت أنني أؤدّي خدمة حين طلبت تفتيش بدّور، وكنت مقتنعاً، نعم كنت مقتنعاً، أنها سارقة، فإنّ إظهار الكشرة في وجوههم ضروريّ، إذا ضحكت أمام الفلاح

أطمعته. الفلّاح يظهر المسكنة، الدروشة، يتملّق، يداهن، لكنّه خبيث يريد خداعك، وهو لا يؤمن بما يقول، ويحسب أنه يضحك عليك، الفلّاح الذي قصرت يده طال لسانه، وهو ثعلب، وفي سرّه لا يعترف بقيمة ولا بخلق، وليس له صاحب، أنت أدرى بهذا الجنس، وأنت معي أن التكشير في وجوههم، بقصد إرهابهم، بقصد وقفهم عند حدّهم، كيلا يتمادوا، أو يفلتوا، أو يظنّوا بك ضعفاً، واجب من حين لآخر، وأنت سيّد العارفين بهذه الأمور، وما نحن إلّا كأولادك، نسير على هديك، ونحاول تطبيق ما تعلّمناه منك.

كنّا، خلال حديث المطعون، نتبادل النظرات، أختي وأنا. كان يهرّج ولا شكّ؛ وكلّ هذه الصفات التي قالها عن الفلّاح تنطبق عليه شخصياً. لم يكن إلّا ثعلباً، تماوت عندما رأى الصياد. إنّه قمين بأن يركع، إذا تطلّب الموقع أن يركع، وأن يبكي إذا اقتضت الحال البكاء، والشوباصي يعرف كل ذلك، إلا أنه الآن يستمع، يستمتع بهذه المسرحية، ويفكّر بالطريقة التي «يؤدّب» بها الاثنين، والدي والمطعون، دون إثارة أيّما ضجة، ودون أن يسمح بأن يقال إنه ظلم عائلة مهاجرة من اللواء، لجأت من فقرها إلى نطارة الزيتون وجمعه في قرية «ح».

قال الشوباصي:

- ما جرى أمس كان سيّئاً جداً. خدمت عند بيت «ف» منذ شبابي، وخدم والدي قبلي، ولم يحدث معنا أن وقعنا في مشاكل سخيفة مثل هذه. أنا لا أتّهم أبا نعمة، لا أريد أن أشكّ بذمّته وأخلاقه، لكنّني لا أستطيع أيضاً أن أسدّ أذني بقطن. مسألة تفتيش بدّور ملكانت في محلّها. تستطيع، إذا أرادت السرقة، أن تذهب خلال النهار، وتضع الزيتون المسروق في أيّ دغل، وتعود مساء لأخذه. وعلى فرض أنّها سرقت، وأنك شككت بها، فالذي كان يجب هو مراقبتها لا تفتيشها. هل نحن جمارك؟ هل يعقل أن نقوم بوظائف الدرك؟ وماذا يقول الفلّاحون إذا سمعوا غداً أنك طلبت تعرية فلّاحة شابة في عزّ النهار؟

صاح المطعون:

– أنا لم أطلب تعريتها والله.. المصري يتّهمني زوراً، ما أردته هو تفتيشها في الخيمة فقط..

قاطعه الشوباصي:

– اسكت.. سمعت لك طويلاً.. وجاء دوري للكلام.. أنا مصدّق أنك لم تطلب تعريتها، لكن الفلاّحين سيقولون هذا غداً، فمن المسؤول؟

– في هذه معك حقّ، الكلام يتبدّل، يكبر.. ما كان يجب، مهما يكن حرصي، أن أطلب تفتيش بدّور.. سأقتصر، بعد الآن، على تفتيش الرجال..

– ولا هذه..

ردّد المطعون:

– ولا هذه أيضاً!

– أمّا مسألة ترك الشغل، وقت الزحمة، عند وزن ما جمعه الناس، وترك البورة، وتحميل الجمال، وتعريض الزيتون كلّه للتلف فهذه أمور مؤسفة، لا أدري ماذا أقول فيها..

– إذا كان هذا كلّه خطأ، فهذا خطأ المصري.. لم أترك البورة إلّا بسببه، هو الذي تسبّب، حمى بدّور، وأخذها إلى البيت، والله يعلم ماذا أيضاً. أنا لا أتّهم، لا أضع أحداً في ذمّتي. إنما يمكن، في الطريق، في البيت، وزوجها غائب.. المسيح قال للفريسيين: «لماذا تريدون إدخالي في التجربة؟» الانفراد بالمرأة غواية، الشيطان لم يمت، ومن يدري.. المصري وضع نفسه في التجربة، اعتدى عليّ، ولن أسكت، وقد أبلغت بيت «ف»، وهذا هو سبب نزولي إلى اللاذقية.. غداً صباحاً يأتي الدرك، ويعرفون شغلهم..

أربدّ وجه الشوباصي، فعلة المطعون خروج على إرادته المقرّرة. إنه المسؤول عن قرية «ح». . بيت «ف» أنفسهم إذا أرادوا البتّ في أمر يتعلّق بأملاكهم، يعودون اليه، يستشيرونه، وغالباً يأخذون برأيه. هيبة بيت «ف» ما كانت لولا هيبته هو، كلّ الشوابصة في ريف اللاذقية يستمدّون هيبتهم، نفوذهم، سلطتهم، من أسيادهم، أما هو، فلا يستمدّ شيئاً إلا من ذاته. إذا قلت «أبو اسكندر» قلت علماً. هو الجبل والنار، هو، بغياب الأسياد، السيّد، هو الآمر الناهي، وقد توارث هذه السلطة أباً عن جد، وزاد فيها بما يعزّزها ويجعلها أشبه بالنطق الذي لا اعتراض عليه. كان على المطعون أن يعرف هذا، بل هو يعرفه، ومعنى تجاهله يحمل استخفافاً به، استخفافاً بحكمه في المملكة الممتدّة على مسافات لا حدّ لها، وقرى ما تنفكّ تتّسع وتتكاثر، وقد أصبح من حقه، لو كان هناك حقّ بالملكية لأمثاله، أن تكون له أكثر من قرية، وأن يكون سيّداً بحكم الواقع، وقوّة الفعل، وسطوة النفوذ التي بها، وعن طريقها، تملّك بيت «ف» كل هذه الأراضي والكروم. لقد تخطّاه المطعون. كان الشوباصي غير مكترث بما سيحل بالفلّاحة بدّور، وأقلّ اكتراثاً بما سينزل بوالدي، لكنه لن يتسامح بما يلحق بهيبته في دائرة هو كلّ شيء فيها، لذلك راز المطعون بنظرات معبّرة عن كره. نظرات لا تحمل الحقد الذي لا يستحقّه، بل الكره الذي هو أشبه بالاحتقار، وظلّ صامتاً، رهيباً، مخيفاً، حتى تضعضع المطعون وهبط قلبه إلى أسفل أحشائه. عندئذ باغته بصوت راعد، كأنما هو زأرة أسد:

ــ أنت تتحدّاني إذن يا مطعون؟

ناح المطعون بصوت يقطر استعطافاً:

ــ معاذ الله يا أبا اسكندر. أنا، عدم المؤاخذة، لم أتحدّك، ولا فكّرت بذلك. . كيف يخطر على بالي ما تقول؟ لو كنت على البورة أبن البارحة، كان يمكن، عدم المؤاخذة، أن أرتكب هذا الخطأ. أما وأنا في عملي منذ سنوات، وأعرفك، وأسمع بك قبل معرفتك، وأكنّ لك الاحترام، والمحبّة، وأعيش في البورة برعايتك، وأحتمي بحمايتك، فإنّ الأمر

كلّه، عدم المؤاخذة، هو اجتهاد. . نعم اجتهاد. . اجتهدت فأخطأت. قلت في نفسي: «اذهب إلى الأسياد يا مطعون. . الحق الحديدة وهي حامية. . المصري تمرّد عليّ، وعلى الشوباصي، وتصرّف تصرّفاً يقع تحت مسؤولية القانون. .».

صاح به الشوباصي:

ـ أيّ قانون وأيّ بلّوط هذا؟ منعك من تفتيش امرأة؟ بأيّ حق تفتّش امرأة؟ من الذي أمرك بهذا؟

ـ اجتهاد. . مجرّد اجتهاد. .

ـ اللعنة على اجتهادك إذن. .

قالها ونهض. كان يخفي، تحت جلده، رعدة غضب. لم يفارقه هدوؤه، لكن ماذا يعني الهدوء بالنسبة لرجل تمرّس به، حتى صار سجيّة له؟ إنه بهدوء يمشي، ويتكلّم، ويضرب، ويقتل. بهدوء يرعد كعاصفة، ويكون الصمت نذيرها، وبهدوء يحكم كلّ هؤلاء الفلاّحين، ويعتصرهم كليمونة، ثم يضرب من يشاء، ويطرد من يشاء، ويتحكّم بهم وبنسائهم، وكثيراً ما ارتمى فلاّح أو فلاّحة على قدميه خوفاً وتذلُّلاً، استرحاماً واستغفاراً عن ذنب لم يرتكبه أيٌّ منهما، لكن الشوباصي وجده ذنباً، وعاقب عليه ردعاً وإرهاباً.

مضى دون وداع، دون كلمة، دون نأمة. مضى متماسكاً كما أقبل، وغاب بين الزيتون، عصاه في يده، والبندقية في كتفه، والطربوش المعصوب على رأسه، تاركاً وراءه صمتاً كثيفاً، الأمر الذي أرمضني وأحزنني معاً. لقد كان مشهداً غاية في الطرافة وغاية في القسوة: طرافة المطعون، وقسوة الشوباصي. وفي الوقت الذي ارتاحت فيه والدتي، لأن هذا الأخير لم يوجِّه أيّة كلمة تأنيب لوالدي، فإنّ ما نمّت عليه هيئته من قسوة، جعلني أتصوّر حياة الفلاح المسكين تحت سلطة وكيل كهذا، قادر، في كل لحظة، أن يمتهن كرامته وينتهك حرمته، ويفتك بجسده، بعد أن أرغمه على عمل مبهظ، ناء تحته نهاره كله، ثم لم يجد، ليلاً، ما يقتات به مع زوجه وأولاده

الذين يعملون بدورهم، ويتخبّطون في شقاء موصول، ينزل بهم كقدر حياتهم كلها.

ودون ارادة مني ثرت في داخلي ، كانت الثورة الداخلية هي كل ما أستطيعه ، كانت ثورة مكبوتة، محبطة، تحزّ في صدري كمدية، لكنها كانت عزائي على ما ألقاه أنا وعائلتي من شقاء هنا وهناك، في المدينة والريف على السواء.

- ٨ -

في الصباح جاء دركيّان من اللاذقية. كانت مهمّتهما محدّدة: القبض على بدّور والوالد، بتهمة السرقة والممانعة في القبض على السارقة. ولم تكن معهما مذكّرة توقيف أو جلب. هذه شكليّات قضائية يجري تجاوزها إذا ما كان الملّاكون العقاريون وراء الشكوى. المطعون ذهب أمس إلى بيت «ف» وأبلغهم أن بدّور سرقت، وأن سالم الناطور رفض تفتيشها وحماها. وقام السيد «د» بالاتصال هاتفياً بقائد الدرك، وكفى ذلك لتسيير الدورية التي وصلت إلينا في الضحى.

كان مجرّد وصولها مخيفاً، حتى أن الفلّاحين اللذين يعملان على البورة تواريا عن الأنظار، وطلبا من الوالد أن يختفي فرفض. كان مدينياً لا يخشى الدرك، هؤلاء الذين يرعبون الريف. وقد مثل أمام الدركيين والسيكارة في فمه، وأجاب على أسئلتهما بجسارته المعهودة. وحين أبلغاه أنه متّهم بحماية بدّور التي سرقت الزيتون أجابهما أن التهمة لا أساس لها، وأنها مجرّد فرية تقوم على وهم، وأن الخبريّة كلها ملفّقة، لأن المطعون أراد تفتيشها هي المرأة الفلّاحة، أمام الرجال، فرفضت، وكان لا بدّ من التدخّل لمنع تعريتها التي قد تتسبّب في حادث على البورة، وأنّه فعل ذلك بحكم مسؤوليته كناطور.

قال كلّ ذلك وهو غير مبالٍ. وفي نقطة لامبالاته هذه كانت تتركّز

شجاعته. كان في ذاته يعرف أن الدرك لن يصدّقوه، وأنهم لو صدّقوا فلن يقفوا إلى جانبه، ولا بدّ، بعد أن جاءوا، أن يقبضوا عليه ويسوقوه إلى اللاذقية، وهناك يجرون تحقيقاً قاسياً معه، لا ينفع في درء تعذيبه، طلب الرحمة أو الشفقة، وفي رفعه، التضرُّع أو الصراخ.

أمام واقع معروف كهذا، كان صدره ينطوي على سؤال مريح: «ماذا بعد؟» وفي الجواب عليه قال في ذاته: «ليكن ما يكون». قالها دفعة واحدة، في تحدّيه الشجاع، وذهب إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه، وهو الموت، وهذا نهاية كل حيّ.

على هذا النحو حسم المسألة. حسمتها شجاعته. سألت وأجابت. مزّقت رداء الخوف الأسحم. باعت الآخرة بالدنيا، حين أدرك أن الحياة تجيش بالتجارب، وهو منذ ولد يمرّ بتجارب ظالمة، فلتكن هذه في عدادها.

إنني أحلّل نفسيته في ذلك الموقف. أحاول أن أفسّر لامبالاته، إستهانته بالشدّة، أسعى لمعرفة سرّ ذلك كلّه. أما هو، في الوضع الذي اتّخذه، فربّما استغنى عن كلّ حوارٍ داخليّ، ما كان يحتاجه أصلاً، ما دامت أعصابه القوية كفته مؤونته.

لقد وقف إلى جانب بدّور، وسواء كان ذلك خطأ أو صواباً، فإنّه وقف وانتهى الأمر. لا فائدة من الندم، وبعيد عن تفكيره الرعب، وإذن فإن المواجهة، على هذا النحو، خير ما يفعله، وقد فعله، دونما تردّد.

الدركيّان لم يقتنعا طبعاً. كانا مجرّد أداتين تنفيذيّتين لا تقدّم قناعتها ولا تؤخّر. كانا بندقيّتين في يد السلطة. كانا سوطين بيد قائد المخفر، وكانت البندقية والسوط في خدمة الأسياد، ولم يكن لهؤلاء من عمل سوى استغلال الفلاحين، فإذا بدرت شارة رفض، تمرّد، عصيان، استعانوا بالسلطة الجاهزة للقمع والتنكيل، ولهذا فإن الفلاحين كانوا يسمّون الدركي بـ «الخيّال»، وكان مجرّد ظهوره يبثّ الرعب فيهم، ونزوله في القرية كان كافياً لأن تضطرب خوفاً، لمعرفتها أن هؤلاء الخيّالة يهاجمون بيوت

المطلوبين، مخرّبين كل ما فيها، ناثرين مؤونة الفلاحين من ذرة وشعير وحنطة، خالطين بعضها ببعض، ضاربين الرجال والنساء والأطفال، فارضين الإتاوة، طالبين العلف لخيولهم، والدجاج والبيض لأنفسهم، منكّلين تنكيلاً رهيباً بالقرية، مستخدمين المختار الألعوبة ستارة لتنفيذ مآربهم.

إذن كان الوالد يعرف من هم هؤلاء الدرك. وخلال الحوار القصير لم تندّ عنه كلمة استعطاف. بل إن أجوبته الجافّة كانت متحدّية، حتى قال له أحدهما:

- يبدو أنك غير خائف؟
- ولماذا أخاف؟
- الا تستحي؟
- وهل أعرّص حتى أستحي؟
- الا تعرف ملك من هذا؟
- أعرف..
- ولا تبالي؟
- وماذا فعلت حتى أبالي؟.. قلت لكم الحقيقة ويدكم وما تطول..
- في المخفر ستعرف أن الله حق..
- عرفت أنّه حق في المخفر وخارجه..
- اخرس!.

سكت الوالد. بينما قال المطعون الذي كان يحاول إجلاس الدركيين:
- يا مصري لا تأخذ وتعط، أنا، عدم المؤاخذة، تربّيت بين الدرك، لكنني أكنّ لهم الاحترام الكامل. ثم من هو الدركيّ؟

قاطعه الوالد:
- قل هذا لنفسك.
- قلتها، أي نعم، قلتها. الدركي ابن حكومة، والحكومة على الرأس

والعين، الحكم ملح الأرض، والمسيح، عدم المؤاخذة، قال: «إذا فسد الملح». . .

صاح الدركي:

ـ الحكومة ملح لا يفسد. .

ـ رحم الله أباك. . كنت سأقول ذلك. . إذا فسد الملح. .

وصاح الدركي الثاني:

ـ قلنا ملح الحكومة لا يفسد، العمى تشتم الحكومة أمامنا؟

ـ أنا أضرب مثلاً. .

ـ لا وقت لدينا للأمثال. . أنت الذي تقدّمت بالشكوى؟

ـ معاذ الله. . هذا أخي، وبدّور أختي. . جرى بيننا سوء تفاهم بسيط، وخفت أن يتوقّف العمل، فما كان مني إلاّ أن أبلغت بيت «ف» بالحكاية. . قلت لهم كذا وكذا. . أفهمتهم أن المسألة بحكم المنتهية. . قلت لهم، عدم المؤاخذة، أنا أنهيها، وقد أنهيتها منذ عودتي. . أنا هنا الوكيل، والوكيل، عدم المؤاخذة، ينوب عن الأصيل، وتكفي كلمة مني لتعود الأمور إلى مجاريها، وقد عادت والحمد لله، نحن، كما ترون، مثل السمن والعسل. . و. .

قاطعه الدركي:

ـ يعني تسحب شكواك؟

ـ قلت لكم لم أشتك. .

قال أحد الدركيين لرفيقه:

ـ الشكوى من الخواجه بالذات، وهي حامية، تحرق مثل الزيت، والله يستر. .

قال المطعون:

ـ نعم، الله يستر. . إذا كانت الشكوى من الخواجه بالذات فتصرّفوا، أرجوكم، قوموا بوظيفتكم دون اعتراض من أحد. . أليس كذلك يا مصري؟ سلّم أمرك. . اذهب مع الدرك دون مقاومة. . .

قال الوالد بنبرة حادّة:

– وهل تراني أقاوم؟

– أنت لا تقاوم، لكن لسانك سليط، هذا اللسان، عدم المؤاخذة، سيؤدي بك إلى داهية.. الأفندية (يقصد رجال الدرك) سيأخذون إفادتك في المخفر.. في هذه الحال، وتجنّباً للشرّ، وكي تسير الأمور في مجاريها، اعترف، قل نعم، لا تخالف، وفي الأخير ابصم.. إبهامك جاهز، وأنت، عدم المؤاخذة، لا تقرأ ولا تكتب، وما عليك إلا البصم، ابصم على الإفادة وينتهي الأمر.

وجدت، في هذه اللحظة، أن من المناسب التنبيه إلى أمر، قلت:

– والدي لن يبصم على شيء.. يقول ما عنده، وبعدئذ يقرأون عليه الإفادة.

قال أحد الدركيين ساخراً:

– في هذه الحال تفضل بُصّ أنت عنه..

وقال الدركي الثاني:

– نأخذ الاثنين بالمرّة.. الأب والابن..

قالت أختي:

– الأفضل أن تأخذوا العائلة كلها.. ما رأيكم إذا أخذتم العائلة كلّها من أجل وشاية كاذبة؟

– في المخفر سنعرف إذا كانت الاخبارية صحيحة أم كاذبة.

– كاذبة.. المطعون هو الذي افتعل المشكلة.. افتعلها وركض إلى اللاذقية يبلغ عنّا، الأولى أن تأخذوه هو، أو أن تأخذوه مع الوالد، ومن المواجهة بين الاثنين تظهر الحقيقة..

قال الدركي الثاني:

– اسكتي يا بنت.. حين يتكلّم الرجال تسكت النساء..

قال المطعون:

– أعوذ بالله من هكذا نساء.. هذه التي ترونها تنزل الخيّال عن ظهر

حصانه. . تتدخّل في كل قضيّة، لسانها أمرّ من لسان والدها. . قال يا سيّدي عائلة من المدينة، ولأنها من المدينة فإنها لا تخاف، وزيادة على ذلك فإنها عائلة من اللواء، من إسكندرونة، وهناك، عدم المؤاخذة، لا يهابون الدرك ولا الحكومة. .

قال الوالد:

ـ وماذا فعلنا حتى نهاب الدرك والحكومة؟

قال الدركي الأوّل ساخراً:

ـ إذن تفضل إلى اللاذقية، وهناك، في التحقيق، نعرف إذا كنت تهاب أم لا. .

قالها ونهض. بدا مستثاراً، رأيت شرّاً في عينيه، ولو كان هناك فلّاحون لضُرب الوالد أمامهم، وربما، أمام الوالدة والأختين، وأمامي أنا ابن المدرسة. لم يستنسب ضرب الوالد، لكنه، كما ظهر من تهديده، يضمر سوءاً، وهذا ما أقلقني. نظرت إلى الوالد فلم أجد أثراً للخوف على وجهه، ظلّ، كعادته، لامبالياً، ومع معرفته أنهم يقودونه إلى السجن، كان يتصرّف، حركة وكلاماً، كأنهم يقودونه إلى كرم آخر من كروم الزيتون، وحين اعتلى الدركيّان حصانيهما، سار الوالد أمامهما، طليق اليدين، بخطا ثابتة، واتّجهوا جنوباً، بين أشجار الزيتون، قاصدين قرية الفلّاحة بدّور، للقبض عليها وسوقها مع الوالد إلى السجن.

وقفت على طرف الكرم أتابع الوالد وهو يمضي أمام الدركيين، أحسست بغصّة قهر في صدري. لم يكن للغصّة لون أو سابقة. كانت غصّة قهر أشاعت المرارة في فمي، جفّ الحلق وغامت الرؤية، تحت سماء سديميّة، تقطر ضوءاً رمادياً مال، أكثر فأكثر، إلى السواد، كان الضوء إبَراً شوكيّة تخز عينيّ اللتين تجمّدتا على المشهد المتباعد، المترامي، المشهد الذي أنا فريسته لا الوالد السائر على قدميه أمام فرسين يتراقصان، في خبب بطر، تحت الدركيّين اللّذين ينفّذان مهمّة قمعيّة بحقّ إنسانين بريئين، ويشعران بالراحة لأنهما نفّذاها على هذا النحو السهل، الخالي من التعقيد.

كانت البندقيّة في الكتف، والكرباج في اليد، وحجر تحت الجلد، والعينان تخترقان ظهر الوالد المستور بقميص من شيت رخيص. لقد أحال الوضع الاجتماعي كلاً منهما إلى أداة ضاربة لسلطة غاشمة، لا تفهم، أو لا تريد أن تفهم، وربما استغنت عن الفهم منذ زمن بعيد، أنّ الفلاّحين والعمال والفقراء بشر يمضغون حقدهم منذ زمن بعيد أيضاً. كان الأسياد لا يقلقون مجرّد قلق على المستقبل. قناعتهم هي أن الأشياء هكذا كانت وهكذا ستدوم. إنهم الأقوياء بالملك والمال والمكانة. وهم رأس الهرم والآمرون فيه على قاعدة عريضة من الجماهير التي يجب أن تكون في خدمتهم، وإلاّ ترفع الصوت في وجوههم، فإذا أنّت من شكاة فإن سلطتهم تتحوّل فوراً إلى عنف، يترجمونه بالرصاصة والسوط في صدور وظهور الناس، ويكفي طلب منهم حتى يُروّض الفلاّحون ليصبحوا أكثر طاعة، وانسحاقاً، أو ليصبحوا، كحال الوالد وبدّور، في هذا السوْق الاعتسافي لمجرد وشاية كاذبة.

ما أصعب أن يساق الوالد أو يُهان أو يُضرب أو يُقتل أمام أبنائه لوشاية كاذبة. إنّ الغصّة التي يحسّها هؤلاء الأبناء تجمّد الدمع نفسه في مآقيهم. يقفون في حالة عجز أمام الظلم الذي يرونه ينزل بهم دون أن يعرفوا مصدره. تبكي القلوب في الصدور، تنزّ المرارة من ضلوع انطوت على حرقة. ينتقع لحم الأحشاء في ماء فضّة حارق. تختزن النفس الموءودة نقمتها في رمال تفرزها الغدد في الجسم كله.

ذلك الصباح عرفت تلك الغصّة، المرارة، الانكواء. انزرعت في مكاني شاهداً على ظلم اجتماعي ينوء الفلاّحون تحته، وبرغم عجزي، فقد نبتت مخارز على رؤوس أصابعي، وتساءلت في ذات نفسي: «ماذا فعل هذا الرجل وما فعلت هذه المرأة؟ ما ذنب هذين المخلوقين اللّذين يسعيان وراء اللقمة؟ لماذا ينبغي أن يكون للعدل الأعور ضحايا في كلّ مكان؟ بأيّ حق يقاد والدي وبدّور إلى السجن؟ لقد دافعا عن نفسيهما ضدّ تهمة كاذبة. بدّور لم تسرق، لكن الوكيل افترض أنّها سارقة. تحرّش بها لأنه يريدها، أو

لأنه يريد أن يقول لأسياده إنه ساهر، ومن دلائل سهره أنه قبض عليها. والوالد وقف إلى جانب المرأة. قال إنها غير سارقة، قال إنها فلاّحة، وليس من الحق أن يتّهم الفلاّح بالسرقة لمجرد أنه فلاّح. وحين أمر المطعون بتفتيشها حماها، قادها إلى بيت حيث ينتظرها أطفالها، كان شهماً في عالم نذل، والعالم النذل لا يتّسع للشهامة، يضيق بها، يضطر صاحبها إلى دفع الثمن، ووالدي يدفع الثمن، وقد يتحمّله، بل من المؤكد أنه يتحمّله، فكلّ رجل وكلّ امرأة، في دنيا الإقطاع هذه، تحمّل وتحمّلتْ العسف والجور، حتى أصبحا ممزوجين بلقمة الخبز وشربة الماء».

خجلت من نفسي، أقسى عقوبة ذاتية أن يخجل المرء من نفسه. يشعر، في هذه الحال، أنه مُذَلّ، مهان، وأن ما ينبغي أن يكون، قد صار كما لا ينبغي، وأنه عجز أمام وضع إنساني، فأصبحت إنسانيّته متّهمة بضعفها، وليس عليه، بعد، إلاّ أن يبلع الإهانة، ويضع يديه على عينيه متّقياً حتى النور الذي شهد انتهاك كرامته. وفي حال كهذه يستشعر اليأس إذا دخل قوقعة فرديّته، إذا وقف إنساناً أمام إقطاع، إذا كان واحداً أمام كلّ، أمّا إذا ربط نفسه بالآخرين، وتعدّى دائرة الفرد إلى الجماعة، وصاغ من الواحد كلاّ، فإنّه يغدو قبيلة، كتلة، شعبياً، وعندئذ لا ينسحب إلى وكر، كما زاحفة خائفة، بل يدفع صدره إلى أمام متحدّياً، شاعراً أنه لا يخوض صراعه رقماً، وأنّ ثمة، من حواليه، من هم مثله، وبهم يتقوّى.

ولقد حماني شعور الجماعة هذا من التردّي إلى هاوية الأفاعي. جسدي لم يذبح منه العنق بمدية اليأس. وإذا كانت هذه الجماعة بعيدة، في إسكندرونة، فثمّة، حتى في اللاذقية نفسها، جماعة كائنة، أو ستكون، وعليها، ومعها، ينبغي الوقوف. إنني لا أطلب مغفرة. لا أنشد مطهراً. لا أسعى إلى عزاء، لذلك بقيت عيناي مفتوحتين مثبتتين على النقطة التي غاب فيها والدي. لقد راح، لكنه سيرجع. مدية بيت «ف» لن تبلغ أن تذبحه كطير مهيض الجناحين. . فوق الضعة هو، وفوق الاستكانة، وحين، يوماً، سيُطلق سراحه سيتعلّم أن يكافح ضدّ الظلم بقدر أكبر من الصلابة، ولن

أبقى، أنا نفسي، محمياً به. عليّ، بعد الآن، أن أجد حمايتي الخاصّة، أن أعرف حقّي، وأحصل عليه، وأدافع عنه، وغيبته عنا لن يكون لها أن تقصم ظهورنا. سنظلّ حيث نحن، وسنواصل، إذا سمح لنا، جمع الزيتون، ومنذ الليلة سأنوب في الحراسة، وسأغدو ناطوراً على البورة، وعلى هذا النحو فقط نستعصي على الانكسار من الداخل، ونحول بيننا وبين أن يغتالنا الهمّ، وتقعدنا الحسرة على ما جرى.

هذه الأفكار شدّدت من عزمي، ما وعيته من أفكار في مدينتي البعيدة كان كنزاً في داخلي. لن أحتاج إلى التنقيب في هذا الداخل بحثاً عنه، إنه، ما إن تنطفىء الشمس، حتى ينقدح لذاته شمساً من الأمل في حياة أخرى ألطف، أعذب، أفضل، وهذا ما جرى اليوم. أختي بخلافي، تظلّ شمسها مشرقة. كلانا نبحث عن شمس، أنا أطلعها من داخلي، وهي تقبض عليها من خارجها، والنتيجة واحدة، كلانا له شمسه، وستصير للناس شموسهم، ولن تكون ظلمة عندئذ، فالجراح ستشعّ نوراً أرجوانياً، ومن هذه الجراح سيتضوّع عطر يفعم الجوّ برائحة ورديّة، وعلى ذلك ينبغي اطّراح الحزن.

«أيها الوالد الذاهب إلى السجن، أنا لن أحزن عليك. ما أتيت فعلاً يُحزن له. كنت شريفاً في وقفتك وكلامك وانتصاب قامتك وأنت تمضي مع الدرك إلى حيث التحقيق. أنت تعرف ألّا تحقيق، لأنهم ما جاءوا لأجله، بل أوعز إليهم أن يسوقوك إلى التعذيب، وأن يطرحوك في السجن، حتى تصير مطواعاً للسيّد ووكيله، فلا ترفع الصوت ضد الباطل مهما يكن جائراً».

كبر والدي في نظري. سألت الله أن يظلّ هكذا، وألّا يسكر بعد اليوم، حتى أظل أكبره وأحبّه. لكن والدي لم يكن يفكر في شيء مما أفكر به أنا. . . إنه، ببساطة، لا يحتمل أن يكون عبداً، ولا يسكت على نازلة، وربما فعل الآن ما فعله لأن بدّور كانت مظلومة، وكانت جميلة، ومن يدري، فقد تكون وقفته لوجه الله، وقد لا تكون كذلك أبداً.

سمعت، وأنا أدير هذه الأفكار في رأسي، حركة ورائي، كانت تلك رئيفة، لا أدري من أين جاءت، ولا كيف انبثقت. كانت المفاجأة أكبر من أن أستوعبها. فرحة غامرة ارتعشت لها جوارحي. لم يكن ثمة كلام، عيناها قالتا. عيناي قالتا. تلاقت العيون، اشتعلت في العشب اليابس من حولنا نار. تلوّن الهواء، فضّياً صار، ثم غدا ماسّياً، وازرقّت الحجارة. استيقظ في داخلي شعور كان هاجعاً قبل أن أولد، اضطربت لصوتها المتضامن مع صوتي:

ــ أخذوه؟

ــ نعم أخذوه..

ــ ومن أجلها؟

ــ من أجلها..

ــ ترى كانت تستحقّ؟

ــ ما من امرأة لا تستحقّ..

ــ قصدت: لم تكن سارقة؟

ــ لا، لم تكن سارقة..

ــ ولماذا اتّهمها المطعون؟

ــ لأنها فلّاحة..

ــ فقط لأنّها فلاحة؟

ــ وأيضاً لأنها جميلة..

ابتسمت رئيفة. خلت أنّ الدنيا من حولي ابتسمت بدورها. صفّقت أوراق الزيتون، اخضرّت أكثر، ارتسمت عليها حلاوة سكّر، ذاب السكّر، اجتمع الكرم، بكلّ من فيه، من حولنا، وغنّى عتاباً كانت هي الميجانا. شفتاها غنّتاها. مقلتها غنّتها، سمعت الأغنية. رأيت الابتسامة. استيقظت من غفوة الدهور على ندائها. قالت لي الأرض إنّها هي. من هي؟ جارتي في الكرم، زميلتي في جمع الزيتون. رفيقتي في شقاء الفقر، لكنها، في تلك اللحظة، كانت أميرة تطلّ من نافذة. وجه ينداح من وراء

الغيم، يكبر الوجه. يكبر، يقترب. يقترب أكثر، يملأ مساحة الرؤية، يسيطر على الرؤية، واللسان، في صوت أغنّ، يعاود السؤال:

— وهل الجمال ذنب؟

قلت في نفسي: «إنه ذنب الذنوب» وقلت لها:

— أحياناً يكون كذلك..

— الحمد لله.. (وابتسمت ثانية) إني لست جميلة..

— تخافين الجمال؟

— أخاف الذنب..

— ولكنك مذنبة..

— كيف؟

— لن أقول..

احمرّت خجلاً، ما توقّعت أن أقول، ربّما، لكنّها، في احمرارها، أعطت ردّ فعل على المباغتة التي صنعتها باعترافي الذي استدرجت إليه. ما قلت إنها جميلة. لكنها فهمت أنني قلت، وأنها جميلة، وكان إطرائي سبباً في توشيحة الخفر التي أطّرت محياها.

بعد ذلك صمت كلانا، لم يعد لدينا ما نتحدّث به، نسينا الحديث أصلاً. انغلق فم. انغلق فم آخر. تركنا للعيون أن تقول أشياءنا. سرنا معاً، جنباً إلى جنب، تحت الزيتون، كما العشّاق، في الحكايات، تحت الزيزفون. زيزفوننا كان أخضر. كان مثمراً وكان أخضر، كان بهياً وكان أخضر. والأفاعي اختفت. ملكة الأفاعي ظهرت. الأفعى الأول، أمام آدم الأوّل، ولا ضرورة للكلام، فهمت، فهمت، تمايلت شجرة الخير والشرّ، رويدك يا شجرة الخير والشرّ، نحن في الخطوة الأولى بعدُ، الإبريق في اليد، والماء لمعة في المقلة، والسقاية قادمة، ولسوف يينع غصنك وينتشر العطر تحيّة للكون.

سرت إلى جانبها ولكن على مبعدة منها. خفت أن أقترب منها. خفت

أن ألمسها. أن أشمّها، أن أرتعش أكثر فتفضحني اختلاجة ما في النبرة، في الصوت، في الهدب، في تقاطيع الوجه، كان ذاك اعتمادي البكر في مياه الأردن المقدسة. النهر الجاري لعواطف فتى كاد يغرقني ولا أجيد السباحة. أعترف. كانت هي الأجرأ، لماذا، يا إلهي، تكون المرأة دائماً هي الأجرأ؟ تلفتت إليّ. التمعت شرارة. سقطت شرارة. غيمتان مرّتا على وجه الارض. السالب والموجب في الغيم التقيا، لم يحتكّا، ولكن الأشعّة الكهربائية لجسد الغيمتين أعطت وميضاً برقيّاً، ثم تحرّكت الشفاه، في ذعر من الصمت، لنقول شيئاً، أيّ شيء، ولينتهي هذا التلاقي المثير لعاطفتين فتيّتين ما اعتادتا بعد الشبوب مع هوى عذريّ مبكر. سألت:

ـ ألن تتكلم؟

ـ وماذا أقول؟

ـ ما يقوله الناس..

ـ نحن، صدّقيني، لا نشبه الناس، أنا، على الأقل، أختلف.. أحياناً لا أعرف أن أتكلم.

ـ ولكنّك، الليلة السابقة، تكلّمت مع والدي.

ـ كان ذاك والدك.

ـ وأنا ابنته..

ـ لكن كلامنا، لو صار، سيختلف..

ـ لماذا يختلف؟

ـ لأنه، كيف أقول، جديد، ما قاله غيرنا بعدُ.

ـ إذن سنحبّه أكثر.

ـ إذا قلناه..

ـ ولماذا لا نقوله؟

ـ لا نعرفه.

ـ ألا تعرف أن تقول؟

ـ بلى، ولكن كيف؟

ـ كيف وأنت ابن مدرسة؟
ـ من أين عرفت؟
ـ أختك حدثتني عنك أمس. . قالت إنك شعلة ذكاء، وكنت متفوّقاً في المدرسة، وإن لك أفكاراً غريبة.
ـ وصدّقت؟
ـ أردت أن أصدّق. .
ـ لماذا؟

عبق وجهها فكان جواباً. أرادت أن تصدّق لأنها أرادت أن تصدّق. كيف تشرح لماذا؟ وهل تستطيع، حتى لو رغبت في الشرح؟ بعض الكلمات تضمر ولا تُقال، إذا قيلت بهتت. فقدتْ حرارتها. اللّسان، في حال كهذه، يصبح عيّاً. العينان تصيران فصيحتين، رئيفة تقول بعينيها. ولكن ماذا في عينيها؟ إنها لا تنظر إليّ مباشرة. ما أكاد أرى وجهها حتى تغيّر وضع الرأس. تنظر إلى الجهة الأخرى. تتركني مستثاراً من فرط الرجاء، وتقتلني من شدّة الغموض.

لقد منحتني هنيهات فضيّة. أعطتني، كالمسيح، خبزاً وسمكاً. أيقظت في داخلي عاطفة كانت هاجعة، هذه هي المرّة الأولى التي تستيقظ فيها عواطفي الهاجعة. التبديل يحتاج إلى وقت، لكي يتبدّل الإنسان عليه أن يصبر كثيراً، أن يسمع ويرى ويعيش. أنا في لحظة تبدّلت. سمعت ورأيت وعشت. قام أليعازر في داخلي. نبتت غرسة حبق. اخضرّت وأزهرت وفاح عطرها، كيف يمكن أن يحدث هذا؟ كيف انتقلت من حالة الحزن والغضب لأجل والدي، إلى حالة الفرح والتألّق منذ رأيت رئيفة؟ هل لها سلطان على جميع النفوس أم على نفسي فقط؟ الريف، في هذه اللحظات، لم يعد الريف الذي كانه قبلها. نكهة جديدة غدت له. معنى آخر وصورة أخرى. جسمي أيضاً خفّ. نشط. أزهرت فيه بنفسجات بيض، صارت الدنيا كلّها بيضاء، تضوّأت. شعّت، زهت، ورئيفة قريبة بعيدة. رئيفة أنثى وأنا ذكر، لكن العلاقة بيننا ليست كالعلاقة بين المرأة والرجل، ليست كما بين

أبي وأمّي، ليست كما كانت، أو يمكن أن تكون، بين والدي وبدّور. إنني أحبّ وجهها، نظرتها، ابتسامتها، ولا أحبّ، أو لا أجرؤ على التفكير، في أيّما شيء آخر فيها. أراها هكذا، ببساطتها، ثيابها، تسريحة شعرها، جميلة بما يكفي، ولا أريد، وأرفض، ككلّ ما من شأنه أن يخدش هذا الجمال، بالصورة التي ارتسم عليها.

رحت أبحث عن الكلمات. رحت أقيس المسافة. أسأل الله أن تقصر المسافة. أن نبقى معاً، ألاّ نفترق أبداً. أن نلتقي دائماً. أن أجد سبباً للقاء، يكون مقبولاً لدى والدها. أن يسمح لي في أن أزوره، وأن تأتي هي لزيارتنا.

نحن في كرم واحد. في وضع واحد. على أرض واحدة. وأمس كانت لغة التفاهم معدومة، اليوم صارت، وغداً قد تكبر، وبعده من يدري. لكنني أدري، شيئاً واحداً أدري، أنّني سعيد، ونشط، وخفيف، وأنّ العيش صار له معنى، والنظرة أصبح لها معنى، والكلمة اختلفت، انتعشت، صارت أكثر دلالة، أشدّ حرارة، وللدنيا، من حولي، وقع آخر في نفسي، عذب، بهيج، منير، وللزمن انسياب حلو، خفيف، لذيذ، وله ترقب، في الأصباح والأماسي. لقد صنعت لي رثيفة عالماً ملوّناً، محبوباً، سعيداً، وأعطتني أن أقول: ما أطيب إقامتنا هنا!

مضينا تحت أشجار الزيتون، لا نعرف الوجهة التي نقصدها، نسينا المكان والزمان، نسينا نَفْسينا، نسينا أهلنا، تركنا لأقدامنا أن تسيّرنا، أن تأخذ بنا حيث تريد، وحيث يحلو لها، شريطة أن تبتعد بنا، قدر المستطاع، عن الناس. فالأشجار، بكلّ جلالها الشمريّ، بكلّ خضرتها، وعظمتها، تصنع لنا سقفاً من أغصان متشابكة توفّر لنا الفيء وتحجبنا عن الأنظار. ولم أكن أمشي على أرض. يا إلهي! كم كنت رشيقاً، خفيفاً، طائراً، كنورس، على وجه بحر أزرق. كانت هذه تجربتي الأولى، وربما كانت تجربتها الأولى، ويبدو أننا كنا، كلانا، متلهّفين إلى دخول تجربة كهذه، وممارسة مشاعر كانت قبلاً تضطرب في الذات، ثم صارت، الآن، خارجها. صارت

نظرة، كلاماً، وهجاً متبادلاً، بين جسمينْ فتيّين لـدنين لشابين غرّين سعيدين بكلّ مـا في فتوتهما من سذاجة بريئة، ما تلبث أن تعي نفسها فتتارّث.

كنت في حالة انقسام. أمشي، أنظر، أحسّ، أتكلم، وفي داخلي إنسان آخر، يتصرَّف تصرّفي نفسه، لكنّه يتحدّث بمفرده: متى؟ كيف؟ ولماذا؟ وكانت هي أيضاً على ازدواج في الصوت، والنبرة، تعيش معي، وتعيش لنفسها، تقول كلاماً أسمعه، وكلاماً تسمعه وحدها، وتتساءل: متى؟ كيف؟ ولماذا؟ ويعجب كلٌّ منا من السرعة التي تمّ بها اللقاء، والتخاطب، والمكاشفة، ولا يكاد يصدق أن ذلك تمّ، وأننا حقيقة نحيا، ولسنا في حلم من أحلام المراهقة.

ولم تكن حالي، ولا حالها، لو فكّرنا في نفسنا، وضعنا، لباسنا، ظروفنا، تسمح بأن نعيش هذه الفرحة الغامرة من تناغم وليد. ولو كـان للحذر أو التحسّب ومجرّد التفكير بأننا نتبادل الحبّ قيمة في وعينا لابتعد أحدنا عن الآخر، وشعر بذنب شديد، من جرّاء سماحه لنفسه بأن ينسى فقره وبؤسه وأهله والزيتون الذي ينتظر جمعه ويتلهّى بشيء كهذا، شيء يدخل في باب العواطف والغرائز، رابطاً بين قلبين لا يعرفان سوى أنهما خفقا فاستجاب كلّ منا إلى خفق قلبه.

على أن ذنبي، في المحاولة، كان أكبر، بصفتي شابّاً، يفترض أنّه أكثر وعياً وأشدّ معاناة، ويعرف الحال التي نحن عليها في المدينة، والحال التي نحن عليها في الكرم، وما سيطرأ على وضعنا بعد سوق الوالد إلى السجن، وما يتهدّدنا إذا ما تمادى المطعون في انتقامه منّا.

لقد كنت، في انقسامي، بين تجاذبين: أحدهما مردُّه إلى القلب والآخر إلى العقـل، ومن عجب أن القلب كان قـادراً، في تلك اللحظات، عـلى السيطرة، مما أنساني، طوال الفترة التي كانت رئيفة معي، أن أتساءل بأيّ حق؟

كان الحبّ قد نبت باسم الحبّ، وبحقّه، وقضائه، وجرفني إلى الضفّة الأخرى، حتى ما عدت أفكّر، خلال تجوالنا كله، بسوى الطريقة التي نلتقي بها، والخشية ألّا تكون ثمة طريقة، وأن يمضي يوم، أو تمضي ليلة ولا أراها. حتى أن رئيفة لاحظت سهومي فقالت، ونحن نمضي باتّجاه نبع صغير في التخم الفاصل بين الكرمين، عند خاصرة الرابية:

ــ بماذا تفكر؟

ــ لا أدري . . هل ترينني أفكّر حقيقة؟

هزت رأسها بالإيجاب وابتسمت:

ــ أنت تفكر بما لست أدري، وهذا هو السبب في أنك صامت. . . وأنا أعذرك، فقد أخذوا والدك إلى السجن. .

ــ لا أفكّر بوالدي ولا بالسجن. .

ــ إذن تفكّر بالبورة. .

ــ ولا بهذه. .

ــ بماذا تفكّر إذن؟

نظرت إليها نظرة فاحصة، مدقّقة، متفرّسة، محاولاً أن أكتشف الحقيقة في سؤالها. هل فعلاً ما كانت تعرف بماذا أفكر، أم تحرص على أن أقوله بنفسي؟ وهل تفكّر، هي أيضاً، ولو بشكل من الأشكال؟. . تكون خليّة وأنا الشجيّ، تلهو وأنا أجدّ؟ تتظاهر بأنها غير مبالية بهذا اللقاء وبما يليه؟ أكون المشوق وحدي، أم تشاركني الشوق؟ تعرف من شؤون الحياة أكثر مما أعرف؟ متمرّسة وأنا صاحب العاطفة البكر والتجربة البكر؟ لم أقل شيئاً. اعتراني شعور بأنها تحاول حملي على الاعتراف. ولكن بماذا أعترف؟ وكيف؟ أقول لها أحبّك؟ ومن اللقاء الأوّل؟ وكيف أحبّ ونحن في هذا الوضع؟ ألن تضحك مني؟ أليس في موقفي الاعترافي ما يضحك؟ ألن أكون مدعاة للسخريّة؟

وإذ لاحظت استغراقي في السهوم قالت:

ــ ألا تريد أن تقول؟
ــ ليس لديّ ما أقوله . .
ــ كنت مشرقاً واكتأبت، هل أكون السبب؟
ــ لست السبب في الحالين . . أحياناً تنتابني مشاعر متضاربة . . بينما أكون في قمّة السعادة، يعتريني الاكتئاب فجأة . . أفكّر بما نحن فيه . .
ــ ألست راضياً عن وجودكم هنا؟
تريّثت في الجواب، فكرت: «نعم لم أكن راضياً . . أما الآن؟» .
ــ وهل أنت راضية؟
ــ لا أجد أيّة مضايقة . .
ــ وكيف تعيشين مع والدك في هذه العزلة عن الناس؟
قالت بنبرة تنمّ عن ضيق:
ــ وماذا أصنع؟
ــ هل يمنعك والدك من زيارة البورة؟
ــ والدي يحبّني . . أنا وحيدة . . أمّي ماتت منذ سنوات . أنا عزاؤه الوحيد . . وهو، كما رأيته، ينطر في هذا الكرم، وفي النهار نجمع الزيتون، أما في الليل فيشرب قليلاً، ويظلّ ساهراً يحرس الكرم . . لا أجد حولي من أتكلّم معه سواه . . هذا صعبٌ علي . . هذا يصيبني بالسأم والملل، ولكن ماذا أفعل؟
ــ لاحظت كل هذا عشيّة جئت إليكم .
ــ كنت صامتاً تلك الليلة، تسمع أكثر مما تتكلّم . . مثلك الآن، هل هذه طبيعتك؟
ــ وما عساني أقول؟
ــ لماذا تجاهلت وجودي؟
ــ كيف؟
ــ لم تلتفت إليّ ولم تخاطبني . . اعتبرتني كأنني لم أكن . . وهذا ما حزّ في نفسي، ومع ذلك أتيت إليك اليوم، وجدت من المناسب أن آتي، لأنّ

والدي حدثني بما وقع على البورة أمس.

ـ حدّثك عن تلك الفلاحة؟.

ـ قال إنها سارقة.

ـ كيف عرف؟

ـ والدي لا يأمن جانب الفلاّحين..

ـ هل هذا لكونه ناطوراً؟ يكرههم بحكم العمل؟

ـ يكرههم لأنّهم يسرقون.. أما سمعت بقصة ذلك الفلاّح؟

ـ وماذا فعل؟ مرش حفنة من الزيتون؟

ـ ولماذا يمرش؟ هل هذا رزقه؟ إنّه يسرق..

قلت بانفعال جهدت للسيطرة عليه:

ـ صخر لم يسرق.. له حقّ في هذا الزيتون الذي يحرثه كلّ عام.. ثم ماذا يفعل إذا كان يعمل في أراضي بيت «ف» وكرومهم، ولا يجد في بيته حبة زيتون يتأدّم بها؟ إنه فقير. فلاّحنا فقير إلى درجة مرعبة.

ـ ونحن فقراء أيضاً، لكننا لا نسرق.

ـ نحن لم نعمل في الكرم حتى يكون لنا حقّ فيه..

ـ مهما يكن.. والدي يقول إن هذا مال الخواجات..

ـ ماذا يعمل والدك في المدينة؟

ـ والدي يعمل نجّاراً.. نجّاراً عربياً.. وفي موسم الزيتون ينطر في طرف من هذه الكروم..

ـ وهل يأخذ حقّه من النطارة؟

ـ طبعاً يأخذه.. وفوق ذلك يجمع الزيتون وله حصّة..

ـ له من العشرة واحد.. مثلنا..

ـ وماذا تريد أكثر؟

كانت تتكلّم عن قناعة بأن ما يجري هو ما يجب أن يجري. كانت تماماً كما شكّلتها أفكار والدها: الفلاّح سارق، والخواجات أصحاب الملك، وهم يتفضّلون علينا بما نجنيه من ملكهم. ولم تفكّر يوماً كيف تعيش،

وظروف هذه المعيشة، وكيف يكدح والدها دون أن يصل إلى كفايته.. باختصار كانت ترى في الخواجات أسياداً من طينة أخرى، وفي ملكيتهم حقاً مقدّساً.

سألتها فجأة:

ــ هل كنت في المدرسة؟

ــ حتى الصفّ الثالث الابتدائي.. تركت المدرسة بعد أن ماتت أمي.

ــ وفي أيّ مدرسة كنت؟

ــ في المدرسة الأرثوذكسية..

ــ وماذا علّموك هناك؟

ــ وماذا يعلّمون في المدرسة؟

ــ ألم يقل لكم المعلّم شيئاً غير الدروس؟

ــ حدثّنا عن المطران..

ــ ألم يأتِ المطران إلى المدرسة؟

ــ جاء مرة واحدة..

ــ وعمّ حدثكم؟

ــ عن المدرسة والدراسة.

قلت ضاحكاً:

ــ وعن الخواجات طبعاً..

سألتني وقد فطنت إلى سخريتي:

ــ ألا تحبّ الخواجات أنت؟

ــ لا.. لا أحبّهم يا رئيفة، وأنت؟

ــ والدي يقول كلب الخواجة خواجة..

ــ وأنت على رأي والدك؟

ــ أنا لم أفكّر بهذا.. أعيش كما أعيش، دون أن أتساءل كيف؟ ولماذا؟

ــ أختي بخلافك..

ــ هل هذا لأنها أكبر منّي؟

ـ يجوز. ولكن أختي، منذ كانت في عمرك، كانت تتألم من فقرنا، وتعرف سببه تقريباً.

ـ ومن سبّبه في رأيك؟

ـ ماذا أقول يا رئيفة؟ حتى أجدادنا كانوا يعرفون أن فقر الفقراء من غنى الأغنياء.

ـ والدي لا يعرف هذا...

ـ يجب أن يعرفه.

ـ ما أظنّ. والدي يعبد الخواجات.

ـ ومدينتكم كذلك تعبدهم.

ـ كيف؟

ـ اللاذقية لم تستيقظ بعد..

ـ من يوقظها على فرض أنّها نائمة؟

كان سؤالها مباغتاً. كان في محلّه تماماً، وأنا لا أعرف جوابه. من يوقظ مدينة نائمة؟ فكّرت في نفسي، لا أدري لماذا فكّرت في نفسي. في ذلك الوقت، لم أكن بعدُ قادراً على التنبؤ، ولو أنْ جاء رجل وقال إنك ستكون أحد هؤلاء الموقظين لما صدقت. كنت أرتعد من المهمة. كيف يمكنني، أنا الفقير المهاجر، الغريب عن المدينة، الذي لا أعرف أحداً فيها تقريباً، أن أفكر، مجرّد تفكير، بأنّ ذلك سيصير يوماً. كان واجباً عليّ أن أفعل، ولكنّ بين الشعور بالواجب، والقيام به، فرقاً كبيراً. ثم إن مدينة تؤمن أن الملكيّة حقّ مقدّس، وأن الإقطاعيين أسيادها، ولا تعرف التنظيم النقابيّ، ولا تظاهرت يوماً لأجل مطلب عمّالي، أنّى لي، أنا الذي أفهم أشياء قليلة، أن أتصدّى لإفهامها الحقيقة التي يصعب حتى أن أشرحها.

قلت لرئيفة:

ـ لا أعرف من يوقظ المدينة، لكنني أؤمن أنها نائمة وبحاجة إلى أن تستيقظ.

— تتكلّم لغة صعبة علي..
— ستجدينها سهلة مع الأيام.
— مـا أظنّ.. ثم أنا لا أحب التفكـير بما تقـول.. يا إلهي لمـاذا تـرتعش قسمات وجهك وأنت تتحدث عن المدينة ونومها؟
— نحن نتحدّث.. الا يرضيك مثل هذا الحديث؟
— لا.. لا علاقة لي به..
— تقولين هذا وأنت فقيرة مثلي..
— وماذا أفعل؟

كنّا نقف عند مفترق طريقين. رغبت رئيفة أن تعود إلى والدها، وكنت، قبلها، أرغب أن أعود إلى أهلي. لم أكن أودّ مفارقتها، لكنّ الحديث اشتطّ بنا. بات مضجراً بالنسبة إليها، وكان عليّ، منذ أخذوا والدي إلى السجن، ان أفكّر بحالنا على البورة. غير أن ظهورها المفاجئ أنساني. كنت فتى، وكانت فتاة، وشيء ما، كالشرارة، اشتعـل في قلبينا، كان شيئاً مفرحـاً. أحسست معه أن رعشة انتظمت جوارحي كلّها، رعشة جديدة، لذيذة، لم يسبق لي أن عرفتها، وكم تمنيت، وأنا أرجع إلى البورة، لو أن رئيفـة مثل أختي، تستشعر شيئاً من ظلم الحياة، من وطأة الفقـر، من جور المـلاكين والدرك. إن هذه العبادة للأغنياء، هذا الاحترام، هذه الانغلاقة العقلية أمام فظائعهم، أرعبتني. وسأقضي عمري كله وأنا أصطدم بمثلها.

وصلت البورة، كانت العائلة قد ذهبت لجمع الزيتون، لم يكن ثمة إلا الفلّاحان، وبعض الأشخاص، والجمال سارحة تـرعى. اتجهت فوراً إلى الخيمة، كنت ظمآن، ولم أتناول فطوري، وكنت الآن قـد عدت حـزيناً لأجل والدي.

جاء المطعون إلى الخيمة، وبادرني قائلاً:
— هه.. حسبتك ذهبت معهم.
— إلى أين أذهب معهم؟

ـ إلى قرية بدّور . .

ـ لأرى كيف يقبضون عليها ويسوقونها إلى السجن؟

ـ وماذا في ذلك؟ ألا تستحقّ؟ هي السبب، نعم، عدم المؤاخذة، هي السبب، ووالدك هذا، أما كان الأفضل له أن يدعها وشأنها؟

ـ والدي، في موقفه منها، كان شهماً . .

ـ وأنت أيضاً، مثل أختك، تتحدّث عن الشهامة؟

ـ وعمّ تريدنا أن نتحدث إذن؟

ـ عن لا شيء. . تحدّثوا كما النواطير، كما الناس، عيشوا بغير أن تخلقوا مشاكل لأنفسكم ولغيركم. .

ـ نحن لا نخلق أيّة مشكلة. . أنت الذي تسبّبت في المشكلة. . ماذا تظنّ؟ هل استرحت لأنك فعلت ما فعلت؟ وماذا يعني أن يقبضوا على والدي، وأن يسجنوه. . كلّ شيء يمضي، والسجن يمضي، لكن الحقيقة ستظهر، وسيعرف الفلاّحون أنك ظلمتهم.

قال بحدّة:

ـ أنا لا أظلم أحداً. . ألم يقبضوا على صخر وهو يسرق الزيتون؟

ـ كان يمرش قليلاً لأولاده. . كان بحاجة إلى هذه الحفنة من الزيتون. . هل تعتبر هذه سرقة؟

ـ وما هي إذن. . ؟ إذا لم يكن مرش الزيتون في الليل سرقة، فما هي السرقة في رأيك؟

ـ لو كنت فلاّحاً مثل صخر، وفقيراً مثله، ما قلت هذا الكلام.

ـ وأنت أيضاً تدافع عنه؟

ـ أدافع عنه وعن بدّور. . لماذا تحملون أفكاراً مسبقة معادية للفلاّح؟ لماذا لا تتصوّرونه إلاّ كسولاً، مخادعاً؟

- لأنه كذلك..

- وأنتم السبب، لست أنت بل الأسياد، أصحاب الأملاك. أنت فقير مثلنا، مثل صخر وبدّور، لكنك لا تعرف مصلحتك، أنت غافل عنها، مثل المدينة تماماً. لذلك لا أحقد عليك..

- وأنا لا أحقد عليكم. اسمع. قل لأمك واختك إنني لست ضدّكم، هذا الكلام، عدم المؤاخذة، سأقوله لوالدك أيضاً. أنا لست ضده. لم أفعل شيئاً. واجبي هو الذي اقتضى ذلك، كان لا بدّ، وأنا وكيل هنا، أن أبلغ الخواجات بما حصل..

- وها أنت ترى نتيجة تبليغك. تسبّبت في سجن ثلاثة حتى الآن.

- لا تقل ثلاثة. قل اثنين. أنا نادم فقط لأنَّ والدك ورّط نفسه. أما بالنسبة لصخر وبدّور فلست نادماً. الفلاّح، عدم المؤاخذة، لا يؤدّب إلاّ بهذه الطريقة. أنت لا تعرف. لو تردّدت كثيراً على الضيعة، لو عرفت كيف يعيش الفلاّحون فيها، لو رأيت ماذا يفعل الشوباصي، كنت وجدتني رحيماً. أبو اسكندر لا يضرب الفلاّحين فقط، يقتلهم أيضاً، يقتلهم ليستطيع أن يسيطر عليهم، ليتمكّن من حملهم على العمل..

- أنا لا أشاطرك هذا الرأي. الفلاّح ليس كسولاً، يعمل طوال النهار والليل، ثم لا يجد الخبز. وأنتم لا تسمحون له بحبّة زيتون يتادّم بها. ماذا تريدون بعد ذلك؟ هدّدتم جسده، أزهقتم روحه، وأصبح من حقّه أن يتمرّد، وأن يتهرّب من الشغل، وأن يسرق، لأن هذا حقّه الذي اغتصبه أسياده.

- ما شاء الله، ما شاء الله، من علمك كل هذه الفلسفة؟

- الحياة، والكتب، وما أراه بعيني. انتظروا تروا، لسوف يستفيق الفلاّحون، ويتوحّدون، وينتقمون منكم بسبب المظالم التي أنزلتموها بهم..

– ينتقمون؟ هم ينتقمون؟

– ولِمَ لا؟

– لأنهم أجبن من أن يرفعوا عيونهم من الأرض.

– لن يظلّوا جبناء.. الأيّام بيننا..

– أعوذ بالله! أيّ عائلة أنتم! تعرف.. لو نقلت كلامك هذا إلى الشوباصي، أو لو سمع به الخواجات، كنت تلحق بوالدك..

– وماذا يمنعك؟ انقلها لمن تشاء..

– أنا لن أفعل.. عدم المؤاخذة، أنتم أهلي، صار بيننا خبز وملح.. قلت لك إني لست ضدكم فلماذا لا تصدّق؟ لو لم يورّط والدك نفسه كنّا سمناً على عسل.. أنتم فقراء، جئتم إلى هنا لأنكم فقراء، وكان عليكم أن تعملوا، أن تكونوا إلى جانبي، أن تتركوا الفلاّحين في حالهم، غير أنّكم رفضتم.. تقولون إنكم من اسكندرونة، وهناك الناس يفعلون ما تفعلون.. أنا لم أسمع بهذا الشيء.. اللعنة على إسكندرونتكم هذه.. لا تدفعني إلى الشرّ من جديد.. كفى مماحكة إذا أردت ألاّ أطردكم!

قال ذلك وخرج من الخيمة. قذيفة غضب وانطلقت. إنه يحقد علينا، هذا لا شكّ فيه. يتمنّى لو أنّ الأرض غارت بنا، لكن الأرض رحيمة. الأرض لنا، ولن تغور بنا، وحين ينتهي الموسم لن يرى وجوهنا، ولن يقبل في العام القادم، أن يتعاطى معنا. نحن مرفوضون بسبب أفكارنا، ولكننا لا نعمل لأجل هذه الأفكار شيئاً، لا نذهب إلى الفلاّحين ونحرّضهم، ولا نوزّع منشورات بينهم، كلّ ما فعلناه أننا رفضنا أن نكون شهود زور على ما يجري.

تناولت قطعة خبز وحبّات من الزيتون، كنت كدراً مما سمعت، وكنت مرتاحاً لما قلت. أخيراً تجرّأت على الكلام، قلت ما يجول في خاطري، كسرت حاجز الرّهبة في نفسي. عبرت عن أفكاري بطريقة ما، وهذا بذاته حسن، هؤلاء الفلاّحون يحتاجون إلى التوعية، إلى من يأتي اليهم ويحدّثهم،

إلى من يزورهم ويكشف الحقيقة لهم، وأنا لا أستطيع هذا، بمفردي لا أستطيعه، ترى، يأتي يومٌ ويحدث هذا؟

ذهبت إلى أهلي في الكرم، كنت في حالة من التهيّج يصعب معها العمل بهدوء، لقد توالت انفعالاتي، الدرك والقبض على الوالد، رثيفة والحديث معها، هذا الحوار الذي دار بيني وبين المطعون، شعوري بالأسى المتولّد عن بعد المسافة بين ما أعرف أنّه حقّ وما أشهد من باطل.

لم تكن حال أمي وأختي بأفضل من حالي. كانتا واجمتين حزينتين، تجمعان ما تناثر من زيتون جمعاً آلياً، وتفكّران بالوالد الذي سيق إلى السجن، وما ينتظره من عذاب على أيدي الدرك. كانتا تنتظرانني، وقد بكت أمي كعادتها عند مواجهة مواقف كهذه. ولم تستطع الأخت منعها من البكاء، كما لم تشأ أن تعنّفها، أو تقول لها ما لا تحبّ بسبب موقف الضعف هذا، تركتها وشأنها، دون أن تشاركها الجزع الذي تضخّم لديها بفعل وساوس هاجعة، ما تلبث أن تهبّ وتستولي على مشاعرها الهلعة حتى تغدو عصاباً لا يزول إلّا بانتفاء أسبابه.

أنا أيضاً أحسست، ما أن أطللت عليهما، بالمأساة الصغيرة التي تنشر عنكبوتيتها بينهن. كنت أدرك ما في نفس الأم من خوف قديم دائم، ينبعث كلما تهدّدتنا، أو واجهتنا، مشكلة ما. كان خوفها هذا قديماً، زرعه الريف، والعزلة، والظلمة، ورحيل الأب، وتشرّد العائلة، وكان قد مضى زمن لم تتعرّض فيه لحالة من البؤس النفسيّ التي عرفتها اليوم. صحيح أن الوالد كان يرحل، يغيب، وتخشى عليه الأذى، وتقلق لمصيره، لكنّها أبداً لم تجد نفسها أمام مشهد مماثل لمشهد سَوْقِهِ إلى السجن. أما نحن، أولادها، فقد كنّا في العمر الذي يسمح لنا أن نتماسك، فلا نركض وراء السجين كما ركض الطفل وراء والده الفلّاح.

غير أن تماسكنا تضعضع أمام دموع الأمّ. تجدّدت هذه الدموع منذ رأتني، وعبّر عناقها لي عمّا في صدرها من لوعة، فبقيت واقفاً ورأسها على صدري. كانت تنشج، تختلج، تعول في صمت، وبغمغمة تندب سوء

حظنا الذي حسبت أنه فارقنا. ولم أقوَ على الكلام أمام فجيعتها برجلها، ولا كنت قادراً على البكاء مثلها، خَجلاً من أختي التي كانت تراقبني، غير أنّ الأخت الصغيرة أدارت وجهها وبكت. وكان الجوّ من حولنا، في لحظات انفجار المشاعر تلك، جهماً رغم سطوع الشمس. الهواء كثيف، مغبرّ، والعشب اليابس الأصفر يشكّل خلفية للأسى، وخلاء موحش، يغري بالكمد، وعائلة مشرّدة فقدت ربّها، وباتت تحت رحمة قدَرٍ هي على وشك أن يبتسم لها.

ماذا أقول للأمّ؟ لقد عذّبها الزمن طويلاً، جائراً عليها كفريسة مزّقتها مخالبه. لم تعد تتوقّع منه إلا المزيد إرهاقاً وتمزيقاً، لقد عشّش الليل في عينيها. ثقبت الرّيح خاصرتها. فرغت كفّها من الأمل، وغدا القهر قلادة في العنق النحيل. إنها لا تؤمن بالكلمات التي أقولها، تسكت أحياناً فلا تعارضها، لكنّها في الأعماق مفرغة من كل رجاء بأنّ الحال ستتبدّل، دربها الطويل ظلّ مفروشاً بالشوك. مرّة واحدة لم تتفتّح وردة عليه. كانت تحسب، ونحن في إسكندرونة، أن هدنة ما قد قامت بينها وبين سوء الطالع، لكنّ الهجرة ما لبثت أن انحطّت عليها شوحة سوداء. دفعة واحدة وجدت نفسها في العراء.، وقفت ثمة ضدّ الريح والبرد والمطر. ضدّ غضب الحياة التي لم تؤاتها مؤاتاة حسنة عمرها كله. وهذه الدموع التي تذرفها هي احتجاج صامت على الدهر. عتاب بالدمع حين لم تجد سواه. زفرة في وجه الأفق الذي انسدّ من حولها، كأن الجهات الأربع قد أغلقت، والرحمة رفعتها زوبعة هوجاء.

تركتها تبكي، أنا لا أؤمن بالدمع. أختي ترفضه، لكن الأمّ تجد فيه وسيلة للتعبير عن أسى ينغرز كمدية في قلبها. ليست عينا الأمّ هما اللتان تبكيان. قلبها كان يبكي، وماذا أفعل لقلب عزّت عليه الراحة، فالقى العزاء في نشج صامت هو نوع من تمرّد لا تحسن غيره؟ قصارى جهدي أن أتجلّد، أشعل النار في المحجرين وأنتظر. استدعي مهجة أيّوب التي صناعتها الصبر. أرحل مع نظراتي التائهة فيما حولي، حيث الشجر ساكن،

والأرض تترمّد، والشوك يضفر نفسه إكليلاً للمأتم، وأمّي تنتفض مختلجة من آثاره الكاوية.

أجلسنا الأمّ على حجر. غسلنا وجهها. تحلّقنا حولها دون أن نعرف ماذا ينبغي أن نفعل. قلنا لها بصمتنا كلمات مؤاساة صغيرة. رجوناها بنظراتنا أن تهدأ، وأن تنسى، كي نعاود العمل الذي وحده يملك أن يحمينا. أظهرنا بكلّ ما نملك من حنان الأبناء تضامننا معها في ذلك الحزن الذي هو حقيقيّ كالوجود. قرّرنا دونما اتّفاق أن نبذل جهداً مضاعفاً لتعويض ما فاتنا من وقت ضائع. شجّعناها على تحمّل الضربة التي نزلت بالوالد. طمأنّاها إلى أنه سيعود، وأنهم في المدينة لن يجدوا شيئاً بيديه. غير أنّ كلّ ذلك كان تمثيلاً، ففي أعماق كلّ منا كان يتضخّم عود من الكآبة الخرساء، لعلمنا أنّ الأب لن يعود بالسرعة التي نأملها، ولن ينجو من عقاب لا ذنب له فيه.

رجعنا إلى العمل، كنّا قادرين عليه بكل الآلية اللازمة، لم يعد الشوك، والحرّ، والأفاعي، وتقوّس الظهر، والغبار الذي تسفوه الريح، قادراً على صدّنا. كنّا قد أدركنا وضعنا اليائس، وكركّاب قارب يتقاذفه الموج، صمّمنا على المقاومة، وعلى المضيّ في الرحلة التي قادتنا إليها ظروف سيّئة. ما بقي هو الدأب. مواجهة الشدّة بالتحدّي، الشدّ على الجراح حتى تكفّ عن النزف، ومن خلال مشاعر ترغب في تخطّي الضعف، توصّلنا إلى اصطياد خاطرة عابرة، رسم ابتسامة ما مبتسرة، قول كلمة تخترق الصمت المأتميّ الذي ران علينا.

قالت أختي:

ـ غداً نذكر هذه الأيام ونضحك.. من قال إنّنا سنهاجر من إسكندرونة، ونسكن اللاذقية، ونصل إلى هنا، ويصير ما صار معنا؟ الزمن يمضي، وكلّ حال يزول.

أجابتها الأمّ:

ـ سنذكرها ما في ذلك شكّ، ولكن من قال إننا سنضحك؟

ـ أنا أقول . نعم سنضحك . أنا الآن أضحك . . وماذا هناك لذرف الدموع؟

ـ وأبوك؟

ـ ماله أبي؟ السجن للرجال، وللنساء أيضاً . . لو قبضوا عليّ مثل بدّور ما بكيت . . ولماذا البكاء؟ وما النفع منه؟ يريدون التحقيق؟ أهلاً وسهلاً . سيقول والدي ما جرى معه، ثم ينتهي الأمر.

ـ هكذا بكلّ بساطة؟

ـ نعم بكلّ بساطة . ولنفرض أن التحقيق كان صعباً، وأنهم ضربوا الوالد وعذّبوه، هل هو أوّل إنسان يُضرب ويُعذّب؟

ـ وإذا سجنوه؟

ـ وحتّى لو سجنوه، سيبقى بضعة أيّام ويخرج . . ماذا في ذلك؟

ـ أنت، يا بنتي ترين الأشياء سهلة دائماً.

ـ وأنت، يا أميّ، ترينها صعبة، وأكثر من اللازم، بل أكثر مما هي في الواقع، وهذا بسبب الخوف . . مصيبتنا هي الخوف.

ـ أنت لا تخافين؟

ـ ومن لا يخاف؟ ولكن ما نفع الخوف؟ ما هي فائدته؟ إنه لا يفعل سوى أن يكسرنا . . أنا أرفض أن أنكسر . . فإذا كان هذا لا خوف، فإنني لا أخاف . . نعم لا أخاف.

قالت الأمّ وقد ابتسمت:

ـ أنت جئت بنتاً خطأ . كان يجب أن تأتي صبياً . .

ـ وما الفرق؟

ـ يا ويلي ! تقولين ما الفرق؟ تتجرّئين؟

ـ نعم أتجرأ . . أنا لا أحسّ فرقاً . . ومنذ عودتنا إلى اللاذقية سأشتغل . .

سأبحث عن شغل. سأسعى لأشتغل في الريجي. انتظروا تروا.. ماذا تحسبونني إذن؟

– نحسبك شاباً..

– وأكثر. أنا شابٌ وزيادة..

– وأخوك؟

– أخي الآن صغير. حين يكبر..

قلت متشجّعاً بحماستها:

– أنا لم أعد صغيراً. سأعمل أيضاً. عند نزولنا من هنا سأبحث عن عمل. سيتحسّن وضعنا. وسيكون لي.. ماذا أقول؟ سيكون لي موقف ورأي. مثلما يفعلون هناك، في إسكندرونة.

صاحت الأمّ:

– كل شيء إلاّ هذا. أنا دخيلة عليك يا ابني. لا تفعل كما يفعلون.

نظرت إليّ الأخت من طرف خفيّ، أدركت أنني سأفعل، لكنّها رغبت عن إعلام الوالدة بذلك. كانت تعتبر هذا النوع من الكلام المسبق تبجّحاً. وفي كل الأحوال فإنها، هي أيضاً، كانت تعتزم أن تقول شيئاً، لكنها بخلافي، أمسكت عن الإشارة إلى ما تريد...

لقد سُرّت، في أعماقها، أنني لم أعتبر القبض على الوالد فاجعة، وأن سجنه لم يؤدِّ إلى إرهابي. هكذا وجدت فيّ سنداً، أنا الذي كنت أبحث فيها عن سند. إننا سنشتغل. هذا تصميمنا. ولن نبقى في العاطلين، والمدينة، بكلّ غربتنا فيها، لا تخيفنا، وأحوالنا ستتحسّن، وهذا جيّد. وقد وجدت فيه الوالدة عزاء، وشجاعة، فقالت:

– وأنا لن أقعد في البيت أيضاً. سأشتغل في الريجي.

قالت الأخت:

– في هذه الحالة نكون في وضع جيّد. وسنعثر على بيت أفضل، بغرفتين

على الأقل، وبوضع لائق.. اعتمدوا عليّ.. هذا المطعون يحسبنا متنا، يظن أنّ القبض على الوالد قد هدّنا، جعلنا في قبضته، تحت رحمته، فشر.. لم يخلق الذي يستطيع أن يُذلنا.. نحن لسنا زجاجاً، ولا قطناً وأنا وحدي قادرة على تحدّيه..

قالت الأمّ:

ـ دعي التحدّي جانباً، لا نريد أن نتحدّاه.. نسيت ما فعل ببدّور؟

ـ لم أنس.. يده وما تطول.. والله قادرة على مجابهة السيّد نفسه.

كدت أصفّق. رغبت أن أذهب إلى أختي فأضمّها وأعانقها. جديرة بالعناق هذه الأخت، ليس لأنها قادرة على مجابهة السيّد، ولكن لأنها لا تخشى المصاعب. منذ عرفتها وهي لا تخشى المصاعب.. إنّها مناضلة، مقاتلة، وأعظم ما فيها أنّنا بفضلها نعرف الابتسامة في أشدّ الظروف حلكة. لقد عدّل وجودها الميزان، فمقابل الأم الضعيفة، تأتي الأخت القويّة. وفي هذه البرّيّة التي نضطرب فيها، وفي يوم القبض على والدنا، ليس فقط لم تبك، بل ابتسمت، وعدتنا بابتسامتها، بعثت فينا العزم، الثقة، الأمل، ومدّت لنا في فسحته التي لم تشمل واقعنا، في هذا الريف اللعين، بل شملت مستقبلنا في اللاذقية، المستقبل الذي كنت أراه مظلماً جداً.

ـ أنت يا أخت، قلت لها، من إسكندرونة حقّاً.

ـ وسأكون من اللاذقية حقّاً.. أنا أيضاً قادرة على حمل البيرق[1].

ـ وسأكون إلى جانبك..

ـ وسيكون معنا خلق كثير..

ـ نعم سيكون معنا خلق كثير.

(١) إشارة إلى شخصية أم بشير في رواية «الثلج يأتي من النافذة».

هكذا، هي التي لم تمسك فرشاة أو قلماً، استطاعت، بضربة أو ضربتين، أن ترسم لي لوحة لنهوض الناس المقبل. لذلك التجمّع العمّالي الذي سيحدث. لليقظة التي ستنتظم العمّال والحرفيين وتدفعهم إلى تأليف نقابات لم يكن لها وجود في اللّاذية آنذاك. أختي تنطقها روح حدسية. هي ما كانت تدرك انها تحدس، لكنّ انداحة الأمل كانت تعطيها رؤية عريضة نفاذة. رأت، وهي في كرم الزيتون، ما سوف يحدث بعد أعوام في مدينة اللاذقية. معرفتها أنّ الناس، في الريف، والمدينة على السواء، لا بدّ أن يهبّوا في وجه الظلم والخلل الاجتماعي والبؤس، والفقر، جعلتها على يقين أن شيئاً ما سيتبدّل في الحياة، وأن الوالد سيخرج من السجن، وبدّور ستعود إلى بيتها وأولادها، ونحن سننهي هجرتنا القسرية، وسنعثر في المدينة على عمل، وسيكون لنا، حيث نعمل، مجال أن نبذر بذور الفكر العمالي ونستنبتها بالصبر والدأب.

جمعنا من الزيتون، ذلك اليوم، كما لم نجمع في أيّ يوم آخر. كنت أركض، تطلقني قوة اندفاع جبّارة، إلى الزيتونات فأنبرها، ثم أعود إلى العائلة وأجمع معها ما نبرت من زيتون، وكانت الأمّ، الآن، في حال جيّدة. جفّت دموعها. عادت ابتساماتها، أشرقت تقاطيع وجهها الحنطيّ الأليف. شعّ في عينيها أمل. استنارت بضوء الكلمات الشجاعة التي سمعتها. أخضرّ العشب من حولها. الشوك لم يعد شوكاً. الأفاعي لم تظهر، الأرض تملّست. حبّات الزيتون أسلست لنا قيادها وصارت تقفز إلى أيدينا. الأشجار مالت باتّجاه الأرض لنستطيع أن نمرشها بسهولة. الريح نسمت جنوبية غربية رهوة. خلعنا عباءة الحزن، خرجنا من جلود الأسى. دبّت فينا روح جديدة، نشطة، مباركة، السماء البلورية تلوّنت بمزجة من أحاسيسنا الزرقاء، غدونا غيرنا تماماً، صرنا أقدر على مجابهة الشدّة، وعلى تحدّي المطعون أو الشوباصي، قرّرنا أن نجني من الكرم جنى مضاعفاً واستجابت لنا إرادتنا.

في المساء عدنا إلى خيمتنا، ثمرة عملنا كانت مضاعفة تقريباً.

أشعلت الوالدة النار، فيما الشمس تنحدر إلى المغيب، في الموقد القريب، وصنعت لنا قهوة. لم نكلّم المطعون، بل لم نلق إليه بتحية المساء، أختي أوصتنا بذلك. طلبت أن نتجاهله ففعلنا. عزيز ويونس، الفلّاحان اللذان يعملان على البورة ظلّا بعيدين عنا، بل إنهما، حين تلاسنت مع المطعون في الصباح، وقفا إلى جانبه. خافا منه. الخوف يولّد الانتهازية، انتهزا الفرصة للتقرّب، للنجاة بجلديهما. خانا بدّور دون مبرّر. موقفهما لم يصدمنا. عذرناهما. كنت أعرف أن بعض الناس، في بعض المواقف، لا يستطيعون اتّخاذ الموقف الصحّ. لم أقل ذلك لأختي، لكنّها هي، المعتدة بنفسها، لم تسأل. بقينا وحدنا. قرّرنا أن نعمل بغير كلام. أن نرضى بما نحن فيه، إلى أن تنجلي الغمة.

وحين جاءت الجمال، في المساء، لنقل الزيتون، أطربنا رنين أجراسها، وضعنا في اللوحة المعتادة لأمسيات البورة، أعاد وصل ما بيننا وبين المدينة. الجمال رسل المدينة. رسل بكماء، لكنها كانت هناك حيث تركنا بيتنا وأقرباءنا، وحيث الوالد وبدّور يثويان في السجن، ولا ندري متى يعودان.

مصطو الجمّال جاء وسأل عن الوالد. قال إنه سمع ما جرى وأسف. أبدى استنكاره لفعلة المطعون، كان خارج دائرة النفوذ، كان حرّاً في تصرّفه، وتحيّة له دعوناه إلى فنجان من القهوة. كانت الأخت، الآن، هي التي تتصرّف. غدت المسؤولة دون أن يكلّفها أحد. وجدت أن من المفيد أن تكون قائدتنا فكانت. روت الحادثة كما جرت. لم تبد أيّما خوف أو ذعر. تحدّثت بهدوء، قالت إن الوالد سيعود، وإننا غير آسفين على الموقف الصحيح الذي وقفناه، ولو تكرّر ظلم المطعون، أو صدر عن الشوباصي ظلم مماثل، سنقف مرة أخرى، كما وقفنا، وسنقول الحقيقة دون أن نهاب الدرك أو السجن.

ولم يأت الشوباصي ذلك المساء، بلغه ما حدث ولا شك. لا يقع شيء في إقطاعته دون أن يبلغه. لم نحقد عليه. ولو جاء لما خفضنا الجناح

أمامه. نحن نعرف من هو، الوالد حدّثنا عنه، وكذلك الفلّاحون، لكنّنا لم نلق منه أدنى أذى. هو خارج المسألة. هذه فعلة المطعون. ربما كان موافقاً عليها، وربما، لو كان مكانه، لتصرّف بطريقة أخرى. لكن المسألة لم تعن شيئاً بالنسبة إلينا. نحن على البورة وسنبقى. إذا طردنا فسنرحل. لكن الطرد غير وارد، والمطعون، بعد الحادث، يحاول التودّد إلينا. ذلك أنّه، بعد تحميل الجمال، طلب أن يتكلّم مع الوالدة. تردّدت الأم، تحرّجت، استثارت الأخت بنظراتها المتسائلة، وقالت الأخت:

– لا بأس. اسمعي ما يريد أن يقوله...

– لكنني لا أعرف ما يريد.. كلّميه أنت...

– وإذا رفض؟ أنت رأس العائلة بغياب الوالد.

– يا ويلي.. أخشى أن يقول كلاماً لا أعرف الجواب عليه.

– لكل كلمة جوابها.. ثم من هو؟ إنه، أوّلاً وأخيراً، أجير مثلنا.

ذهبت الأمّ إلى البورة. تبعتها الأخت. لحقت بهما، أختي الصغيرة ظلّت وحدها في الخيمة. كان الليل قد ليّل. ألقت السماء غلالة من عتم على الكون. سطعت نجوم مبعثرة هنا وهناك. قامت جدران بنّية من حولنا. الأشجار بدت شبحيّة. الأرض تنفّست. رائحة الزيت الأكسيديّة، انتشرت، وثمّة، في البعيد، عند النبع، كانت ضفادع تنقّ، وكلاب تنبح في الحقول المجاورة، وجنادب تئزّ في كرم التين، وبهاء المساء الخريفي، الريفي، يعطي نفسه بأفضل ما يستطيع.

– نعم، قالت الأم للمطعون، ماذا تريد؟

– سلامتك.. أردت فقط أن أسأل خاطرك.. أنت، عدم المؤاخذة أختي، المصري أخي، والعائلة عائلتي، وأنا لم أرد بكم سوءاً، والله، أقسم ثلاثاً، إنني لا أريد بكم سوءاً.

– ما وقع قد وقع.. هل تستطيع جمع الزيت إذا دلقته على التراب؟

– أنت على حق، ما وقع وقع. . ما كنت أريد، ما كنت أظنّ. .زوجك، عدم المؤاخذة، حشر نفسه فيما لا يعنيه،تدخّل، دون سبب، في قضية بدّور. .

قالت الأخت:

– بدّور لم تفعل شيئاً. . انت تجنّيت عليها. .

– أنتِ، عدم المؤاخذة، لا دخل لك في الحديث. . أنا أكلّم والدتك. .

– وأنا أكلّمك أنت. . بدّور لم تذنب، والوالد لم يذنب، وأنت تريد، بعد قتل القتيل، أن تمشي في جنازته. . العب غير هذه اللعبة.

– أنا لا العب ولكنني أشفق، أنا، عدم المؤاخذة، أشفق عليكم، بيدي أن أطردكم من البورة كلّها.

– وماذا يهمّ؟ نعود إلى المدينة، لكن أنت، سيكون لك حساب مع الوالد.

– وما هو الإثم الذي ارتكبته بحقّه؟

– ألا يكفي أنك أوصلته إلى السجن؟

– إذا كنت أنا من أوصله إلى السجن، فأنا من يخرجه منه، دعونا نتفاهم فقط.

– نتفاهم على ماذا؟

– على الفصل بين قضيّة الوالد وقضيّة بدّور.

– وماذا يحدث إذا فصلنا القضيّتين؟

– أذهب في الصباح ، والتمسِ من الخواجه «د» أن يتدّخل للإفراج عن الوالد.

– دع الوالد في السجن حتى يفرج عنه. .

– والبورة من ينطرها؟

– أنا. .

– أنت امرأة.. هل تصير المرأة ناطورة زيتون؟

– أخي..

– أخوك ابن مدرسة، يخاف من خياله.

كنت قد لحقت بأختي فقلت:

– سأنطر الليلة، وسترى أني لا أخاف من أحد..

– لا أستطيع.. هذه مسؤوليتي، أنا، عدم المؤاخذة، مسؤول أمام بيت «ف» وهذا الزيتون أمانة في عنقي، أنا الوكيل هنا..

قالت الأمّ ملاطفة:

– هذا صحيح والله.. أنت المسؤول، وأنت على العين والرأس..

– يسلم فمك.. هكذا يكون الجواب.. (ملتفتاً إلى الأخت) اسمعي، أنا قادر على التفاهم مع أمّك وليس معك.. أنت مثل والدك، لا تعرفين مصلحتكم ولا تسكتين على واحدة..

– وما هو الشيء الذي تريد أن نتفاهم عليه؟

– أعفيكم من النطارة على شرط..

– وما هو؟

– أن تشهدوا، إذا احتاج الأمر، أن بدّور سارقة..

صاحت الأم:

– يا ويلك من الله!..

وقالت الأخت:

– تريدنا شهود زور؟

– هذا هو الشرط.. تبقون على البورة إذا شهدتم..

– وإذا رفضنا؟

ـ تتركون البورة.. وتنزلون إلى المدينة..

وقالت الأخت بحسم:

ـ ننزل..

ولم ننزل.. فقد تدخّل الشوباصي، وأوصى ببقائنا.

- ٩ -

لم يستطع المطعون أن يطردنا، ولا استطاع أن يقهرنا، فقد تماسكنا. لم نهزم من الداخل، ولا انكسرنا، وكان ذلك بفضل الأخت، التي أشعلت في أوراق الزيتون شموعاً للأمل. ضوّأت كل ما حولنا، حالت بين برد الغربة، وفراق الأب، ولؤم الوكيل، وبين اليأس أن يتسرّب إلى نفوسنا. تحدّت المطعون، أبدت استعداداً لترك البورة، كأن لا شيء، في هذا الوجود، قادر أن يلوي شكيمتها. وحتى الأم، الخائفة بطبعها، أزاحت خوفها جانباً، ولو بصورة مؤقتة. وأنا الذي كنت أحمل أفكاراً، يحول الخجل بيني وبين أن تصبح سلوكاً لي، غدوت، بفضل أختي، أقلّ مبالاة بالروح العدائية، التي يحملها المطعون نحونا. ولعلّ الشوباصي، الذي أمر ببقائنا، كان يريد، من تصرّفه ذاك، أن يعاكس المطعون أكثر مما كان يريد رفع ظلامة عنّا.

كنا، في النهار، نجمع الزيتون، وفي الليل أحرس البورة. تقول أختي، قبل أن تدخل الخيمة لتنام، «لا تقلق كثيراً وأنت تقوم بمهمة الناطور، ليس من يجرؤ على الاقتراب من البورة، ولو اشتبهت، بأيما زوال، حركة، خشخشة في العشب، بين الأشجار، أيقظني» فأجيبها، مستمداً من كلماتها شجاعة: «نامي أنت، لا تفكري.. ليس ثمة ما يخيف، ولن أصيح، أو أهرب، حتى ولو جاء اللصوص حقيقة، أو دبّر المطعون، غارة ما، بقصد

الإيقاع بنا. لصّ الزيتون تكفيه تصفيقة كفّ حتى يولي الأدبار، إنه مثل الفلاّح صخر، يريد حفنة زيتون لأولاده لا أكثر. غير أنني، في وحدة الليل، وحشته، وأنا أدور حول البورة، والجميع نيام من حولي، كانت الطمأنينة تفارقني، أظل متوجّساً، متلفتاً، مرهف السمع، وهذا ما كان ينفي نومي، ويبعث رعشة صغيرة، غير مريحة، في أوصالي، فأستشعر تفتتاً في أعصابي، ولا تعاودني الطمأنينة إلا في الفجر، حين تبلغني دقّات الأجراس في أعناق الجمال وهي مقبلة من بعيد، مخترقة صفوف الأشجار في طريقها إلى البورة. كان الرنين الحلو، المحمول على أكتاف الريح، يشبه رنين النواقيس، فهو سلام وخشوع في آن: سلام يحمل تباشير الصباح، وخشوع لما فيه من إيقاع رتيب، يذكّر بالأمسيات والصباحات للأديرة التي أسمع بها وأقرأ عنها.

لقد تقمّصت، تلك الليالي الصيفية، شخصية والدي، فأنا أحمل عصاه، وأضرب بها الأرض، وأضعها، تارة على كتفي، مشبكاً ذراعيّ بها، وأنزلها طوراً، فتغدو في يدي سلاحاً خشبياً لا قيمة له، لكنه، بالنسبة لطفولتي تلك، كان سلاحاً ما، أتصوّر نفسي وأنا أستعمله، أضرب به، أندفع على اللصّ وهو مشهر في يدي، واللصّ، من جهته، يرفع عصاه، وتبدأ المبارزة، ومن كان زنده أقوى، وعصاه أمتن، هو الذي يفوز، فإذا تحطّمت عصاي، ولم يبق لي ما أدفع به عن نفسي أصرخ، أوقظ من حولي، وتبدأ المعركة التي كانت متخيّلة، وظلّت كذلك إلى أن انتهى الموسم.

ومع أن هواجسي كانت تغتال الفرحة التي يولّدها الليل الصيفي، فإن بهاء الطبيعة كان يفرض وجوده، والسماء ذات النجوم، تقترب مني لتخطفني إلى مراتعها، فينبت لي جناحان، وأغدو أنا الفتى الذي ما زال، بسبب الفقر، يلبس بنطاله الأسود القصير، طيراً مكسوّاً بالريش الأبيض والأصفر، ويسرٍ، كما في الحلم، أطير وأقفز في طيراني فوق الأودية الخضر، وأمدّ يدي إلى النجوم، ساحباً معي رئيفة إلى خمائل سماوية بعيدة عن الأنظار، حيث أستطيع، دون ممانعة منها، أن أضع ذراعي حول كتفيها،

وأنا أقول كلمات حلوة، عذبة، ساحرة، وهي تبتسم وتبتسم، متقبلة كلماتي بالرضى، والودّ، والحبّ الذي كان عذرياً، لكنه، في اندفاعات الغريزة، يلامس أطرافها، صدرها، ويخطف، من عنقها، خدها، شفتيها، قبلات مسكرة.

كان ذاك حبّي الأول، كان حبّاً بكراً كالموجة الزرقاء الأولى على الشاطئ المحصب، وكان شغلي، في السهر الطويل، أن أخترع الفاظاً أعدّها للقاء المقبل. لم أكن أفكر بمعنى هذا الحبّ، نتيجته، مصيره، أنا الفتى الذي في النهار، حين يبتلع الضوء، ويحيل إلى ذرات أجمل أماني الليل، أخجل من كثير من تصوّراتي. كان حبّي، ذاك، فوق الفقر، فوق المادة، فوق الواقع. كان خيالاً جميلاً، يتغذى على أحلام بريئة لمراهقة مبكرة، لو أُعطيت أن تفكر، أن تتساءل، أن تحاذر، لارتطمت بصخرة وتفتتت، أو تبخّرت، شأن البحر الذي يرتطم بصخر الشاطئ.

وكنت في حبّي الفتيّ هذا، أخشى العيون، وأنأى به عن المظانّ، أصونه في الحدقتين، وأمشي إليه كأنني على جمر، شاعراً في كلّ خطوة، أن ثمة من يراقبني، ومن يحصي عليّ أنفاسي، وخاصّة الأخت، التي لا يمكن أن يفوتها تعلّقي برئيفة، وغيابي، في الأماسي، عن البورة، حيث أزعم أنني أقوم بجولات في الكرم، ترويحاً عن النفس، أو أذهب إلى والد رئيفة أتبادل معه بعض الأحاديث.

ظني أن أختي كانت تنظر إلى الموضوع كلّه من زاوية مضحكة. لم تفاتحني مرة به، ولم تومىء إليه، ولا أخبرت الأمّ، لكنّها كانت تعرف أين أذهب، وبمن ألتقي، وربما ماذا أقول، وتعتبر كلّ ذلك طبيعياً، يتناسب مع عمري وعمر رئيفة، ولا يشكل أيّة قضيّة تستوجب الحذر، أو التدخل، أو الكلام، أو حتى المساءلة. كانت تجهل، أنني في بعض الليالي، أترك البورة وأذهب إلى رئيفة، أدور حول خيمتها، ألقي بعض البحص من بعيد، آتي بحركات أحسب أنها كافية لتنبيهها إلى وجودي، دون أن تثير انتباه والدها

الذي كان، بعد منتصف الليل، يغطّ في النوم على حصيرة أمام الخيمة، مثبتاً وجود الناطور بجسده الممدّد والعصا قربه.

لكن رئيفة لم تخرج إليّ مرة، في تلك الزيارات التي تكرّرت بعد منتصف الليل. قالت لي إنها أحسّت بي، وصارت تستيقظ في الساعة التي تسبق الفجر، وتسمع خطواتي، حركاتي، وقع الحصى التي ألقيها على الخيمة، وأنها تتمنّى أن تخرج، لكنّها تخاف. حذّرتني من المجيء، ومن ترك البورة، ولفت نظر المطعون، أو أهلي، إلا أنني لم أبال بتحذيراتها. كنت أحلم أن أراها في قميص النوم الأبيض، مكشوفة الصدر، عارية الساعدين، وأن آخذها، دون فرس، إلى بعيد، ونمشي، بل نطير، كما في تخيّلاتي، اليد باليد، والعين في العين، وأن أسمع صوتها، وأرى ابتساماتها، وأبلغ، مرة فقط، أن أعانقها، وأن تلامس شفتيّ شفتيها، هذه المنحة السماوية التي لا أجرؤ على التفكير بها نهاراً، أو طلبها في الضوء، أو خطفها عنوة دونما ساتر من ظلمة، أو غبش يحجبنا عن أنظار الأرض والشجر، وعن عيون السماء التي تحدّق بنا وترانا في النهار.

ومن الخير أنه لا مرآة لدينا في تلك البرية. أنا لم أشاهد نفسي أبداً في وقفة كاملة في أيّما مرآة تلك الأيام. هذا هو السبب أنني اندمجت في دوري، دور العاشق الصغير، الذي نسي أنه في بنطال قصير، ووالده في السجن، وعائلته تجمع الزيتون، والمستقبل مبهم، ولولا تشجيعات الأخت كان مظلماً، ما دمنا تحت رحى المأساة. لقد تعلّمت، بعد تلك العلاقة العاطفية مع رئيفة، أن الحبّ يتطلّب ظرفه.. صحيح أن الحبّ ليس ترفاً، ولكن الذي يسعى إلى الرغيف، لا وقت لديه، ولا قابلية، لأن يطارح الفتيات غرامه. ولعلّ أختي، وكانت مصيبة، نظرت إلى حبّي من هذه الزاوية، فرأت فيه نوعاً من وَلْدَنة، ولهذا تركتني وشأني.

عجيب أمر الإنسان، إنه قادر على نسيان الوضع الذي هو فيه، وتلك نعمة كبرى. النفس، في نزوعها إلى التخطّي، التحقّق، الانعتاق من أسر الراهن، تبتكر حالة النسيان لتدفع بصاحبها بعيداً عن مطارح الغمّ، وتمدّ

له في أسباب العيش.. عليه، في حال كهذه، أن يكون قد امتلك قضيّة، فاز بحبّ، عشق آخر، أقام صداقة، وجد ما يشغله عن التفكير القاتل بالظروف التي يرزح تحت وطأتها. هكذا تصير الحياة أيسر. تمرّ الأيام بسرعة. ينزاح من تحت إبهاظ الزمن، يشتعل فيه لهب ما، يقلب برودته إلى حرارة. أنا فزت بالحبّ. ذلك صنع لي بهجة. تخفّفت من التفكير المضني بما ألبس، آكل، أعمل، وبالوضع الكئيب للخيمة التي تؤوينا، والغرفة المعتمة التي هي كلّ مسكننا، وحالة الفقر السوداء التي نضطرب فيها. انزاحت الهموم جميعاً، بقدرة قادر يصنع معجزته. صرت أفكّر، نهاري وليلي، برئيفة، أخترع لنفسي سبلاً للقاء، والحديث، والصلة. تنبت في ضلوعي شجرة للمسرّة، على أغصانها ثمار ذهبية. ولكي أمعن في خداع نفسي، أقنعها بأن علاقتي تلك ذات غاية أبعد من الشهوة. أنا «صاحب القضية» راوغت في الاعتراف بأن ما أريده ينبثق من دافع غريزيّ، رددته إلى دافع فكري، وتوهّمت أنني سأبدأ نضالي برئيفة فأكسبها إلى قضيتي. لكن رئيفة كانت تريد شيئاً آخر، وكان والدها، هو المثال بالنسبة إليها، وهذا المثال كان على درجة بالغة من الانحطاط الروحيّ، فهو يعتبر كلب الخواجه خواجه، وقد وظّف نفسه، دون مقابل، كلباً عند بيت «ف»، وعوى عندما علم بالذي فعله والدي.

— هذا كفر بالنعمة، قال لي، والدك يكفر بنعمته.

— لماذا؟

— لأن بيت «ف» أسيادنا..

— ولنفرض أنهم كذلك، هل نسكت عن ظلمهم؟

— بيت «ف» لا يظلمون.. هل رأيتهم يضربون أحداً؟

— قد لا يضربون بأيديهم.. وما حاجتهم إلى ذلك، إذا كان لديهم الشوباصي والوكيل؟

— وماذا فعل الشوباصي أو الوكيل؟

— وضرب الفلاّحين؟ أنت لم تر كيف قيّدوا صخر وضربوه، وكيف أدخلوه

السجن..

ـ هذا اللصّ..

ـ لم يكن لصّاً.. من يعمل في المذبح من المذبح يأكل.. إنه يعمل في الزيتون، وأخذ حفنة منه لأولاده، فماذا حدث؟ لقد تصرّف بحقه.

ـ وما رأيك لو ادّعى الجميع مثل هذا الحق.. ماذا يحدث عندئذ؟

ـ لا شيء.. نحن النواطير نأكل من الزيتون، هذا حقّنا..

ـ لكننا لا نسرقه..

ـ لو منعوه علينا لسرقناه.

ـ أنا أبقى جائعاً ولا أخون الأمانة..

ـ أيّة أمانة هذه؟

ـ ولكن الزيتون أمانة في عنقنا.. ألا تعرف ذلك؟ ألا تحسّ به؟

ـ بين الحق والأمانة فارق واضح.

صاح مهتاجاً:

ـ وما هو؟

ـ فارق ما نستحقّ وما نأخذ..

ـ نحن نأخذ أكثر مما نستحقّ..

ـ هل تظنّ ذلك؟

ـ بل أؤمن بذلك.. نحن لا نستحق لقمتنا..

ـ عندنا لا يفكّرون على هذا النحو.

ـ أين عندكم هذه؟

ـ في إسكندرونة..

ـ اللعنة على إسكندرونة إذا كانت عاقّة..

سكتّ أمام غضبته. كان كلب حراسه فعلاً. اعتاد هذه العبودية، وسيمضي زمن قبل أن يعي معنى الحرّية، معنى الكرامة، قيمة الحق الذي هو كسب وليس منّة من أحد. والدي لا يهتمّ بكلّ هذه المعاني، لكنه يرفض الظلم من منطلق الرجولة. هذا لا رجولة له. مخصيّ هو، كلبٌ

حقيقيّ، يقوم بحراسة حقيقية، مقابل رغيف وحبّات من الزيتون. وما هو أنكى، أنه يقف ضد الآخرين. هو الذي قبض على صخر، وربما هو الذي وشى ببدّور، والآن يناصب والدي العداء، إنه ملكيّ أكثر من ملك. خادم مطيع عند بيت «ف» ولو نبت له ظفر للذبح به.

تجنّبت مغاضبته. خنت نفسي لأتجنّب مغاضبته. كانت ثمة رئيفة، وفي سبيل أن أراها، وأن أستمرّ في المجيء إليها، التزمت الصمت. صمتي المكروه هذا، الذي سينكرّر أحياناً، كان مرفوضاً مني، لكنّني ما كنت قادراً على الخلاص منه. كنت أتألم إذا فكّر بذلك. الذين على باطل يهاجمون، والذين على حقّ يسكتون؟ أختي ما كانت لتسكت. لكن أختي ما كانت عاشقة. ترى، لو كان عنده ولد، وأحبّته أختي، وسمعت مثل هذا الكلام من والده، أكانت تسكت مثلما أسكت؟ أشكّ في ذلك..

رجعت، ذلك المساء، من زيارتي تعيساً، نادماً على السكوت. عدت وفي ظني أنني لن أذهب إلى خيمة رئيفة ثانية. لكنّني، في مساء اليوم التالي ذهبت. وجدت والدها على حصيرته، راضياً، منسجماً، يشرب كأسه، لم يكن يفكر في يومه أو غده. كان على قناعة لا تتزعزع بأنه هكذا وُلد وهكذا ينبغي أن يموت. بلادته فوق مستوى الشبهة بالأسياد، وكلّ ما يفعلون كان حسناً في عينيه، وباعثاً على الراحة، كأنه أوفى الأشياء حقوقها. ولقد اصطدمت بأمثاله كثيراً. وجدتهم في المدينة والريف، في الميناء والشارع، في الحيّ وسوق الخضار، في المقهى والحديقة، في الأفراح والأتراح، ووجدت الاكتفاء قسمة بينهم، كأنما راحتهم هي عالمهم كلّه.

كان والد رئيفة طويلاً، محنيّاً من عند الرقبة، له رأس كنصف بطيخة، وعينان مغروزتان، وأنف ضخم تحته شاربان كفرشاة، وشدق واسع كشدق الضبع، وفي قدميه حذاء عتيق، مقطّع، وله إلهان، واحد في السماء والآخر على الأرض، اسمه الخواجه «د». كان أرمل، ماتت زوجه ولم يفكر بغيرها، وربما لن يفكر أبداً، فهو يهتمّ بالمنطقة الوسطى من بدنه فقط، كأنه خلق ليأكل ويشرب وينام، وقد حاولت، خلال زياراتي كلها، أن أستثير

انتباهه إلى الحياة السيّئة التي نحياها، فكان جوابه واحداً في كلّ الحالات:

ـ حالنا مستورة.

ـ لكننا مشرّدون في هذا الريف، نعمل من الصباح إلى المساء وليس لنا لباس على ظهورنا، ولا طعام سوى كسرة الخبز.

ـ كسرة الخبز التي نتبلّغها كافية.

ـ الحياة ليست كسرة خبز.. والمسيح نفسه قال: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان».

ـ ونحن لا نحيا بالخبز وحده، بل بالزيت معه..

ـ هكذا تفهم كلام المسيح؟

ـ هكذا يفهمه الخواجه والناس وهم أدرى منك ومني..

ـ ألا تعتقد أن للخواجه مصلحة في فهم كهذا؟

ـ وما هي مصلحته؟ لنقل إن الوكيل يغشّ، أو أنه يفسّر الأشياء على هواه، فما رأيك بالخواجة؟ تستطيع أن تشكّ في فهمه؟

ـ أنا لا أشكّ في فهمه.. أشكّ في مصلحته..

ـ حين يكون وليّ نعمتنا، تصبح مصلحته مصلحتنا، أم تنكر هذا أيضاً؟

ـ أنا لا أوافقك..

ـ ليس ضرورياً أن توافقني..

ـ ينبغي أن نفكّر..

ـ وماذا تراني أفعل؟ أفتح فمي للريح؟

ـ وإلى أين قادك تفكيرك إذن؟

ـ إلى النوم.. أن نترك الدنيا للدنيا أفضل ما نفعل.. أم تريد أن تصير خواجة؟ هذه لم تخلق لنا، كبيرة علينا. إنس أفكارك التي لا أعرف ما هي.. أم تريد أن تجادل لأنك ابن مدرسة؟ هذا هو الذي علّموك إياه في المدرسة؟

ـ ألا تحبّ المدرسة؟

ـ لا . . ما فائدتها؟
ـ ألا تريد أن تتعلم؟
ـ ما أعرفه يكفي . .
ـ ورثيفة؟
ـ رثيفة بنت، والمدرسة لم تخلق للبنات . . مع ذلك أرسلتها . . تعلّمت فكَّ الحرف في مدرسة الطائفة .
ـ فكّ الحروف وحده لا يكفي . .
ـ والأفوكاتو لا يصير . . نحن خلقنا للعمل، والخواجات للجامعة . . أنت مَنْ أنت؟ ماذا تظنّ نفسك؟ تريد أن تصبح أفوكاتو؟(١)
ـ ولماذا لا؟
ـ نعيماً . . أصحاب الكرامات عليهم علامات . . الأفضل أن تفكّر بتعلّم مهنة . . لماذا لا تتعلّم مهنة؟
ـ تعلّمت مهنة الحلاقة . . كنت، في إسكندرونة أجير حلّاق .
ـ عظيم . . ولماذا لم تكمّل . .؟ غداً، حين ينتهي الموسم، عُدْ أجير حلاق، المهنة خلقت لنا والعلم لهم، العمى أسياد وجاهلون؟ ترضى بهذا؟
ـ أنا لا أرفض المهنة، لكنني لا أرفض العلم . .
ـ والعلم يحتاج إلى بيت من المال، وأنت مثلي، على الحصيرة . .
ـ سأطلب الاثنين، المهنة والعلم . .
صاح بنفاد صبر :
ـ يا ابني، يا ابني، لا تتطلّع إلى فوق، تتعب . . ضع رأسك في الأرض، كن متواضعاً . . والدك تطلّع إلى فوق، فأين هو الآن؟ في بيت خالته . لو كان مثلي، لو عرف حدّه ووقف عنده، أما كان الآن على البورة؟
ـ والدي دافع عن حق . .

(١) الأفوكاتو: المحامي .

ـ مرحباً حق.. ألا يعرف الحقّ غير جنابه؟
ـ كل إنسان مطلوب منه أن يعرف الحقّ، وأن يدافع عنه.
صاح من جديد:
ـ تراني أدافع عن باطل؟ ألا تغلق هذا الحديث وتريحني؟

أغلقت الحديث. ثمة أدمغة تتصفّح من الداخل ضدّ الفهم. تكون مدرّعة وحديدها كتيم. عبد الله هذا تتصالب في عقله العبودية والخواجات. لو اختلف أيّ فقير والخواجه كان في صفّ الخواجه. وقد كان مفهوماً لو أنه ينال أجراً على ذلك. إنه عبد الخواجات مجاناً، خادمهم دون مقابل، ورغم أنه، حسب رواية فلّاح على البورة، يسرق الزيتون ليلاً، فإنّه لا يعدّ ما يأخذه سرقة. هنا، يعتبر المسألة مونة. إنه يمّون بما يأخذ من زيتون، يعتبر نفسه خادم مذبح، ولو أنه لم يسرق، ولو أُعطي واحداً من العشرين مما يجنيه، لبقي مؤمناً أن هذا الواحد منّة من الخواجات. كان عقله في مؤخرته، وكانت هذه نامية أكثر من المعتاد، وفي جسمه كلّه خلل لا تعرف أين، لكنه مطمئن إلى انسجام الأشياء، في داخله وفيما حوله.

عندما عدت مساء، قصصت ما دار بينه وبيني على أختي، قلت لها إنه نبح، كاد يعقرني، فتأمّلتني ملياً وقالت: «يا ليت!» سألتها: «لماذا؟» قالت: «حتى تتألّم أكثر». كانت تريد إعطائي صدمة أكبر، كي أستفيق من خدعة أن الفقراء طيّبون. هي لا تؤمن بطيبتهم المطلقة هذه، تتأذّى جداً حين ترى فقراً لا يعي مصلحته. كنت أقول لها: «هذا من الجهل»، فتردّ: «من العادة». أحكامها المبرمة هذه كانت مثار خلافٍ بيننا، فأنا إلى جانب عُذرٍ ما، أبحث عنه لكل إنسان، أعذاري كلّها تصبّ في قناة واحدة: «انعدام الوعي» لكنّها، في نزقها، قسوتها على الذين لا يعون حقهم، كرهها لكلّ هذه التشوهّات في تفكيرهم، كانت تدينهم إدانة قاطعة:

ـ اعتادوا على تقبيل الأيدي..
ـ حين ينتشر الوعي..
تقاطعني:

– الوعي استعداد.. هذا والدنا. تحسبه واعياً؟ لديه استعداد للمقاومة.
– وهم أيضاً سيقاومون..
– متى؟
– حين نتوصّل إلى شرح الأشياء لهم.
– مع هؤلاء البلداء لا ينفع شرح. أبو رثيفة ليس نبتة شاذّة في غير أرضها، الناس تعلّموا على الخضوع، وعلى تقبيل أيدي أسيادهم وهم راكعون..
– ليس كلّ الناس..
– أنا لا أقول كلّهم..
– وحتى المخدوعون ستزول الغشاوة عن عيونهم فيبصرون.
– ومن يزيلها؟
– نحن..
– أنا لا دخل لي في ذلك، غير قادرة على الصبر، وعلى الكلام الكثير..
– في هذه الحال لن تكوني نقابية حين تعملين في الريجي.
– ومن قال إنني أريد أن أكون كذلك؟
– هذا من الجهل أيضاً.
– ربما. أنا أميّة، لم ترسلني أمّي إلى المدرسة، ولا علاقة لي بشيء.

تقول ذلك بحرقة، تدرك هذا النقص وتثور عليه. غير أنّ ثورتها كانت فردية، هي ثائرة بطبعها ولا شيء غير ذلك. تستطيع أن تقاتل في سبيل الحقّ، لكنّها عاجزة عن شرحه للآخرين. ما ينقصها كان نصف صبري، وما ينقصني نصف شجاعتها. إنّها لا تهاب، لا تيأس، لا تخاف الحياة، دون أن تدري لماذا، ودون أن تحاول أن تجعل من هذه الصفات الطيّبة صفات واعية. كانت صبيّة. فارعة القامة. سمارها الحنطيّ ينضج بنضج الأنثى، غير أنّ الحب لم يكن شاغلها كما هي حال امرأة في مثل سنها ونضجها. ولقد سمعت أمّي تقول لها: «أنت بنت بالخطأ». كان أفضل أن

تأتي صبيّاً» فتقول: «يا ليت!» ثم تستدرك: «سنرى ما يزيد الصبيّ على البنت، وبماذا ينفع أكثر» وإذ أهرع للإشادة بها، لتقدير كفاءتها، تجيبني بكثير من الودّ: «أنا لا أعنيك أنت. أنت ابن مدرسة.. وأنت طيّب، ذكيّ، لكنك لا تحسن المجابهة»، وكنت أعجب من فراستها هذه، ومن قدرتها على تقويمي بكلمتين. وكثيراً ما فكّرت على هذا النحو: «هي شجاعة لأنها معافاة.. لماذا، يا ربّي، جعلت أختي في هذا الجسم الكامل، وجعلتني في هذا الجسم العليل»؟ لكني أبداً ما حملت نحوها حسداً أو ضغينة، على العكس، كنت معجباً بها، وبقيت معجباً بها طوال حياتي.

القامة المترفة، كحورة في عزّ نمائها، والامتلاء دون سمنة، والشعر الأسود، والعينان السوداوان، والخصر الدقيق، والساعدان الرخصان، كل شيء فيها: سماتها، تقاطيعها، نبرتها، ابتسامتها، جسارتها، كانت تؤهّلها لصفة الجميلة بجدارة، وكانت لذلك كلّه محبوبة من أبويّ، ومنّي، ومن أختها الأصغر، وأختها الأكبر. كانت مثار إعجاب لا تتقصّده ولا تطلبه، وكانت على ثقة من أنّ الزمن سيكون إلى جانبها، دون أن تمتلك مقوّمات هذه الثقة من علم أو جاه. عملت خادماً منذ الصغر، وحرمت من المدرسة، وكافحت في بيوت الناس، ولم تترعرع في وسط عائليّ يساعدها على اكتساب معارف تصبح معها جديرة بقوّة المحاكمة وقوّة الحجّة، ومع هذا فقد كانت على درجة عالية من النباهة وسرعة البديهة.

ولما حكيت لها عما يدور بيني وبين عبدالله الناطور، سألتني بحدّة:

ـ ولماذا تذهب إليه إذا كان كما تقول؟

وبعد أن لاحظت اضطرابي وصمتي قالت مع ابتسامة:

ـ هل السبب رئيفة؟

ـ رئيفة فتاة طيّبة.

ـ ولن تقول لي إنّك تريد اكتسابها لقضيّتك..

ـ أحاول.. لكنّ والدها حشا رأسها بكل أنواع الترّهات..

ـ وأنت تفرغه منها.. أليس كذلك؟

ــ أجد ذلك صعباً جداً . .
ــ هذه الجرادة تفكّر مثل ذلك الضبع .
ــ هي ليست جرادة .
ــ زعلت؟ إنما كنت أمزح . .
ــ ليس من حقـك أن تمزحي عـلى هـذا النحـو . كنت أحسب أنّها صديقتك . . إذا كنت طيّبة معي كوني لطيفة معها . .
ــ يا ليت . . هي صغيرة وبائسة ، لا أحبّ البائسين دون سبب . .
ــ ونحن؟ ألسنا بؤساء؟
ــ أنا لست كذلك . . ولا أريد . .
ــ الفقراء بؤساء بالضرورة . .
ــ لا ، ليس ذلك شرطاً . أعرف فقراء ليسوا بؤساء . . البحّارة ، في إسكندرونة ، لم يكونوا بؤساء ، كانوا يقاومون السلطة الفرنسية ، وينتزعون رزقهم من الصخر . .
ــ البحارة شيء آخر . .
ــ لماذا؟ كلّنا يجب أن نكون مثلهم . . ثم ماذا يجدي البؤس؟ ما نفع أن نكون ضعفاء؟ أنا لا أحبّ الجبن ولا الجبناء . . رئيفتك هذه جبانة ، ولن يكون لك نفع فيها . .
ــ أنا لا أريد منها شيئاً .
ــ ولماذا تدور حولها؟
ــ هي صديقتي لا أكثر . . نحن ، في هذا الريف ، لا أصدقاء لنا ، أليس جميلاً أن يكون للمرء صديق؟
ــ بلى! أنت تقول الحقّ . . مؤسف ، ليس هنا من نصادقه . . إنني دون أصدقاء .

قالتها بأسف عميق فوجئت بها تعترف على هذا النحو . أشفقت عليها لأنها دون أصدقاء . كانت صريحة . صراحتها كانت دائماً محبّبة . لا تحاول ،

تحت أيّ عذر، أن تراوغ. مستقيمة كالطلقة. رضيّة كالنسمة، لكنها جبّارة. رائع أن نعترف بما ينقصنا. أنا أخوها، لكنّني لا أعوضها عن الصديق. والصديق الذي تربده ينبغي أن يكونَ على مثالها، وستتعب. ربما لن تجد. ومن يدري، فقد يطامن الزمن من تطلّعها، قد يرميها بزوج يكون نقيضها، وفي حال كهذه أيّة لهفة للفارس الذي لم يأت، ستظلّ ترافقها؟

حزنت شيئاً ما لأجل أختي. كانت أكبر منيّ لكنّني كنت أغار عليها، أخاف أن يمسّها ضرّ. أن تتصرّف بشكل غير لائق، وكانت تضحك من وساوسي. تراني محافظاً. لا أرضي إن هي تزينّت، وعندما في المدينة، استخدمت أحمر الشفاه لأوّل مرة ثار بيني وبينها عراك شديد. ضربتها، ضربتني بدورها، وبعد ذلك بكت، قالت لي: «أفهم سبب تصرّفك هذا. أنت تخاف كلام الناس..» انكرت، لكنّني كنت أخافه جداً، وكانت حياة العائلة، في تشرّدها الطويل، وما جرى لنا، مصدر هذا الخوف، وهذا ما فهمته، لكنها لم تقل ذلك، وأصرّت على أن تكون كالفتيات الأخريات، وكان ذلك من حقّها، ولكنني كنت أريد حرمانها منه، وكانت هي، في الدفاع عن هذا الحقّ، صلبة لا تبالي باعتراضاتي.

ولم أقل لها إن موقفها من رئيفة كان جائراً. لم أشأ ان أتكلّم على رئيفة بأكثر مما فعلت. غير أنني لم أخرج من الحديث مرتاحاً. إضافة إلى ذلك كان وصفها بالجرادة مهيناً. ربما كان جرادة في قوامها، في هزال بنيتها، لكن من يملك الحقّ أن يعيّرها بذلك؟ حتى أختي لا تملكه. لقد أحببت رئيفة. ولا أريد سماع كلمة واحدة تنتقص منها، ولهذا كان التشنيع عليها موجعاً لي، وقد انعكس ذلك في ملامحي، وأدركت الأخت أنها أساءت إليّ بمزحتها، وحاولت أن تصلح ما أفسدت، لكن اعتكاري لم يتبدّد، وبقيت العشية كلّها بعيداً عنها، منفرداً، نافراً، كأنّ شيئاً انهدم في ذاتي، كأنّ لعبة جميلة تحطّمت بين يديّ.

اعتذرت عن العشاء، زعمت أن لا شهيّة لي. سترت جرحي بردائي، حرست البورة دون أن أتبادل الحديث مع أحد. خلوت بنفسي رغم وجود

الآخرين إلى جانبي. كنت غير واثق إلى حدّ اللعنة. كلمة من أختي بدّدت الكثير من خطوط الصورة التي أحملها عن رئيفة. مزّقتها بأظافر حادّة، قلبتها قلباً، رسمتها رسماً كاريكاتورياً، وهذا الرسم، الذي كان غير صحيح، لم يقابل منّي بالرفض، لم أنبذه وأنسَهُ، ولم أبتسم لمجافاته الواقع، بل حزنت، وكان حزني شديداً، كان نابعاً عن مشاعر هزيلة، عنكبوتية، تكفي اللمسة لتحيلها هباء.

تقدّم الليل ونام الجميع، بقيت وحدي ساهراً، كان الطفل فيّ نامياً على حساب الفتى. لم أعرف أن أتصرّف كرجل، أزعجتني هذه الفسولة بأكثر مما أزعجني الوصف. في حال كهذه أنقلب إلى الداخل. يدخل بعضي في بعضي، أنكمش، أتقفّه، لا يعود لي الزهو الذي كان. أمارس نوعاً من تعذيب الذات، تنهار أشيائي وأغدو أمام لوحة سوداء. أستشعر الحاجة للتعويض، لا ألوم الآخر بل نفسي. تتضاءل هذه النفس، وتبعاً لها تتضاءل شخصيتي، تتفتت، أحتاج لوقت طويل كي أرمّمها، باذلاً جهداً كبيراً في محاولة مستميتة لدرء آثار خيبة الأمل التي تملّكتني.

كان الليل الصيفيّ بهيّاً كعادته، كان من حولي مثله كلّ ليلة. لكنّه، الليلة، لم يكن كعهده في نفسي. الاحساس المرضيّ جعل الأشياء مريضة. السماء الزرقاء، النقيّة، بدت كئيبة، الفضاء ضاق، الريح فسدت، الأفق انسدّ، ومرارة شاعت في فمي، كأنني فقدت عزيزاً، كأنّ العاطفة التي كنت أقابل بها رئيفة قد ضاعت، ضاعت ولن تستعاد، ولن يكون لها ذلك الأثر، ولن أستطيع، بعد اليوم، أن أفتتن بها، وأن تلك الكلمة، ستنتصب جداراً ما بيننا، وستظلّ تحفر في كبدي ما حييت.

لماذا تعتريني مشاعر كهذه أمام أيّ نقد يوجه إليّ، أو يوجّه إلى أيّما شيء أعزّه في الوجود؟ تراني أصدق ما أسمع؟ أقتنع به؟ أتأثر إلى درجة الإحباط؟ وجودي إذن رهن بغيري، كلمة تشعلني وأخرى تطفئني. التهب حماسة أمام الكلمة الطيبة، وأبرد كالضفدع أمام الكلمة السيّئة؟ أكون عديم القناعة بذاتي؟ ذوقي؟ رأيي؟ حقيقتي؟ أكون فاقد التوازن، إلى درجة أن

عالمي يختلّ لمجرد أنّه تلقّى ضربة من أحد؟ أنكسّر كزجاجة رقيقة من أول صدمة خارجية؟ أذوي كوردة لأن يداً هصرتها بأكثر مما تحتمل؟ وفي حال كهذه، كيف سأجابه الحياة؟ من يسندني إذا كنت أحتاج إلى السند في كلّ أمر أواجهه؟

أسائل نفسي، الآن ، كيف تغيّرت، لا أزعم أنّني تغيّرت تماماً، فالرواسب لا تزول بسهولة. ما زلت، في مواجهة الحياة، أحتاج اليد التي تسندني، أنا مستطيع بغيري أقول، وفي شؤوني اليومية، أبحث عمّن يتعهّدني، من يحلّ مشاكلي، من يقدم إليّ الحساب ناجزاً، وأنا أقوم بدفعه. غير أن أشياء كثيرة تبدّلت، والفضل فيها يعود إلى الأفكار التي أحملها، الأفكار التي أنقذتني جسدياً وروحياً، وشدّت من عزيمتي، جعلتني أثق بنفسي، أشيائي ، ودفعتني إلى المواجهة دون أن أنكمش عند الصدمة، وأذوب عند الإحباط ، غدوت لا أكترث بالنقد يوجّه إليّ.

كل ما صار لي في الحياة اكتسبته اكتساباً، كلّ ما حصلت عليه دفعت ثمنه من عرقي ودموعي، ويبقى فارق واحد، أحسب أنّه مفيد. هو أنني لا أغالي في الأشياء التي اكتسبتها وحصلت عليها. ليس هذا من قبيل التواضع بل الإيمان، أؤمن أنّني فعلت بعض الأشياء، حقّقت بعض المنجزات، في الحدود التي بلغتها طاقتي. تعلّمت عمري كلّه، أن أحبّ صنيعي بأقلّ مما أحبّ صنيع غيري، وإذا كان هذا قد جنّبني الغرور، فإنّه ، من جهة أخرى، أفقدني بعض الزهو، ما دام الاعتداد، في العمل الإبداعي ، يعطي الإنسان أن يكون هو، ألاّ تؤثّر عليه كثيراً، تجريحات الآخرين.

تلك الليلة لم أغادر البورة. كنت منكسراً من الداخل. عبثاً أبحث في ذاتي عن مقوّمات أفضل للحوار مع غيري، لاقناعه بوجهة نظري، لحمله على حبّي، لربطه بي من خلال الإعجاب، دون أن أفطن ، إلى أن إعجاب غيري، يحتاج إلى ركيزة ما، عليّ أن أنشئها، أثبتها، أجعلها تكأة في تطلّعي إلى هذا الاعجاب الذي لا يتوفّر لمجرد أنني أريده، أنشده، أسعى إليه، وإنما لأن لي صفات الفنّان أو المناضل، الصفات التي لا تُبلَغ إلاّ بإفناء

العمر في طلابها، بينا أنا في مقتبل العمر، لم أكتب إلّا مواضيع إنشاء، هي سرّ بيني وبين نفسي، ولم أناضل إلا بنثر بعض الآراء الصحيحة ولكن الفجّة، وعليّ أن انتظر طويلاً حتى تنضج ثماري التي هي إضمار في نسغ الغيب ما تزال.

لقد حرمتني الطبيعة من المؤهّلات الفطرية. لم أمنح جمالاً في الوجه، الصوت، اليد، ولم يكن أهلي على مسكة من غنى، وليس لي من الدراسة إلّا حظ ضئيل، وجسمي الناحل لا يكفل لي أن أعمل عملاً يحتاج إلى قوّة العضل، والموهبة التي هي ملعقة ذهب لم تكن في فمي، وهكذا الفتني أمّي، منذ ولادتي، في بحر متلاطم، مكتوفاً، عاجزاً، ورغبت أن أسبح، وأن أجتاز الضفّة إلى المدى الذي يتطاول اليه طموحها، لكن هذه الحقائق المثبطة كلها، كانت واضحة، بارزة، مكشوفة لي تماماً، وعليّ، في شوط السباق، الشوط الذي يفرضه وجدان حيّ، لفتى أعزل، أن أركض وأن ألحق بمتسابقين بيني وبينهم، بحكم النشأة، الدراسة، العائلة، مسافات طويلة.

أفكاري هذه هاجمتني تلك الليلة التي سمحت أختي لنفسها أن تصارحني فيها. كانت الفكرة ذئباً، تعوي، تكشّر، تهاجم. وكانت أفكاري ذئاباً نهّاشة، تحيط بي من كلّ صوب، فاغرة الأشداق، بارزة النيوب، مسعورة النظرات، وبرغم مجهود مضن، متواصل، للفوز بأمل، اتخذه سلاحاً في المواجهة، فإنّ الأبواب كانت مغلقة، والأرض التي أحفر فيها كتيمة، لا ريّ ولا ماء، ولم تكن لي قابلية لصنع أية كرامة ترطب حلقي الجافّ، لشدّة ما أعاني من تقاطعات الأسى الذي خيّم عليّ، في وحشة ليلي الطويل ذاك. لقد بهظتني طفولتي الشقيّة، وكان مقدّراً لي، في معاناتي الأليمة المتواصلة، أن أقضي، أن أضيع، لفرط ما كنت ناحلاً حسّاساً، لكنّ ذلك كلّه، لم يحل بيني وبين التشبّث بالحياة، والكفاح لشقّ طريقي الذي أدمى قدميّ بأشواكه ولم يزل.

في الفجر تبدّل حالي، ابترد دماغي. انزاحت الصخرة عن صدري،

صار بوسعي ان أرتّب افكاري. أرى إليها عن بعد، أزنها دون تطفيف للكيل. أناقشها بحيدة. أصدر فيها حكماً غير جائر، غير متعسّف، غير صادر عن ذهن خرب، مُثقل باليأس. السماء، فوقي، انقشعت. صارت النجوم المتراقصة مرئيّة مني، وصارت أبهى، أحلى، وأشدّ قربا. السماء أشفقت، بدت رحيمة، في مغارها ضوء، في بستانها خضرة، في إطلالتها انس، ولم تعد خيمة من شعر أسود. عادت زجاجيّة، حانية، وفي الرجاء المتصاعد إليها، أسقطت عليّ باقات زهر، ذات عطر ملون، زاهٍ، فيه وحده وجدت العزاء والراحة.

وراح الليل، شيئاً فشيئاً، يتقلّص. لم يبتعد مهزوماً. كان هو نفسه يتراجع، محكوماً بولوج النهار فيه، والدنيا، من حولي، في طراوة الصبح، تتضوّأ، والأشجار خلعت قبعاتها الضخمة، السوداء، وظهرت، بجذوعها، فروعها، اغصانها، كالأيدي المسحورة، المرفوعة إلى فوق، في ابتهالات صامتة، واليقظة تدبّ، باعثة الانتعاش في الأرض، هذه التي كان يخيّل إليّ أنّها تتنفس، وأنّ لتنفسها همساً، شذى، لوناً فضيّاً، والريح الصباحيّة، المدفوعة بمراوح غير منظورة ، تهبّ من كل الجهات، حاملة إليّ طمأنينة تتسرّب من فمي وأنفي وعيني، وتستقر بين ضلوعي، مرطّبة تلك الحنايا التي كانت تحترق بوقدة هاجرة من الصحراء.

بعد ذلك أعلنت الجمال عن مقدمها برنين أجراسها. كان هذا الرنين، في تلك الأصباح، يأتي موسقاً، غيره في الأمسيات. كانت الرنّة حمامة، ومن الرنّات المتابعة، المنغّمة، تتطاير الأسراب، نشطة مرحة، بهيجة، مؤذنة بمهرجان حافل، صاخب، لكائنات لا تعرف كيف تنبعث، لكنها، في لحظة، تتشكّل وتثب، وتملأ الجوّ من حولي حياة حلوة، متحركة، متلوّنة، متكاثرة، متبدّلة، تشدّني إلى الاندغام فيها، ناسياً ما كان يعتلج في ذاتي من هموم. وكانت الطمأنينة تأتي هديّة صباحيّة مفعمة بالسكينة، معلنة اختفاء الظلمة والأشباح والهواجس، ويأتي معها الشعور بالراحة، والرضى، وانتهاء نوبة الحراسة.

لقد أحببت تلك الجمال، لا بما هي حيوانات أليفة، ومخلوقات لطيفة، بل بما هي بشيرٌ بغدٍ جديد، وعلى رنين أجراسها كنت أدخل خيمتنا وأستسلم لرقاد هنيء، عذب كالخوخة الناضجة. كنت، عندئذ، ألتمظ خوختي، أتلذّذ بمذاقها، وأهدأ، متمدّداً على فراشي، في شوق للنعاس الذي لا يلبث أن يقبل، ويطبق جفنيّ، ويُسلمني إلى لذّة النوم، كطفل أمضى ليلة في مذاكرة صعبة لدرس من دروس الحياة المعقّدة بمعاناتها. كنت أنام بعمق، وسعادة، واسترخاء طفل، وبراءته أيضاً، وآخر ما أسمعه، من العالم المحيط بي، رنين تلك الأجراس المعلقة، كقلادات، في رقاب الجمال التي تتفرّق، وتدور بالخيمة، وأسمع هسيس العشب وهي تقضمه بأسنانها، وتجمعه بشفاهها الممطوطة، وتختزنه لتجترّه وهي ذاهبة آيبة بين المعصرة والبورة.

أفقت في الضحى. كانت الشمس تغسل الخيمة بشلال أشعّتها. الظلّ مال إلى جانبها، فتعرّض الجانب الذي أنام فيه إلى وقدة وهج كاوية. مسحت العرق عن وجهي، تمطّيت، ذكرت ليلة أمس، عبست بعد إشراقة، تمنّيت أن أبقى حيث أنا، في خلوتي التي توّفر لي جوّاً من العزلة يتيح لي أن أستأنف التفكير بهدوء. غير أن الحرّ الشديد، وضرورة الخروج إلى العمل. وهيئة البورة الكئيبة بوجود المطعون، كلّ ذلك دفعني إلى النهوض، فالاغتسال، وتناول كسرة خبز مع حبّات من الزيتون، هي، الآن، فطورنا وطعامنا اليومي.

كانت الشمس قد لفحت جرة الماء، ولهذا عافته نفسي. وكان المطعون أمام خيمته، وراء طاولة خشبية متنافرة الألواح، عليها أوراق مثقلة بحجارة كي لا تذروها الريح، والمطعون جالس يراجع حسابات الأمس، وعلى رأسه تلك القبعة البيضاء، المتّسخة، من الفلّين، وهو، بشكله غير المتوازي، يصدم الرؤية، ويبعث في النفس إحساساً بالكره والغثيان. صرت أنفر منه. نفوري كان تامّاً لا صلح معه، وكان منطلقاً من شعوري بالقرف أن نجاور مخلوقاً مؤذياً. فقد تمادى في عدوانيّته، تجاه الفلّاحين،

وبلغني من أمّي أنه منع عائلة الفلاح صخر من العمل في الكرم. كان ربّما ما يزال سجيناً بسببه، والظاهر أنه لم يتشفّ كما يجب، ولم يجعل حكّة اللؤم فيه تهدأ؛ فحاول التحرّش بالزوجة، وزعم أنّه قادر، لو طاوعته، أن يفرج عن زوجها، ومنّاها بوعود كثيرة، ثم هدّدها، ولاحقها بالأذى، فلما امتنعت عليه طردها من الكرم.

هذه الأخبار عن إساءاته المتكرّرة، المتواترة، كانت تدعوني إلى المساءلة عن صبر الفلاح، ومدى قدرته على الرضوخ، وتحمّل الاهانات. وبعد طرد زوجة صخر، صرت على ما يشبه القناعة أن الفلاّح في الريف مستلب، مستضعف، لا يرجى منه نفع. ذلك أن المطعون كان فرداً، صيحة، كلمة تأنيب، شتيمة، لكن أحداً، سوانا، لم يوجّه إليه إهانة، لم يردّ في وجهه، أو يوقفه عند حدّه، ولهذا فإنه تسلّط، حتى غدا في قسوته على البورة، يفوق قسوة الشوباصي في القرية.

من جهتنا كفّ عن التدخل في أمورنا. ابتعد عنّا بما يكفي لكي نعيش في جواره ولا نكلّمه. الأخت كانت له بالمرصاد. وكان يخافها، الفلاّحان على البورة تجنّبانا كي لا يثيرا غضبه. الأمّ وحدها بقيت تحيّيه، برغم كل ما بذله من جهد لإقناعنا أنه لم يتسبّب في سجن الوالد، وأن وشايته كانت منصبّة على الفلاحة بدّور، لأنها سارقة. أنا كنت مكلّفاً بنقل الزيتون الذي نجمعه إلى البورة، وكنت أستخدم، أوّل الأمر، الحمار الذي يملكه أحد الفلاّحين، فأوعز له ألاّ يسمح لي باستخدام حماره، وعندئذ أصبحت مضطراً إلى نقل الزيتون على ظهري. كنت أحمله من أقصى الكرم، وأنوء تحت ثقله، ثم صارت الأخت تساعدني، لكنّني رفضت أن توصل أيّة كمية إلى البورة. كانت تحمل الكيس إلى مقربة منها، وأقوم بإيصاله إلى القبّان، دون أن أتفوّه بكلمة واحدة. غدا الصراع بيننا صامتاً. كان صمتنا هذا يقتله، وكنّا نتمسّك به في مظهر للتحدّي السافر، وكان الجميع يلاحظون ذلك، وهذا ما يجعل هيبة المطعون مثقوبة، معرّضة للهزء، حتى بالنسبة لمصطو الجمّال.

أخيراً ضاق ذرعاً بهذه المقاطعة. كنت قد أفطرت وخرجت متوجهاً إلى الكرم، حيث أهلي، وكان يراقبني ولا شك، بدليل أنه رفع رأسه وأنا أمرّ بطرف البورة، وناداني:

ـ هيه، أنت!

ـ ماذا تريد؟

ـ إذا كنت لا تستطيع السهر، فسأجد من يحرس البورة بدلاً عنك. إنّنا نعمل هنا ولا نهرِّج.

ـ ومن قال لك إنني لا أستطيع السهر؟ ثم ماذا تعني بالتهريج؟ هل ما نهض به من عمل مُضنٍ يُعدّ تهريجاً؟

ـ بلغني أنك تنام.. أريد ناطوراً لا ينام.

ـ هذا كذب.. ما بلغك كذب.. وتستطيع التأكّد بنفسك..

ـ هل أنتم وحدكم الصادقون؟ أليس هذا عجيباً؟

ـ لا صادق بيننا بوجودك.. أنت، بشخصك، عجيبة الدهر في الصدق!

صاح:

ـ أتسخر مني.. تعلّمت لهجة أختك؟ تكلّمني بهذه اللهجة وأنت أجير عندي؟

ـ دع أختي جانباً.. قل ماذا تريد؟ أرى في وجهك شرّاً.. تريد أن تدبّر لي مقلباً؟ في نيّتك أن تبعث بي إلى السجن أيضاً؟ إنني ناطور، جامع زيتون، سمّني ما شئت، ولكنّني لست أجيراً عند أحد.

ـ أولاً أنا لم أبعث بأحد إلى السجن.. وثانياً لا أريد بك شرّاً.. قم بواجب الحراسة كما ينبغي.

ـ الخلاصة.. ما هدف الاتهام هذا؟

ـ لماذا لا نتكلم بهدوء؟

ـ تتهمني وتريدني هادئاً؟

ـ أنا لا أتّهمك، أنا، عدم المؤاخذة، أسألك . .

ـ وأنا جاوبتك . .

ـ ألا تعرفون أنني المسؤول هنا؟

ـ نعرف . .

ـ ولماذا تتشوفون علي؟

ـ ماذا تريد . .؟ نركع لك؟

ـ أستغفر الله، ما أنا، عدم المؤاخذة، إلّا عبد حقير . .

ـ قل هذا لغيري .

ـ وأنت؟

ـ أنا حارس على البورة إلى أن يعود الوالد الذي سجنته . .

صاح وقد احتقنت أوداجه :

ـ قلت لكم مئة مرة إنني لم أتسبّب في سجنه، فلماذا لا تصدّقون؟

ـ نصدّق على طريقتنا . . .

ـ وطريقتكم أن تقاطعوني . . .

ـ لا شغل لنا معك . .

ـ وحين أكون الوكيل على البورة؟

ـ تصرّف كوكيل ودعنا وشأننا . . أقلع عن هذا الكلام المردّد . . أليس عندك غيره؟ وإذا لم يكن، فماذا تريد منّي؟

ـ أريد أن نتفاهم . . ننهي هذه القطيعة . . تقول لأختك أن تطامن غرورها . . أن تتخلّى عن شراستها .

ـ نتفاهم على ماذا؟ وهذه القطيعة ما سببها؟ أنا غير مسؤول عن أختي،

إنها راشدة وتعرف أن تتصرّف . .

ـ أختك لا تريد أن تتصرّف بعقل . . نظرتها إليّ قاسية، تحمل تهديداً مبطّناً، وقبلها والدك نظر إليّ مثل هذه النظرة . . توعّدني، كأنه يريد أن يقول في المدينة نتحاسب.

ـ إذا كان بينكما حساب فلا بد أن يُصفّى . . من عادة والدي أن يصفّي حساباته مع الآخرين . .

ـ أنت لا تتهدّدني بدورك . . أليس كذلك؟

ـ أنا لا حساب لي معك . . أما والدي فشأنه شأن آخر . . أنت البادئ والبادئ أظلم . . تحمّل نتيجة ما جَنَتْه يداك . .

ـ تظنّ هذا؟ أنت تعرف والدك جيّداً، تحسب أنه ينتقم؟ أنا، عدم المؤاخذة، لا أريد الدخول في ثارات مع ابن مدينتي . . نحن، عدم المؤاخذة، لن نؤبّد في البورة، وحين نلتقي في المدينة يحسن أن نكون أصدقاء . . لنتذكّر الخبز والملح . .

ـ قل هذا لنفسك . . تذكّر ما كان بيننا . . جئنا كأهل، ونحن، كما قلت عند وصولنا، أقرباء . . أما تذكّرت كل ذلك حين سعيت إلى سجنه؟

ناح بصوت أراده صاخباً فحال جبنه دون ذلك:

ـ أتذكّر كل شيء . . إنني لا أنسى شيئاً، أنا، عدم المؤاخذة، رجل طيّب . . أقوم بواجب وكالتي . . دعوني وهؤلاء الفلاّحين . . عشر سنوات وأنا وكيل، وقبل ذلك كنت في سلك الدرك، أفهم لغة هؤلاء الناس . .

ـ وما هي هذه اللغة؟

ـ العصا . .

ـ ألا تخشى أن ينتقموا منك؟ الظلم يولد الرّغبة بالانتقام . . إذا جرت على الجبان صيّرته شجاعاً، وهؤلاء الفلاّحون ليسوا جبناء . .

ـ دعني منهم، دعني منهم.. أنا، عدم المؤاخذة، أعرف كيف أؤدّبهم.. أفعل ذلك ولا أبالي.. لا رأس بينهم يرتفع.. ما أحسب حسابه هو الدك.. رماني بنظرة تهديد وهو يذهب مع الدرك.

ـ إن يكن قد هدّدك فسينفّذ تهديده.. بيت «ف» لا يستطيعون حمايتك.. والدي لا يعرف ما هو الخوف، كان بحّاراً..

ـ من أجل ذلك أريد التحدّث مع والدتك، مع أختك، معك.. الأفضل أن ننهي هذه المقاطعة.. أن نعود أهلاً كما كنّا.. وأن يعرف الدك أنّ ما جرى خطيئة وصارت.. وإذا كان الموسم، هذا العام، في نهايته، فهناك مواسم أخرى، أنا، عدم المؤاخذة، لن أتخلّى عنكم.

ـ نحن الذين سنتخلّى عنك.. طلوعنا إلى الزيتون لن يتكرّر.. هذه كانت سنة هجرة.. وكان ينبغي أن تقدّر ظروفنا، أن تقف معنا موقفاً طيّباً.. وعلى كلٍ دع الأشياء للمستقبل..

ـ لنحاول أن نصفّي ما بيننا لأجل المستقبل.. قل ذلك لأمك.. قل لها إنّي نادم على ما فعلت.. سأعوض عن تقصيري حيالكم.. القبّان بيدي.. والبورة تحت تصرفي..

نظرت في وجهه الطافح، وجبينه المحدّب، في جسمه مختلّ التوازن، في عينيه العكرتين، اللتين تطلّ منهما نظرات ثعلبية، في كرشه وساقيه القصيرتين، ورغبت في تعذيبه. أنا لا أدري ما سوف يكون موقف والدي، لكنّه أغلب الظنّ، لن ينسى ما فعله به. إن دعوته التي تحمل المساومة لن تفيده في شيء. ما معنى قوله إنّ «القبّان في يدي؟» هل يحسب أننا نرضى بزيادة بضعة كيلوات من الزيتون؟ قد تسامحه الأم، وقد أسامحه أنا، بل إنني سامحته، أنا لا أستطيع أن أحمل حقداً، ولم يلحقني منه أذى، لكن موقف والدي سيختلف. فهو الذي تعذّب تحت سياط الدرك، وهو الذي دخل السجن..

غادرت المطعون دون استجابة لدعوته إلى التفاهم. أشحت بوجهي عنه

ومضيت، آسفاً أنني أضعت وقتي في سماع ثرثرته عن الطيبة والمصالحة. قلت في نفسي: «ليذهب إلى الجحيم. والدي قد لا يكترث به، إنه سيحقد، إذا حقد، على أسياده، لكنّه، هو، غير جدير بالخصام، إنه عبد مثل والد رئيفة، مثل كل هؤلاء المرتزقة الذين يحرقون البخور، دون جزاء أو فائدة».

مضيت عبر الكرم إلى كتف الوادي. أعرف أنّ رئيفة تنتظرني هناك. تجمع الزيتون في هذه البقعة، وسأنبرُ لها بعض الزيتونات ونتحدّث. أختي، أمس، شوّهت صورتها في نظري. والدها، في كلبيّته، في عبوديته، أقام حاجزاً بيننا، لكن وضعي، في هذا الفقر، وهذا البنطال القصير، وهذه الحياة الملعونة، هي الحاجز الأكبر. لم يسبق لي أن أحببت، لكنّني انتهيت، ليلة أمس، إلى أن الحبّ لم يخلق لأمثالي. قد يكون هذا حكماً مخادعاً، تنقصه الموضوعية، يخلط بين العاطفة والواقع، لكنّني، أنا، لا أستطيع، في مثل حالي، أن أتقبّل عاطفة هي بمثابة الصدقة. رئيفة تحتاج إلى رجل، إلى زوج، إلى حياة عائليّة، ومن الخير لي، ولها أيضاً، أن يبتعد أحدنا عن الآخر، أن ينسى، وأن يفكّر باللقمة وحدها.

حين رأتني قادماً ابتسمت. توقّفت عن العمل وابتسمت. كانت طفلة حقيقيّة، برغم نضج أنوثتها، وكان يمكن، لو كان آخر في مكاني، أن ينتقل بعلاقته معها خطوة إلى أمام. أن يقيم علاقة على أساس غريزيّ بحت. أن يختلي بها، يقبّلها، يضمّها، يلهو بها، لكنّني، أنا، لن أقدم على ذلك أبداً. محال أن أتّخذ منها ألهية. لست راهباً، وأتحرّق شوقاً إليها، وفي الليالي، سواء على البورة، أو في الفراش، تهاجمني أحلام حمقاء، جسمها ميدانها، لكنّني، في النهار، أزجر نفسي، أردعها أن تسيء إلى البراءة ولو بلمسة أنكرها في مثل وضعي، لأنني، بمثالية لا أقوى على التخلّص منها، أنكر الحبّ الذي ليس له سند سوى عاطفة مراهقة.

صاحت وقد اقتربت منها:

ـ جئت أخيراً؟ حسبتك لن تـأتي . . لم تكن، مسـاء أمس، مســروراً بالحديث مع والدي .

ـ كيف عرفت؟

ـ كنت أراقبك . .

ـ ليس كما تقولين تماماً . . كلّ ما في الأمر ان عقليّتي تختلف . . نحن جيل جديد . .

ـ والدي لا يستطيع أن يسمع حديثاً ضد الأسياد .

ـ والدك، كيف أقول؟ لا بـأس . . والدك لا يعجبني، وهـذا كلّ مـا في الأمر . .

ـ زعلت منه؟

وبعد وقفة :

ـ وهل تزعل منّي أيضاً؟

ـ لن أزعـل منه ولا منـك . . أفهم وضعـه وأعـذره . . هـذه هي نتيجة الجهل . لو ذهب إلى المدرسة .

قاطعتني :

ـ أليس هذا من الوفاء؟

ـ الوفاء لمن؟

ـ لمن نعمل عندهم، للذين هم أولياء نعمتنا . .

ـ الوفاء جزاء الاحسان . . بماذا أحسن إلينا هؤلاء الأسياد؟

ـ ألا نأكل من خبزهم؟

ـ وتعبنا؟ هذا الشقاء الذي نلقاه هنا، ويلقـاه مثلنا الـذين يعملون في المعصرة، وفي الزراعة؟ تحسبين أنّ الأجر الذي نتقاضاه هو كل حقّنا؟ الأسياد يستثمروننا . .

ـ أنا لا أفهم، لا أريد أن أفهم. . نحن نعيش والسلام. .

ـ أنا لا أستطيع أن أعيش كيفما اتفق. . أريد حياة عادلة.

ـ إذن لن تتفق مع والدي.

ـ لن نتفق أبداً، وليس ذلك لأنه راضٍ بعيشه، بل لأنه، وهذا ما أثارني، يعتبر كلب الخواجه خواجه. . يضع نفسه في هذا المقام الذليل.

ـ أنت لن تشتمه أمامي أليس كذلك؟

ـ لا. . الشتائم لا تفيد. .

ـ وستحبّني؟

ـ لا أدري. أنت عزيزة عندي، غالية عليّ. .

ـ ألست حبيبتك؟

ـ لا. . لست حبيبتي. . وهذا لمصلحتك. .

ـ كيف. . لا تحبّني ثم تقول هذا لمصلحتي؟

ـ فقير مثلي لم يخلق للحبّ. .

ـ ألا يحبّ الفقراء؟

ـ بلى! ولكن ما هي نتيجة حبّهم؟ ماذا أستطيع أن أفعل وأنا أبحث عن كسرة الخبز؟

ـ أنت اليوم غيرك بالأمس. .

ـ ذلك أنّي فكرت. . الليلة الماضية قضيتها ساهراً مفكّراً إلى الفجر. .

ـ ألهذا لم تأتِ ليلاً كعادتك؟

ـ نعم. . ولن آتي أبداً. .

ـ ما هذا الذي أسمعه. . هل أسأت اليك بشيء؟

ـ أبداً. . أنا الذي أسأت إلى نفسي. . سمحت لها أن تنسى الواقع الذي نعيش فيه. .

ـ أنا لا أصدّق أنّك يمكن أن تنساني بهذه السرعة. . أن تفتح عيني وتدير ظهرك. . تجعلني أتعلّق بك وتقاطعني.

ـ وإذا كان هذا ما يجب؟

ـ أنا أيضاً أعرف ما يجب. . لماذا تحتكر الفهم وحدك؟

ـ لا أحتكر أيما شيء، ولكني أحكّم ضميري. . أنت فقيرة مثلي، بحاجة إلى رجل، إلى زوج، وأنا لست ذلك الرجل، ولن أكون لك زوجاً. . ألا ترين بأيّ حال أنا؟

ـ وإذا كنت أقبلك كما أنت. . وكنت أحبّك؟ لقد أحببتك منذ رأيتك. . شعرت حيالك بعاطفة قويّة، غريبة.

ـ وأنا أحببتك. . أكون كاذباً لو أنكرت، ولكن لا بدّ من التضحية. . ستنقضي أيام أخرى وينتهي موسم الزيتون. . في المدينة لن يرى أحدنا الآخر. . لا أعرف ما ستكون عليه حالي، قد لا أجد شغلاً، وقد تسوء حالي أكثر مما هي سيّئة. . فماذا نصنع بحبّنا عندئذ؟

ـ حين يحدث كلّ ذلك نفترق. .

ـ سيكون الفراق، بعد الاستمرار في الحبّ، صعباً. . علينا أن نفترق منذ الآن، هذا هو قراري. .

ـ علم أهلك بما بيننا؟

ـ أختي لاحظت فقط. .

ـ وهي التي طلبت منك اتّخاذ هذا الموقف؟

ـ أختي لا تتدخّل في شؤوني. . قد يكون لها رأي، لكن رأيها غير ملزم لي بشيء. . لم أعد طفلاً. .

ـ ولكنّك لست رجلاً ناضجاً. . هذا هو السبب في أنّك تفكّر على هذا النحو.

ـ حتى لو كنت رجلاً، وناضجاً، كنت سأتخذ هذا القرار. لا أريد أن ألهو بك وأتركك. .

– وإذا أردت ذلك أنا؟
– تريدين أن ألهو بك؟
– أريد أن تحبّني، وأن تستمر في المجيء إلينا كي أراك . .
– وما فائدة الرؤية؟
– وماذا يفعل الحبيبان سوى أن يرى أحدهما الآخر؟ ألا تشتاق إليّ إذا غبت عنك؟
– أشتاق . . أريد أن أراك كلّ يوم، كل ساعة، ولكن ما هو مصير كل ذلك إذا كنا سنفترق بعد أيّام؟
– وإذا رضيت أن تراني حتى نفترق؟
– لا أستطيع . . سأتعذّب . . أنت لا تريدينني أن أتعذّب . .
– وأنت، لماذا تريد تعذيبي؟ ألستَ أنانياً في هذا الموقف؟
– ربما، إنني لا أقنع بأوساط الأمور . . أنْ أحبّك يعني أن أحبّك بجنون . . أن تصبحي كلّك لي . .
– وأنا كلّي لك . . افعل بي ما تشاء . . لكن لا تتركني . .

قالتها بنبرة رجاء حارّ. هذه الخوخة السمراء، الناضجة، تريد أن تسقط بين يديّ، بل إنّها، الآن، بين يدي، لكن ماذا أفعل بها؟ وماذا أريد منها؟ ترى، لو كانت هي صاحبة فكرة المقاطعة، أما كان موقفي قابلاً لأن يكون كموقفها؟ قالت عني «أنانيّ»، ومن يجزم أنني لست كذلك؟ . . الأنانية، هذه القرحة، كم أتلذّذ الآن بحكها على هذا النحو المعيب . . ترغب وأنا أرفض. تطلب أن أبقى إلى جانبها، وأهدّدها بالمقاطعة. ترى، أستطيع مقاطعتها فعلاً؟ هل الذي في مثل حالي لا يحبّ؟ وهل هذا هو السبب في أن أختي لا تحبّ؟ إذا كان ذلك كذلك، وهو كائن، فعليّ أن أقتدي بأختي، وأن أوفرّ على نفسي عذابها، وأوفّر على رئيفة أن أخدعها بشكل لا يليق بفتى يحمل أفكاراً نبيلة، أو أنه يزعم ذلك.

وقفنا حائرين. بكت رئيفة. بكاؤها آلمني. تقدّمت منها. تطلّعت حولي.

لم يكن ثمة أحد، كان الكرم، في البقعة التي نحن فيها، خالياً. تناولت يدها. أعطتني يدها بغير تمنع. شددتها إلى صدري، فاستجابت، لم تقاوم. كانت تنتظر ذلك. ربما كانت تنتظره منذ التقينا. ضممتها. قبّلتها، كانت قبلتي الأولى. آه.. أيّة لذّة غريبة في مذاق الفم. مخمليّة الشفاه، والرضاب، ورائحة المسك، والشعور بأن دنيا جديدة، لذيذة، سعيدة، تنفتح للإنسان، كلّ ذلك، أعطاني إحساساً رائعاً لم أعرفه قبل الآن. ملامسة اليد استثارتني، تصاعدت الاستثارة مع تلاصق الجسدين، تصاعدت أكثر مع تلامس الشفتين، تفتّح الذكر في الجسم، تفتحت الأنثى، صار، الآن ما بيننا، حباً من نوع آخر، غريزياً، شهوانياً، مادّياً، لا يقيم وزناً لكلّ التحسّبات عن الفقر، والبؤس والزواج، إنه اللحظة المجنونة، المسعورة، الملتهبة كنار تحرق التصوّرات عن كل ما عداها.

ارتددت عنها ونظرت في عينيها، يا إلهي! ماذا جرى لعينيها؟ من أين هذا الاحمرار وهذا اللمعان؟ لماذا ترقرق ماء زجاجيّ فيهما؟ من أشعل البؤبؤين فتلظّيا كأن فيهما جمراً؟ أيّة خيالات من عالم الشوق، والرغبة، والنداء الجسدي، تفتّحت وأزهرت في بياض المقلتين؟ والرجفة في التقاطيع، والارتعاش، كما عند مسّ الكهرباء، ورائحة الأنوثة، وأشياء تُحسّ ولا تقال، لا توصف، كأنما تبدّل كل شيء في لحظة عاصفة، كما في الطبيعة حين يهبّ إعصار ويلفّ الكائنات بريح هوجاء، كاسحة، محطّمة، ثائرة إلى أبعد حدود الثورة. عدت إلى ضمّها، استجابت بغير كلام، همس خفيف فقط، تأوّه كأنّ الروح تفارق البدن، اشتعال غدا معه الجسد حارّاً كأنّ ناراً أضرمت فيه من الداخل. لم تكن لديّ مرآة. وما كنت أفكّر فيها، ففي عيني رئيفة رأيت نفسي، وكنت على مثل حالها حرارة واستجابة الآن، في هذه اللحظة، تدفقت الموجة البكر وأفنت نفسها على الصخر. ارتطمت، علا الرذاذ الأزرق. هسهست حصى، أطارت الريح الرمل، جُنّ الشاطىء، السماء شفّت، ظهرت رؤى، حدثت معجزة، صار كلّ شيء واضحاً، ودونما تجربة، كنت قادراً، وراغباً، أن أقبّلها حتى الارتواء.

انفصل أحدنا عن الآخر. ومن جديد نادى أحدنا الآخر. يا لغرابة التجربة! أهذا ما يحدث بين شابين؟ هل هذا ما يقال له حبّ؟ نحن كاسيان عاريان. في ضوء النهار، في البرّيّة المسحورة، بين الأشجار التي رأت وشهدت، فوق أرض لم تعد أرضاً. صارت عوسجة. تحت سماء فاغرة الفم، تحدّق منبهرة إلى لعبة معدية. أيتها السماء! يا منبسطاً أزرق، مدّي يديك وارفعينا إليك. اخطفينا في سُحبك، انزعي أقدامنا من التربة، خذينا إليك، غيّبينا في مغارتك النورانية، احجبينا عن الأنظار ببلورك الشفّاف، دعينا نَفِن، في إغماءة ندخلها مرة وإلى الأبد.

السماء لم تجب. السماء لا تجيب. ترصد، تراقب، تنصت. أما أنا فكنت ارتجف. أتلفّت خائفاً، أراقب الجهات الأربع مذعوراً، عقلي يقول: كفى! جسدي يعصى عقلي، غريزتي المستيقظة لا تلوي على شيء مما ينذر به ضميري، المتعة وحدها سيّدة الموقف، المتعة في أقصى انفجارها، في مدى اندفاعها، في رغبتها البهيمية لأن تتدحرج كموجة تحمحم، في انقذافها نحو الشاطىء ، حيث الارتطام والفناء، حيث التحوُّل الذي يحدث إثر تلاقي غيمتين، منهما ينقدح الشرر ويحدث البرق.

زاد في تسعير الموقف أن رئيفة لا تقاوم. فقدت كل طاقة للمقاومة. صارت عجينة مطواعة. لم تقل قبّلني، لكن النداء إلى التقبيل، كان يصرخ من مسامها. وكان عليّ، أنا المصاب بكليّة اللّذة، أن أمتنع عن السفر المحموم في طلابها، أو أوقف اندفاعي نحوها، أن أقول لها، مع قبلة على الخدّ، يكفي الآن يا رئيفة، لقد ذهبنا بعيداً. لكنّني، بدلاً من ذلك، تابعت عناقي لها. جلسنا. التوت رقبتها. ما عادت فقرات متماسكة. انحلّت الفقرات. بقي اللحم وحده يمسك العنق. قبّلت العنق، قبّلته، وبعد لأي استطاعت أن تقول:

ــ لماذا فعلت ذلك؟

ــ لا أدري..

ــ ألا تظن أنه كان يجب ألاّ نفعل ما فعلنا؟

ـ ما فعلناه كان بريئاً، كانت قبلات بريئة.
ـ مع ذلك، ما كان يجب..
ـ نعم يا رئيفة، ما كان يجب، لكنّ الشوق، الرغبة، اندفاعة الشباب، كانت أقوى منا.. لا تندمي..
ـ أنا لا أندم.. لست نادمة.. ولكن ما يحزنني أنّك قبّلتني وأنت تنذرني بالهجران..

وبعد لحظة صمت سألت:
ـ هل ستهجرني فعلاً؟
ـ أيرضيك أن يتكرّر ما فعلنا.. وأنت تعلمين أنّه لن يكون لعلاقتنا أيّما مستقبل؟
ـ وأنت، أيرضيك، بعد العناق الذي جرى اليوم، أن تتركني؟
ـ وماذا أفعل؟ أنظري! طريقنا مسدود.. لا إمكانية لديّ، ما أنا إلا فتى مراهق، اندفعت مع عاطفتي.
ـ أنت إذن لا تحبّني؟
ـ أنا أحبّك. قلت لك ذلك كثيراً، ولكن ما جدوى الحب، إذا كان كلانا محكوماً بوضعه؟
ـ وضعي طبيعي. أنا أحبّك وأريدك.. سأنتظرك ما شئت من السنوات..
ـ لا تنتظري يا رئيفة.. مستقبلي غير مضمون.. أنت بحاجة إلى زوج..
ـ ولماذا أحببتني؟ إذا كنت لا تريدني فلماذا أغريتني بحبّك؟ هل كنت أستحقّ هذه المعاملة منك؟

ألفيت في لهجتها نبرة مطالبة. صار لها عليّ حق. أحببتها، فهي إذن تطالب بديمومة الحبّ. حين كانت العلاقة، في حدود الكلام، ما كانت ترتّب علي واجباً. ربّما، هي نفسها، في ذلك الكلام المتبادل، لم تجد ما ترتّبه. الآن اختلف الوضع. أصبح من حقها، بعد أن تجاوزنا الكلمات

إلى القبل، أن تطالب بالاستمرار. لقد ذاقت حلاوة القبل، وظنّي أنها تتمسّك بها، وترغب في معاودتها. كل شيء واضح إذن. ما يحدث بين كل حبيبين، يحدث بيننا، لكنّني، أنا، لا أريد. أشعر بالتبعة، أحمد الله أنّ علاقتنا في المرحلة الورديّة بعد، غير أنّني، بعدها، لا أريد التقدّم خطوة واحدة.

أعلنت أنّني منصرف. كان انصرافي كبيراً قياساً إلى صغري. إنني لن أنسى حبّها، سخاءها، منحتها، التي تشبه منحة أميرة مترفة، ومن المؤكد أنّني، مثلها، أريد أن تدوم هذه العلاقة، بيد أن وضعي لا يسمح بالاستمرار. القطيعة تكون الآن أو لا تكون. هي متيّمة وأنا متيّم، وحبل السرّة الذي يربط بيننا سيلتفّ أكثر فأكثر إن نحن تمادينا. ليست فكرة الزواج هي الرابط، نستطيع أن نضعها في خلفيّة الأشياء، ما هو مطلب أن يبقى الودّ، وفي هذا الإطار تقوم علاقات كثيرة، طبيعية، لا يعترضها إثم، ولا خوف، لولا أن مثاليّتي، في عدم خدع الآخرين، وعدم اللّهو بهم، تتقاضاني احتراماً أوفر لذاتي. لا أحد يعرف بقصتّنا حتى الآن، وأختي تحسب أن الرباط لا يتخطّى الألفاظ، وفي هذه البرّية، ظلّ لقاؤنا مستوراً، لكن النار الصغيرة التي نوقدها سيتصاعد منها دخان، وقطعة النّد ستكون لها رائحة.

قلت لرئيفة وقد صحّ عزمي على الفراق:

ــ هذه آخر مرة نلتقي فيها.

ــ لماذا؟ ألم أكن طيّبة معك؟

ــ كنت طيّبة جداً، وهذا بالذات ما يدفعني إلى ردّ كلام السوء عنك.

ــ ومن سيتقوّل علينا؟ نحن هنا في عزلة عن الناس..

ــ لكنّنا لسنا في عزلة عن ضميرنا..

ــ أنا ضميري مرتاح.. لم أقترف إثماً معك.

ــ هذا صحيح، ولكن لنحكّم عقلنا.

ــ عقلنا؟ نحكّم عقلنا.. ألست واثقاً من نفسك؟

ـ أنا واثق، ولكن لماذا نستمرّ في درب مسدود؟
ـ نمشي فيه إلى أن يواجهنا السدّ . .
ـ نحن أمام السدّ الآن . .
ـ ليس بعد . . إلاّ إذا كنت تريد أن تهرب منّي . .
ـ فسّري الأمر كما يحلو لك . .
ـ موقفك هذا هرب من إنسانة لم تسئ إليك . .
ـ ولا أنا أسأت إليها . .
ـ إذن ما هو مبرّر خوفك؟
ـ أنا لا أخاف . .

رازتني بعينين شعّ فيهما الاتهام قبل أن تتلفظ به:
ـ أنت خائف . . تتذرّع بما لست أدري كي تتهرّب منّي.
ـ قلت لك إنني غير خائف . . وممّ أخاف؟
ـ من الارتباط، من فكرة الزواج، اعترف، وسأقطع علاقتي بك . .
ـ أنا لا أرى سبيلاً إلى الخطوبة أو الزواج . .
ـ لا تقول ذلك من قلبك . .
ـ تريدينني أن أقسم . .
ـ وما نفع القسم؟ دعني إذا أردت. أعفني بهذه القطيعة . . ولكن لا بأس. سأتحمّل الإهانة. تصرّف كما يحلو لك. ولن أستجديك أكثر. ليكن الفراق ما دمت تطلبه. لكن لا تنس أنّ هذا ليس تصرّف فتى يحبّ ويحترم حبّه.

قالتها ومضت. تركتني واقفاً وابتعدت. مشت دون أن تلتفت إلى وراء. تسمّرت مكاني لا طاقة لي على مبارحته، كان واضحاً أن رليقة احتقرتني . . موقفي هروب. هي التي قالت ذلك، وكان ما قالته صحيحاً، غير أنّ التهمة، على قسوتها، تظلّ أفضل من الإيغال في عاطفة ستكون محبطة. تمنيت فتاة أخرى غير رليقة. تمنّيتها غنيّة، لا يزيد هوها عن أن يكون ترفاً لا يحول دونها ودون أن تجد رجلها بثروتها. لعنت نفسي على حذري، على

وجداني، على كثرة حساباتي، ورحت، في لذّة مشبوهة، أجرح نفسي، أنهشها، أكيل لها الشتائم، حتى أتخفّف من شعور ضاغط، من تبكيت ضمير في تجربة حبّ لم يسبق لي أن مررت بها.

سرت على غير هدى بين أشجار الزيتون. كنت فرحاً وترحاً في آن. كنت سعيداً بسلبيّتي التي أراحتني. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أرتاح بها في السلب. كان اليأس، كإحدى الراحتين، ملاذي، وقد لجأت إليه، ووجدت الأمان، كصرصار، بين الشقوق.

وداعاً إذن يا حبّي الأول، وداعاً يا يقظة العاطفة، ووداعاً يا رئيفة التي أحببتها بكلّ ما في روحي من طاقة على الحبّ.

لم أعرف أين أذهب. كان التجوال، دون هدف، أفضل من التوجّه إلى أهلي ومواجهة نظرات أختي. كانت الريح ساكنة، وجنادب تئزّ من حولي، وضياء كثيف يتبقّع على جسدي. وكنت بحاجة إلى النسيان في النوم.

وتمدّدت ونمت.

- ١٠ -

الذهاب بعيداً يحتاج إلى المسافة نفسها في الرجوع. لذلك لم أشأ أن تكون مسافة الذهاب بعيدة، كيلا أحتاج إلى مثلها في الإياب. ورغم أن حبّي لم يكن إلّا وليداً، فقد تجذّر في ذاتي، وخفت أن أمضي فيه، فيصبح النكوص صعباً بمثل ما هو التجذّر. أردت، طوال حياتي، أن أكون منطقياً مع نفسي، وألّا أخونها قط. ولقد كلفني فراق رثيفة ألماً مبهظاً، وعنتاً، وصراعاً داخلياً، إلّا أن كلّ ذلك تقبّلته في سبيل ألّا أكون نذلاً، أخالف منطقي، وأخون الثقة الموضوعة فيّ، ومع أنه ليس لائقاً، بإنسان ذي حسّ سليم، أن يشرع في أمر ويرتدّ عنه، فإن محاكمة وجدانيّة صعبة تعرّضت لها، وكان دفاعي أنّ الحبّ، حين يأتي، يكون قدَراً، وحين نعيه، ونعرف أنه عبث، يصبح النضال ضدّ هذا الحب، قضية شرف، لمن لا يريد أن يخدع الآخر.

هذا كان عزائي في الفراق الذي فرضته على نفسي. وربما كان عزاء كاذباً، لكنّني تمسّكت به، ورفعت الثبات عليه إلى مرتبة الكرامة. كنت إذ ذاك، أبحث، في أيّما تصرّف، عن الصوابيّة التي تريح الضمير. وهذه المثالية التي تزعم النقاء، مردّها إلى تربية أخلاقية صارمة كانت دائماً تعصمني من الإمعان في الخطأ، مع اعترافي أن الحبّ، في أيّ نوع منه، ليس خطأ، ولكن تجنيب الآخرين مغبّة التورّط في شأن، نتيجته الندم، كان وما يزال، شعاراً أخلاقياً بالنسبة إليّ.

لم أقل لأحد إنني أحببت. ولم أنبس بكلمة عن قطع حبل هذا الحبّ. شؤون قلبي كانت دائماً سرّاً شخصيّاً أحافظ عليه حفاظي على شيء مقدّس. رفضت، بإصرار، أن أقول ما بي، حين لاحظت أختي أنني أعاني أزمة مشاعر. خفّ أكلي، طال سهادي، قلّت سيطرتي على نفسي، بان الشرود عليّ، عجزت عن التركيز، وكادت نوبة نفسيّة تؤدّي بي إلى الانهيار، لولا أنني بذلت الكثير من الجهد للحفاظ على رباطة الجأش.

أصعب ما في الأمر أن رئيفة لم تساعدني فيما أخذت نفسي به من قطيعة. لم تؤمن بذلك، ولم تجد له مسوّغاً، عزت الأمر كلّه إلى الخداع، وردّته إلى الرغبة في التملّص، حاولت كسر قراري في إنهاء ما بيننا، لكنها اصطدمت بعنادي الذي أنكرته، حتى بلغ من عتبها أنّها رمتني بالخسّة. تحمّلت كلّ ذلك بصبر. سألت الله أن يأخذ بيدي فلا أعود عما اعتزمت، استنفرت كلّ إرادتي كيلا أعود عن قراري، لكن رؤية رئيفة، وذلك الاضطراب الوحشيّ في نوازعي النفسيّة، وذكرى ما جرى بيننا، في صورته الأشد إثارة للرغبة في الاستئناف، حرمتني الهدوء حتى نهاية الموسم، حين جاء الفراق واقعاً لا حيلة فيه.

سقطت رئيفة طريحة الفراش، جهل والداها ما بها، وكانت، في مرضها، بحاجة إليّ، وزاد في عذابها أنها لا تستطيع أن تكتب، ولا تجد من يحمل إليّ رسائلها لو كتبت، فما كان منها إلّا النهوض، متحاملة على نفسها، في محاولات متكررة للقائي، أثناء مروري على مقربة من البقعة التي يخيّمون فيها.

وكنت خلال اللقاء لطيفاً، شفيقاً، معذّباً بما لا يقل عن عذابها، غير أنّ التشبث بموقفي نفى كل إمكانية للعودة إلى ما كنّا فيه. لم تنفعها دموعها. وفي ذاتي، بكيت مثلها، ولم تنفعني دموعي أيضاً، وأدركت، لأوّل مرّة في حياتي، قوّة الحبّ وجبروته، وصعوبة أن نجابه القَدَر، في نيّة للارتفاع على الشدّة بالابتسام، ولم أهن، مزمعاً أبداً أن أكون ما أريد أن أكونه، الفتى الذي يريد أن يأخذ الألم كلّه لحسابه، لقناعته أن هذا ما يجب، بغية إنهاء

وضع شاذّ، هو الاسترسال في عاطفة لن تورق ولن تثمر. كنت أقول في نفسي: «أن تمرض رئيفة قليلاً، خير من أن تمرض طويلاً، أن تعاني في سبيل الشفاء، أفضل من أن تعاني والعلّة تنشب أنيابها فيها، العلّة التي ستكون رهيبة قاسية إذا خدعتها واستفاقت يوماً على الخدعة» لكنها، هي، ما كانت من رأيي. فكرة الحبّ الذي ينتهي بزواج لم تكن فكرتها، أو أنها أقلعت عنها منذ شرحت لها وضعي، لكنها كانت راغبة في الاستمرار في علاقة الحب، وتؤثر الوهم على الواقع، واندفاعاتها القلبية، وهي في أوج تفتّحها، كانت ناراً تحرقها، وتريد إطفاءها بأيّ ثمن. كانت تعتقد أنّه لا شفاء لها من حبّها. وتعتبرني قاتلها. ومن أجل ذلك جرّبت أن تحقد عليّ، لكن حقدها كان يتلاشى ما إن تراني، وينقلب كل شيء، إلى اشتهاء جامح في لقاء مهما كان مؤقتاً، وخادعاً، فهو وحده القادر على ردّها إلى العافية. كانت، من هذه الناحية، أكثر صدقاً مع نفسها، أشدّ إخلاصاً لطبيعتها، في حين كنت أصطنع الأشياء عن طريق الزجر، وأكبت ما في نفسي كبت من يريد تطويع عاطفته لمقتضى العقل لا القلب.

ــ أنت، قالت لي في آخر لقاء بيننا، لا قلب لك.

ــ وما هو دليلك؟

ــ هذا الجحود الذي ما كنت أتصوّره فيك. لقد خدعتني بكل كلمة قلتها عن الحبّ.

ــ سامحك الله.

ــ أهذا جوابك كلّه؟

ــ وماذا تريدين أن أقول؟ أنا عاقّ في الحقيقة، وعقوقي ناتج عن صحوة ضميري.

ــ أنت لا ضمير لك..

ــ لا بأس.. اشتميني ما دام هذا يريحك قليلاً.

ــ أنت كاذب في ادّعائك الشفقة عليّ.. دع هذه الشفقة التي لا أحتاجها.

ــ لا أدّعي شفقة على أحد.. ربما كنت أشفق على نفسي.

ـ لا تشفق حتى على نفسك . . أنت نمرود . .
ـ أهذا جزاء حرصي عليك؟
ـ حرصك عليّ مِمّ؟
ـ من حبّي الذي لا مستقبل له.
ـ وهل كنت تلهو؟
ـ ما دمت لا أستطيع أن أكون رجلك، إذ ليس ثمة أمل في الزواج، فإن علاقتنا تصبح ضرباً من اللهو.
ـ كان يجب أن تفكّر بهذا قبل أن تبدأ . .
ـ أن نرجع ونحن في أوّل الطريق أفضل من أن نصبح في منتصفه أو نهايته.
ـ أنا لم أطالبك بالزواج يوماً . .
ـ وماذا تريدين إذن؟
ـ أنت تكون غير ما أنت عليه، أن يكون لك قلب . .
ـ لو تعلمين يا رئيفة كم أتعذّب!
ـ أنت لا تعرف العذاب . . إنني أكرهك . .
ـ لكنّك ستذكرينني بالخير في المستقبل.
ـ سألعنك كلّ حياتي . .
ـ وهل أستحق اللعنة لأنني كنت مستقيماً؟
ـ لا تتحدّث عن الاستقامة أو الشرف . . أنت لا تعرفها، ولو كنت أعرف طريقة لقتلك لقتلتك . .
ـ أنت ثائرة، وثورتك سببها المرض . . سيزول هذا كلّه عندما تشفين.
ـ ليتني لا أشفى . .
ـ لم كل هذا؟ ماذا جنيت؟
ـ أطمعتني بحبّك ثمّ انسحبت . .
ـ على كل، أنا لم أقطع التزاماً على نفسي . . أنت التي بدأت . .
ـ وماذا يعني أنّني بدأت؟ . . المهمّ من يبدأ؟ لماذا استجبت أنت؟

- أخطأت . .
- أهذا كل ما عندك لتقوله؟
- هذا كل ما لديّ في الوقت الحاضر.
- وتتكلّم بكلّ هذه البرودة. . أمام اضطرابي تبدو هادئاً كأن شيئاً لم يكن.
- يا رئيفة . . يا عزيزتي . . قلت لك إن استمرارنا سيكون وبالاً عليك . . لماذا لا تفكّرين بعقلك؟ ماذا أستطيع وأنا لا أملك شيئاً، لا أملك حتى بنطالاً طويلاً، ماذا أستطيع من أجلك؟
- أنا راضية بك هكذا . .
- أنا لا أرضى . . إنني أموت خجلاً . . لا تكرهيني على شيء يزيد في عذابي . .
- لو كنتَ قادراً على العذاب كنت تشعر بعذابي . .
- كيف أشرح لك ما بي؟ كيف أقنعك أنني أتعذّب أكثر منك، وأنّ هذا الفراق مؤلم جدّاً، ولكن بقدر ما هو مؤلم بقدر ما هو ضروريّ . . فكّري أنت . .
- أنا فكّرت . . منذ غادرتني آخر مرة وأنا أفكّر . . لم أجد سبباً لهذا سوى مللك . أنت مللتني بسرعة . . لو ابتعدت عنك لتعلّقت بي . . لكنني احببتك، أردتك بكلّ قوتي، من كل نفسي، فكان جزائي منك هذا العقوق . .
- لننه إذن هذا الحديث، لن نتوصّل إلى شيء . . أنا احبّك . . احبّك أكثر مما تحبينني، لكن حبّي يدفعني إلى التضحية، وأنا أضحّي، وأترك للمستقبل أن تقدّري تضحيتي . . وداعاً.

قلت ذلك وسرت، تركتها مزروعة حيث هي ومضيت. لعنت نفسي أنني أحببت. كان يجب أن أفكر قبل أن أبدأ. كان يجب ألاّ اعتبر ذلك لعباً. المرأة لا يلعب معها، ما أن تنطق بالحب حتّى يترتّب لها عندك حق. مستحيل أن تقتنع رئيفة أن لا حقّ لها عندي. تعتبرني قاسياً. ولو بلغت

البحر لن تصدق أنني فعلت ذلك لأجلها. ما تريده هو الاستمرار. مندفعة. مجنونة باندفاعها. مريضة. ستبقى مريضة ما بقي لها أمل في عودتي. حين تيأس تشفى، لا بدّ أن تيأس، عليّ أن أوصلها إلى اليأس، وعندئذ ينتهي كلّ ما بيننا.

انضممت إلى عائلتي في جمع الزيتون. كنت كئيباً وحزيناً. هجرني النوم. انقطعت شهيّتي إلى الطعام، صارت حركاتي آلية. أحرس البورة. أنير الزيتون. أجمعه مع عائلتي. أحمله إلى البورة، أكره أن أتكلم. أفضل وقت لديّ هو الوقت الذي ينام فيه الجميع وأبقى ساهراً، وحيداً، أدور حول البورة، بالقدر نفسه تدور الأفكار في رأسي، وحين أسترجع ما كان، ما صار، اللقاءات، كلمات الحبّ، العناق، تنازعني نفسي إلى العودة، لكنني أزجرها، أصلب عاطفتي على شجرةزيتون، أسوط إحساسي الساغب بإرادة يمليها العقل، تتفتّح الرغبة أفواهاً في جسدي، وبيدي أسدّ تلك الأفواه، ألجمها، أسكب «بيتوناً» فيها، أتحمّل كلّ القهر، الألم، العذاب، كي أتحرّر من مغبّة التلهي مع فتاة بريئة، لن يزيدها الاستمرار إلّا تعلقاً بي.

ولكي أتخفّف من وطأة أفكاري، جرت على جسدي في العمل. ضاعفت من جهدي كي أتعب وأنام، كي أنقطع عن بحران يتلفني. كي أوقف الاسترسال في هواجس أعرف ألّا شاطئ لها. لكن ذلك كله لم يُجدِ إلا بمقدار. ذلك أن الصراع بين إرادتي وعاطفتي كان سجالاً. تنتصر الإرادة حيناً، تنتصر العاطفة حيناً آخر. تأتي لحظات صحو، إشراق، شفاء من الأوجاع، تعقبها لحظات قلق، اكتئاب، تفتّت، وأعود، مثل رثيفة، مريضاً، راغباً في الفرار بعيداً حتى أنسى، حتى لا تنازعني نفسي إليها وهي قريبة مني.

الحدث الذي شغلني، بعد أيام، هو خروج والدي من السجن، في الضحى عاد إلينا كما ذهب، أطلقوا سراحه بعد أن عجزوا أن يثبتوا عليه شيئاً. ليس ثمة تهمة. لقد برّأ نفسه وبرّأ بدّور معه، عذّبوه كي يقول إنها سرقت، وإنه حال، بحمايتها، بين الوكيل واكتشافه السرقة، فأصرّ على أن

ما قاله الوكيل باطل، وطلب شهادة الشوياصي، وكذلك شهادة الفلاّحين.
عندئذ أمر الرقيب أن يرفعوه فلقة، وضربه الدرك حتى دميت قدماه، لكنه أصرّ على أن بدّور ليست سارقة، وأن التهمة ملفّقة، وأنه لم يفعل سوى أن صحب بدّور إلى بيتها، كي ينقذها من براثن الوكيل الذي دبّر لها مقلباً، غايته واضحة.

وكانوا قد قادوه، بادئ الأمر إلى قرية «ح»، حيث قبضوا على بدّور، ووضعوا القيد في يديها كما فعلوا به. بعد ذلك ساقوهما إلى سجن اللاذقية، كان عليهما، هما الراجلان، أن يسيرا شبه راكضين، أمام حصاني الدركيين الراكبين، فإذا تباطأ أحدهما، من تعب، من عطش، من جهد بلغ حدّ الأعياء، كان كرباج الدركيين ينهال عليهما. ولقد تمزّق قميصه، وسال الدم من قدمي بدّور الحافيتين، ولم يلتقطا أنفاسهما إلاّ في اللاذقية، حيث أودع هو سجن الرجال، وأودعت بدّور سجن النساء، وكلّ ذلك دون مذكرة جلب، دون مذكرة توقيف، ولم يكن ثمة سوى هاتف من السيّد، وكان هاتفه بمثابة أمر عرفي، تعطّلت معه كلّ إجراءات العدالة.

لم يكن المحقّق مقتنعاً بالتهمة، لكن الأوامر عطّلت القناعات، وكان بيت «ف» يُبَلِّغون، يوماً فيوماً، نتيجة التحقيق، والإصرار على الإنكار، وعدم ثبوت التهمة، وظهور البراءة، لكنهم كانوا يطلبون استمرار السجن، والتحقيق، والتعذيب، أملاً في توقيع عقوبة شديدة، كردّ فعل على ما حسبوه تمرّداً، أو عصياناً، أو ممانعة، وقع في كرومهم وبين فلاحيهم. . وقد لمس الوالد، أن الحقد على بدّور، بما هي فلاحة، كان أشدّ من الحقد عليه. قال له المحقق، الذي كان صوتاً للأسياد، «أنت لست المستهدف. . أنت ناطور ولست فلاّحاً، أنت من المدينة، وبيت «ف» لا يخافون أن تشاغب عليهم، لكن بدّور يجب أن تؤدّب كما أدّب صخر الفلاّح، اللّص، من القرية نفسها.» وقال الوالد، دون كبير اكتراث: «إن بدّور غير مذنبه، ولم يثبت عليها شيء، ولا ضبطت حبّة زيتون واحدة معها، وأنه سيقيم دعوى، على بيت «ف» إذا لم يطلق سراحه وسراحها».

عشرة أيّام كاملة بقيا في السجن، لو استطاعوا إثبات تهمة السرقة، أو الممانعة، كان السجن، لمدّة عامين أو أكثر، بانتظارهما، ولو أنّ الوالد فلّاح لأثبتوا التهمة عليه بأيّ شكل، فبعد تلفيقها كان التعذيب كفيلاً بفرضها، غير أنّ مقاومة الوالد، وتهديده، وكونه من المدينة، وله عائلة كبيرة فيها، كل ذلك أُخذ في الحسبان، فتمّ الإفراج عنهما، وذهب سجنهما وتعذيبهما هدراً، دون قصاص من المتسبّبين بهما.

حين أطلق سراحها، بفارق ساعة بين أحدهما والآخر، غادرا السجن معاً، بدّور هي التي أطلق سراحها أوّلاً، فسألت عن الوالد، وقيل لها إنه سيخرج بعد قليل فانتظرته. كانت قدماه متورّمتين، وثمة كدمات في وجهه وبعض أنحاء جسمه. فغرت بدّور فاها دهشة مما ألمّ به. قال لها: «هذا لا شيء، المهم أنهم ما استطاعوا أن يأخذوا منّي حقاً ولا باطلاً».. قالت: «لكنّهم عذّبوك كثيراً» «وماذا يهم؟ سيكون بيني وبين المطعون حساب» استدرك: «ولكن من هو المطعون؟ إنه كلب لحراسة كروم بيت «ف» لا أكثر. هم رأس البليّة، وهم مَنْ أحقد عليهم» سألها: «وأنت؟» أجابت: «عذّبوني قليلاً. صفعوني عدة مرات، وهذا كل شيء» قال الوالد: «لنذهب، الآن، إلى المدينة» فلم تمانع، سارت معه. صار منقذها الآن، لو أنه اعترف بالتهمة، لكانت الآن مرميّة في السجن. هو غير متّهم بالسرقة، تهمته الممانعة، هذه عقوبتها بسيطة، لكنه رفض النجاة بجلده، أصرّ على براءتها، وتحمّل التعذيب، دفع ثمن الحريّة له ولها، هكذا أصبح كبيراً في نظرها. أصبح رجلها، وأضحت تابعة له، معجبة به إلى حدّ أنها سارت معه غير مبالية، عارفة أنّها منذ الآن، ستكون المرأة التي تقدّم نفسها على طبق لمجرّد أن يطلب أو يشير، لكنّه لم يطلب شيئاً ولم يشر إلى شيء.

كان المفروض، وهو في الحال التي عليها، أن يستأجر عربة تقلّهما إلى قرية «ح» حيث يمكن أن يغتسل، يداوي قدميه، ويستريح.

وقد فكّر بهذا، واعتمده أوّل الأمر، ثم سرعان ما عدل عنه، متذرّعاً

بتأخُّر الوقت، وعدم قدرته على المشي، وخلوّ جيبه من المال الذي يستأجر به العربة.

هكذا، تلبية لخاطر عنّ له، قرّر البقاء في اللاذقية، ومعه بدّور. إنه لن يقسرها على البقاء، باستطاعتها أن تعود لوحدها، لكنّه، في قرارة نفسه، كان يعرف أنها ستبقى معه. لقد أدرك، منذ صارا خارج السجن، أنها لن تقاوم له رغبة، ولن تصرّ على العودة إلى قرية «ح» بمفردها. وهو، بحكم ضعفه أمام المرأة، وتغليب عاطفته على عقله، أو انهزامها أمام أيّما إغراء، وجد نفسه مهزوماً أيضاً. هكذا رضخ دون مقاومة. قررّ دون إطالة تفكير. إنه، أصلاً، لا يتعامل مع اثنين: الفكر والحذر، ولأنها تبدّت ليّنة، مستسلمة، راغبة فيما يرغبه، فقد رجحت لديه فكرة البقاء، مع أنه، وهو في السجن، لم يفكر بهذا مطلقاً. لقد ردّ ما حدث إلى المصادفة، وكان يعتزم العودة إلى البورة ولو في الليل، لكنه، عندما أطلق سراحه عصراً، قرّر أن يبقى، وأن يستريح، فقاد بدّور إلى بيت أحد معارفه، ممن يتعاملون مع الفلاّحين، وذهب هو ليلاً إلى الحمّام، وبعده اشترى مرهماً من الصيدلية، كي يدهن رجليه المتوّرمتين. الصيدلّي هو الذي وصف له المرهم، قال إنّ القدمين المتخشّبتين من الحذاء والضرب، ستلينان قليلاً، المرهم يطرّي الكدمات، وفعلاً شعر بالتحسّن، وفشّ الورم قليلاً، وظلّت الأصابع وحدها على شيء من ازرقاق.

لم يكن فرحاً أو حزيناً، لأنه لم يأت بما يستدعيهما. تدخّل، في البورة، لمصلحة بدّور، أوصلها إلى البيت في القرية. لم تقل له ادخل، ما كان مستعجلاً، يعرف أنه سيدخل، وسيكون دخوله فتحاً، وبخلاف ما ظنّت عائلته والآخرون، لم يكن في رأسه، وهو يدفع عن بدّور، أنه يدفع عن قضية يؤمن بها، وحتى وصال بدّور، في الشعور الظاهر، لم يكن وارداً.. المطعون تصرّف بشكل يجانف طبيعة الأشياء، اعتدى، كان، في قرارته، يريد بدّور لنفسه. هو، الوالد، فهم الموقف على هذا الوجه، أراد تخليصها منه، ما كان يفكّر بأنه يستخلصها لنفسه، لكنّ ذلك صار كذلك، تفاحة

ناضجة هرّت عن غصنها، يده كانت جاهزة لالتقاطها. التقطتها. قبض عليه من أجل ذلك، سيق إلى السجن، عُذّب، سُجن، ولم يكن كلّ ما جرى غريباً أو نظيفاً. لذلك لم يحزن أيضاً، ترك الأمور كعادته، تأخذ مجراها، وها هي تأخذ المجرى السليم. الريح الطيبة كانت دون أن يدري لماذا، إنها كائنة وكفى. ففي عينيه وميض، كما في عيني صلّ، وبدّور ليست أكثر من عصفورة مبهورة تنتظر. كانت، منذ برز في البورة، تنتظر: القدر يؤاتي، هو لم يصنع أيما شيء لكي يؤاتي، لكنه، واتى، والعصفورة، على غصنها، لم تعد قادرة على الحركة، على الطيران، إنها بين أشداق الصلّ، ولديه، حتى صباح غد، وقت طويل كي يبتلعها.

عندما عاد إلى بدّور كان الليل يهبط كمظلة غبشيّة على المدينة، الأنوار الضئيلة تشتعل في الحوانيت، بعض الباعة المتجوّلين يدفعون عرباتهم في طريق العودة إلى بيوتهم. الشوارع خفّ الازدحام فيها، وقد تعمّد، وهو يسير أمامها، أن يوصلها إلى البيت من أطول طريق ممكن. جعل التوقيت أذان العشي، عندئذ يكون الزقاق قد أقفر. يمضي بها إلى البيت، يُدخلها دون أن يشعل الضوء، ودون أن يراها أحد، هكذا كما رسم نفّذ تماماً. كان الحوش فارغاً، كلّ عائلة في غرفتها. فتح باب غرفته ودخل، دخلت بدّور وراءه، أجلسها وحذرها من إشعال الضوء، وبعد ذلك ذهب لإحضار العشاء.

كان قد استدان بعض المال، ودخل إحدى الخمارات فشرب كأساً على الواقف، ثم عاد إلى البيت، وأشعل الضوء، ومدّ السفرة، وبسط الطعام، داعياً بدّور إلى العشاء، فاقتربت وهي حَذِرة، وشيء من عبوس يعلو وجهها.

كانت، الآن، قلقة على نحو ظاهر. كان الندم لأنها بقيت يفترسها، وليس منشأ هذا الندم خوفها بل استهتارها، فهي تدرك، الآن، أنها تسرّعت، وكان عليها أن تعود إلى القرية بمفردها، ولو وصلتها ليلاً، لكنّ ما صار قد صار، ولن تسلم قيادها بالسهولة التي يتصوّرها، أو التي

كانت، هي نفسها، ترى الأشياء من خلالها.

كذلك قرّرت أن تعتبر ليلتها هذه ليلة سجن. صحيح أنها مع رجل في غرفة واحدة، لكنها واثقة من نفسها، وواثقة أنه لن يصير أيّما شيء ضد ارادتها، أو ضد رغبتها.

على خلافها كان الرجل، لم يكن الندم، على بقائه في المدينة، يلامس مشاعره. لقد اعتاد أن ينام بعيداً عن بيته، وعن أهله، وأن يسكر، ويبيت في القرى، في بر أرسوز، وكان الفلاّحون يكرمونه، وهو يرتاح إلى عشرتهم، ويحمل لهم عاطفة صادقة من الودّ، لكنه، الليلة، وامرأة معه، فقد كان غيره في الليالي الماضيات. كان، في قراره نفسه، يرى الأمور طبيعية، ومع ذلك فكّر، وظلّ يفكر وهو يرنو إليها، في جلستها المتكوّرة أمامه.

إنه رجل، وماذا يفعل الرجل حين تكون المرأة في متناوله؟ أيّة عاصفة من رغبة تنتابه، حين تكون هذه المرأة له اللّيل بطوله؟ كيف ينظر إليها، وهي تتلظّى، عينا وشفةً؟ لقد كانت ممنوعة عليه. قبل أن يعرفها، كانت أمنية، لكنها، في المنع الدائم، حين لا تكون زوجته، ولا تصير، تظل أمنية، تبقى مائدة حراماً، ولأنها كذلك، يظلّ الشوق إليها مشتعلاً، لإدراك الرجل أن هذه التي تطارحه الهوى، هي اليوم له وغداً لزوجها، هي الآن ملكه، وفي آن آخر ملك سواه، أو ملك نفسها. ومن المستحيل ، ما دامت كذلك، أن تجلب له الطمأنينة، وحين لا تكون هذه يكون القلق، وكل الحبّ، كلّ لذّته، كلّ أواره، مع القلق الذي إن أُخمد صارت المرأة زوجة، أو في حكمها.

والدي لم يفلسف الأشياء على هذا النحو، لكنه كان يحسّها على هذا النحو تماماً. إنه يضجّ، والمرأة قبالته تضجّ، والريح تخفق، والأرض حمّى، والغرفة جمرة، والجدران آذان، والحجارة عيون، وكل الأثاث الذي سيشهد، ويرى، يشارك في وليمة الحبّ المنتظرة. ومن أجل ذلك يتبدّى في نفاد صبر بالغ، يعيش جوارح تتنزّى إلى تلك اللحظة المسكرة، لحظة

تعطي المرأة نفسها، تنتزع، من تحت أظافرها، من الدم المتدفّق في عروقها، روحها التي ستخطف، والتي تمنحها بسخاء، لأنها منذورة للهنيهة التي تكون بين الموت والحياة.

لجم انفعاله، بسط الطعام على مائدة خشبية واطئة، كما في القرى. تناولا الطعام، حدّثها عن أيامه في السجن، حدثته عن أيّامها فيه، قالت إنها مرّت بتجربة رهيبة، نتيجة لما يجري بين النساء السجينات. ما كان يحبّ الكلام على الأشياء، لذلك أسكتها، ولما أمعنت زجرها، قال لها: «فهمت، يكفي، اللعنة على السجن» وسألته عما يجري في سجون الرجال، فرغب عن الكلام، اختصره بجملة واحدة: «الشذوذ هنا مثلما هو هناك» وقال أيضاً: «لا أتمنى لأيّما فتى أو فتاة دخول السجن، إنّه رهيب، إنّه بؤرة للإجرام والفساد».

ساد الصمت، الآن، بينهما، تذكر كل منهما المحنة التي مرّ فيها: القبض عليه، سوقه إلى السجن، ركضه أمام الدركيين الخيّالين أو خلفهما، الحبل المربوط به وهو يتوتّر ويرتخي، بمقدار ما تكون المسافة بينه وبين الحصان الذي شدّ إليه، دخول السجن، التعذيب، الأيام القاسية، الجوع، النوم على قطعة حصيرة، الحرّ؛ البقّ، رائحة النتن في القاووش، فراق الزوج والأولاد.

عادا، نتيجة لذلك، إلى وضعهما العائليّ، إلى الذين ينتظرونهما هناك، في القرية وكرم الزيتون، وشعرا، لأوّل مرة، منذ خروجهما من السجن، أنّهما ارتكبا حماقة، وأن خروجهما، في وقت متأخّر، ما كان سبباً كافياً للمبيت في اللاذقية، ولا عذراً مبرّراً لهذه الخلوة التي وسوس بها الشيطان.

زاد اكتئاب بدّور، ناولها الكأس فرفضت. ازدادت ندماً لأنها جاءت. استيقظت عاطفة الأمومة في صدرها، توقّفت، وهي على حافة الجرف، محاولة عدم السقوط، وفي محاولة للتراجع، قالت وهي تنكمش مع كل دقيقة تمضي:

ـ كان من الأفضل لو عدنا إلى الضيعة.

ـ كان الوقت متأخراً. ولم أكن قادراً على المشي.

ـ وماذا لو استأجرنا عربة؟

ـ لم يكن معي أجرة العربة..

ـ ولكنك أنفقت على الطعام والحمّام..

ـ استدنت.. وكان الوقت، بعد الاستدانة، قد تأخر.

ـ هذه حجّة.. كنت تريد أن نمضي الليل هنا..

ـ لو اعترضت.. منذ البدء، ما كنّا بقينا..

ـ رغبت في مطاوعتك..

ـ كان عليك أن تقاومي..

ـ وأنت، لماذا لم تقاوم؟

حدّق فيها وهو يتناول جرعة من كأسه، فاجأه هذا التغيّر فيها. استغرب أن تنقلب، بعد ذلك الاندفاع. لم يفطن إلى أنه كان السبب. ذكرياتها عن السجن، والقرية، والأولاد، وما لا قياه من عذاب، بعث فيها شعوراً بالذنب لأنها وافقته على البقاء. أرادت، ولو متأخرة، أن تتوقّف عن المغامرة. هي لا ترفضه، لا تكرهه. بخلاف ذلك، تحتفظ نحوه بعاطفة طيّبة، ولن تمانع، في وقت آخر، أن تكون له، لكنها، الآن، لا تريد. تستشعر، في وضعها الراهن، أنها امرأة ساقطة، لو أحبّته لما تمنّعت، وهي لا تزعم أنها لا تميل إليه، لكنّ الحب، ذلك الشيء الذي عرفته مع زوجها، لم تعرفه بعد مع الرجل الذي حماها، وتعرّض للتعذيب، والسجن، في سبيلها. إنه عابر في حياتها. تنتهي صلتها به بانتهاء موسم الزيتون، وربما كانت هذه الليلة، هي الوحيدة في علاقتها الجديدة، ومن أجل ذلك تتردّد، ترفض أن تكون رخيصة، وعليه، هو الرجل، ألّا يطلب منها ذلك، إذا كان يحترم موقف الرجولة الذي وقفه، وإذا كان، هذا الموقف،

أصلاً، موقف شهامة، كما ظنّت في البدء، وكما تمثّلته طوال أيّام سجنها.

من جانبه كان يفكّر بهذا التغيير الذي طرأ عليها. باخت حماسته. تصوّحت مسرّة صغيرة عاشت في ذاته طوال العصر. حسبها له. كلّ حركاتها كانت تدلّ على أنها له. التماعة عينيها. دلّ كلماتها. الغنّة في صوتها. رغبتها الشخصية في أن تبقى، وأن تأتي إلى بيته، وتنام معه. لم يكرهها على شيء. في وقت آخر كان يفعل. مع غيرها تصرّف تصرّفاً أحمق، فيه خشونة، فيه مجون، ورغم النتائج التي حصل عليها، من طرح نفسه، ومن استخدام هيبته كرجل، فإنّه ما كان، يوماً، يمثّل الوداعة أو العفّة. النسك كان دائماً في الطرف الآخر، البعيد والمهمل، إنه يشتهي، ولأنه كذلك فهو يريد، وبعض النساء قاومن إرادته، وبعضهن رددنه إلى واقع مرّ، من رفضهنّ الفظّ، الحاسم، وكلماتهنّ المهينة، لكنّه ما بالى كثيراً بذلك، فالمرأة، لها، أحياناً، هذه الأطوار. كان يعزو ذلك، غالباً، إلى سكره، إلى تعجّله، إلى تهالكه المسرف، فما كان الندم، أمام مواقف رفض كهذه، يؤثر فيه، أو يسبّب له إزعاجا.

كانت المرأة، بالنسبة اليه، شهوة عابرة، يراودها، يطاردها، فإذا لم ينلها انصرف عنها متذرّعاً بلامبالاته، فهو لا يحبّ، ولا يتعامل مع الحبّ، ولا يغازل. كلمات الغزل كانت مجهولة منه. لا يعرفها. لا تنوجد في قاموسه. يعتمد على ملاحته، شَبَقه، نظرة الصلّ في عينيه، وكثيراً ما كان حديثه، القائم على نسج قصصيّ بارع، يجذب المرأة اليه، هذا إذا كانت المرأة من الصنف الشريف، غير المجرّب غير المحترف. أما الساقطات، في خمّارات المرافئ، فما كان يبذل من وقته وحديثه لهنّ شيئاً، كان يسكر، يدفع، يواصل، ثم يدير ظهره ويمضي. ولقد عرف المدينة، والريف، والبحر الترّحال، وصادف كثيرات، ونال كثيرات، وتأبّت عليه امرأة هنا، وأخرى هناك، لكنّه لم يستشعر، في كل تلك الحالات، غرابة أو غضاضة. كان ينسى. يمرّ به الأمر مروراً، كأنه ليس صاحبه، فهو يتعاطى مع المرأة على أنها مخلوق

جاهز، من طبيعته أن يقيم علاقة ما، لا يجد فيها ما يدعو إلى احتمال الدلال، وبذل الوعود، والمغازلة الرقيقة، أو المفاوضة الطويلة.

عمره تقضّى على هذا النحو، وفي حياته كعامل في الميناء، لاقى من النساء، وعرف منهن، وخاض لأجهلن، بعض المعارك، لكنه لم يكن بلطجيّاً، ولم يكن فتوّة، كان عامل ميناء فقط. وفي الموانئ كتب عليه أن يعيش حياتها، وقد عاشها تماماً، عاشها حتى الأعماق. انغمس فيها. تلوّث برذائلها، ولم يجد في ذلك ضيراً، ولم يسأل حتّى ما معنى الرذيلة، كما لم يتساءل عن الفضيلة، فالمرفأ له قانونه، وكان يعيشه، دون أن يعنيه مَنْ وضعه، ومن طبّقه، وكيف يطبّقه العمال والبحّارة أمثاله.

هذه، بدّور، حالة جديدة، مطاوعتها، في البدء، لم تحمل إليه أية غرابة. ودلالها، بعد ذلك، لم يربكه، وأمام الكأس، تغدو المرأة لديه ثانوية. صحيح أن الكأس تولّد نشوة، وهذه تتطلّب لوازمها، من غناء، رقص، مضاجعة، لكن الأشياء، هذه، يمكن أن يستغني عنها، إذا ما خُيِّر بينها وبين الشرب. هنا، هو مدمن، مريض، تنتفي مقاومته حتى كأن لا مقاومة ولا أرادة لديه. وما دام يشرب، وينتشي، في جوٍّ له غرابته،سحره، فرادته، لوجوده مع امرأة في بيت واحد، وفي مثل هذا الليل، فإنه يستطيع أن ينتظر، وأن يتأمّل، ويدع للمرأة أن تتصرّف على هواها، حتى لا يقسرها على أمر تأباه، ولو أنه أخذها قسراً، فما كان يبالي بصراخها. فالفضيحة، في حسابه، تأتي في آخر قائمة المزعجات.

غير أنّه، في ذاته، انطوى على استخفاف بموقف بدّور. أرجعه إلى أنها ريفيّة، ساذجة، مذعورة، وتنشد الطمأنينة النفسيّة؛ حتى لا تفضحها حركاتها غداً في القرية. أسف، في شيء من المكاشفة الذاتية، لأنه أمل منها خيراً. اكتفى، حيال موقفها، بالأسف، دون أن يقطع الأمل من مطاوعتها. وقال في نفسه: «لو أنها تشرب قليلاً، لذهب هذا الحياء الكاذب عنها» وبعد قليل، تحوّل أسفه إلى شتيمة. شتمها بغير صوت. وعندما مدَّ يده إليها، نفرتْ وابتعدت نحو الباب، رافضة بإصرار أن

تذعن لما يريد. كان الخوف من الفضيحة، إذا ما انكشف أمرهما غداً في القرية، يدفع بها إلى الإصرار على الرفض، ولم تُفِدْ فيها الكلمات، ولا الأحاديث، ومع اليأس الذي تسرّب إلى نفسه من أن ينالها، فكّر أنْ يفتح الباب ويلقي بها في الشارع. لكنها، حين صارحها بما في رأسه، توسّلت إليه الاّ يفعل، وأن ينام ويدعها وراء الباب إلى الصباح.

سألها:

ـ لماذا، إذن، جئت؟

ـ أخطأت..

ـ الا تعرفين معنى أن يكون رجل وامرأة في غرفة واحدة؟

ـ أعرف..

ـ لماذا قبلت بذلك؟

ـ كنت أريد أن أرضيك.

ـ بماذا؟

ـ بكل ما تطلبه..

ـ وماذا حدث إذن؟

ـ لا أدري.. كنت راغبة وانتفت رغبتي.. الموت، في هذه اللحظة، أفضل لديّ.

ـ تخافين من شيء؟

ـ من الخطيئة.. أريد أن نبقى كما نحن.. صديقين.

ـ وإذا رفضت؟

ـ احتمي بنخوتك..

ـ وإذا كنت لا أبالي؟

ـ شرفك يردعك. . أنت أبٌ لبنات صبايا.

ـ أنتِ خدعتني . .

ـ لا أنكر . .

ـ أهذا ثمن المعروف إذن؟

ـ لا هذا ولا ذاك . .

ـ كيف؟

ـ لا الخداع ولا الاستسلام . . كنت شهماً . . أحببت الشهم فيك، وهذا جزاء معروفك.

ـ أنا لم أصنع معروفاً . . فعلت ما يجب أن يُفعل . .

ـ لأنكَ لا ترضى بالظلم . .

ـ أتظنّين هذا؟

ـ كلّ الذين سمعوا القصّة فكروا كما فكرت . . صرت كبيراً في عيونهم.

ـ وفي عينيك؟

ـ أكبر من كبير . . دع صورتك جميلة في نظري . . إنني، كيف أقول، أدين لك بمعروف لن أنساه . .

ـ وما يهمّني من ذلك؟

ـ كرامة المعروف . .

جرع جرعة من كأسه، ونظر إليها نظرة باشق، ثم خفض عينيه، أمام هيئة التوسّل التي اتّخذتها. استفاق فيه شيء من عطف عليها. كلماتها أطفأت الرغبة الجنسيّة فيه. قالت له: «أنت أب. لديك بنات» وهو كذلك، لكن هذا، طوال حياته، لم يمنعه من معرفة نساء كثيرات. كلّ الرجال آباء، وكلّهم يعاشرون النساء . . أما المعروف الذي تذكّره به،

والصورة الجميلة التي تحرص على بقائها جميلة، فهو لا يأبه لها كثيراً.

قال لها:

– اسمعي يا بدّور.. إذا كان ما فعلته له علاقة بالشهامة، فهذا جيد، لكنني لم أفكر به. ثقي، أيضاً، أنني لم أفكر بك وأنا على البورة. لكنّني، اليوم، أردتك.. وأريدك، ولتذهب الشهامة إلى الشيطان! أنا لا أتعامل مع هذه الأشياء.

– والمروءة؟

– ليس في الأمر شهامة ولا مروءة.. فعلت ما فعلت بدافع لا أعرفه، ولا أريد معرفته.

لكنّه كان يخدع نفسه. فعل ما فعله بدافع أن ينال الإعجاب في نظرها، وقد نال هذا الإعجاب، مقروناً بما تذكّره من شهامة، وهذا ما أيقظ فيه عاطفة هاجعة، عاطفة نائمة، لكنها لم تمت بعد، هي رؤية نفسه شهماً في عيون الآخرين، أو في عيني بدّور هذه على الأقلّ.

قال لها وقد هدأت خواطره، وسرّه، ربّما لأوّل مرة في حياته، أن يقاوم رغبته، وأن يكون شريفاً، كما تطلب منه:

– هيّا، اللعنة على هذه الليلة، نامي ودعيني، سأسكر، ولا أريد شيئاً منك.

– إنّني خائفة.

– مِمَّ؟

– منك..

– لو أردت شيئاً بالقوّة لحصلت عليه.

– ولكنّك قد تسكر..

– إذا سكرت أنام في موضعي.. لن أَمَسَّك، هذه كلمة شرف مني..

نامت بدّور. أعطاها غطاء، واستلقت بعيداً على الخوان، أما هو فظلّ

يشرب، وراح يغنّي، وبعد منتصف الليل نام. نام دون أن يمسّها، وشعر بسعادة لأنّه، لأول مرة في حياته، لا يكون نذلاً كما اعتاد أن يكون عندما يسكر.

في الصباح الباكر أفاق. غلى القهوة وأيقظ بدّور. كانت هذه تعبة من الليلة البارحة. صحيح أنّها نامت نوماً عميقاً، لكن الخوف كان يصدع رأسها. رغبت في مزيد من النوم، في الاستلقاء دون حركة. في التمسّك بوسن ينعقد في جفنيها. غير أنّه أصرّ أن تنهض، وأن تغادر معه البيت قبل أن يفيق الجيران، وزيادة في الحرص أتى بوعاء غسلت فيه وجهها. ومنعها من مغادرة الغرفة، حتى لقضاء حاجة، وقال لها، حين شربت قهوتها:

ـ هيا، يجب أن نخرج باكراً.

ـ إلى أين؟

ـ إلى القرية..

ـ ولكن ماذا يقولون عنا ونحن في الصباح؟

ـ لن نصل في الصباح.. سنعرج، في طريقنا، على أحد الكروم، فنمكث فيه إلى الضحى.

ـ أحسّ بثقل في رأسي.

ـ هذا من التعب، والقلق، وآثار السجن.

ـ ومن الخوف أيضاً.

ـ كنت خائفة؟

ـ خفت أوّلاً، ثم نمت..

ـ هذا أفضل. انسيّ كلّ شيء عن ليلة أمس، وانسيْ، خاصّة، كلّ شيء عن السجن، لا تتحدّثي بما وقع لك.

ـ وأنت، ألن تقول لأحد؟

ـ وهل جننت؟ من جهتي كوني مطمئنة.. ثم لم يحدث شيء.

ـ الم أبق معك في غرفة واحدة؟

ـ وماذا يعني هذا؟ تحدث مثل هذه المصادفات.

خرجا من البيت خفية. انسلّا انسلالاً، تقدّمها في الزقاق ومضى باتّجاه حيّ العوينة، لكنه لم يلبث أن عدل عن الطريق، خشية أن يراه أصحاب الجمال، ويكون بينهم مصطو. اتّجه شمالاً، من ناحية الثكنة، فلما صارا في ظاهر المدينة توقّف حتى لحقت به، وسارا من هناك قاصدين القاروس، فطريق كسب، إلى قرية «ح».

كان، خلال الطريق صامتاً، لكنها هي، عادت تتحدّث عن السجن:

ــ لا أصدّق أنهم أطلقونا..

ــ صدّقي..

ــ لولاك ماذا كنت أفعل؟

ــ ما يريده الله..

ــ لقد كنت رجلاً..

ــ في السجن أم في البيت؟

ــ في الاثنين..

ــ وكنت أنت رائعة..

ــ أنا لم أعِ ممّا حدث شيئاً..

ــ لم يحدث أيّ شيء..

ــ يعني أنت لن تغضب مني.

ــ ولماذا؟

ــ تسأل بعد أن رفضتُ أن..

ــ هذا يحدث بين الرجل والمرأة دائماً..

ــ لكنه غريب..

ــ لا غرابة في الصدق.. كنا صادقين، أليس كذلك؟

ــ من جهتي أنا معجبة بك جدّاً.

ــ ما فعلتُ إلّا ما كان يجب أن أفعل..

ــ وإذا اعتدى عليّ المطعون ثانية؟

ــ أقف إلى جانبك من جديد..

كان الصباح جميلاً، إلى درجة أن الأسى الرقيق، الذي غلّف الكلمات، سرعان ما تبخر. هو وهي الآن، يسيران على الدرب في الاتّجاه الذي جاءا منه مهرولين، والكرباج في ظهريهما. ما أهون الإنسان في هذه الأرض! كلمة واحدة، من فم مسؤول أو متنفّذ، تغيّر مصيره. لا حقّ، لا عدل، لا ضمانة، فالقوة، أبداً لمن يملك. في حال كهذه كان هذان الإنسانان في منتهى الضعف. وقال الوالد في نفسه: «ما أظلم الأسياد!» وتولّاه حنق شديد. أما بدّور فقد كان الابتهاج يعلو وجهها كلما تقدّمت خطوة باتّجاه القرية. لقد عادت أخيراً. عادت وهي تعرف أكثر مما كانت وهي تذهب.. السجن فتح عينيها على أشياء كثيرة. من الصعب، بعد اليوم، أن تتعامل مع من حولها كالسابق. نظرتها إلى النساء تبدّلت، رأت نساء من صنف آخر. سمعت قصصاً كثيرة. كانت، قبل أن تذهب إلى هناك، تعيش في حدود القرية، لا تعرف ما وراءها، لا تدرك ما يجري في المدينة. لا تعرف ما يدور في السجن، الآن عرفت، وهذه المعرفة تؤرّقها، محال أن تبقى الأشياء ذاتها في نظرها. غداً ينتهي موسم الزيتون. النواطير يرجعون إلى المدينة. المطعون يذهب.. الشوباصي يبقى.. هل ثمة أمل أن يلتقيا ثانية؟

سألها:

ـ بماذا تفكّرين؟

ـ لا أفكّر بشيء محدّد. لماذا بقينا أمس في المدينة؟

ـ كيلا نعود ليلاً..

ـ ها نحن نعود..

ـ وسننسى متاعبنا..

ـ لم تكن لديّ متاعب..

ـ لأن الإنسان ينسى بسرعة.

ـ أنت لا تدري كم هو صعب أن نفترق.

ـ ومن قال إننا سنفترق؟

ــ الموسم في نهايته، وأنت لن تأتي وتسكن الضيعة، لن تكون فلّاحاً مثلنا، ومن الخير ألّا تكون، عيشة الفلاح مرّة.

ــ سآتي لزيارة الضيعة.

ــ من الصعب ذلك..

ــ وأنت ستزوريننا في المدينة..

ــ وهذا أشدّ صعوبة.. أعرف فلّاحات لم يغادرن الضيعة..

ــ اسمعي، إننا، الآن، صديقان، ازددت احتراماً لك، وازددت احتراماً لنفسي.. لا أدري ماذا حدث.. لا أعرف كيف أقول.. إنما في رأسي بياض، هناك، في الدماغ، نقطة بيضاء، أنت التي اكتشفتها...

ــ أنا سعيدة إذن..

ــ وأنا سعيد مثلك..

ارتفعت الشمس وهما يسيران. بدت في السماء توشيحات من بياض فاتح، طولانية، تتدلّى نحو البحر. وهناك في الطبقات العليا، سحب متفرقة، تنفخها الريح فتدحرجها وتكاد تذروها، والأفق سديميّ، كثيف، والحرارة شديدة، رغم الخريف الذي عصفت ريحه بالأوراق وأسقطتها تحت الأشجار. بدا الجوّ، من حولهما، في أقصى صمته، كأنّ الطبيعة التي يحسّان بأنهما قد غابا عنها، قد خاصمتهما. كانت مشاعرهما، الآن، فيّاضة. فالمواجهة المقبلة، مع كل الذين فارقوهما، تعطي للتوقّع معنى البهجة. وليس عليهما، وهما يقتربان، إلا مداراة هذه المشاعر، وترتيب ما سوف يقولان، كلّ لعائلته. وبانتظار ذلك لاذا بالصمت، وتقدّما، بخطى وئيدة، إلى كرم على جانب الطريق، حيث ينبغي عليهما أن يمكثا وقتاً ما كافياً، لجعل عودتهما من السجن طبيعية.

قالت بدّور متسائلة:

ــ ألا تخشى أن يرانا أحد؟

ــ وماذا في ذلك؟.. نعود من السجن وقد تعبنا، فعرجنا على الكرم نستريح.

- لكن الطريق غير طويلة . .
- لا تنسي أننا نخرج من سجن . .
- هل تأتي معي إلى الضيعة؟
- وماذا أفعل فيها؟ نفترق عند طريق البورة، ونلتقي بعد الظهر. سأذهب إلى الشوباصي من كل بدّ.
- وتمرّ علينا في طريقك؟
- هذا ما لا أعرفه . . يجب أن أزوركم، لكن لا أدري متى . . لندع ذلك الآن.

افترقا. بدّور ذهبت إلى القرية. الوالد يمّم شطر البورة. تلبّست كلاً منهما صورةٌ غير التي كانت له قبلاً. اصطنعا هيئة من يخرج من سجن، رغم أنهما لا يعرفان كيف تكون هذه الهيئة، إذ لا مرآة معهما. جذفا في بحر من ضياء، دق القلبان من شوق وغبطة. بكت بدّور. كانت مستعدّة للبكاء، ولم يعرف أحد السبب، ردّوه إلى لهفتها، إلى فرحها ببيتها، أولادها، زوجها، لكنّها هي، في أعماقها كانت تمارس إحساساً آخر، ووجدت في البكاء متنفّساً وطريقة للتمويه. أما الوالد فقد أعفى نفسه من هذا الواجب الثقيل. تصرّف كرجل ليس من حق أحد أن يحاسبه. عاد وكلّ ما فيه طبيعي، كأنّه لم يقبض عليه، ولم يسجن أو يُضرب. كان، في أعماقه، قد أدّى المهمة التي انتدب نفسه لها. لقد وُفّق بانتزاع إعجاب بدّور، وحتى لو لم يوفّق، فقد كان الأمر لا يختلف لديه. لامبالاته هي نفسها، في الذهاب وفي الإياب، وحتّى الحقد على المطعون ما كان يعتمل في ذاته. اقترب من البورة بهيئة من لم يفارقها. كلّ ما فيه كان سالماً، سوى قدميه اللتين فيهما بقايا ورم. كان يضع يديه وراء ظهره، كأنّه قام بجولة في أطراف الكرم وعاد. ومنذ رآه الفلاّحان على البورة اضطربا، سعيا بالخبر إلى المطعون. دخل هذا خيمته وأخرج مسدّسه الصغير من تحت الفراش. تصوّر أنّ الوالد سيهجم عليه ما إن يراه. تخيّله عبوساً، غاضباً، يسعى إلى الانتقام، لكنّ الوالد لم يكن في وارد من هذا، ومع أنه مستعدّ، في هذه الساعة

بـالذات، أن يقف مـوقفه السـابق نفسه، وأن يشتم المطعون ويبعثر بيدر الزيتون، ويدخل في معركة، فـإنّ الماضي، بـالنسبة إليـه كان قـد مضى، وليس من سبب لأن يتصرّف على غير عادته، فهو ابن لحـظته، وليس، في هذه اللحظة، ما يعكّر صفوها.

ركض الفلاّحان إليه فسلّما. لم يحدّقـا في عينيه خجـلاً، لأن موقفهـما لم يكن كما ينبغي. أما هـو فقد مشى رأسـاً إلى الخيمة، وأوّل مـا فعله، منذ بلغها، كان تناول الجرّة، ورفعها إلى فمه، ليروي ظمأ الطريق، بعد ذلك دخل الخيمة، وأخرج علبة التبغ فلفّ سيكارة وأشعلها. لم يكن ثمة تغيّر في البـورة، كلّ شيء كـما تركـه، والخيمة كـانت ذاتها، سـوى أنّ العائلة في الكرم. ولم يكن جائعـاً، ولا راغباً في الكـلام، لكنّ الفلاّحين لحقا بـه، وكرّرا السلام، ودون أن يسألها شيئاً، أظهرا كثيراً من المودّة والإعجـاب. وأمام اهتمامهما الزائد، حافظ هو على هدوئه، كأنّ شيئاً لم يحدث، كل ما أخبرهما به هو أن بدّور عادت أيضـاً، وأن سراحهـا أُطلق صباح اليـوم، وأنهما كانا بريئين، وقد ظهرت هذه البراءة للمحقّق، فأخلى سبيلهما.

- هل عذّبوك؟
- ليس كثيراً. .
- كيف ليس كثيراً؟ الورم ما زال على قدميك.
- هذا لا شيء. . المهمّ أن الحفرة التي حفرها المطعون لنا لم نقع فيها.
- لكنّ المطعون يقسم إنّه لم يعتمدّ إيذاءك. .
- ومن يقول إنه أراد إيذائيّ؟
- أنت غير حاقد عليه إذن؟
- ولماذا أحقد؟

خلال ذلك، كـان المطعـون يقف وراء الخيمة. كـان ينصت للكلام، ويضطرب من خوف. لقد سرّه أن الوالد لا يحقـد عليه، لكن لامبالاتـه أعجزته. لم يفهم، بالضبط، ما يـريد أن يفعله، إذ ليس من المعقـول أن ينسى بهذه السهولة، وليس من المألوف أن يعفو وهو طليق، وقادر أن يأخذ

حقه. المشكلة أنه إزاء إنسان غريب، له من الجرأة ما يدفعه إلى الوقوف في وجه الدرك، وإلى تحمّل السجن والعذاب، ثم يعود مطمئناً كأنه كان في مشوار إلى المدينة.

- ١١ -

فرحي بعودة الأب، عادل فرح العائلة كلّها. تذوّقنا لأوّل مرّة بعد هجرتنا طعم الانتصار. صار في وسعي أن أستريح من الحراسة، قبله، أيضاً، صار في وسعي، بيني وبين نفسي على الأقلّ، أن أمارس شعوراً بالاعتزاز. لم أتوقّف طويلاً عند الدافع الذي حدا بوالدي إلى حماية بدّور، وتحمّل العذاب والسجن لأجلها. هو نفسه، في كلامه، لم يوح بأنّه انتصر للحق، أو أنّه دفع ظلماً، ولم يقبض كلّ ما أقوله، أو أفكّر فيه، عن العدالة وضرورتها. ما فعله انتهى بانتهاء الحادث. لم يتوقّف طويلاً عنده، لم يفاخر، لم يزِدْه، ولم يضخّم ما لا قاه، كأنما كلّ ذلك كان عادياً إلى درجة لا يستحقّ تعب روايته. سكت عن ذكر بدّور. لم يفصح عن شعوره تجاهها. ولم يظهر، عندما كانت تأتي إلى البورة، أيّ اهتمام خاصّ بها، وكاد يقنعني أنّه لم يفعلها لأجلها، لولا أنه، بعد أسبوع من عودته، شرع يتردّد على القرية، ويتغيّب، أحياناً، في أوّل الليل، حين نكون جميعاً على البورة، ولا حاجة لحراسة خاصّة يقوم بها، باعتبار أنّ النطارة تبدأ بعد أن ننام، ولا يبقى من يسهر على الزيتون. وكنّا نردّ تغيّبه إلى حاجته للشرب، في حانة القرية، وهي عبارة عن كوخ يُدعى دكّاناً.

وحتّى حياة السجن، لم يأت عليها في أحاديثه، من ناحية الظلم الاجتماعي الذي تمثّله. أفاد منها أقاصيص يرويها بسليقته القصصيّة. صارت مادّة في الكلام على ما فيها من طرافة. وكنت أفغر فمي وأنا أسمعه

راوياً، صانعاً من واقعة صغيرة، من خبر لا قيمة له، مادّة قصّة قصيرة أو طويلة، لا يستطيع المرء، وهو يسمعها، إلاّ متابعتها بشوق، لما فيها من إيقاع، ومن تقطيع، ومن معلّميّة في إبراز الجانب الأهمّ، والتوقّف عند اللحظة المأزومة، اللحظة التي هي مركز الحادثة، خطّها الرئيسي، الذي يعطي لبدايته ونهايته أهميّة تتجلّى في خبرة قاصّ، يمسك الخيوط، ويمركزها، ليعقدها، يحلّها، ويخرج منها بقصة جيدة، مقبولة، فنيتها في صياغتها، وعنصر التشويق فيها، بأكثر مما هي في قيمة الحدث في ذاته.

ولقد راقبت الفلاّحين، عزيز ويونس، ودهشتها أمام هذه القصص. كانا، في إصغائها التامّ، وانفعالها بما يسمعان، يكشفان عن قدرة القصّ على التوصيل الكامل. وإذا كان الوالد، في هذه القصص عن السجناء، وحياتهم، ومشكلاتهم، وموقفهم منها، وتقبّلهم لها، أو ندمهم على ما اقترفوا، وإحساسهم بالظلم، وتوقّعهم الفرج، لا يعطي رأياً شخصياً، فإنه كان يترك، في سامعيه انطباعاً دلالياً، هو الذي يترك أثراً بيّناً، فنحسّ، ونحن نسمعه، بالظلم، وبجور الأغوات والسادة، وبعقد المشاكل الاجتماعية، ودوافع الواقع وراء تصرّف هؤلاء السجناء، عند ارتكاب الأفعال، وعند نزول القصاص بهم جرّاءها.

لاحظت أنه أكثر منّي قدرة على الإقناع. كل ما أعرفه، وأرفضه، عن الظلم الاجتماعي، عن فساد الحياة، عن سوء الواقع، يقوله هو، لكن بطريقته الخاصة، الخالية من الانفعال، من الوعظ، من إعطاء حكم، من تحبيذ أو تنكير، فكأنّه يقصّ بحيادية ليس فيها أثر لما عاناه. يرسم، بالكلمات، مجسّماً للسجن، للنزلاء فيه، لقضاياهم، تجعلك تعيش ما عاشه، تعاين ما عاينه، من خلال الحدث، وليس من خلال إقحام رأيه الشخصيّ، في تصويب أو تخطئة ما كان وما جرى.

في تلك الأيام، ومن خلال أحاديثه، اكتشفت فيه ملكة قصّ أصيلة، وموهبة على تناول حدثه من النقطة المثيرة، وإدخالك في جوّه، ثم تشويقك، وأخذك معه إلى حيث الخاتمة، تاركاً لك أن تستنتج بنفسك،

ملهاة هذا الحدث أو مأساته، مثيراً فيك قدرة على التخيّل، بمقدار ما فيه، هو، من قدرة على التخييل، وتلوين الواقعة، ورفعها إلى مستوى قصّة لكاتب موهوب.

ولكم تساءلت، بيني وبين نفسي، عن سرّ هذه المعلّمية في سرد حكاياته، وعن صدور ذلك عنه بعفوية، حتى كأنّه لا يفقه كنه ما يفعل، وتمنّيت أن يكون له بعض الوعي، بعض الفهم للأسباب والدوافع، حتى يكون في صفّ الذين لا يكتفون بوصف الظلم، بل يعملون على رفعه. وأعترف، الآن، أنه كان في تبشيعه للظلم، وتقبيح نتائجه، ورسمه بإيحاء يدعو للسخط عليه، لمقاومته، أفضل منّي حين أتكلّم على الأشياء مباشرة، فيظهر من كلماتي تحريض مباشر، لا يكون له الوقع الذي كان لتحريضه هو غير المباشر، المتروك لدلالة الحدث.

وأذكر أنّ رجلاً سجن في مدينتنا إسكندرونة، لسبب لم أعد أذكره، كان يشتم السجن، بعد خروجه، ويصوّره في أقبح صورة. والدي لم يقل شيئاً، عاش الفترة التي قضاها سجيناً كما يعيش في بيته، ولم يكن للقلق إليه سبيل، وكان يأكل، وينام، ويتحدّث، تماماً كما يفعل خارج السجن، وقد قال، ونحن نتأوّه للظلم الذي حلّ به: «ولكن ماذا حدث؟» كأنّ الأشياء سواء لديه، وكأنه لم يعمد إلى مقاطعته كما فعلنا نحن، وكلّ ما فعله أنه أظهر استخفافاً أكثر ببهورته وادّعاءاته، ولم يُقْصِهِ عن السهرات، ولا طلب أن نعامله بشكل يختلف عمّا كنّا نعامله به أوّل حضورنا إلى «البورة».

وردّاً على تودّدات المطعون، وتأكيداته المستمرّة أنه لم يكن السبب في سجنه، ولا أراد إلحاق أيّ أذى به، كان يصمت، غير مصدّق، ولكن غير مبالٍ أيضاً، كأنما يعوّل على الفعل لا الكلام، وحتى هذا يقوله في أوانه، ويقوله بجرأة كاملة، غير مكترث بالنتائج، الأمر الذي أرهب المطعون أكثر، ودفعه إلى الإلحاح في الكلام على الحادث، والاعتذار عنه، ليعرف ما سيكون موقف الوالد منه مستقبلاً.

لقد بهرني والدي، في تصرّفاته تلك، بعد خروجه من السجن. كنت على يقين أنه لن يقلع عن السكر، والترحال، والمغامرة، والتهالك على المرأة. لكنه، مقابل ذلك، يعرف أن يتصرف بكياسة لا تنقصها الجراة، وهو قادر أن يكون أباً، دون إظهار كثير من العواطف، ويحبّ العمل، لكنّه لا يتقنه، ولا يستمرّ فيه، ولا ينعدم الشعور بالمسؤولية العائلية لديه، لكنّه لا يجعل هذا الشعور أقنوماً له، وبسهولة كبيرة، يتجاهله وينساه.

ولقد كان لي، خلال وجودنا في الريف، وحول البورة، وفي كروم الزيتون، وقت كثير للتفكير فيه، لمحاولة فهمه، لتعديل الصورة البشعة التي تكوّنت له في نفسي، وجرّبت صادقاً أن أفهمه وأن أعذره، وأحبّه، لكن ذكريات الماضي كانت تعتادني، فتحول بيني وبين أن أرى فيه ذلك الأب الذي أعزّه وأفاخر به. وإذا كنت قد أعجبت بشجاعته، فإنّ هذا الاعجاب كان مصروفاً إلى الشجاعة بذاتها، وموقفي منها كموقفي من شجاعة أيّما رجل آخر. ورغم أنني اكتشفت، أو كشف هو نفسه ببساطة، أنّ دفاعه عن الفلاّح السجين صخر، وحمايته لبدّور، وتصدّيه، إلى درجة التهوّر، لكل بادرة سوء تصدر عن المطعون، فإنه ما كان يفعل ذلك صدوراً عن مبدأ، بل عن طبيعة، ثم لا يبالي بما يقال حول فعلته، فهو، من هذه الناحية، لا يكترث برأي الناس فيه، ولا يتوقّعه، أو يعينه أمره.

قال لي ونحن أمام الخيمة، نشرب القهوة:

ـ إذن قمت بحراسة البورة بدلاً عني.

ـ هذا ما يجب، حتى لا نترك للمطعون فرصة للتحرّش بنا وإبعادنا عن البورة، أو طردنا من الكرم كلّه.

ـ وهل خفت؟

ـ شعرت بخوف، بعض الأحيان، لكنني قاومته.

ـ وماذا هناك لتخاف؟

ـ لا أدري، ولكنني خفت أحياناً.

– أنت ما تزال ابن مدرسة . .

أضاف:

– ستتعلّم من الأيام . . لا شيء يستأهل الخوف، أو التفكير.

– لكنني لا أستطيع إلا أن أفكّر . .

– لأنّ رأسك محشوّ بما لا أدري من وساوس . . أنت من طبيعة أمّك . .

– أمّي طيّبة . .

– لا أقول غير ذلك، ولكن ماذا تعني الطيبة وحدها؟ انظر اختك، هي طيّبة أيضاً، لكنها جريئة، ورأسها خال من الوساوس.

– هل الوسواس عيب؟

– ليس عيباً إلاّ أنه مصيبة . . هذه هي مصيبة أمّك، وأنت طالع مثلها . . كأنك لست ابني.

– أنا لا أريد أن أكون مثلك في كل شيء . .

حدق فيّ بنظرة صارمة وقال:

– أفهم ما تعنيه . . ليس من الضروري أن تتشبّه بي . . أنا لي أخطائي، عاداتي السيّئة، لكنني لا أخاف الحياة . . مرات عديدة رأيت الموت بعيني . في برّ الأناضول، رفضت خدمة العثمانيين. رفضت السخرة والقهر وسوء المعاملة. هربت من العسكرية. كنت أهرب كلّما سنحت لي الفرصة. ما أكاد أعود إلى الخدمة حتى أفرّ منها. الأتراك أعداء للعرب. لهذا رفضت خدمتهم. وخلال فراري المتكرّر تعرّضت للموت أكثر من مرّة . . كنت أقع بين أيديهم، فيقبضون عليّ، ويعيدونني إلى الخدمة. وما هي هذه الخدمة؟ إنّها ليست حمل السلاح. إنّها سخرة. العمل في شقّ الطرقات، ومدّ السكك الحديدية، وحراسة المحطات، وكنّا حفاة عراة جياعاً. كانت «القروانة» وهي الوجبة الوحيدة في اليوم، عبارة عن ماء مغليّ فيه حبات من العدس، عبثاً كنّا نبحث عنها في

الوعاء. كانت تلك حياة قاسية. قذرة مهلكة، وقد رفضتها، وكنت أدبّر طريقة للهرب، ما إن يُقبض عليّ وأعاد إلى الخدمة. وكان الهرب في برّ الأناصول، صعباً، يحتاج إلى جرأة، ومغامرة. كان عليّ أن أختبئ في النهار وأمشي في الليل، وكانت الجبال هي الطرق التي أسلكها، ومرّة قبض عليها أشقياء، وقرّروا إعدامي. عصبوا عينيّ، وربطوني إلى شجرة، ثم صوّبوا بنادقهم نحوي، وفي اللحظة الأخيرة عدلوا عن قتلي، غيّروا رأيهم. كانوا من الفارّين أمثالي، وقد أخذوا عليّ عهداً ألاّ اقول إنّني رأيتهم، أو أدلّ على مكانهم، وأقسمت على ذلك، وأطلقوا سراحي، ماذا كان موقفك لو كنت مكاني؟ قل أنت. . كنت تموت خوفاً، ولماذا الخوف؟ الإنسان يموت مرّة واحدة، الموت أشرف من الرضوخ للظلم. . مع ذلك لم أمت. ها أنا أمامك. كلّ ذلك لم يؤثّر على أعصابي، لم يدخل الوسوسة إلى صدري، بخلاف أمّك التي ترتعب من خيالها. . وأنت من أنت؟ نسخة عن أمك، وكنت أريدك، أنت ابني الوحيد، أن تكون مثلي، لكنّك لم تكن، أمّك جعلت منك ابن مدرسة، وفي رأسك أفكار. أنا لست ضد أفكارك، لكنّها لا تهمني كثيراً. أنا سعيد أكثر منك.

– لكنك لا تقوم بواجبك مثلي.

– عن أيّ واجب تتكلم؟

– عن الواجب تجاه العائلة، وتجاه الناس.

– أفعل ما أستطيعه.

– ولكنّك مطالب بأن تفعل أكثر.

– لا أستطيع. . هذا أنا. ولا أريد أن أكون غير ما أنا. إنّني منسجم مع تصرّفاتي، وإذن فأنا صادق، وهذا هو المهمّ.

– أيرضيك أن تتشرّد في الريف من جديد، وتعمل في جمع الزيتون؟

– وماذا في يدي؟ قل أنت، أشر عليّ. رجل لا يقرأ ولا يكتب، وليس في

يده صنعة، ماذا يفعل في هذه الهجرة؟

– وقبلها، في السويدية، والأكبر، وإسكندرونة؟

– الا تخجل؟ تريد أن تحاسبني؟ هل تظنّ أنني كنت ألعب هناك؟

– أنا لا أحاسبك، لكني كنت أتمنى لك توفيقاً أكثر.

– لو كان لي مال، سند، لتوفّقت..

– لو كنت تثابر على عمل، وتحسن المهنة التي تشتغل فيها..

صاح بي:

– أنا خائب.. ماذا تريد أكثر؟ أرني شطارتك.. ها قد أصبحت شاباً، وابن مدرسة.

– لا أريد مخاصمتك ولا لومك.. ما جرى جرى.. هذا نحن وهذا واقعنا.

– قل هذا لنفسك..

– قلته.. أنت تذكر أنني اشتغلت وأنا في المدرسة.. سأشتغل غداً، وستتغيّر حالنا.

– سنشتغل كلّنا.. البيت لا ينهض على عمود واحد.

– إذا كان العمود قوياً، راسخاً، يكون دعامة البيت، جسره..

لم تعجبه قولتي.. أشعل سيكارة قبل أن يردّ بنبرة غضب:

– كنْ أنت هذا العمود غداً..

– سأكونه.. لكن ماذا يفعل فتى مثلي؟ أفضل شيء أن أواصل تعلّم مهنة الحلاقة.

– وأنا موافق.. كن حلاّقاً، ولكن ناجحاً.. وماذا يريد الأب لابنه غير النجاح؟

قالها ونهض. هذا أوّل حديث صحيح بيننا، لا أعرف ماذا سيشتغل والدي في اللاذقية بعد انتهاء موسم الزيتون، والأرجح أنه سيعود إلى بيع حلوى «المشبّك»، ولن يوفق بأكثر مما وفّق في اسكندرونة، ولكن ما العمل؟ هذا كلّ ما يحسنه، ويكفي، بعد الآن، أن نستقرّ في اللاذقية ولا نعود إلى التشرّد في الريف. إنني لا ألوم الوالد. هو نفسه قال: «هذه طبيعتي» ولم يبذل، ولن يبذل أيضاً، أيّ جهد لتغيير هذه الطبيعة اللامبالية، والأمل الوحيد، أن يكون في اللاذقية، بين شقيقيه، وأن يكفّ عن إهماله وترحاله. لكن ذلك لن يصير، وهذا ما أعرفه، ولا أحتاج إلى التنبؤ به.

عدنا إلى جمع الزيتون، عاد هو إلى النطارة على البورة، لم تقع مشاكل جديدة بينه وبين المطعون، أظهر الوالد انضباطاً أكثر في تصرّفاته. لعلّه أحسّ أنني كبرت، وأنني سأحول بينه وبين ضرب أمّي، أو تعذيب أختي، وتحديمها عند الناس. المصارحة بيننا كانت ضرورية. فهم أنّ ماضيه كان سيّئاً، وأنّني أعرف ذلك، ولعلّه رغب أن يتخلّى عن نزواته، ومن المفروغ منه أنّه لن يستطيع ممارستها هنا في البورة، وكل ما يفعله أنه يشرب قليلاً، يشرب مساءً، بحضورنا وعلمنا، أو يتردّد على خمّارة القرية. كان يغيب، أحياناً، لبعض الوقت، دون أن يقول أين كان، ودون أن يسمح لنا بمساءلته عن هذا الغياب. كل ما قدّرته، أنه يذهب إلى الخمّارة، ولم يكن هذا مزعجاً لنا، وقد راقبت الوالدة فألفيتها غير مكترثة بغيابه المتقطّع، ولعلّ شعورها القديم، في النفور منه، والامتناع عليه، والتظاهر بأنّ العلاقة بينهما كزوجين قد انتهت، كان هو ذاته الآن، ولهذا فإنّها لم تأبه، ولم تغضب لغيابه نهاراً أو ليلاً.

ما عدا ذلك بدا مستقيماً. كان يرافقنا إلى الكرم، وينبر لنا الزيتون، ويحاول أن يجمعه معنا، لكنّه لا يصبر صبرنا، فيغادرنا إلى البورة، متذرّعاً بضرورة تواجده عليها، ولو أنّه، كلّما جمعنا كيساً من الزيتون، كان يستعير حماراً وينقله عليه إلى البورة، مخففاً عنّا هذا العناء الذي كابدناه، أختي وأنا، خلال سجنه.

ذات يوم، بعد عودته بأسبوع، ناداني وقال:

– ستذهب معي اليوم إلى القرية.

– وماذا في القرية؟

– تتعرّف إليها، وتسلّم على الشوباصي.

أضاف:

– من واجبي أن أزوره، فقد كان، رغم كل بطشه، رفيقاً بنا، أبقى عليكم في البورة، ولم يكن راضياً عن سجني، وأعلن ذلك صراحة، ولم يكتم غضبه على المطعون.

فكّرت في عرض والدي. تردّدت في إعلان رأيي، كنت أريد أن أرى القرية، لكنني أهاب مقابلة الشوباصي، وأدرك هو ما طاف بخاطري، فقال لي مشجّعاً: إن أبا إسكندر سأله عنّي، وكان مسروراً لكوني أقرأ وأكتب، ونصحه أن يتيح لي تعلّم مهنة الحلاقة التي بدأتها.

قال:

– الشوباصي سيكون مسروراً من هذه الزيارة. المجاملة ضرورية ولي غاية فيها، هي أن أشعره أنني أحترمه، وأفرّق بينه وبين المطعون.

أضاف:

– أبو إسكندر ذكيّ، رجل ملء ثيابه، كنت أتوقّع الأذى منه، فإذا به يأتي من المطعون. لقد راعى الشوباصي خاطرنا. عاملنا بطيبة غير متوقّعة. قدّر ظروفنا. أدرك أن الهجرة هي التي دفعت بنا إلى هنا، ولم يشأ أن يزيد في متاعبنا، وهكذا نجونا من بطشه الذي لا ينجو منه فلاّح في كل هذه الديرة..

• قبلت أن أذهب مع والدي إلى قرية «ح».. كنت أراها من تخم كرم الزيتون. أقف عند المفترق المؤدّي إليها. أشاهد تجمّع البيوت القليلة على

الرابية، هذه البيوت التي يقوم بينها، وعلى مستوى أرفع، البيت الحجري ذو القرميد الأحمر الذي يتوسّطها، أو يشكّل ما يشبه الحصن فيها. هنا كان بيت الأسياد، الذين يأتون لماماً، وفي أوقات متباعدة، للاطّلاع، للإشراف، لقضاء شغل، ثم يعودون. وكان للشوباصي غرفة أرضية في هذا القناق، وتقوم البيوت الطينيّة الواطئة، التي يسكنها الفلاّحون، من حواليه، وهي تحيط بساحة كبيرة، ترابيّة، على أطرافها بعض الأشجار، وفي هذه الباحة بعض التنانير للخبز، وفيها دكّان ريفي لبيع بعض اللوازم من ملح وكبريت وسكّر وزيت وكاز. . وعرق. وكانت عربة الحنطور، أو الكرّوسة، وأحياناً السيّارة، تأتي إلى القرية، وتدخل الباحة إلى القناق، وتترك، في الصيف، زوبعة من الغبار وراءها، وفي الشتاء، إذا جاءت، تشقّ الدواليب درباً لها في الأوحال.

قرية «ح» هي قرية الأسياد. فيها الشوباصي، والمختار، وأحياناً الوكيل، وتتراوح بيوتها بين العشرين والثلاثين، وهي محظيّة بين القرى الأخرى، التابعة للسادة أنفسهم، والبعيدة، على مسافات متباينة، حول هذه القرية التي هي المركز. كان الشوباصي، هو السيّد الفعليّ، المباشر، على كل هذه القرى، وعلى الأملاك التي لا تُحدّ حولها. وما من فلاّح، يخطر له الشوباصي في بال، إلاّ ويرتعد، بسبب من قسوته، بطشه، مظالمه، التي تتجاوز كلّ حدود، لتصل أحياناً إلى ضرب الفلاّحين، وهدم بيوتهم، وتهجيرهم، وقتلهم أيضاً.

ذهبنا إلى هذه القرية في الضحى، كان شكلها، ترتيبها، جوّها، على خلاف ما تصوّرت. صحيح أنها تشبه القرى الأخرى، في بيوت الفلاّحين التي هي أوكارٌ طينيّة، وفي الباحة التي يسرح فيها الدجاج، وترتبط الخيول والأبقار، لكن القناق القرميديّ، ذا الطابقين، يعطيها ميزة على القرى الأخرى، قل جاهاً، سواء في الباحة التي تخترقها درب مرصوفة بالأحجار والحصى، أو في الحديقة المشجرة حول القصر.

قصدنا، فور وصولنا، غرفة الشوباصي، أو جناحه الأرضي، ورأينا

فرسه مربوطة إلى معلفها، وبعض الفلاّحات اللواتي ينظّفن الباحة، ويجمعن روث البقر، ليصنعن منه الجلّة التي تجفّف وتحفظ للشتاء، كان فلاّح عجوز يسقي الأزهار والشجيرات، كان محدودباً، متهدّماً، أُعفي من العمل الزراعيّ لأنه عاجز عن مزاولته. لم أر سواه في الباحة، ولم أجد أيّما أثر للرجال الذين ذهبوا إلى الحصاد أو الحراثة أو جمع المواسم، وحمدت الله أنني لم أشهد أيّما فلاّح يُجلد، حسب التصوّر الذي أحمله من الحكايات التي سمعتها. وكان الشوباصي في غرفته، يفرم التبغ على لوح خشبي صغير، مستطيل، سميك، بسكّين حادّة، يلمع نصلها، وبحركات فيها دربة ومهارة.

طلبنا من العجوز أن يبلّغ الشوباصي أننا جئنا لزيارته. دخل عليه وعاد يطلب منا الانتظار. خُيِّل إلينا أنه لمّا يبرح فراشه، أو لم يَرْتَدِ ثيابه، أو أن غرفته غير مرتّبة لاستقبال الزائرين، لكنّ شيئاً من ذلك لم يكن، فهو، كما قال لنا، يستيقظ باكراً، ويقوم، راجلاً أو على فرسه، بجولة في الأراضي والكروم، ويتبلّغ صباحاً بحبّات من التين الأخضر أو اليابس، وهذا كلّ فطوره.

حسبت بادئ الأمر أنه أبقانا منتظرين اصطناعاً للوجاهة. إشعارنا بمكانته وهيبته وصعوبة الوصول إليه، لكن ذلك كلّه كان تصوّراً غير حقيقي، فهو يراجع بعض دفاتره، وحين فرغ منها، وباشر فرم التبغ، أذِنَ لنا بالدخول. ردّ تحيتنا كما يجب، لكنه لم يرحّب ولم يبتسم. كان، حسبما انطبع في ذهني، أقرب إلى العبوس، ولم ينهض لنا، وتشاغل بفرم التبغ عنّا، وكان في كامل ثيابه، وعلى رأسه الطربوش المغربيّ المعصوب كعادته.

سأل الوالد دون أن يلتفت إلينا:

ـ متى خرجت من السجن؟

ـ منذ أسبوع، وحضرتك تعرف ذلك.

ـ نعم أعرف. عدت لامبالياً، كأنما كنت في رحلة إلى قرية أخرى.

قال الوالد:

– أستغفر الله.. العين لا تعلو على الحاجب، ولم يصدر مني في حقّكم إلاّ كلّ مليح.

– وفي حق المطعون؟

– أنا لا أشاكله. أقوم بالنطارة على البورة، وعائلتي تجمع الزيتون، ونحن تحت أنظاركم، وقريباً ينتهي الموسم.

– لكننا قد نلتقي في المدينة، ولا أرى سبباً لاستمرار العداوة بينك وبين المطعون.

– أنت تعلم أنه البادى.

– أنا لست قاضياً، ولا أحقّق معك، ولا يهمني من البادئ. المهم أن تنتهي المدّة الباقية من الموسم على خير.

– إن شاء الله.. كلّ ما تقوله يا أبا اسكندر أعمل به، وسأعمل به أكثر.

– ليس من السهل.. أنت مشاكس.. مَنْ تظنّ نفسك؟ كيف تجرّأت على المطعون؟ ولماذا حميت بدّور، كان يجب الرجوع إليّ، أم أنك لا تحسب لوجودي حساباً؟

• ضاق صدري من هذه اللهجة الاستبداديّة، من هذا التهديد والوعيد المبطّنين. من هذا «الوالي العثماني» الذي نصب نفسه حاكماً مطلق الصلاحيّة في رقاب وأرزاق الفلاّحين، والذي يعامل الوالد كفلاّح في إقطاعته الكبيرة. كان الآن غيره على البورة. كان كمن يجلس على كرسيّ العرش، والوالد أحد عبيده. وقد عجبت من تواضع الوالد، تضاؤله أمامه، وكدت لا أصدّق عيني ولا أذنيّ، وتصوّرت حال الفلاّحين البؤساء معه، وضروب الإهانة والإذلال التي ينزلها بهم.

قال لوالدي بعد صمت:

– قل لي، بصراحة كاملة، وبيننا تماماً: كانت بدّور سارقة؟

ـ أنا لم أفتّشها، لكنّني أستبعد ذلك، هذه وشاية من المطعون، كان يحوم حولها، وكان يزيد لها في الوزن، ثم فجأة انقلب عليها، عاملها بجفاء عدة أيام، أنقص لها في الوزن، ثم اتّهمها بسرقة الزيتون، جرى كل ذلك أمامي، كنت أراقبه، عيني لا تغفل عما يجري في البورة.. أحسب أنه كان يريد منها شيئاً وأبتْ.. لا أحطّ في ذمتي، لكنّه التفسير المعقول لسلوكه.. إنه.. ماذا أقول؟، تعرفه أكثر مني.

ـ أعرفه في المدينة وفي القرية وعلى البورة. لا تخفى عليّ خافية. في اللاذقية، خلال الشتاء، يعمل في أحد النوادي التي يلعبون فيها القمار. شغلته خدمة اللاّعبين. يسترزق، لكنه، إضافة إلى هذا يقوم بكل ما يُطلب منه، وقبل الظهر يدور على البيوت، يحضر مجالس النساء، يشترك في الصبحيّات، ينجّم، يرى البخت في الفنجان، يعمل أيّ شيء تريد، لكنه لا يترك جانب الخواجات.. هو، من هذه الناحية، زلمتهم، وهم يثقون به.. شكاته بحقك كادت توديك في داهية، لولا أنني تدخّلت.. أنا لا أمنّ عليك، لا أقول هذا لتعرف، غير أن وضعكم في الريف، المني، وجاء السجن ليزيد الطين بَلّة.

ـ أنت مشكور على كل حال يا أبا اسكندر، لولاك كنت في السجن الآن.

ـ ليس الأمر كذلك. موقفك الصلب ساعد في إنقاذك، لم تعترف بأن بدّور سرقت، وأنك ما قمت في تفتيشها، وهكذا عجزوا عن إثبات التهمة عليك. هذا الموقف منك أرضاني. أثبت أنكَ رجل، أنا أحبّ الرجال، المطعون هذا طرطور. رخو أمام النساء، يضحكن عليه. مجالسه معهنّ مشهورة، يدعونه إلى الصبحيات ليتسلين عليه، وهو ليس أكثر من خادم في بيت الخواجة «د».

ـ لاحظت ذلك، أدركت أنه تحرّش ببدّور فاستعصت عليه.

نظر الشوباصي الى والدي، رمقه بنظرة جانبيّة لسبر دخيلته وقال:

ـ وأنت.. هل كانت معك؟

ـ أعوذ بالله.. هذه ليست شغلتي.

ـ أنا لا أقول إنك راودتها، أو ارغمتها، لكنّها، هي التي مالت إليك.

ـ إليّ؟.. لا علم لي ولا خبر.. أقسم..

قاطعه الشوباصي:

ـ لا تُقسم..

ارتبك الوالد. فاجأه الشوباصي بما حاول أن يخفيه عنّا وعن الآخرين. أفهمه أنه عين ساهرة. قال له ما يجب في الوقت المناسب، وضعه في الزاوية الضيّقة، وحين أنكر انتهره... كان الشوباصي يعرف كلّ شيء، ويكره الكذب، وله عيون في كل مكان، ومن رصده لكلّ الأشياء، يطلع على ما يجري في «مملكته» ويبطش بالفاعلين بغير رحمة. خلال لحظات، رحت أراقب والدي. أحدّق في عينيه، في وجهه، في حركاته، شاعراً بأنه هو هو، ذاك الأب الذي عرفته، ذاك الزوج الذي ذاقت أمّي على يديه الويلات، لكنّني صدّقت قسمه، دون أن يوليه الشوباصي أيّ انتباه. لكنّ والدي، طوال فترة الصمت الذي ساد، لم يلتفت إليّ. تجنّب نظراتي. اعترافه بالذهاب إلى الخمارة أربكه.. كان يؤثر ألّا أكون معه، وظنّي أنه لم يحسب حساب هذه المفاجأة، وإلا ما اصطحبني معه.

قال الشوباصي بصوته الخشن، الصارم، المشبع بالرهبة:

ـ لماذا سكتَّ يا مصري؟

ـ وماذا أقول يا أبا إسكندر أكثر مما قلته؟

ـ أنت لا تنكر تردّدك على الضيعة إذن؟

ـ لا أنكر، ولكنني أذهب لتناول كأس من الدكان.

ـ احذر إذن.. لا تتردّد كثيراً على الخمارة، ودع السكر أيضاً، فليس هذا أوانه.

أضاف:

ـ لو غيرك فعل ما تفعل لم أكترث. أنا لست شرطياً على الأخلاق. ولكن أنت لست غريباً، ولا أريدك أن تسكر. أخوك صاحبي، وأنتم عائلة من المدينة، ولا أحبّ لكم البهدلة أمام الفلاّحين. لا تضيّع موقفك الصحّ بخطأ من هذا النوع. كنت، حتى الآن، على الحياد، لم أشأ أن أتدخل وأؤذيك.. سكتّ كي أحفظ كرامة أسرتك، ولولا ذلك كنت تعرف من أنا، وكنت تؤمن، على يدي، أن الله حق.

قال والدي:

ـ لا أريد الدفاع عن نفسي.

بادره الشوباصي بجملته الحاسمة، الزاجرة في الوقت نفسه:

ـ أنت لا تستطيع الدفاع عن نفسك.

أضاف بغير ميل إلى التخفيف من نبرته العنيفة:

ـ أحسنت بالسكوت. لو تكلّمت، لو حاولت التملّص، لو أنكرت أنّك تتردّد على الضيعة لكان لي معك حساب آخر.

فجأة رقّت رعدة على قسمات الوالد، تحوّل إلى طبيعته الحقيقية، المشاكسة، اللامبالية.

قال:

ـ جئت في زيارة قدّرت أن الواجب يفرضها. سمعت كلماتك وسكتّ. أنت على الرأس والعين، لكن للصبر نهاية. إنني أحترمك، أنت الأكبر سنّاً، ولكنني أريد أن أقول كلمة واحدة إذا أذنت..

ـ قل ما تريد.. إنني أسمعك.

ـ يكفي هذا التقريع، إنني أعرفك. سمعت الكثير عنك، حدّثني أخي، شفت الهيبة في وجهك والعزم في حركاتك، لكنني لم أسكت أمامك لهذا فقط، بل لأنني أحبّك.. أنا كبحّار، كعامل في الميناء، أحبّ الرجال وأقدّرهم مثلك، لكنني، من جهة أخرى، لا أحتمل الضيم. ليس

للموت عندي حساب.. وقد واجهت في حياتي مصاعب وشدائد بعدد شعر رأسي، وليس للعاقبة عندي حساب.. أنا في بيتك، وأنت تمون علي.

قال الشوباصي مجتهداً أن يكظم غيظه:

ـ هذه ثاني أو ثالث مرة تذكر لي، أو تذكر أمامي، أنك كنت في الميناء وأنك بحار.. تحسب أنَّ لهذا قيمة عندي؟

ـ أقول هذا لأنك تعرف البحّارة وعمال الميناء.. وربما تكنّ لهم وداً.

ـ لا ودّ عندي للمذنب..

ـ وبماذا أذنبت؟

ـ تسأل بعدُ؟

ـ أسأل لأنني بريء.. لقائي ببدّور ليس له أية غاية سيّئة، ويحدث مصادفة.. أما الشرب فأعترف به.

ـ وموقفك من المطعون؟ والكلام عن إسكندرونة؟

ـ مالها إسكندرونة؟

ـ لا أدري، يقول المطعون إنكم تفاخرون بها، تقولون إنها ليست كاللاذقية، وهناك يؤلّف الناس النقابات، ويضربون، ويتظاهرون. أتعرف معنى هذا الكلام؟ إنه تحريض.. إنكم تحرّضون الفلاّحين، وغداً، في المدينة تحرّضون العمال، ماذا تحسبون أنفسكم؟ هل الدنيا فالتة؟ أليس من حكومة؟ أليس من يقف ضدّ أعمالكم هذه؟

ـ أنا لا أذكر أنني قلت شيئاً من هذا، وإن كان ما قلته عن إسكندرونة واقعاً.

ـ سل ابنك يُجبك.. هو وأخته لا يكفّان عن التحدّي.. هل أستطيع أن أفهم السبب؟ ما الذي أصابكم؟ أنتم تقولون في أنفسكم المطعون سيّئ، والشوباصي رهيب، والفلاّح ضحيّة، ولو كنتم في غير هذا المكان، وعرفتم الوكلاء، والشوابصة عند الآغوات الآخرين، ورأيتم

كيف يعاملون الفلاّحين، لعرفتم أنتا، هنا، رحماء، في قلوبنا إيمان . .

كنت، حتى هذه اللحظة ساكتاً. أستمع دون أن افتح فمي، دون أن تصدر عنّي حركة إشارة، إيماءة، وكنت مأخوذاً بمنطق الشوباصي. وقد لمت الأب، أوّلاً، على سكوته، ثم أرضتني كلماته، لكنه هو، والدي، لا يهتم بالنقابات، ولا يذكر الفارق الكبير بين إسكندرونة واللاذقية. والعجب أن ما قلته، أو قالته أختي، قد بلغ الشوباصي، وربما كان المطعون هو الذي فعل ذلك، وربما عبدالله الناطور، والد رئيفة، أو أحد الفلاّحين على البورة، ومن الخير أنّ والدي سجن بتهمة حماية بدّور وليس بتهمة تحريض الفلاحين، فمثل هذه التهمة، في نظر الفرنسيين المحتلّين، عقابها السجن والمحاكمة، والملاحقة الدائمة، لمجرد الشبهة. أما كلام الشوباصي على الأغوات الأخرين، وعلى وكلائهم، فهو صحيح . . وإذا كان أبو إسكندر رحيماً كما يدّعي، فماذا يفعله غيره بالفلاحين؟ يا له من ظلم! . . أيّة حياة شقيّة يحياها الفلاّح الذي لا يملك القميص ولا اللقمة، وأولاده في تراب الصيف ووحل الشتاء، دون مدرسة، ودون حدٌ أدنى من المستوى الإنساني؟

ماذا أقول للشوباصي؟ أيّ ليل طويل يغوص الفلاّح في ظلماته؟ أيّ مستنقع من الآلام يغوص فيه دون أن يمدّ إليه أحد يد الإنقاذ؟ وكم سيكون صعباً، وسط هذا الجهل والخضوع، أن يفيق الفلاّح ويعي حقه، بله أن يناضل من أجله. الشمس، هنا، محجوبة بغيم كثيف، لم يفيض لشعاع منها أن ينير عقل أيّما فلاح. ومن المشكوك فيه أن تنتشر المعرفة، أو الأفكار التي توقظ الفلاّحين في هذا الريف، دون أن تمدّ المدينة لهم يد العون . . والمؤسف أنّ المدينة نفسها، تغطّ في سبات، ولا تعمل أيّما فئة للتوعية، وليس في اللاذقية كلّها، حتى ولا في شركة الريجي، نقابة.

أسفت لأنني أطعت والدي وجئت. غير أنني، من جهة أخرى، شعرت بضرورة مجيئي، لسماع أقوال الشوباصي هذه، التي نادراً ما سمعت مثلها، وبهذه الصراحة.

وكان الشوباصي يتكلّم فيما أنا أفكر . . كان يقول لوالدي:

ـ إذا سمعتم نصيحتي، فاتركوا هذه الأفكار. دعوا الفلاّحين وشأنهم. لقد خلقوا لما هم فيه، فلماذا اعتراضكم؟

وافق والدي على هذا الكلام، أسفت لأنه فعل ذلك. لكنني لم أدهش، هو نفسه غارق في الجهل، دنياه لقمة وخمارة. وفي إسكندرونة، حين كان الناس يضربون أو يتظاهرون، كان هو يسكر. كنت أستنكر موقفه، ألومه عليه في نفسي، أخجل منه، إلاّ أنه كان موقفه، وعبثاً حاولت أن أحمله على الإقلاع عنه، وعبثاً تمنّيت أن يكون كالآباء الآخرين، الذين يتكلّمون على وضع الناس، ويتألّمون لبؤس الفقراء، ويتضامنون مع العمّال، ويصغون لما يقوله الآخرون. كذلك تذكرت أنه لم يكن. يقتنع مع أسبيرو الأعور، أنّ عليه أن يدافع عن حقّه، كعامل، أو يكترث للذين اعتقلوا من أجل أفكارهم، أو يشترك في وفد يراجع بشأنهم. كان من طينة أخرى. لا يصغي لأيّما شكوى، لا يصغي حتى لشكوانا نحن، زوجه وأولاده، وبدلاً من تحسين سلوكه، كان ينغمس أكثر فأكثر في السكر، وفي التشرّد، ويتركنا لرحمة الأقدار.

لم يكن من تناقض بين الشوباصي ووالدي. كان التناقض معي أنا، فالشوباصي يمكن أن يغفر، بل هو غفر فعلة والدي، لكنه، مشحوناً بعداء فكري لكلّ ما تمثّله كلماتي، كان ينقم عليّ..

هكذا انفتحت عيناي على واقع بالغ العنت، في النظرة إلى الفلاّح، وفي مقاومة كل كلمة تؤدي إلى إيقاظه. لقد أخطأوا في قبولنا في قرية «ح»، وفي حراستنا على البورة، وفي وجودنا في الكرم كله، وهذا الخطأ أدركه الشوباصي، وعلم بأمره عبدالله الناطور الذي نقل كلامي إليه، لكنّ الأسياد، في المدينة، لم يعرفوا به بعد، وإلاّ ما خرج الوالد من السجن.

انتهت الزيارة بشيء من المجاملة بين الشوباصي ووالدي. لم يكن هو المقصود، وقد علمت، فيما بعد، أنه هو، الشوباصي، مَن طالب والدي بإصطحابي إليه، ليقول لي ما قال، ويتهدّدني، ويعاتب والدي على فعلته، وبذلك يضرب عصفورين بحجر واحد. كنت أنا العصفور المقصود، وفي

نحولي، وصغري، وصمتي أمامه، استهان بالعصفور الذي كنته، وسوّى حسابه مع الناطور الذي كانه الوالد، ورأيتهما، بعد الزجر والتعنيف، يتبادلان علبة التبغ، بل إن الشوباصي، أصرّ على والدي أن يملأ علبته من التبغ الذي فرمه، وأوصاه بالانضباط، وحسن معاملة المطعون، وأبلغه أن القطاف العامّ سيبدأ قريباً، وأن الزيتون سيجمع كلّه خلال أسبوعين على الأكثر.

أبلغت أختي بكلّ ما سمعته وما رأيته في هذه الزيارة. لم تعلق على ما سمعت. لكنها أدركت بحسّها السليم أن الشوباصي سينقل ما سمعه إلى بيت «ف» كما نقل عبدالله الناطور والمطعون ما سمعاه إليه. وجومها أيقظني على الخطر. ربما، بالنسبة إليها، كان الأمر يسيراً. أما بالنسبة إليّ، إذا ما تابعت الكلام على أفكاري في اللاذقية، فسيكون الخطر حقيقياً. وزاد في ألمها أننا عائلة فقيرة، مهاجرة، وأن المهاجرين الآخرين، الذين بينهم من يحمل صورة إسكندرونة المتمرّدة في دمه، سيكون عسيراً عليهم أن يبذروا أفكارهم في أرض بور، إذا لم يقم من أهل اللاذقية بالذات، من عمّالها، فقرائها، مثقفيها، من يحمل مثل هذه الأفكار، فيبشّر بها بين العمّال والفلاحين، في محاولة لإيقاظهم. لقد كان حبّ العمال والفلاحين في دمنا، وما نريده هو الخير لهم.

سألتني وهي تغمرني بنظرات طافحة بالودّ:

— خفت؟

— ممّ؟ الشوباصي لم يتجاوز التهديد.

— في اللاذقية سيتجاوزونه...

وبعد وقفة:

— أما رأيت أحداً من المهاجرين الطيّبين الذين كانوا يتردّدون على حيّ الصاز في إسكندرونة؟

— لم أصادف أحداً منهم.

— ربما هاجروا إلى مدن أخرى.. وربّما كانوا يعيشون، هنا أيضاً،

متخفِّين، حَذِرين كما كانوا في إسكندرونة.

ــ ربّما..

ــ أليس عجيباً أن اللاذقية لم تنجب أمثالهم؟

ــ عجيب حقاً.. لكننا نجهل ما في قاع المدينة، ربما هناك وعي بين العمال.

ــ هذا صحيح.. غير أنّ اللاذقية خالية حتى من نقابة واحدة.

ــ وهذا ما أدهشني وأحزنني معاً.

ــ كان علينا ألاّ نأتي إليها..

ــ وأين نذهب؟

ــ إلى بيروت أو الشام..

ــ ليس لنا أقرباء هناك..

ــ وماذا فعل لنا أقرباؤنا هنا؟ أنا شعرت بالغربة عنهم، كما شعوري بالغربة عن كل أهل اللاذقيّة.

ــ ستزول مشاعر الغربة هذه..

ــ متى؟

ــ أنا لا أستعجل زوالها.. يكفي، في البدء، أن نحصل على عمل.. تفكرين أنّهم يقبلونني في الريجي؟

ــ إذا شمّوا رائحتك فلن يقبلوك..

ــ وأنت كذلك..

ــ أنا امرأة.. لا يتوّقعون شيئاً من امرأة، ولا يحسبون حساباً لوجودها أصلاً. ثم إنني أحبّ العدالة، أرفض الظلم، وهذا كل شيء، فليس لي أفكار كأفكارك، ولا أحسب أنني سأشارك في أي عمَل نقابيّ كما قلت لك..

ــ لماذا؟

ــ لأنني أميّة، لا أقرأ ولا أكتب، ولا أميل إلى المشاركة في أيّ عمل، وليس للنساء دورٌ كالرجال.

– سيكون لهنّ دور.
– حين يصير ذلك أفكّر..

تأملت أختي مليّاً، كانت روحاً متمردة لذاتها. من الصعب أن تفهم أفكاري التي أكاد، أنا نفسي، لا أفهمها.. والمرأة، في حياتنا، لم تعمل، وليس لها عمل في أيما مكان، لانعدام الصناعة، وحتّى الحرفية منها. الريجي هي الشركة الوحيدة التي تعمل فيها بعض العاملات. ولم يقيّض لأختي، أن تعمل فيها يوماً، حتى ولو بشكل موسمي، لهذا فهي تحبّ العدالة لذاتها، دون أن تقوم بأيّ عمل للتعجيل بها، ودون أن تعرف ما سوف يكون مصيرها شخصياً.

في تلك الأيام، من خريف عام ١٩٣٩ وخلال وجودنا في قرية «ح»، كنت أنا نفسي أجهل ما سوف يكون مصيري.. كنت أتساءل، كما غوركي: «ماذا تكونين يا نفس وماذا يخبّئ لك الغد؟» وستمضي أعوام على ذلك، قبل أن أتعرّف إلى «الطيّبين»، وأدخل نقابة الحلّاقين.

في مساء ذلك اليوم جاء الشوباصي إلى البورة. بندقيّته في كتفه، وعصاه في يده، لابساً غنبازه التفتا، المقلّم، وطربوشه المغربيّ المعصوب، وكلّ المظهر اللائق، المهيب، والأناقة التي يمكن أن يوفّرها زيّه العربيّ. تنحنح عن بعد، كانت هذه عادته. لا يأتي الناس غفلة، لا يتلصّص، ويرعى حرمة النساء الموجودات على البورة.

كان الآن، في المساء، غيره في الصباح. هناك، ونحن لديه، اتّخذ وضع المسؤول، غير الراضي عما فعل الوالد، أو عمّا قلت أنا. أدّى الدور الذي يريده. كان يعرف، ويؤمن، أن ما طلبه من الوالد سيصير، وأن تكرار الكلام ليس من عادته، ولا يرى فيه فائدة، ومهمّته الاستطلاعية هذه تأتي في ختام جولة قام بها اليوم، على الأراضي والكروم وكل أملاك بيت «ف» غير المحدودة، فهوو يريد، هنا، أن يشرف، يراقب، يعاين ما يجري، ويستريح، قبل العودة إلى القناق.

المطعون خفّ للقائه، تلقّاه بحفاوة مبالغ فيها. أوقف التقبين، وركض إلى الخيمة فأتاه بكرسيّ، فأشار له الشوباصي بيده علامة الرفض. كان ريفياً حقيقياً، فهو يقرفص، أو يجلس على حجر، أو على كرسيّ واطئ ويجد في ذلك راحته، وكان الوالد قد ترك عمله على البورة. جاء للسلام عليه، ولم يقترب الفلاّحان خوفاً، أما الأم فقد خرجت وحيّته بخفر وحياء، وظلّت الأخت في الخيمة، ولم أبرح مكاني على البورة.

كانت أويقات المساء تلك تفتنني، الغروب الوشيك، والشمس تسحب أشعّتها الذهبية كعروس تجرّ الذيل وهي تخطو مبتعدة، وطراوة الجو، ونثيث الأرض، ذو الرائحة العطرة، العابقة بالصعتر والزهور البرّية، وصفاء الدنيا، التي استحمّت بالشمس، وهدأت من ضجّة النهار، وتقاطع الألوان في الأفق، والضوء المودّع في ذرات بلّورية، تتغشّاه العتمة شيئاً فشيئاً، وإحساس ما قدسيّ يصعد ابتهالات إلى الأعالي.

كانت الجمال تصل في مثل هذا الوقت، للقيام بآخر نقلة من الزيتون المعبّأ بالغرارات. تأتي في تتابع، كأنها تعلّمت نظام الدور والتزمته، يتقدّمها حمار يركبه الجمّال مصطو. وحين كانت تهلّ من بعيد، قادمة بين صفوف الزيتون، يسبقها رنين الأجراس، كنت أنتعش. أشعر أن يوماً من العمل قد انقضى، أن نهاراً من التعب يمضي مؤذناً بالراحة، وكانت إطلالة الجمال حلوة، أسعد بها، لفرط ما أكنّ من مودّة لهذه الحيوانات الأليفة.

وقف مصطو الجمّال أمام الشوباصي محيّياً. وكعادته، مدّ هذا الأخير علبة تبغه الملأى ودعاه إلى لفّ سيكارة. سأله عن حالة الجمال، عمّا إذا كانت تُعلف جيّداً، وتقطرن كما ينبغي، في الأماكن المحتاجة لذلك من أبدانها. كما سأله عن المعصرة، وسير العمل فيها، ومقطوعيّة الزيت من الزيتون، وجودة العصير، وهمّة العمّال في الشغل، وإدارة المشرف على المعصرة، وحسن قيادته للعمل، وأخيراً، طلب منه أن يزيد عدد الجمال، وعدد النقلات، لأن القطاف العامّ سيبدأ خلال أسبوع، تحسُّباً للطقس، وتجنُّباً للمطر الذي لم يعد مفيداً، وقد يشكّل سيلاً يجرف الزيتون المتناثر.

كنت أقف على مبعدة. وقامت الوالدة بتقديم القهوة. شكرها على ذلك وسألها عن الصحّة والشغل، وقال لها: «أصبح الموسم في آخره» فردّت الوالدة: «كل عام وأنتم بخير». كانت أساريرها منفرجة الآن. تلاشى خوفها الغريزيّ. أدركت أن الشوباصي لم يأت مغاضباً، وأن ما جرى على البورة، وسجن الوالد، والشجار بينه وبين المطعون، أصبح في حكم الماضي، وأن كلّ شيء سيكون على ما يرام. ولقد ارتحت بدوري، وازددت إعجاباً بشخصيّة الشوباصي، هذا الذي تملأ الرجولة ثيابه، ويزأر إذا غضب، ويبطش بغير رحمة إذا ما صادف خروجاً على إطاعته أو تماهلاً في تنفيذ أوامره. لكنه كما يعرف أن يثور إلى درجة مرعبة، يعرف أن يهدأ ويكون كيّساً، مسايراً، طيّباً عند اللزوم، ومع علمي، نقلاً عن الوالد، أن الشوباصي يشرب، وله مجلسه في القناق، وفي بيته في المدينة، فإنّه كان يرفض أن يتناول ولو جرعة واحدة مع الوالد على البورة، أو مع المطعون، أو يسمح لنفسه بدخول أيّ خمارة في قرية «ح» أو القرى المجاورة.

إنتهى التقبين. حمُلت الجمال ومضت، أشعل اللوكس، وجاء الوالد فقرفص إلى جانبه، ونادى الشوباصي للمطعون أن يدع حساباته للغد ويأتي إليه. كان واضحاً أنه يريد مصالحتهما، لكنه لم يقل ذلك، ولم يدفع أحدهما لتقبيل الآخر، سألهما عن النطارة، وجمع الزيتون، والكمّيات التي تنقل إلى المعصرة، وقال كمن يقرر واقعاً:

– تتعاونان جيّداً، أليس كذلك؟

قال الوالد:

– نعم يا أبا إسكندر.

وقال المطعون:

– المصري أخي.. لو لم..

قاطعه الشوباصي:

– لا داعي للكلام على الماضي، سيرة انطوت. الموسم في نهايته، وغداً، في المدينة، تلتقيان..

ـ لكنّني، عدم المؤاخذة، أريد أن نتصافى . .
قال الوالد:
ـ خلاص، قلبي صفا، لم يعد فيه أثر لما كان .
ـ أما أنا، عدم المؤاخذة، فأريد تبرئة ذمّتي . .
صاح به الشوباصي:
ـ دعْ ذمّتك بحالها . . العمى، الرجل سامحك، فماذا تريد أكثر؟

ناح المطعون:
ـ سامحني الآن، أمامك، وغداً في المدينة . . أولاده قالوا إنه سينتقم منّي .
قال الوالد:
ـ سامحتك نهائياً . . ولا أفكّر بأيّ انتقام .
ـ أنا غير مرتاح من ذلك .
ـ هذا لا دخل لي فيه . . أنت أسأت إلى الفلاّحين، وحسابك معهم .
ـ حسابي مع هؤلاء؟ إنّهم، عدم المؤاخذة، لا يرفعون رؤوسهم أمامي، فكيف في المدينة؟ الفلاّح، في اللاذقية، يطلب الجيرة، يطلب السترة . .
ـ لذلك الفلاّح لا ينسى . . أم تظنّ أنّك من طينة أخرى؟
ـ نعم من طينة أخرى . . ابن المدينة من طينة أخرى . . ماذا تقول يا أبا إسكندر؟ . أتساوى أنا والفلاّح؟

قال الشوباصي بنبرة زجر:
ـ لا أريد أن أسمع هذه النغمة . . الفلاّح إنسان مثلنا . .
ـ أبداً، وأقولها من كلّ قلبي .
قال الوالد:
ـ أنت لا تعرف الفلاّح إذن . .
ـ أعرفه جيّداً . . منذ سنوات وأنا على البورة . .
قال الشوباصي بحسم:
ـ لا تتمرجل . . أنت هنا بحماية السادة، وحمايتي .
ـ بحماية ذراعي . . الرجل منهم، عدم المؤاخذة، يرفع رأسه .

– كفى! صاح به الشوباصي، ولا كلمة أخرى.. انتهى الموضوع.. لنستعدّ للقطاف، سيبدأ منذ الاثنين المقبل.

– بالنسبة لي كلّ شيء جاهز.. ليأت الفلاّحون من القرى فنبدأ، أستطيع أن أنجز عملي مهما توارد الزيتون.. القبّان حاضر، وسأعمل نهاراً وليلاً..

– عليك أن تتسلّم الزيتون وتسلّمه.. عدد الجمال سيزداد، وكذلك عدد النقلات.. يجب أن نسبق المطر، وعلينا أن ننتهي من الزيتون لنبدأ البذر والفلاحة.

– ضع رجليك في ماء بارد.. أعطني فلاّحَيْن آخرين ليعملا معي على البورة، وكل شيء سيكون على ما يرام.

– إدارة العمل تحتاج إلى سياسة، إلى قدرة على تشغيل الذين معك.

– بالنسبة لي، عدم المؤاخذة، سياسة العصا هي الناجحة، ليجرّب واحد منهم أن يرفع رأسه.

التفت الشوباصي إلى والدي وسأله:

– ما رأيك يا مصري؟

– ماذا أقول يا أبا إسكندر؟ أبو نعمة أقدم مني. يعرف شغله.. أنت أقدر على الحكم على كلامه.. علّمتني الحياة أن الذي يقول لا يفعل.. مَنْ يستخدم العصا لا يتحدّث عنها.. ثم إنّ الفلاّح بشر.. عشت طويلاً بين الفلاّحين في ريف أرسوز وأحببتهم، ولم أسمع من الوكلاء هناك ما أسمعه هنا..

قال المطعون:

– كل شيء لديكم، عدم المؤاخذة، يختلف.. هناك الوكلاء جبناء..

– وأنت وحدك الشجاع؟

– غداً ترى..

– ما دمت واثقاً فلا محلّ للكلام إذن.. بإشارة من يدك يتمّ كل شيء..

أنت تأمر وهم يطيعون..

قال الشوباصي:

– أبو نعمة رجل، كفؤ، شجاع.. وهذه شهادتي، فهل تريد أكثر؟

– تكفيني هذه الشهادة.. إلّا أن تكون مزحة!

نظر الشوباصي إلى والدي نظرة خاصّة وقال:

– مزحة..؟ لا.. جدّيتك لا تترك موضعاً للمزاح!

جاءت القهوة من جديد، وشرع الوالد في حديث عن أيّامه الخوالي، وكان الشوباصي، رغم خشونته، يلين حين يسمعه.. كان الوالد يقصّ ما مرّ معه من أحداث، بالمهارة المعهودة عنه،والشوباصي يصغي، يستزيد، يندهش، يبتسم، أو يطرح سؤالاً لاستعادة ما يسمع..

ولأنني سمعت قصص الوالد هذه، فقد دخلت الخيمة واستلقيت مفكّراً بما سمعت، وما قاله الشوباصي اليوم، وما قاله المطعون الآن، ورثيت لحال الفلّاح، ثم حملني التداعي إلى رئيفة، فتساءلت: ماذا تعمل الآن؟ كنت أراها لماما. ولم نكن نتكلّم على أشيائنا السابقة. انتهت العلاقة القصيرة، الحميمة، التي قامت بيننا. عاهدت نفسي أن أقطع صلتي بها. أن أخنق الحبّ الذي خفق به قلبي. وقد وفيت بعهدي، كنت منطقيّاً مع نفسي، وأعتبر ما حدث لصالحها. قاومت كل رغبة في زيارتها. كرهت والدها.. قدرت أنه هو الذي نقل كلامي إلى الشوباصي. كان فقيراً وفي صفّ الأغنياء. كان أجيراً ومع السادة، ولم أكن، في ذلك الوقت، أعذر الناس أو آخذ في حسابي دوافعهم الناشئة عن الجهل، وكنت غير قادر أن أغفر للناس أخطاءهم، وبعد قليل أغفيت، وبقي الآخرون ساهرين على البورة.

-١٢-

في بداية الأسبوع انتهى تفرّدنا بنبر وجمع الزيتون حيث نشاء من الكروم. انطبق هذا علينا كما على سائر النواطير وعائلاتهم. لقد بدأ القطاف العامّ. نزل الفلّاحون من قرية «ح» والقرى المجاورة، في ثيابهم المتباينة الألوان، الفاقعة والصارخة غالباً، واشترك الرجال مع النساء في عملية القطاف، التي أشرف الشوباصي بنفسه على انطلاقتها. كان هناك عدد كبير من الفلّاحين، معهم السلال والأكياس والأطباق القشّية المقعرة. وقفوا في صفّ واحد طويل، بعرض الكرم، وشرع هذا الجمع الكبير، المتجمّع من قرى قريبة، مختلفة، والذي لا يعمل كله لدى بيت «ف»، في عملية قطاف ستستمرّ إلى أن ينتهي جمع الزيتون كلّه، وعندئذ يغادرون للقطاف في كروم أخرى.

كان هذا العمل الجماعي جديداً عليّ. إن الجماعيّة، بحدّ ذاتها، تشكل لوناً من الجماهيريّة التي تبعث على البهجة. فبعض الفرح لا يظهر إلّا مع الكثرة، وبمقدار ما يتكاثر الجمع، ينفتح سدّ الفرح ليندفع كنهر، جارفاً معه كلّ ترسّبات الكآبة والانكماش والضيق، لأنه في جمعيّته، يتحوّل إلى عرس، مهرجان، أو شيء من هذا القبيل، لا يستطيع المرء معه، ومهما كان سلحفياً، إلّا أن يخرج من صدفته، ويندمج في التيّار العام.

مع ذلك أحسسنا، للوهلة الأولى، بشيء من غربة، سببها أنّنا نختلط

بقوم لا نعرفهم، وأنّ علينا أن نقطف الزيتون مثلهم، في صفّ واحد طويل، يتقدّم بشكل متساوٍ تقريباً. لقد فقدنا، الآن، الامتياز الذي كان لنا في اختيار الشجرة الحامل، المثقلة الأغصان، دون التقيّد بصفّ، أو جهة، أو نتلقّى الأمر، أو نخضع للمراقبين الذين يأتون بعدنا، ويعاينون حسن القطاف، ونبر الأشجار نبراً كاملاً، وجمع الزيتون دون أن نترك حبّة شاردة، أو مختبئة تحت حجر أو مدرة، أو بين العشب والشوك. كان على القطّافين أن ينظّفوا الأشجار والأرض والأخاديد وكلّ المساحة التي يعملون فيها جيّداً. إنّه القطاف الأخير، التامّ، الناجز، وعلى القطّافين أن لا يَدَعوا زيتونة واحدة وراءهم أو أمامهم.

لكن إحساسنا هذا، ما لبث أن تبدّد بسرعة، فاندمجنا بالفلاّحين، وشاركناهم العمل والفرحة، وكانت أختي أكثر فرحاً واحتفاء بعيد القطاف هذا. أما بالنسبة لي، فقد كان هذا المهرجان، هذا العيد، بكل ما فيه من ألوان وأصوات، ووقع المراويط على الأشجار، وضجّة، وغناء، شيئاً جديداً، طريفاً، يقدّم أوّل مشهد للعمل الجماعي، وللتنافس، والتراكض، ومحاولة السبق، وجمع أكبر كميّة ممكنة من الزيتون. لكن طرافة المشهد، كرنفاليته، مازجها شعور بعدم القدرة على الاندماج بهذا الرهط العامل، المندفع، المتصايح. كنت هكذا دائماً، أستشعر، للوهلة الأولى، نوعاً من الانكماش في الجوّ الجديد الغريب عليّ. لقد غاب صفاء اللوحة القديمة. انعدم الهدوء الذي كان يسود الكرم. انتفت وحدانيّة الوجدان مع الطبيعة، صار عليّ أن ألقي بنفسي في ما شغل به الناس أنفسهم. ترتّب عليّ أن أعمل. وأن أحمل المرواط، وأنبر الشجرة التي في الصفّ، لا تلك التي أختارها أنا. كان الترويط صعباً، لأنه من غير المسموح أن أترك زيتونة في دغل من الأغصان، أو في أعلى فرع من القمّة، وعلى العائلة، أن تنظّف الأرض كما أنظّف أنا الشجرة، وأن تفعل ذلك بحميّة، سرعة، اندفاع، كيلا نتأخر في العمل، فنتخلّف عن الصفّ الذي يتقدّم من طرف الكرم إلى طرفه الآخر المحدّد.

وخلافاً لما حسبته وحشة دائمة، بين ناس لا نعرفهم، وبين فلاّحين مدرّبين على ترويط الأشجار، ونبر الزيتون، وجمعه في جامات قشّية صغيرة، فقد ظهر أن وحشتي، كانت موقتة. إذ سرعان ما اندمجنا بالعمل، ولقينا مساعدة ممن حوالينا، وخاصّة في النبر الذي لم أكن أتقنه، وكان يتعبني بسرعة. كان القطّافون يتقافزون، يتراكضون، ينبرون، يجمعون، يندفعون بحماسة، لم تلبث أن أعدتنا، فصرنا مثلهم، واختلطنا بهم، وتقدّمنا، مدفوعين بالروح الجماعية للعمل الذي اتّخذ الآن شكل احتفال، طقس، رقصة شعبيّة، بين وقوف وانحناء، وتقدّم وتصايح، وغناء انطلق من رجل في المقدّمة، تبعته الردّيات للازمة، وزغردت امرأة، وتبعتها أخرى، فأحسسنا بانتعاش، بفرحة، بلعب جماعيّ، كأنما احتفالية القطاف قد نظمت نفسها بنفسها، ووزعت الأدوار على كلّ من المشاركين فيها، بمن فيهم نحن.

هكذا لم نلبث أن أحببنا هذا الانبعاث الجسدي والروحي، هذا الدوران، الرقص، الغناء، الضرب الايقاعي على الأشجار، الهرير المطرّي للزيتون، الخشخشة التي تحدثها الأقدام في الأعشاب والأشواك اليابسة. نسينا الوقت، أنفسنا، انعزاليتنا، وجومنا. تهلّل كل شيء فينا، مضينا في هذا الصخب العامّ، وامّحت الحدود بيننا كأبناء مدينة، والآخرين كأبناء ريف، وصرنا عائلة واحدة، عائلة العمل الواحد والفرح الواحد.

وقالت الأمّ:

- هذا يشبه الحصاد ولقط السنابل.

- يشبه العرس..

- بل هو العرس بعينه..

- كأنما الناس إخوة..

وقلت في نوع من الارتياح:

- بل هم أخوة حقيقيّون.

ـ لم نكن نعرف أن شيئاً من هذا سيصير . .

ـ لأننا لم نكن نعرف الفلاّحين على حقيقتهم .

ـ رأينا هم من خلال كلام المطعون . .

ـ المطعون الآن غارق في العمل حتى أذنيه . .

ـ وسيتلاعب بالقبّان كما يريد . .

ـ وماذا في يدنا؟

ـ لا شيء . . نحن لن نبلغ أن نحول بينه وبين الغشّ في القبّان . .

قالت الأمّ :

ـ لكنه، بالنسبة إلينا، لن يغشّ . .

وقالت الأخت :

ـ ربما ، لكنه، بالنسبة للآخرين سيغشّ دون شك .

قالت الأمّ :

ـ الشوباصي أرحم . .

وقلت لها، متذكّراً ما سمعته منه :

ـ لا رحمة في قلوبهم جميعاً : الأسياد، والشوباصي والوكيل، كلُّهم، ضدّ الفلاّح، وكلّهم يتعاونون عليه .

أصرّت الأمّ :

ـ الشوباصي أرحم . . نحن لم نر منه سوى الخير . .

ولم أشأ مناقشتها، كان عليّ أن أسرع إلى شجرة أخرى، أمامنا، والمرواط في يدي، فقد كنت، الآن، لا أنبر بل ألعب . صار العمل، نتيجة احتفاليّته الأسرة، ضرباً من لعب، ينتفي معه التعب . ولم نشعر بالحرّ، برغم أن أجسادنا تندّت، فقد انفرزت السموم البدنيّة، وتغلغل، في

المسام الدقيقة، هواء العافية، وتبدّت السماء، في عليائها، في زرقتها، شيئاً جميلاً، رائعاً، حبيباً، وغدت بلّورات الضوء النهاريّ كرستالية، تتموّج فيها الألوان، والفضاء اتّسع، كأنما نحن تحت سقف غابيّ، يمتدّ ويمتدّ، وتترجّع، في الجهات الأربع، أصوات وصيحات وضحكات مفعمة بحبور أخضر كلون الزيتون الذي نعمل في أشجاره المباركة. أعترف أنني أخرج من جلدي في حالات كهذه. تنتفي كآبتي، أصير أنا ذاتي، الإنسان الذي هو جزء من كلّ. أستعيد مرحي الطبيعي، وإنسانيّتي التي تتشرنق في الوحدة.

وفيما نحن نواصل رقصتنا الجماعية، في احتفاليّتنا المسرحيّة، التي لم يوزّع أحدٌ علينا أدوارها، بل ارتجلناها واندغمنا فيها، تعالت من حولنا صرخة مدوّية، أخافتنا، وأرجعتنا إلى الواقع الذي نسيناه.

سمعنا ولولة، وصوتاً يصيح:

– حيّة، عضّتها الحيّة!

تراكض الناس، تجمّعوا حول فتاة ملقاة على الأرض، بينما اندفع آخرون لقتل الحيّة التي انسابت بين الأعشاب، وتعقّبوها بحرص بالغ، حتى تمكنوا منها، وعندئذ ارتاحت الوالدة، وكان مبعث ارتياحها أنّ السمّ سيتوقف الآن عن السريان، لأنه يسري في الجسم ما دامت الحيّة تسعى في الأرض.

كانت اللدغة في الإصبع السبّابة. كان الدم يجري، ونيوب الأفعى تركت علامتها ظاهرة، وجاء فلّاح بحبل فربط ساعد الفتاة، كي يوقف سريان السمّ وبلوغه الجسم، ونادوا على أحد الشيوخ، فجاء وبسمل، ثم وضع فمه على الإصبع وراح يمتصّ الدم والسم ويبصقها. وأحضر شابٌ مدية حادّة فتناولها الشيخ وراح يشطب الإصبع والكفّ والساعد، والدم ينفر من الشطوب، وفلاح كبير السنّ يحاول إبعاد المتجمّعين من حول الفتاة الملدوغة، وسط هرج ومرج كبيرين، ذهب برونق العرس الذي شكّله القطاف.

كانت أمّها تبكي، وأبوها يصيح بها: «لا تخافي» وقال رجل: «السمّ يصبح قاتلاً بسرعة إذا خاف الملدوغ» وبعد أن اتخذت الإسعافات الأوّلية اللازمة، ركض بعض الفتيان إلى القرية، وأحضروا فرّوجين، وشرع الشيخ المعالج، بضع مؤخرة الفروج على مكان اللدغة، كي يمتصّ السمّ من الإصبع، وبعد ذلك نقلت الفتاة، على ظهر والدها، الى القرية، وهناك تابعوا معالجتها. لكنها ماتت ظهراً، وجاء الخبر المحزن، فتأثر القطّافون، وخيّم وجوم شديد على عائلتنا، حتى اقترحت الوالدة أن نترك العمل، نجاة بأنفسنا، لأن الأفاعي، أمام هذا الحشد من الناس، ستنفر من مكامنها، وتنساب وتلدغ.

شاركتُ الأمّ رأيها. القطاف لن يدوم أكثر من أسبوع، ولن نجني شيئاً كثيراً خلاله، والعودة سالمين إلى البورة أفضل. لقد انتهى الموسم بالنسبة الينا، غير أن الأخت عارضت. رفضت بإصرار وعناد، قالت إن ما يصيب الآخرين يصيبنا، ومع الانتباه فإننا سنسلم، وتمسّكت بقولة فلاّح إنّ الأفاعي أمام هذا الحشد، ستهرب قبل أن نصل إليها، وهكذا بقينا، لكنني بقيت حزيناً، وظلّ وجه الفتاة الملدوغة ماثلاً لعينيّ، وتصوّرت ما كان يكون عليه حالنا لو أن الملدوغ واحد من العائلة، أو لو كان رئيفة مثلاً.

جاء الشوباصي بعد قليل. قدم من ناحية البورة، وانتقى مكاناً على مبعدة من القطّافين، وقرفص فيه، وأنشأ يلفّ سيكارة دون أن يكلّم أحداً، أو يأتي على سيرة الفتاة التي لدغت وماتت. كان حادث من هذا النوع عادياً بالنسبة اليه. كانت الأفاعي جزءاً من الأرض، وكان العمل في الأرض، صيفاً وشتاء، ينبغي أن يستمرّ، وكان عدد الذين يموتون بلدغات الأفاعي غير قليل، لكنّ ذلك من طبيعة الأشياء، والشوباصي يعرفه، وكذلك الفلاّحون، ولم يكن الموت، على هذا النحو، ليرهب أحداً، أو يوقف العمل. والذين تجمّعوا حول الفتاة الملدوغة، والذين طاردوا الأفعى وقتلوها، تفرّقوا جميعاً ما إن ظهر الشوباصي، وعاد كلّ إلى عمله، ومن

جديد انتظمت الصفوف، واستعادت الحماسة وقعها، وسار القطاف سيره المعهود.

ومن الكرم الذي يجري فيه القطاف، طفق خطٌ من النقل يقوم بينه وبين البورة. كان واحد، من كل عائلة تقريباً، يخصّص لنقل الزيتون المجموع، إما على ظهره، أو رأسه، أو على دابة ما، ويشارك في ذلك الرجال والنساء والفتيان. وقد حاولت، أنا نفسي، أن أقوم بهذه المهمّة، لكن الوالد كان يستعير إحدى الرواحل ويأتي بها إلينا لنقل ما جمعناه. ومع كل الاجتهاد، والدأب، والحماسة المتولّدة عن روح الجماعة، كان المردود قليلاً، لأنّ أفضل الشجر كان قد قطف. لذلك كان الفلاّحون يشتمون أحياناً. يقولون إنهم أشبه بالمعفّرين منهم بالقطّافين. فقد كانت الأشجار الفتيّة، الواطئة، منبورة، ولم يبق إلاّ الأشجار العالية، التي يحتاج نبرها إلى سلالم ومراويط طويلة. وفي زحمة العمل، انكسر أكثر من غصن بمن صعد عليه لينبره، وكان انقصاف الفرع، وسقوط من عليه، يحدث دويّاً، بلبلة، ويهرع الرجال للإنقاذ والإسعاف، ويحملون الذي سقط، مجروحاً أو مكسوراً، إلى خلف الصفوف، لتضميد جراحه، أو محاولة جبر الكسر الذي أصيب به، فإذا تعذّر ذلك نقل إلى القرية التي هو منها.

في هذا الجوّ، كان عليّ، أنا رجل العائلة بغياب الأب المشغول على البورة، أن أفعل كغيري، فأتسلّق أشجار الزيتون وأغصانها لنبرها، أسوة بالآخرين. كانت الأمّ تتوقّف عن جمع الزيتون، وترفع رأسها إلى أعلى، نحو السماء، طالبة لي السلامة، محذّرة إيّاي، لدى كل ضربة من المرواط أن انتبه، وأن أحاذر، أو تنصحني باستعارة سلّم ما، أصعد عليها لنبر الأطراف المتطاولة للزيتون. ولقد رآني الشوباصي، وعاين خوف أمّي، لكنه أبداً لم يتدخّل، ولم يتكلّم. اكتفى بالمراقبة، وأخضعنا، كغيرنا، للصفّ، وكان يبتعد إلى أمام، كلّما اقترب القطّافون منه، مقرفصاً كعادته، وهو يلفّ السكارات ويشعلها في هدوء يزيد من رهبة وقاره.

حوالي الظهر حمي الجوّ، رزّت السماء الصافية أشعّتها الشمسية، خلع

القطّافون قمصانهم الخارجيّة، أو تخفّفوا من ملابسهم، لكن النّار الكاوية لشمس الخريف الحادّة، كانت تلهب الأجسام، وراح العرق يتحبّب ويتفصّد، من جباه وصدور الذين ينبرون الزيتون، والمراقبون الذين عيّنهم الشوباصي، يدورون حول الأشجار المنبورة، يتفرّسون فيها، يعاينونها من جميع الأطراف، وبعصيّهم يقلبون الأحجار، والمدرات، ليروا ما إذا كان ثمة حَبّ متخلّف، ومن يترك زيتونة على شجرة، أو حبة ضائعة، أو طائشة في أرض الكرم، كان يُعاقب، أو يوبّخ، ويصرخ في وجهه، أو يعاد إلى وراء، لتنظيف البقعة التي تجاوزها.

ومع اشتداد الحرّ، ووصولنا إلى مرتفع جبلي، تكثر فيه الحجارة والمدرات، انساب نسق من الأفاعي ذات الألوان والأحجام المختلفة. كانت تهرب إلى أمام، وتزحف في خطوط ملتوية وهي تلع بأعناقها، وترفع رؤوسها، منضنضة بألسنتها، مخلّفة وراءها فحيحاً وخشخشة في الأعشاب، فيصرخ الناس، ويتراكض الرجال وبأيديهم العصيّ، وتنتصب القامات مذعورة، وتعود أمّي إلى التوسّل كي نترك القطاف ونعود إلى خيمتنا في البورة، لكن الأخت ترفض، متحدّية كلّ خطر، مصرّة على البقاء بمفردها، إذا نحن غادرنا الكرم إلى البورة، وهكذا كنّا نضطر إلى البقاء، وإلى النبر، والجمع، والتقدّم مع الصفوف، وابتلاع خوفنا، والدخول في تلك المباراة الكبيرة القائمة من حولنا.

تناولنا طعامنا ونحن نعمل. الآخرون، الفلاّحون، لم يأكلوا شيئاً، تخلّوا عن وجبة الظهر، كي لا يفوتهم الوقت، محتملين جوعهم إلى المساء، وهم، كما قالوا، اعتادوا ذلك، فوجبة الطعام الرئيسية بالنسبة اليهم هي العشاء، بعد العودة من الكرم، حيث يحملون آخر ما جمعوه إلى البورة، وبعد تقبينه وتسليمه يعودون مسرعين إلى قراهم، حيث ينتظرهم عمل آخر، هو إشعال النيران، وحمي التنانير، وزرب الماشية وحلبها، ثم تناول ما تيسّر من طعام، والنوم، كيفما اتفق، إلى الصباح، وفيه يستأنفون ما بدأوه أمس.

يوم القطاف الأوّل هذا، دام إلى الغروب. كان الشوباصي قد قرّر أن

ينتهي من هذه المهمّة بسرعة، وأمر باستمرار العمل، طالما كان في المستطاع نبر الزيتون وجمعه في ضوء الغروب. ومنذ العصر، حين مالت الشمس إلى المغيب، دبّت في الناس فزعة عارمة، كأنما تكاتفوا جميعاً على بذل ما تبقّى من طاقاتهم، مع ما تبقّى من النهار. ومع أننا توقّفنا، قبل الآخرين، فقد بقينا هناك، في الكرم، نشهد العيد الذي بلغ ذروتـه مع اقتـراب المساء، حيث خفّ الحرّ، ونشطت حركة الناس، وازداد لهوهم وضحكهم، وازداد سباقهم غير المقترن بأيّ رهان، وعاد فلّاح إلى الغناء، بصوت حلو، قويّ، جهوري، يخترق الأمداء، ويوَرِّث الهمم.

وبعد أن نال حظّه من العتابا، في مواويل ريفيّة، حلوة، بهيجة، أتبعها بالميجانا، ثم انتقل إلى أغانٍ ريفية فولكلورية، كان يحفظ منها الكثير ونفخ رجلٌ في مزماره، وضرب آخر على الطبل، وغنّـوا على دلعـونا، وسـاعة التوقّف عن العمل، عقدت الدبكة في فسحة بين الأشجار، وشـارك فيها الفتيان والفتيات، في اندفاع حقيقيّ، يرافقه دقّ الأرض بالأقدام، وتمايل الأجسـام، وترقيص الأكتـاف، واهتزاز الصـدر، مما حوّل هذه الـرقصـة التقليدية التي أعرفها، إلى نوع وجديّ، عنيف، غاضب، فرح، وخرج بها عن رتابتها إلى قفزات في الهواء، وصـرخات تنخيـة، وزغردات، وتـرديد هادر للّازمة، مع اشتداد وارتفاع صوت الزمر، وتفجّر ضـربات الـطبل، كأنما ضاربه قد أخذته حال من النشوة المجنونة.

بعـد ذلك انتقـل الناس إلى البـورة، تعاون أفـراد كلّ عـائلة، وشـارك الرجال والنساء في تعبئة المحصول، واندفع الفتيان في حمل الأكياس، على الـظهور وفـوق الدوابّ، واتجهـوا في خطوط طـويلة، متعرّجـة، اخترقت صفوف الزيتون، إلى حيث البورة وعليها القبّان والوكيل، وبيدر كبير كبير من الزيتون لم أشهده من قبل.

كان الشوباصي ثمة، يربض على طرف البورة يراقب، وكان هناك الوالد والفلاحان عزيز ويـونس، وقام آخـرون بإرجـاع الناس إلى وراء قليـلاً، وطلبوا منهم الاصطفاف، وحين هبطت العتمة أشعل اللوكس، لكن ضوءه

أنار بقعة محدودة، وعندئذ أحضرت لا أدري من أين، قطع مرخ[1] بطول الزند وثخانته تقريباً، وأشعلت وهي مرفوعة فوق الرؤوس، فيما الظلمة تهبط. وتعالت من هذه المشاعل الصنوبرية، الأنوار والدخان، واتخذت البورة، بدورها، مظهر العيد الشعبي الليلي، وعلت ضجة كبيرة، تداخلت فيها الأصوات بالنداءات برنين أجراس الجمال، ودام ذلك إلى العشيّة، حين غادر آخر القطّافين البورة، بعد أن وزنوا وسلّموا ما جمعوا في نهارهم.

هذا المشهد الاحتفالي، لمهرجان القطاف، في الأصيل وبعد الغروب، في الكرم وعلى البورة، صنع لي بهجة غامرة، خاصة وأن رئيفة كانت هناك، وكان والدها يساعد في العمل على البورة، وقد شاءت الصدفة أن نلتقي، وأن يقترب أحدنا من الآخر، وأن ينظر كلّ منّا في عيني الآخر، نظرة فيها عتب، وفيها حنان، وفيها شعور بالفراق القريب الذي ربّما لا لقاء بعده.

سألتها:

ـ أين كنت اليوم يا رئيفة، ألم تشهدي القطاف؟

ـ شهدته كلّه، من الصباح حتى الآن.

ـ لكنني لم أرك.. هل اختبأت مني؟

ـ كنت في الطرف الآخر من الصفوف، ورأيتك من بعيد، لكنك لم تبذل أيّة محاولة للاقتراب مني.

قالتها بلهجة أسيانة، فيها ما هو فوق العتب، وفيها أكثر من حنين. لقد كانت محبّة، وما زالت كذلك، وكانت تتألّم، في حين أمكنني السلوان، مما عزّ عليها، فتلوّنت كلماتها بحزن شفّاف، وانعكست في البؤبؤين رؤى النيران المتوهّجة، وخيّل إلي أنها استثيرت، وأن وجنتيها تضرّجتا، فأخذني إشفاق عليها، رغبت في الاعتذار عنه دون أن تطاوعني الكلمات.

(١) «المرخ» أجزاء مقطوعة مكسرة من جذوع الصنوبر.

عدت أسألها:

ـ ستشتركين غداً في القطاف أيضاً؟

ـ لا أدري، والدي لا يرى في العمل مع هذا الحشد الكبير فائدة تذكر.

ـ هل عاونك في النبر وجمع الزيتون؟

ـ كان يراقب وراء الصفوف، خوفاً من سرقة الزيتون.

ـ الشوباصي أوصاه بذلك؟

ـ ربما.. لكنه قال لي إنه لا يأمن جانب الفلاّحين.

ـ ومن نبر لك الزيتون؟.

ـ هو.. كان يتردّد علي، وبعض الفتيان ساعدوني أيضاً.

ـ كان عليّ أن أفعل ذلك بنفسي.

ـ وتترك عائلتك؟

ـ أنسرق بعض الوقت.

ـ من الخير أنّك لم تفعل..

ـ لماذا؟

ـ هكذا.. ما دمت لا تريد، فلماذا تغصب نفسك؟ الآن انتهى كلّ شيء حقيقة.. سنعود إلى المدينة..

قلت:

ـ لكن الذكريات لا تنتهي، بل هي تبدأ الآن.

قالت:

ـ لم تكن ذكريات حلوة ولا سعيدة..

ـ كيف؟ ولقاءاتنا؟

ـ تذكّرتها كثيراً، وتألّمت، ثم يئست، وغداً ينسى كلٌّ منا الآخر.

أضافت فجأة:

– اسمع! والدي يناديني.. سأذهب، الوداع..

وقلت بغصّة:

– الوداع يا رئيفة.

ولم أرها بعد ذلك أبداً...

أما العائلة، فقد كان عليها كلّ صباح، أن تشارك في القطاف الذي استمّر اسبوعاً ونيفاً. وكان هذا القطاف، مثله في اليوم الأول، عيداً خاصّاً من أعياد الريف. ولم نحس بالونى، بالضجر، بالتعب، ولا بالخوف من الزواحف، خاصّة الأفاعي، التي أمدّتنا الشجاعة الجماعية، بمقاومة كلّ ما كان يداخلنا من رعب منها. ألفنا أن نراها، وأن نطاردها، ونقتلها، وحتى في الحالات التي كانت تلدغ فيها بعض القطّافين، كان الأمر يبدو طبيعيّاً، وكانت الاسعافات ذاتها تتّخذ، ومع أنها أوليّة وبدائيّة، فقد كانت تنقذ بعض الملدوغين، ولم نعد نحسب حسابها. نسيناها في غمرة مانسينا من أمورنا وهواجسنا الخاصّة، عندما اندغمنا في الحشد الكبير، ومضينا معه في رقصة القطاف والكفاح البشريين، اللذين هما لون من ألوان الحياة الماتعة في الريف، أو التي تصوّرتها كذلك.

لكن حادثاً وقع، قبل انتهاء القطاف بيوم واحد، بدّل صورة العيد، وأحاطها بهالة مأساوية دامية، فكان وقعها شديداً في نفوسنا، نحن الذين على البورة، من فرط ما تخلّلها من اضطراب، ومن لغط، ومساءلة، وتحقيق، وملاحقة.

وقع الحادث في المساء، عند العشيّة، حين كانت جموع الفلاّحين توشك على الانتهاء من وزن ما جمعت من زيتون وتسليمه، استعداداً للانصراف إلى القرى.

الشوباصي لم يكن موجوداً، والعمل على البورة، كان في عزّه، وكان ثمة

نور اللوكس، وأنوار أعواد المرخ، ولم يقع الحادث في دائرة البورة، ولا حدث اختراق للحلقة البشريّة المحيطة بها، بل كان هناك ترصّد، وراء أشجار الزيتون، ربما تكرّر ليالي بطولها، لكنه لم يبلغ غايته إلا في تلك الليلة المشؤومة، حين أوقف المطعون التقبين، ومضى خارج البورة، بين أشجار الزيتون لقضاء حاجة. وفي اللحظة التي خرج فيها من حلقة المتجمهرين، وصار وحيداً، على تخوم الضوء والظلمة، انطلق عيار ناري، وسقط المطعون وهو يتخبّط في دمه.

ذُعر كلٌّ من على البورة. الوالد، الفلّاحان عزيز ويونس، الأم، الأختان وأنا. ذعر كذلك الفلّاحون، وفي لحظة كان الحادث قد تمّ، وهرع الجميع نحو مصدر الصوت، وكان المطعون، الذي أصيب في صدره، يتمرّغ على التراب والشوك، وحين استعاد الموجودون روعهم، التفّ فريق منهم حول القتيل، وطارد فريق آخر مطلق النار، الذي غاب في الظلمة، وحجبته أشجار الزيتون الكثيفة عن الأنظار.

تلك الليلة، عاينت الموت عن قرب، وقفت حياله وجهاً لوجه. كنت أرتجف لهول الفاجعة، ولم أجرؤ على ملامسة القتيل، وسمعت أعيرة نارية في البعد، من النواطير الذين أفرغوا رصاصاتهم في الفضاء، إرهاباً ومحاصرة للقاتل، لكن ذلك بقي دون جدوى، وظلّ المطعون طريحاً حيث هو، إلى أن وصل الشوباصي، وطار الخبر إلى اللاذقية، وفي سيارة عسكرية، تابعة للدرك، وصل رجال السلطة، وشرعوا بالتحقيق، مع كلّ من كان تلك الليلة على البورة.

من حسن الحظ أن الوالد، وقت الحادث، كان يعمل في تعبئة غرارات الزيتون، وكان الفلّاحان عزيز ويونس يساعدانه، وكانت الجمال تنتظر، والجمّال مصطو حاضراً، وهكذا شهدوا جميعاً، وأثبت الوالد مكان وجوده خلال الحادث، فطرحت عليه الأسئلة، وأخلي سبيله، لأنه لا علاقة له بما وقع، وقد ثبت أن الفاعل كان يتربّص في الظلمة، فأطلق النار وتوارى.

وفي اليوم التالي شاع خبرٌ صدم الجميع. كان الخبر موجزاً، مفاجئاً،

دهش له الناس، وقد ورد من المدينة، صادراً عن تقرير من إدارة السجن، مفاده أن الفلاّح صخر، أطلق سراحه من السجن يوم مقتل المطعون بالذات، وعندئذ تذكّر الجميع، ذلك الفلاّح الذي ظُلم، وعُذّب، وسجن، وكان المطعون وراء كل ذلك. . . وهكذا انحصرت به الشبهة، وانطلق الدرك إلى بيته فلم يبقوا فيه شيئاً إلا قلبوه، وخربّوه، وأوقفوا زوجته واستجوبوها، لكن صخر كان قد غاب، وقال بعضهم إنه توارى في الجبل واعتصم فيه.

وبعد يومين غادرنا البورة. تركنا الريف وراءنا. وقالت الوالدة ونحن في الطريق إلى المدينة:

ـ تُذكر ولا تُعاد. .

وقال الوالد. .

ـ لعلّ الله يكتب لنا رزقاً في المدينة. .

وقلت في ذاتي:

«كانت هذه تجربة مفيدة على كل حال. .»

أما الأخت فقد لزمت الصمت، لأنها كانت تشكّ في قدرة الوالد على الصدق، والاقلاع عن الترحال، وفي خلاصنا من التشرّد معه حيثما ارتحل.

دمشق ١٩٨٥/١٢/٢٩